
لا تدعني
أرحل أبدًا
كازو إيشيغورو
ترجمة: د. فايز الصياغ
مكتبة
Telegram
Network
2020



كـازو إيشيغورو

ترجمة: د. فايز الصياغ

دار جامعة حمد بن خليفة للنشر
HAMAD BIN KHALIFA UNIVERSITY PRESS

دار جامعة حمد بن خليفة للنشر
صندوق بريد 5825
الدوحة، دولة قطر

www.hbkupress.com

Never Let Me Go
First published in 2005 by Faber and Faber Limited

الطبعة العربية الأولى عام 2019
دار جامعة حمد بن خليفة للنشر

الترقيم الدولي: 9789927141089

تمت الطباعة في بيروت، لبنان

مكتبة قطر الوطنية بيانات الفهرسة – أثناء – النشر (فان)

إيشيغورو، كازو، 1954- مؤلف.

[Never let me go]. Arabic

لا تدعني أرحل أبدا / كازو إيشيغورو ؛ ترجمة د. فايز الصياغ. الطبعة العربية الأولى. – الدوحة، دولة قطر : دار جامعة حمد بن خليفة للنشر، 2019.

صفحة ؛ سم

تدمك 978-992-714-108-9

1. المرأة -- قصص. 2. الاستنساخ البشري -- قصص. 3. إنجلترا -- قصص. 4. المتبرعون بالأعضاء -- قصص. 4. التبرع بالأعضاء، الأنسجة، إلخ -- قصص. 5. القصص النفسية. 6. القصص العلمية. أ. الصياغ، فايز، مترجم. ب. العنوان.

PR6059.S5 N49125 2019

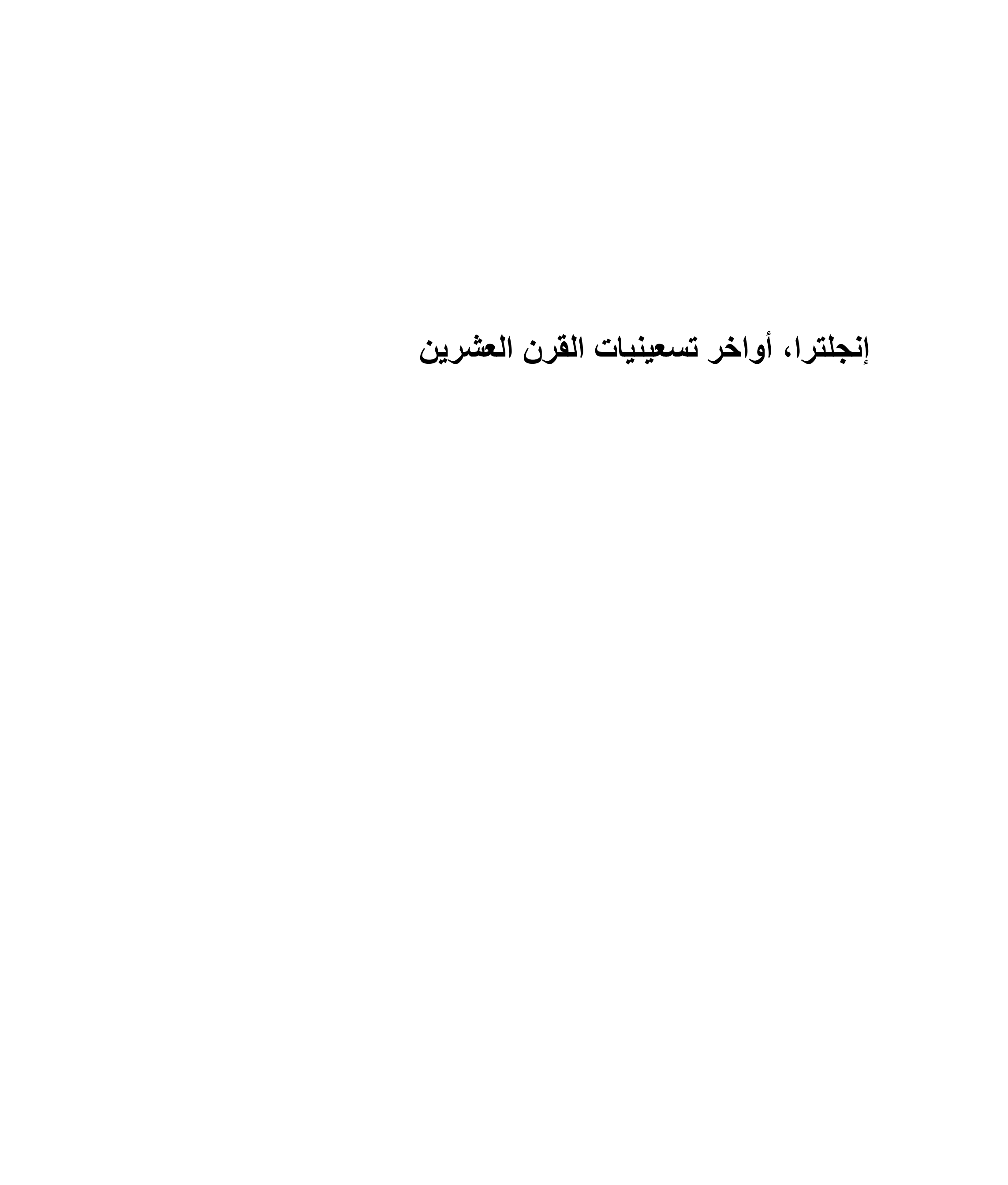
823.914 – dc23

201927462158

المحتويات

إلى لورنا وناعومي

إنجلترا، أواخر تسعينيات القرن العشرين



الجزء الأوَّل

الفصل الأوَّل

اسمي كاثي هـ. أنا في الحادية والثلاثين من العمر، وأعمل هنا مرشدة منذ ما يزيد على إحدى عشرة سنة. أعلم أنَّها فترة طويلة بما فيه الكفاية، غير أنَّهم يريدون منِّي بالفعل أن أستمرَّ لثمانية أشهر أخرى، إلى نهاية هذه السنة. يعني ذلك بقائي هنا لأتمَّ اثنتي عشرة سنة. أعلم الآن أنَّ بقائي كمرشدة طوال هذه المدَّة لا يعني بالضرورة أنَّني أتقن عملي كلَّ الاتقان وعلى نحو لا مثيل له. فهناك كثير من المرشدين الممتازين بالفعل، الذين طُلب منهم التوقُّف عن العمل بعد سنتين أو ثلاث. أذكر أنَّ أحد المرشدين استمرَّ في العمل طوال أربع عشرة سنة، مع أنَّه كان زائدًا على الحاجة ولا لزوم له. لهذا فأنا لا أحاول التباهي بنفسي، لكنَّني أعلم علم اليقين أنَّهم مسرورون بعملي، وأنا أبادلهم هذا الإحساس بصورة عامَّة. فقد كان المانحون الذين أتعامل معهم أفضل ممَّا كنت أتوقَّع على الدوام. وكانت أوقات استشفائهم مثارًا للإعجاب، ولم يُصنَّف أيٌّ منهم بأنَّه «مهتاج»، حتَّى قُبيل عمليَّة التبرُّع الرابعة. حسنًا، ربَّما ألجأ إلى التباهي الآن. غير أن ذلك يعني الكثير بالنسبة لي، أي قدرتي على إتقان عملي، لا سيَّما ما يتعلَّق بالإشارة إلى أنَّ المانحين الذين أتعامل معهم يبقون «هادئين». نما لديَّ إحساس شبه غريزي تجاه هؤلاء المانحين. فأنا أعرف متى أكون إلى جانبهم لأعينهم وأقوِّي من عزيمتهم، ومتى أتركهم ليخلوا إلى أنفسهم؛ ومتى أستمع إلى كلِّ ما يريدون قوله، ومتى أهزُّ كتفيَّ وأطلب منهم تغيير الموضوع.

على كلِّ حال، أنا لا أدَّعي لنفسي الكثير. أعرف بعض المرشدين والمرشدات العاملين الآن، الذين يتمتَّعون بمستوى الكفاءة نفسها، ولكنَّهم لا ينالون إلَّا نصف ما يستحقُّون. وإذا كنتَ واحدًا منهم، فإنَّني أتفهَّم امتعاضك مما لديَّ - غرفة نومي، وسيَّارتي، وفوق هذا وذاك، طريقتي في اكتشاف واختيار من أرعاهم وأعتني بهم. كما أنَّني من تلميذات مدرسة هيلشام- ويكفي ذلك، بحدِّ ذاته، لإزعاج الناس. يقولون انظروا إلى كاثي هـ. هذه، إنَّها تختار وتنتقي على هواها، وهي تنتقي من يماثلونها دائمًا: أي من جماعة هيلشام، أو شخصًا من الفئات الأخرى صاحبة الامتيازات، ولا عجب إذن أنَّها تملك سجلًّا حافلًا. سمعت ما يكفي، لذا أنا متأكِّدة من أنَّك سمعت أكثر، وربَّما هناك شيء صحيح فيه. غير أنَّني لم أكن الوحيدة التي سُمِح لها بالانتقاء والاختيار، ولا أعتقد أنَّني سأكون الأخيرة. على كلِّ حال، قُمت بواجبي في رعاية المانحين الذين جاؤوا من جميع الأماكن. تذكَّر أنَّني عندما أُنهي مهمَّاتي، سأكون قد قضيت اثنتي عشرة سنة هنا، لكنَّهم لم يسمحوا لي بالاختيار إلَّا في السنوات الستِّ الأخيرة.

لمَ لا يفعلون؟ المرشدون ليسوا مجرَّد آلات. فأنت تبذل قصارى جهدك لمساعدة كلِّ مانح، ولكنَّ ذلك سيصيبك بالإرهاق آخر الأمر. لصبرك وطاقتك حدود. لذا، عندما تُتاح لك الفرصة للاختيار، فإنَّك بالطبع تختار أمثالك. وهذا أمر طبيعي. لم يكن بوسعي أن أستمرَّ طوال هذه المدَّة لو أنَّني توقَّفت عن مرافقة مانحيَّ في كلِّ خطوة في طريقهم. على كلِّ حال، لو كنت توقَّفت عن الانتقاء، هل كان سيتاح لي أن أكون مرَّة أخرى قرب رُوث وتومي بعد كلِّ تلك السنوات؟

لكنَّ المانحين الذين أتذكَّرهم أخذوا يتناقصون بطبيعة الحال، وبالتالي، عمليًّا، فإنَّني لا أختار كثيرًا هذه الأيَّام. كما أسلفت، فإنَّ العمل يصبح أكثر مشقَّة عندما لا تكون لديك تلك الصلة العميقة

مع المانح، ومع أنَّني سأشتاق إلى الأيَّام التي كنت فيها مرشدة، أحسُّ بالارتياح لأنَّني سأنهي عملي أخيرًا مع نهاية هذه السنة.

رُوث، بالمناسبة، هي ثالث أو رابع مانح قمت باختياره. خُصِّصت لها مرشدة أخرى آنذاك، ما أزعجني أوَّل الأمر، غير أنَّني تقبَّلت ذلك آخر الأمر. عندما التقيتها مجدَّدًا، في مركز الإنعاش في دوفر، بدا أنَّ جميع خلافاتنا- التي لم تتبدَّد إطلاقًا- لم تكن مهمَّة مثل الأمور الأخرى: مثل كوننا قد كبرنا سويًّا في هيلشام، وأنَّنا عرفنا وتذكَّرنا أشياء لا يتذكَّرها الآخرون. أظنُّني بدأت منذ تلك اللحظة بالبحث عن مانحين من الماضي، ومن هيلشام قدر المستطاع.

مرَّت أوقات على مدى سنوات حاولتُ فيها أن أتخطَّى هيلشام، وقلت لنفسي إنَّ عليَّ ألَّا أبالغ في استرجاع الماضي. لكن، جاءت لحظة توقَّفت فيها عن المقاومة. كان الأمر يتعلَّق بمانح محدَّد عرفته في السنة الثالثة من عملي كمرشدة؛ وهو ردُّ الفعل الذي أبداه عندما ذكرت أنَّني من هيلشام. كان قد قام بتبرُّعه الثالث للتوِّ، الذي لم يمضِ على ما يرام، وهو لا بدَّ عرف أنَّه لن ينجو. كان يتنفَّس بمنتهى الصعوبة، ولكنَّه نظر إليَّ، وقال: «هيلشام. أراهن على أنَّها كانت مكانًا جميلًا». في صباح اليوم التالي، عندما كنت أحادثه ليصفِّي ذهنه، وسألته أين نشأ، ذكر اسم مكان ما في دورسيت، ثمَّ علت وجهه الملطَّخ بالبثور دلائل جديدة تمامًا على الانقباض والاشمئزاز. أدركت عندئذ أنَّه يحاول، بصورة يائسة، ألَّا يذكِّره أحد بذلك. بدلًا من ذلك، كان يريد أن يسمع المزيد عن هيلشام.

خلال الأيَّام الخمسة أو الستَّة التالية، أبلغته كلَّ ما كان يريد معرفته، وكان حينئذ يستلقي هناك، وقد غطَّت جسمه المشابك، وغشيت وجهه ابتسامة لطيفة. سألني عن أمور صغيرة وكبيرة. عن **الحرَّاس**، وكيف أنَّ كلًّا منَّا يحتفظ بصندوق للجمع تحت سريره، وعن كرة القدم، ولعبة الراوندرز، والطريق الصغير الذي يدور بك حول المنزل الرئيس، وحول جميع الأركان والزوايا المظلمة، وعن بركة البطِّ والطعام والمنظر الذي يطلُّ من حجرة الفنون على الحقول في الصباح الضبابي. أحيانًا يطلب منِّي أن أكرِّر مرَّة بعد أخرى ما قلته له أمس، وكأنَّني لم أذكره من قبل. «هل كان لديكم سرادق للرياضة؟»، «أيُّ حارس كان المفضَّل عندك؟». اعتقدت أوَّل الأمر أنَّ السبب هو الأدوية، لكنَّني أدركت بعدئذ أنَّ ذهنه صافٍ تمامًا، وأنَّ ما يريده لا يقتصر على سماع المعلومات عن هيلشام، ولكن أن يتذكَّر هيلشام كذلك، كأنَّه أمضى طفولته فيها. حين عرف أنَّه أشرف على النهاية، وهذا ما كان يفعله: يطلب منِّي أن أصف الأشياء، لتترسَّخ في ذهنه، ما قد يسمح خلال ليالي الأرق، ومع الأدوية والألم والإرهاق، بمحو الخطوط الفاصلة بين ذكرياتي وذكرياته. تلك هي المرَّة الأولى التي فهمت فيها، وفهمت جيِّدًا، كم كنَّا محظوظين- أنا وتومي ورُوث وبقيَّتنا.

***

بينما أقود سيَّارتي الآن في الريف، ما زلت أرى أمورًا تذكِّرني بهيلشام. فقد أمرُّ بمحاذاة حقل يغمره الضباب، أو أرى جانبًا من منزل كبير بعيد، بينما أنزل على منحدر أحد الوديان، أو حتَّى صفًّا مميَّزًا من أشجار الحور على سفح أحد التلال، وقد أقول: «ربَّما ها هي! لقد وجدتها! ها **هي** هيلشام بالفعل!». ثمَّ أدرك أنَّ ذلك مستحيل، وأواصل القيادة، ويُشغل بالي بأمور أخرى. وهناك، وبصورة خاصة، تلك السرادقات. أراها في جميع الأرجاء، واقفة على الجانب البعيد من الملاعب، مبانٍ صغيرة بيضاء جاهزة الصنع لكلٍّ منها صفٌّ من النوافذ العالية بشكل غير طبيعي، تكاد تلامس حواف الأفاريز. أعتقد أنَّه بُني الكثير من أمثالها في الخمسينيات والستينيات، حين بُني

مبنانا على الأرجح. عندما أمرُّ بإحداها، أحدِّق إليها قدر المستطاع، ولسوف أحطِّم السيَّارة ذات يوم لهذا السبب، لكنَّني أواصل التحديق. منذ مدَّة قصيرة، كنت أقود في أرض فارغة في وورشسترشير ورأيت إحداها بجانب ملعب للكريكيت يشبه ملعبنا في هيلشام، فدرت بالسيارة بالفعل وعدت لإلقاء نظرة أخرى.

كنَّا نحبُّ سرادق الرياضة، ربَّما لأنَّه كان يذكِّرنا بـالأكواخ الصغيرة اللطيفة التي كنَّا نشاهدها في الكتب المصوَّرة في طفولتنا. أذكر أنَّنا كنَّا في المرحلة الدراسية الوسطى نرجو من الحرَّاس أن تكون حصَّة الدراسة القادمة في السرادق بدل الحجرة المعتادة. عندما كنَّا في الصفِ الثاني من المرحلة السينيور- وكنَّا جميعًا في الثانية عشرة وعلى أبواب الثالثة عشرة- أصبح السرادق المخبأ الذي تختلي فيه مع أصدقائك المفضَّلين بعيدًا عن الآخرين في هيلشام.

كان السرادق واسعًا بشكل كافٍ، بحيث يستوعب مجموعتين منفصلتين لا تضايق إحداهما الأخرى- وكانت مجموعة ثالثة تستخدم الشرفة في الصيف. لكنَّك كنت وأصدقاءك تفضِّلون الاستحواذ على المكان لأنفسكم فحسب، فتسود الجوَّ روحُ المزاح والمشاكسة أحيانًا. وكان الحرَّاس يطالبوننا دائمًا بأن نكون متحضِّرين. ولكنَّك كنت في الواقع بحاجة إلى بعض الشخصيَّات القويَّة في مجموعتك لتتاح لك فرصة استخدام السرادق خلال فترات الاستراحة أو خلوَّه من الأنشطة الأخرى. لم أكن من هذا النوع المقنع تمامًا، غير أنَّنا كنَّا بفضل رُوث نستخدم المكان بصورة متواترة.

كنَّا ننتشر في العادة على المقاعد والأرائك. كنَّا خمسة، ونصبح ستة إذا انضمَّت إلينا جيني ب. وننهمك في القيل والقال. كان هناك نوع من الأحاديث التي لا يمكن أن تتبادلها إلَّا إذا اختبأت في السرادق؛ فقد نتحدَّث عن بعض المسائل التي تثير فينا القلق، أو نختتم مداولاتنا بالقهقهة الصارخة أو بمشاجرة غاضبة. في أغلب الأحيان، كان السرادق مناسبة للتفريج عن النفس مع أصدقائك الخلَّص.

بعد ظهيرة اليوم الذي أستحضره الآن، كنَّا نجلس على المقاعد العالية والأرائك، نحتشد أمام النوافذ العالية. منحنا ذلك إطلالة واضحة على الملعب الرياضي الشمالي، حيث كانت جمهرة من الأولاد من دفعتنا ومن الصفِ الثالث في المرحلة السينيور قد اجتمعت لتلعب كرة القدم. كان الجوُّ صافيًا مشرقًا، لكن لا بدَّ من أنَّها كانت تمطر في وقت مبكر من ذلك اليوم، لأنَّني أذكر أشعَّة الشمس تنعكس على طبقة الطين التي تغطِّي العشب.

قال أحدهم إنَّه لا يجدر بنا مشاهدة ما يجري، غير أنَّنا بالكاد تراجعنا إلى الخلف. عندئذ قالت رُوث: «إنَّه لا يشكُّ في أيِّ شيء. انظروا إليه. إنَّه بالفعل لا يشكُّ في أيِّ شيء».

عندما قالت ذلك، نظرت إليها بحثًا عمَّا يدلُّ على عدم رضاها بما سيفعله الأولاد بتومي. غير أنَّ رُوث سرعان ما أطلقت ضحكة قصيرة، وقالت: «المعتوه!».

أدركت أنَّه، بالنسبة لرُوث والآخرين، وبصرف النظر عمَّا سيقوم به الأولاد، كان الموضوع كلَّه خارج دائرة اهتمامنا. فقد اجتمعنا عند النوافذ آنذاك لا لأنَّنا كنَّا نرغب في مشاهدة إذلال تومي مرَّة أخرى، بل لأنَّنا كنَّا قد سمعنا عن هذه المكيدة الأخيرة، وتملَّكنا فضول غامض لمتابعة تطوُّراتها أوَّلًا بأوَّل. لا أعتقد أنَّ ما كان يفعله الأولاد معًا في تلك الأيَّام أعمق من ذلك. بالنسبة لرُوث، وللآخرين، كان الأمر لا يمتُّ بصلة لاهتماماتهم، ومن المحتمل أنَّه لم يكن يهمُّني كذلك.

أو ربَّما كنت مخطئة فيما أتذكَّره. بل ربَّما أحسست ببعض الألم عندما شاهدت تومي يهرول في الملعب، وتلوح على وجهه إمارات الرضى عن قبول عودته إلى الحظيرة مرَّة أخرى، وعن كونه

على وشك ممارسة اللعبة التي يتقنها كلَّ الاتقان. كلُّ ما أذكره أنَّني لاحظت أنَّ تومي كان يرتدي قميص البولو الأزرق الفاتح الذي حصل عليه في موسم التخفيضات في الشهر الماضي- وكان شديد الاعتزاز به. أذكر أنَّني كنت أفكِّر: «إنَّه مغفَّل بالفعل. إنَّه يلعب الكرة مرتديًا ذلك القميص. سيتلفه، فكيف سيشعر بعدها؟». ثم قلت، بصوت عالٍ، ومن دون أن أوجِّه حديثي لأيِّ شخص: «تومي يرتدي ذلك القميص. قميص البولو الأثير لديه».

لا أعتقد أنَّ أحدًا قد سمعني، لأنَّهم كانوا جميعًا يضحكون لمشاهدة لورا- وهي المهرِّجة البارزة في المجموعة- تقلِّد التعبيرات التي تتجلَّى على ملامح تومي تباعًا بينما هو يركض ويلوِّح بيديه ويهتف ويهاجم. كان الأولاد الآخرون يتراكضون في الملعب بالأسلوب المتراخي المتعمَّد الذي يستخدمونه للتحمية قبيل بدء المباراة، غير أنَّ تومي، في غمرة حماسته، كان على ما يبدو، في ذروة الاستعداد. قلت، بصوت أعلى هذه المرَّة: «سيمرض إذا أتلف ذلك القميص». سمعتني رُوث هذه المرَّة، ولكنَّها ظنَّت أنَّني قلت ذلك على سبيل المزاح والتنكيت، لأنَّها ضحكت ضحكة فاترة، وأدلت بإحدى ملاحظاتها الساخرة.

ثمَّ توقَّف الأولاد عن ركل الكرة، ووقفوا صفًّا واحدًا على الطين، وكانت صدورهم ترتفع وتنخفض فيما كانوا يترقَّبون البدء بالمباراة. كان الكابتن في كلا الفريقين من الصفِّ الثالث في المرحلة السينيور، مع أنَّ الجميع كانوا يعرفون أنَّ تومي كان هو اللاعب الأفضل في تلك السنة. اتُّبع أسلوب «طرَّة أو نقشة» لتحديد لاعب الفريق الذي سيبدأ الركلة الأولى، وعندئذ حدَّق ذلك الشخص في المجموعة.

قال شخص كان يقف ورائي: «انظروا إليه. هو مقتنع تمامًا بأنَّه سيكون اللاعب الأفضل. فقط انظروا إليه!».

كان ثمَّة شيء **مضحك** في مظهر تومي آنذاك، شيء يدفعك إلى التفكير بأنَّه إذا استمرَّ في هذا الوضع الأحمق، فإنَّه يستحقُّ كلَّ ما سيأتي لاحقًا. تظاهر الأولاد الآخرون بعدم الاهتمام بتحديد أدوارهم في الفريق. تبادل بعضهم الحديث بهدوء، بينما حدَّق آخرون إلى أقدامهم الملطَّخة بالطين. لكنَّ تومي كان ينظر بفارغ الصبر إلى الكابتن الذي كان من الصفِّ الثالث السينيور كما لو أنَّه قد نودي عليه.

حافظت لورا على أدائها خلال عملية تحديد الأدوار بين أعضاء الفريق، بمحاكاة مختلف التعبيرات التي تجلَّت على وجه تومي: التعبير الحماسي المشرق أوَّل الأمر؛ والحيرة المشوبة بالقلق عندما مضت أربعة خيارات من دون أن يكون منها؛ ثمَّ الألم والفزع عندما بدأت تتكشَّف الأمور. لم أواصل النظر إلى لورا، لأنَّني كنت أراقب تومي؛ وعرفت ما كانت تفعله لأنَّ الآخرين واصلوا الضحك وكانوا يحثُّونها على المضيِّ قُدمًا في ذلك. عندما ترك الأولاد الآخرون تومي واقفًا بمفرده وأخذوا يتضاحكون، سمعت رُوث تقول:

«ها هي اللحظة آتية لا ريب فيها. انتظروا، سبع ثوان، ست، خمس»...

لم تكمل العدَّ. فقد بدأ تومي يجأر كالرعد، وبدأ الأولاد المتضاحكون يركضون نحو الملعب الجنوبي. انطلق تومي وراءهم بخطى واسعة- وكان من الصعب التأكُّد ممَّا إذا كان، بصورة فطريَّة، يحاول في فورة الغضب أن يلحق بهم، أو أنَّ الفزع أصابه لأنَّهم تركوه وراءهم. لكنَّه على أيِّ حال توقَّف وظلَّ واقفًا هناك يحدِّق فيهم ممتقع الوجه. ثمَّ أخذ بالصراخ والزعيق. أطلق موجة من السُباب واللعنات والإهانات التي لا معنى لها.

شهدنا جميعًا قبل ذلك كثيرًا من فورات الغضب التي كانت تنتاب تومي، فترجَّلنا عن المقاعد

وعدنا إلى الحجرة. حاولنا التحدُّث حول موضوع آخر، غير أنَّ تومي استمرَّ في الصراخ، ومع أنَّنا أشحنا بأبصارنا عنه وتجاهلناه أوَّل الأمر، إلَّا أنَّه ظلَّ يزعق لعشر دقائق بعد أن ابتعدنا عنه- فعدنا إلى النوافذ مرَّة أخرى.

اختفى بقيَّة الأولاد الآن، ولم يعد تومي يوجِّه ملاحظاته إلى طرف محدَّد. كان يهذي كالمخبول، ويرفس ويلوِّح بأطرافه متوعِّدًا كلَّ شيء: السماء، والريح، وعمود السياج القريب. قالت لورا إنَّه ربَّما «يتدرَّب على تمثيل دوره في إحدى مسرحيَّات شكسبير». وقال شخص آخر إنَّه كلَّما صرخ، يرفع إحدى رجليه «كأنَّه كلب يتبوَّل». الواقع إنَّني لاحظت حركة الرجلين نفسها، غير أنَّ ما أثار انتباهي هو أنَّه كلَّما وطئت قدماه الأرض، تطايرت شذرات الطين حوله. فكَّرت مرَّة أخرى في قميصه الثمين، ولكنَّه كان بعيدًا عنِّي إلى حدٍّ لم أستطع معه رؤية الطين عليه.

قالت رُوث: «أعتقد أنَّ الأمر سيكون صعبًا. إنَّهم يقسون عليه عندما يدرِّبونه على تهيئة نفسه بهذه الطريقة. لكن ذلك ليس خطأه. فلو أنَّه تعلَّم كيف يحافظ على هدوئه، فربَّما كانوا سيتركونه وشأنه».

«لكنَّهم سيواصلون مضايقته»، قالت هانا، وأضافت: «إنَّ مزاج غراهام ك. سيِّئ بالقدر نفسه. ولكن ذلك يدفعهم إلى أن يكونوا أكثر حذرًا معه. وهم اختاروا تومي لأنَّه متعطِّل كسول». بعدئذ أخذ الجميع يتحدَّثون في وقت واحد عن أنَّ تومي لم يحاول أن يكون مبدعًا على الإطلاق، ولم يقدِّم شيئًا لمهرجان الربيع. أظنُّ أنَّ كلًّا منَّا في تلك اللحظة كان في أعماق نفسه يتمنَّى في الحقيقة أن يأتي أحد الحرَّاس ويأخذ تومي بعيدًا. ومع أنَّه لم يكن لأيٍّ منَّا دور في الخطَّة المرسومة للنَيل من تومي، فقد جلسنا في مكان **نراقب** منه الأحداث عن كثب، وبدأنا نحسُّ عندئذ بالذنب. لكن لم يأتِ أيُّ حارس، ولذلك بدأنا نستعرض الأسباب والذرائع التي جعلت تومي يستحقُّ كلَّ ما جرى له. عندئذ نظرت رُوث إلى ساعتها وقالت إنَّه رغم امتلاكنا وقتًا كافيًا إلَّا أنَّ علينا العودة إلى المنزل الرئيس. ولم يحتجَّ أحد على ذلك.

غادرنا السرادق بينما تومي في غاية العنف. كان المنزل على يسارنا. وحيث أنَّ تومي كان واقفًا في الملعب أمامنا مباشرة، لم يكن ثمَّة حاجة للاقتراب منه. وعلى أيَّة حال، فإنَّه كان ينظر في الاتجاه الآخر، ولم يبدُ عليه أنَّه لاحظ وجودنا. ومع ذلك، عندما توجَّه أصدقائي إلى طرف الملعب، بدأت بالتحرُّك نحو تومي. كنت أعلم أنَّ ذلك سيدهش الآخرين، غير أنَّني مضيت قدمًا- حتَّى عندما سمعت رُوث تهمس بإلحاح وتطلب منِّي العودة.

أظنُّ أنَّ تومي لم يكن معتادًا على التعرُّض للإزعاج عندما يستشيط غضبًا، لأنَّ ردَّ فعله الأوَّل عندما تقدَّمت نحوه هو أن نظر إليَّ لحظة واحدة، ثمَّ واصل ما كان يقوم به من قبل. بدا الأمر كما لو أنَّه يتدرَّب على إحدى مسرحيات شكسبير، وأنا صعدت إلى المسرح أثناء أدائه لدوره. حتَّى عندما قلت: «تومي. قميصك اللطيف. ستتلفه»، لم تبدُ أيَّة إشارة تدلُّ على أنَّه سمعني.

لهذا، دنوت منه، ووضعت يدي على ذراعه. بعدئذ، أحسَّ الآخرون أنَّه سيفعل ذلك الأمر، لكنَّني كنت متأكِّدة أنَّه لم يكن يقصد ذلك. كانت ذراعاه تتخبَّطان وتلوِّحان في الهواء، ولم يكن يعرف أنَّني على وشك أن ألمسه بيدي. على أيِّ حال، فقد لطم يدي وأزاحها جانبًا وصفع أحد خدَّيَّ. لم أحسَّ بالألم، لكنِّي لهثت بصوت مرتفع، وكذلك لهثت معظم الفتيات ورائي.

تلك هي اللحظة التي بدا فيها أنَّ تومي قد شعر أخيرًا بوجودنا، أنا والآخرين، وبوجوده هو نفسه، وبأنَّه كان هناك في الملعب يتصرَّف على هذا النحو، فحدَّق إليَّ بغباء.

«تومي»، قلت بلهجة حازمة، «الطين يغطِّي قميصك كلَّه».

غمغم قائلًا: «ماذا؟». لكنَّه طأطأ رأسه في تلك اللحظة وشاهد البقع البنِّية، ولم يتمالك نفسه، وتولَّاه الفزع. شاهدت عندئذ ملامح وجهه التي دلَّت على إحساسه بما حدث لقميص البولو.

«إنَّه أمر لا يثير القلق»، قلت قبل أن يتحوَّل الصمت إلى مصدر للإذلال بالنسبة له، «سيزول. وإذا لم تستطع أن تزيله بنفسك، خذه إلى الآنسة جودي». استمرَّ هو في تفحُّص القميص، ثمَّ قال بنبرة مشاكسة: «لا تتدخَّلي في الموضوع في جميع الحالات».

بدا أنَّه ندم على الفور لملاحظته الأخيرة، ونظر إليَّ بخجل، وكأنَّه يتوقَّع منِّي أن أقول شيئًا يطمئنه ويريحه. لكنَّني كنت آنذاك قد تحمَّلت ما يكفي منه، خصوصًا وأنَّ الفتيات كنَّ يشاهدن ما يحدث- كما شاهده على حدٍّ علمي عدد آخر من الأشخاص من نوافذ المنزل الرئيس. هززت كتفي واستدرت إلى الوراء ولحقت بأصحابي.

طوَّقت رُوث كتفيَّ بذراعيها بينما كنَّا في طريق العودة. «لقد أخرستِه وأوقفت زعيقه على الأقل»، قالت. «هل أنتِ على ما يرام؟ هذا الحيوان المجنون».

الفصل الثاني

حدث ذلك كلُّه منذ زمن بعيد، وربَّما فاتني جانب منه؛ لكنَّني أتذكَّر أنَّ تواصلي مع تومي بعد ظهر ذلك اليوم كان جزءًا من مرحلة عشتها آنذاك- تتعلَّق بإلزامي بوضع بعض التحدِّيات لنفسي- وكنت قد غفلت عنها عندما أوقفني تومي بعدها بعدَّة أيَّام.

لا أعلم كيف كانت الأحوال يومذاك، ولكن كان علينا في هيلشام أن نُجري فحصًا طبِّيًا كلَّ أسبوع تقريبًا -في الحجرة رقم ١٨ في الجزء العلويِّ من المنزل- عند الممرِّضة الحازمة تريشا، أو «وجه الغراب» كما كنَّا نسمِّيها. في صبيحة ذلك اليوم المشرق، كانت جمهرة منَّا تصعد الدرج المركزي لتُجري لنا الممرِّضة الفحص، بينما كانت جماعة أخرى تهبط على الدرج بعد الكشف، لذلك كان يعجُّ بالأصوات والضوضاء، وعندما كنت أنزل الدرجات مطأطئة الرأس، في أعقاب الشخص الذي كان أمامي، سمعت صوتًا على مقربة منِّي ينادي: «كاث».

توقَّف تومي، الذي كان من جملة النازلين على الدرج، فجأة وقد علت وجهه ابتسامة عريضة أزعجتني على الفور. فمنذ عدَّة سنوات، كنَّا إذا التقينا شخصًا نودُّ رؤيته، نرسم تلك الابتسامة على وجوهنا. ولكن هذا الشخص كان مجرَّد ولد صادف إحدى الفتيات في مكان عام بالفعل. أوشكت أن أقول: «تومي، لماذا لم تكبر؟». غير أنَّني لم أفعل، وقلت بدلًا من ذلك: «تومي، لقد عطَّلت السير. وأنا كذلك».

نظر إلى أعلى وكان طابور النازلين قد توقَّف بالتأكيد تمامًا. بدا، لبرهة وجيزة، أنَّه قد أصيب بالفزع، فحشر نفسه إلى جانبي باتجاه الحائط، ما سمح للناس بالعبور. ثمَّ قال:

«كاث، كنت أبحث عنك في كلِّ مكان. كنت أقصد أن أقول إنَّني آسف. يعني أنا آسف جدًّا، جدًّا. بصراحة لم أقصد ضربك منذ يومين. أنا لا أتصوَّر أنَّني سألطم فتاة يومًا ما، وإذا فعلت، فإنَّني لن أضربك أنت بالتحديد. أنا آسف فعلًا، فعلًا».

«لا عليك. إنَّه مجرَّد حادث. هذا كلُّ ما في الأمر». أومأت له وبدأت بالابتعاد عنه. غير أنَّ أساريره انفرجت وقال: «القميص على أحسن ما يرام الآن. زالت البقع بعد الغسيل».

«هذا حسن».

«لم تتألَّمي، أليس كذلك؟ عندما ضربتك؟».

«أكيد. شرخ في الجمجمة. ارتجاج، وأوجاع أخرى. بل إنَّ ‘وجه الغراب’ قد تلاحظها. هذا إذا وصلتُ هناك».

«ولكن جدِّيًا يا كاث. أنت لا تحقدين عليَّ، صحيح؟ أنا آسف كلَّ الأسف. آسف بصدق».

في النهاية، ابتسمت له وقلت من دون سخرية: «حسنًا يا تومي، كان حادثًا، وقد نسيته تمامًا. لست غاضبة منك بأيِّ شكل من الأشكال».

لم يظهر عليه أنه متأكِّد من كلامي، ولكن بعض التلاميذ الأكبر سنًّا كانوا يدفعونه من الخلف ويطلبون منه التحرُّك. ابتسم لي بسرعة وربَّت على كتفي، كأنَّه يتعامل مع ولد أصغر منه عمرًا، وشقَّ طريقه وسط الحشد. وبينما كنت أصعد السلم، سمعته يهتف من الأسفل: «إلى اللقاء، كاث!».

وجدت الموضوع كلَّه محرجًا بعض الإحراج. ولكن لم يؤدِّ إلى أيَّة ثرثرة أو أقاويل؛ ولا بدَّ من

الاعتراف بأنَّه لولا هذا اللقاء على الدرج، لما كنت سأبدي أي اهتمام بمشاكل تومي خلال الأسابيع القليلة القادمة.
رأيت بنفسي بعض الأحداث. لكنَّني سمعت عن أغلبها، وكنت حينئذ أتقصَّى الأمر مع الناس لأحصل على تقرير كامل تقريبًا عمَّا حدث. حدثت فورات غضب أخرى، منها تلك الحادثة التي كان من المفترض فيها أن يسحب منضدتين في الحجرة ١٤، ولكنَّه أسقط أرضًا كلَّ ما كان عليهما، بينما تمترس بقيَّة تلاميذ الصفِ خلف الباب بعد أن هربوا إلى مُنبسَط الدرج ليمنعوه من الخروج. وهناك الحادثة الأخرى، عندما كان على السيِّد كرستوفر أن يلوي ذراعيه وراء ظهره ليمنعه من مهاجمة ريغي د. أثناء التدرُّب على لعب كرة القدم. كما شهد الجميع كذلك كيف أنَّ أولاد صفِّه كانوا يجرون في الملعب أزواجًا، إلَّا أَّن تومي كان يجري بمفرده. لقد كان عدَّاءً ممتازًا، يسبق العدَّائين بعشر ياردات أو خمس عشرة، وربَّما كان يعتقد أنَّ تلك أفضل وسيلة للتستُّر على حقيقة أنَّ أحدًا لم يرغب في أن يكون رفيقه في الجري. ثمَّ كانت هناك الشائعات المتداولة يوميًّا تقريبًا حول المقالب التي كانت تدبَّر ضدَّه، وأكثرها من النوع المعهود- أشياء غريبة تُوضع في سريره، دودة في وجبة فطوره- لكنَّ بعضها كان مقرفًا بشكل عبثيّ: عندما قام أحدهم بتنظيف المرحاض بفرشاة أسنانه، وكانت بانتظاره عندما أراد استخدامها وقد تخلَّلها البراز. بالنظر إلى حجمه وقوَّته، وإلى مزاجه كما أعتقد، فإنَّ أحدًا لم يحاول التنمُّر عليه جسديًّا، لكنَّني أذكر أنَّ مثل تلك الحوادث تكرَّرت لبضعة أشهر على الأقل. اعتقدت أنَّ بعض الأولاد سيقولون -آجلًا أم عاجلًا- إنَّ الوضع أصبح لا يطاق، ولكنَّه استمرَّ على هذا النحو، ولم يقولوا أيَّ شيء.
حاولت ذلك في إحدى المرَّات في المنامة بعد إطفاء النور. ففي المرحلة السينيور، كان ينام كلُّ ستَّة أشخاص في المنامة الواحدة. لهذا كنَّا مجموعة صغيرة، ونتبادل الأحاديث الحميميَّة جدًّا في الظلمة قبل أن نخلد للنوم. يمكنك هناك أن تتحدَّث عن أمور لا يمكنك التطرُّق إليها في أيِّ مكان آخر، حتَّى في السرادق. ذات ليلة، أثرت موضوع تومي. لم أتحدَّث كثيرًا، لكنَّني ذكرت بإيجاز ما كان يحدث له، وقلت إنَّ ذلك ليس من العدل في شيء. عندما انتهيت، ساد صمت غريب في العتمة، وأدركت أنَّ الجميع كانوا ينتظرون جوابًا من رُوث- وهو ما كان يحدث كلَّما وقع أمر غريب. انتظرت، وسمعت صوتًا في زاوية الغرفة التي كانت فيها رُوث. قالت:
«نقطة وجيهة يا كاثي. الوضع غير مريح. لكن إذا أراد أن يتغيَّر الوضع، فعليه تعديل موقفه. هو لم يساهم أبدًا في مهرجان الربيع. فهل لديه ما يقدِّمه في الشهر القادم؟ أراهن على أنَّه لن يفعل».
عليَّ أن أقدِّم هنا شرحًا بسيطًا عن المهرجانات التي كنَّا ننظِّمها في هيلشام، أربع مرَّات في السنة- الربيع، الصيف، الخريف، الشتاء - تضمَّن كلٌّ منها معرضًا وموقعًا نبيع فيه جميع التحف التي ابتكرناها خلال الأشهر الثلاثة التي مضت بعد آخر مهرجان. لوحات، رسوم، خزفيَّات؛ جميع أنواع التماثيل، المنحوتة والمصنوعة من كلِّ ما كنَّا نعثر عليه آنذاك. ربَّما علب معدنية معوجَّة وأغلفة زجاجات ملصقة على لوحة إعلانات. ومقابل كلَّ ما تعرضه، تُعطى كوبونات- الحرَّاس هم الذين يقرِّرون ما تستحقُّه عن كلِّ واحدة من روائعك الفنِّية- وفي يوم المهرجان تأخذ معك ما حصلت عليه من كوبونات و«تشتري» ما تريد شراءه. القاعدة هي أنَّ بوسعك فقط شراء الأشياء التي صنعها زملاؤك التلاميذ في تلك السنة وحدها، لكن ذلك أعطانا مجالًا واسعًا للاختيار، لأنَّ كثيرين منَّا كانوا غزيري الإنتاج خلال الأشهر الثلاثة السالفة.
عندما أسترجع تلك الأيَّام، أدرك لماذا كانت المهرجانات مهمَّة جدًّا بالنسبة لنا. أبدأ هنا بالقول

إنها كانت الوسيلة الوحيدة لدينا، إلى جانب المبيعات- والمبيعات أمر مختلف سأتطرَّق إليه فيما بعد- لتجميع حزمة من الممتلكات الشخصيَّة. فإذا أردت مثلًا أن تزيِّن الجدران حول سريرك، أو أن تحمل في حقيبتك شيئًا تضعه على الطاولة التي تجلس إليها من حجرة إلى أخرى، فإنك ستجد حاجتك في المهرجان. يمكنني الآن أن أفهم كيف كانت للمهرجانات آثار خفيَّة علينا جميعًا. فعندما تفكِّر في الأمر، تدرك أنَّ اعتماد أحدِنا على الآخر للحصول على الشيء الذي سيصبح من كنوزك الخاصَّة سيؤثِّر على علاقاتك. كانت حالة تومي نموذجية في هذا المجال. ففي كثير من الأحيان، تنشأ علاقة وثيقة بين قدرتك على «الابتكار» من جهة، والموقف منك في هيلشام، ومدى ما تحظى به من محبَّة واحترام من جهة أخرى.

كنَّا، رُوث وأنا، نتذكَّر تلك الأمور قبل عدَّة سنوات عندما كنت مرشدتها في مركز الاستشفاء في دوفر.

«إنَّها جزء من الأشياء التي جعلت من هيلشام مكانًا متميِّزًا»، قالت ذات مرَّة. «شجَّعتنا على أن نثمِّن ما كنَّا نفعله معًا».

«صحيح»، قلت، «ولكن عندما أتذكَّر المهرجانات أحيانًا، أحسُّ أنَّها غريبة قليلًا. الشِعر، على سبيل المثال. أتذكَّر عندما كان يُسمح لنا أن نعرض القصائد بدلًا من الرسومات أو اللوحات. والغريب أنَّنا اعتقدنا أنَّ ذلك يشعرنا جميعًا بالارتياح، وبأنَّ له دلالة خاصَّة».

«ولِمَ لا؟ الشعر أمر مهمٌّ».

«لكنَّنا نتحدَّث عن أمور حدثت قبل تسع سنوات، سطور غريبة، حافلة بالأخطاء النحوية، في كتب التمارين. كنَّا نستبدل ما لدينا من كوبونات ثمينة بكتاب تمارين محشو بهذه المواد عوض أشياء أكثر طرافة حول أسرَّتنا. لو كنَّا أكثر اهتمامًا بقصائد واحد منَّا، فلماذا لم نلجأ إلى استعارتها ونسخها عند ظُهر أحد تلك الأيَّام؟ ولكنَّك تذكرين كيف كانت الأمور آنذاك. ففي خلال المهرجان، كنَّا نقف هناك محتارين بين قصائد سوزي ك. والزرافات التي كانت تصفها جاكي».

«زرافات جاكي»، قالت رُوث ضاحكة، «كانت في غاية الجمال. كانت لدي واحدة منها».

كنَّا نتحدَّث سويًّا في إحدى الأمسيات ذات صيف، ونحن نجلس في شرفة الحجرة التي كانت تُعالج فيها، بعد عدَّة أشهر من أوَّل تبرُّع لها، إثر تجاوزها المرحلة الأسوأ، وكنت أنظِّم أوقات زيارتي المسائية بحيث نقضي نصف ساعة أو نحوها هنا، ونراقب غروب الشمس فوق السطوح. كان بوسعك أن ترى الكثير من الهوائيَّات وصحون التقاط الفضائيَّات. وهناك، في البعيد، نشاهد بعض الأحيان خطًّا لامعًا، هو البحر. كنت أحضر معي المياه المعدنية والبسكوت، ونجلس هناك نتبادل الحديث عن أيِّ شيء يخطر على بالنا. المركز الذي كانت رُوث فيه آنذاك هو من أفضل المراكز لديَّ، لذا لم أمانع إكمال فترة خدمتي حتَّى آخرها. كانت حجرات المعالجة صغيرة، ولكنَّها جيِّدة التصميم ومريحة. كان كلُّ شيء - الجدران والأرضية، مكسوَّة بالبلاط الأبيض اللامع، الذي يحافظ المركز على نظافته بحيث تشعر عند الدخول وكأنَّك دخلت قاعة من المرايا. بالطبع، فأنت لا ترى صورتك منعكسة عدَّة مرَّات ولكنَّك تتوهَّم ذلك تقريبًا. وعندما ترفع ذراعك، أو عندما يجلس شخص في السرير، فإنَّك تشعر بهذه الحركات الشاحبة الظليلة حولك منعكسة على الآجُر. على أيِّ حال، فإنَّ حجرة رُوث الواقعة في المركز كانت تحتوي ألواحًا زجاجية انزلاقية بحيث يمكنها أن ترى المشهد الخارجي وهي من سريرها. حتَّى عندما تضع رأسها على الوسادة، فإنَّها ترى مساحة واسعة من السماء. وإذا كان الطقس دافئًا، فإنَّها تستطيع أن تتنسَّم الهواء المنعش عندما تخرج إلى الشرفة. كنت أحبُّ أن أزورها هناك، وأحبُّ النزهات التي نقوم بها، خلال

الصيف وحتَّى أوائل الربيع، كنَّا نجلس سويًّا على الشرفة، ونتحدَّث عن هيلشام، والأكواخ، وكلِّ ما يمكن أن يخطر على البال.

«ما أقوله»، أردفت قائلة، «هو أنَّنا، عندما كنَّا في ذلك العمر، عندما كنَّا في الحادية عشرة، مثلًا، لم نكن نهتمُّ بقصائد بعضنا الآخر إطلاقًا. لكن هل تتذكَّرين كريستي؟ كانت كريستي مشهورة في مجال الشعر، وكنَّا جميعًا ننظر إليها بإعجاب بسبب ذلك. حتَّى أنت يا رُوث، لم تستطيعي السيطرة على كريستي. كلُّ ذلك لأنَّنا كنَّا نعتقد أنَّها شاعرة عظيمة. لكنَّنا لم نفهم شيئًا على الإطلاق عن الشعر. لم نكن نهتمُّ بأمره. لم نُعنى به. ذلك غريب».

غير أنَّ رُوث لم تفهم ما كنت أرمي إليه- بل ربَّما كانت تحاول تحاشيه عن قصد. وربَّما قرَّرت أن تتذكَّرنا جميعًا باعتبارنا مجموعة أكثر رقيًّا ممَّا كنَّا عليه. أو ربَّما كانت تشعر من طرف خفيٍّ بما أرمي إليه، ولكنَّها لم تشأ المضيَّ في ذلك السبيل. على كلِّ حال، أطلقت تنهيدة طويلة وقالت:

«كنَّا جميعًا نعتقد أنَّ قصائد كريستي جميلة للغاية. ولكنَّني أتساءل كيف ستبدو لنا الآن. ليتنا نحصل على بعضها الآن هنا، لأعرف كيف سنحسُّ تجاهها». ثمَّ ضحكت وقالت: «ما زالت لديَّ بعض قصائد بيتر ب. ولكنَّه كتبها في وقت متأخِّر. عندما كنَّا في الصفِّ الرابع سينيور. لا بدَّ أنَّني افتتنت به آنذاك. ولا أستطيع التفكير في سبب آخر دفعني إلى شراء قصائده. إنَّها سخيفة إلى درجة تصيب الإنسان بالهستيريا. وقد أصابه الغرور. لكن كريستي كانت جيِّدة. ومن الطريف أنَّها تخلَّت عن الشعر عندما بدأت برسم اللوحات. لوحاتها لم تكن في المستوى نفسه من الجودة».

لكن دعني أعود للحديث عن تومي. ما قالته رُوث آنذاك في المنامة بعد إطفاء النور بأنَّ تومي هو الذي جلب المشاكل لنفسه ربَّما اختصر ما ظنَّه الجميع في هيلشام تلك الأيَّام. لكن ذلك لم يخطر على بالي إلَّا عندما ذكرته لي وهي مستلقية هناك، قائلةً إنَّه كان يتعمَّد ألَّا يحاول عمل أيِّ شيء منذ أمد بعيد، يعود إلى أيَّامنا في مرحلة الجونيور. تذكَّرت بدهشة أنَّ تومي كان يعاني ذلك منذ زمن طويل، لا منذ أسابيع أو شهور، بل لسنوات عديدة.

تحدَّثت مع تومي عن ذلك منذ زمن طويل، وكانت روايته للكيفيَّة التي بدأت بها مشاكله تأكيدًا لما كنت أفكِّر فيه تلك الليلة. حسب قوله، بدأت بعد ظهر أحد الأيَّام في إحدى حصص الفنِّ المدرسية للآنسة جيرالدين. فحتَّى ذلك اليوم، كما أخبرني تومي، كان يستمتع دائمًا بدروس الرسم. لكن في ذلك اليوم، وفي حصَّة الفنِّ التي تُشرف عليها الآنسة جيرالدين، رسم لوحة ملوَّنة- لفيل يقف في حقل من الأعشاب الطويلة- وكان ذلك هو الوقت الذي بدأت فيها جميع المشاكل. زعم أنَّه رسمها على سبيل المزاح. ناقشته كثيرًا حول هذه النقطة، وتصوَّرت أنَّها من جملة الأمور التي تحدث في تلك الفترة من العمر: فأنت لا تملك أسبابًا واضحة، ولكنَّك تُقدم على فعلها، لأنَّك تعتقد أنَّها تثير الضحك، أو لأنَّك تريد أن تعرف ما إذا كانت ستحرِّك مشاعر الآخرين. وعندما يُطلب منك أن تفسِّرها بعد ذلك، ستبدو من دون معنى. طالما قمنا نحن بأعمال مشابهة. لم يفسِّرها تومي بهذا الأسلوب، لكنَّني متأكِّدة أنَّها حدثت كذلك.

لكنَّه رسم ذلك الفيل، الذي كان أشبه بصورة رسمها طفل أصغر منه بثلاث سنوات بالضبط. استغرق رسمها أكثر من عشرين دقيقة، وأضحكت الجميع بالتأكيد، ولكن ليس بالطريقة التي توقَّعها. مع ذلك، فربَّما لم تكن تُفضي إلى أيِّ شيء- وأظنُّ أنَّ ذلك كان مثارًا للسخرية- لو لم تكن الآنسة جيرالدين هي المدرِّسة ذلك اليوم.

كانت الآنسة جيرالدين هي الحارسة المفضَّلة لدى الجميع عندما كنَّا في تلك السنِّ. كانت لطيفة، ناعمة الحديث، تواسيك دائمًا عندما تحتاج ذلك، حتَّى وإن كنت قد أسأت التصرُّف، أو نَهرك أحد

الحرَّاس الآخرين. وإذا حدث وقرَّعتك ذات يوم، فإنَّها ستلاطفك على مدى عدَّة أيَّام بعد ذلك، كأنَّها مدينة لك بشيء ما. وكان من سوء حظِّ تومي أنَّ الآنسة جيرالدين كانت ذلك اليوم هي المدرِّسة في حصَّة الفنِّ، وليس السيِّد روبرت أو الآنسة إيميلي نفسها- وهي رئيسة الحرس- وكانا كثيرًا ما يتولَّيان تدريس الفنون. لو كان المدرِّس أحد هذين الشخصين، فإنَّ تومي كان سيُعامل بازدراء، أو باستخفاف، وكان أسوأ ما يتوقَّعه الآخرون له أن يُعتبر ذلك نكتة سخيفة. وربَّما اعتبره بعض التلاميذ مهرِّجًا كامل الأوصاف. غير أنَّ الآنسة جيرالدين، ولأنَّها الآنسة جيرالدين، لم تنظر إلى المسألة على هذا النحو. وبدلًا من ذلك، فإنَّها أمعنت النظر إلى اللوحة بمنتهى الرقَّة والتفهُّم ولعلَّها كانت تحسُّ بأنَّ الآخرين كانوا يستعدُّون للانقضاض على تومي، فإنَّها بالغت في اتخاذ موقف معاكس، وأخذت تُشيد بالفعل بمحاسن اللوحة، وتنوِّه بها أمام تلاميذ الصفِّ، وكانت تلك هي اللحظة التي أثارت حفيظتهم.

«عندما تركنا الحجرة»، قال تومي، «سمعتهم يتكلَّمون لأوَّل مرَّة. ولم يهتمُّوا بأنَّني سمعتهم».

أظنُّ أنَّ تومي شعر، حتَّى قبل رسم ذلك الفيل، بأنَّه أدنى منزلة من الآخرين- وبأنَّ لوحته بشكل خاصٍّ كانت أشبه بما يفعله تلاميذ أقلُّ عمرًا منه- وأنَّه كان يتستَّر على ذلك قدر المستطاع بأن يتعمَّد رسم صور طفولية. لكنَّ الأمور تكشَّفت تمامًا بعد لوحة الفيل، وبدأ الجميع يترقَّبون ما سيفعله بعد ذلك. بدا لفترة وجيزة أنَّه يبذل بعض الجهد. لكنَّه ما إن يبدأ بشيء ما حتَّى تتعالى حوله عبارات السخرية. الواقع أنَّ السخرية منه كانت تتزايد بتزايد محاولاته. لهذا السبب، لم يمضِ وقت طويل حتَّى عاد تومي إلى موقف الدفاع الأصليِّ لديه، وبدأ بإنتاج أعمال تبدو طفوليَّة بصورة متعمَّدة، أعمال تدلُّ على أنَّه لا يأبه لأيِّ شيء على الإطلاق. منذ ذلك الوقت، أخذت مشاعره تتعمَّق شيئًا فشيئًا.

بدا أنَّه كان، لبعض الوقت، يعاني من حصص الفنِّ- وكأنَّ ذلك لم يكن يكفي، لأنَّنا كنَّا نداوم كثيرًا في حصص الفنِّ. ولكنَّ المشاكل تعاظمت بعد ذلك. فقد حُرم من الألعاب، ورفض الأولاد الجلوس إلى جانبه عند تناول العشاء، أو تظاهروا بأنَّهم لا يسمعون ما يقوله في المنامة بعد إطفاء النور. لم يكن الوضع صعبًا جدًّا أوَّل الأمر. فقد انقضت شهور عديدة من دون أن يقع أيُّ حادث، وكان يعتقد أنَّ كلَّ شيء قد طواه النسيان. غير أنَّه بعد ذلك فعل شيئًا ما- أو أنَّ أحد أعدائه، مثل آرثر هـ- أعاد الحالة إلى ما كانت عليه مرَّة أخرى.

لست متأكِّدة متى بدأت نوبات الغضب. ما أذكره أنَّ تومي كان معروفًا دائمًا بفورات المزاج، حتَّى عندما كان في دار الحضانة، إلَّا أنَّه زعم لي أنَّ هذه النوبات تفاقمت بعد أن زادت المضايقات ضدَّه. على كلِّ حال، دفعت نوبات الغضب المزاجيَّة تلك الناس إلى إزعاجه بصورة أعنف، وإلى تصعيد مضايقته، وقد بلغت الحالة ذروتها في الأيَّام التي أتحدَّث عنها الآن- صيف المرحلة التي كنَّا فيها في الصف الثاني سينيور، أي عندما كنَّا في الثالثة عشرة من العمر.

ثمَّ توقَّفت فجأة، ليس بين عشيَّة وضحاها، ولكن بسرعة تامَّة. كنت، كما أسلفت، أراقب الوضع عن كثب في تلك الأيَّام، لذا لمست المؤشِّرات الأولى قبل أغلبية الآخرين. وبدأت بفترة- ربَّما كانت شهرًا، أو أطول من ذلك- عندما كانت المناكفات تتكرَّر بصورة مستمرَّة، ولكنَّ تومي لم يفقد أعصابه أو تماسكه. كنت ألاحظ أحيانًا أنَّه يوشك على الغضب، لكنَّه سرعان ما يسيطر على أعصابه؛ وفي أحيان أخرى، كان يهزُّ كتفيه بصمت، أو يتصرَّف كأنَّه لم يلاحظ شيئًا. كانت ردود الفعل هذه محبطة أوَّل الأمر؛ فربَّما كان الناس غاضبين منه، لأنَّه كما يبدو قد خذلهم. ثمَّ غلب الملل على الناس تدريجيًّا وخفَّت المقالب، وغدت أقلَّ حدَّة، إلى أن أدركت ذات يوم أنَّها توقَّفت منذ

أكثر من أسبوع.
لم يكن ذلك بالضرورة أمرًا مهمًّا بحدِّ ذاته، لكنَّني لمحت تغيُّرات أخرى. أشياء بسيطة مثل مرافقة ألكسندرا ج. وبيتر ن. له أثناء سيرهم معه عبر الساحة باتجاه الحقول، فيما كان ثلاثتهم يتحادثون بصورة طبيعية، وحين لاحظت فرقًا خفيًّا ولكنَّه واضح في صوت الناس عندما يُذكر اسمه. وفي إحدى المرَّات، في نهاية استراحة بعد الظهر كانت مجموعة منَّا تجلس على العشب على مقربة من الملعب الجنوبي، وكان الأولاد كعادتهم، يلعبون كرة القدم. شاركتُ في الحديث مع مجموعتي، ولكنَّني كنت أراقب تومي، الذي لاحظت أنَّه المحرِّك الرئيس في اللعبة. وفي إحدى اللحظات تمَّت عرقلته، فنهض بنفسه، ووضع الكرة على الأرض لينفِّذ ضربة حرَّة. بينما انتشر الأولاد حوله انتظارًا لما سيحدث، رأيت آرثر هـ.- وهو واحد من كبار مُضطَّهِديه - واقفًا خلفه بعدَّة ياردات، وقد أخذ يقلِّد تومي الذي كان يقف إلى جانب الكرة ويداه على خاصرتيه. راقبت الوضع عن كثب. لم يأبه أحد من الموجودين لحركات آرثر، مع أنَّهم شاهدوه بالتأكيد، ولكنَّهم ركَّزوا أبصارهم على تومي الذي كان يتهيَّأ لركل الكرة، وكان آرثر خلفه- غير أنَّ أحدًا لم يُبدِ اهتمامًا بذلك. ركل تومي الكرة التي انطلقت منسابة على العشب، تابعوا اللعب، ولم يقم آرثر بأيَّة حركة أخرى.
سررت لهذه التطوُّرات، إلَّا أنَّها حيَّرتني. لم يطرأ أيُّ تغيُّر حقيقي في عمل تومي- بلغت سمعته من ناحية «الابتكار» أدنى مستوياتها. وقد لاحظت أنَّ اختفاء فوراته المزاجيَّة كانت ذات فائدة كبيرة، ولكن كان من الصعب عليَّ تحديد ما بدا لي أنَّه العامل الرئيس في كلِّ ذلك. كان هناك تغيُّر ما في تومي نفسه- في أسلوب مشيه، وفي طريقة تحديقه إلى وجوه الناس، وتحدُّثه بأسلوبه المنشرح النابع من القلب- بشكلٍ مختلفٍ عن السابق، وقد أدَّى بدوره إلى تغيُّر في مواقف الآخرين تجاهه. لكن لم يكن واضحًا السبب الذي أدَّى إلى ذلك كلِّه.
ذلك هو ما أصابني بالحيرة، فقرَّرت سبر غوره في المرَّة القادمة التي نتحدَّث فيها على انفراد. حانت هذه الفرصة بعد وقت قصير، عندما أخذت دوري في طابور الغداء ولمحته أمامي في الصفِّ بعد عدَّة تلاميذ.
أظنُّك قد تستغرب ذلك، ولكنَّ طابور الغداء في هيلشام كان من الأمكنة المفضَّلة لتبادل الأحاديث الخاصَّة. ولذلك علاقة بالخصائص الصوتية للقاعة الكبرى؛ ومع كلِّ الضجيج والسقوف العالية، فإنَّك إذا أخفضت صوتك، واقتربت من أصدقائك، وتأكَّدت من أنَّ جيرانك منهمكون في الثرثرة، فإنَّ ثمَّة فرصة أمامك في ألَّا يتنصَّت عليك الآخرون. إلَّا أنَّنا على أيَّة حال لم نتمتَّع بخيارات كثيرة. فكثيرًا ما كانت الأماكن «الهادئة» هي أسوأ الأماكن، لأنَّ أحدًا ما سيمرُّ دائمًا إلى جانبك، وتكون على مسمع منه. وحالما يبدو عليك أنَّك تريد خلوة تتحدَّث فيها مع أحدهم على انفراد، فإنَّ جميع من في المكان يشعرون بذلك في خلال دقائق، وتضيع منك الفرصة.
لهذا، عندما رأيت تومي على بُعد عدَّة درجات أمامي، لوَّحت له بيدي- وكانت القاعدة أنَّك كما تتجاوز دورك في الطابور وتتقدَّم على من هم أمامك، بوسعك أن تسمح لمن هم بعدك بالتقدُّم عليك. وقد أقبل نحوي وعلى وجهه ابتسامة مرحة، ووقفنا معًا للحظة من دون أن نتحدَّث كثيرًا- ليس بسبب الحرج، بل لأنَّنا كنَّا ننتظر أيَّ اهتمام ناجم عن انحسار دور تومي وانسحابه مرَّة أخرى. ثمَّ قلت له:
«تبدو أكثر سعادة هذه الأيَّام يا تومي. تسير أمورك بشكل أفضل».
«إنَّك تلاحظين كلَّ شيء، أليس كذلك يا كاث؟». قال ذلك من دون أن تبدو عليه السخرية على

الإطلاق. «بلى، كلُّ شيء على ما يرام. وأموري لا بأس بها».
«ماذا حدث إذن؟ هل عثرت على الله أو شيء من هذا القبيل؟».
«الله؟» تريَّث تومي لحظة، ثمَّ ضحك، وقال: «آه، فهمت الآن. تُشيرين إلى أنَّني... لم أعد سريع الغضب».
«أليس هذا بالضبط يا تومي؟ لقد حوَّلت جميع الظروف لصالحك. وأنا كنت أراقبك، وهذا هو السبب الذي دفعني إلى سؤالك».
هزَّ تومي كتفيه: «أظنُّ أنِّي كبرت قليلًا، وربَّما كبر الآخرون كذلك. لا أستطيع الاستمرار في الأمور نفسها طوال الوقت. فذلك يثير الملل».
لم أقل شيئًا، ولكنَّني واصلت النظر إليه، إلى أن أطلق ضحكة أخرى صغيرة، وقال: «كاث. إنَّك شديدة الفضول. حسنًا، أعتقد أنَّ ثمَّة أمرًا ما. أمرًا حدث بالفعل. وإذا أردت فسأخبرك به».
«حسن، أبلغني به إذن».
«سأبلغك به يا كاث، ولكن لا تنشري الخبر، موافقة؟ قبل نحو شهرين، تحدَّثت مع الآنسة لوسي، وشعرت إثرها بارتياح كبير. من الصعب تفسير ذلك. ولكنَّها قالت لي شيئًا جعلني أحسُّ بتحسُّن كبير».
«وما الذي قالته؟».
«حسنًا... الموضوع هو، وقد يبدو ذلك غريبًا. وبدا لي كذلك أوَّل الأمر. ما قالته لي هو أنَّني إذا لم أكن أرغب في أن أكون مبتكرًا ومبدعًا، وإذا لم أكن ميَّالًا إلى ذلك بالفعل فلا ضير في ذلك على الإطلاق. ولا ضرر في ذلك، كما قالت».
«هل هذا هو ما قالته لك؟».
أومأ تومي، ولكنَّني استدرت.
«هذا كلُّه هراء محض يا تومي. إذا كنت ستلعب ألاعيب حمقاء، فإنَّ ذلك لن يهمَّني إطلاقًا».
كنت غاضبة كلَّ الغضب، لأنَّني ظننته يكذب عليَّ، بينما كنت أستحقُّ أن أكون موضع ثقته. لمحت بعدي بعدَّة درجات فتاة كنت أعرفها، فتوجَّهت نحوها، وتركت تومي واقفًا. لاحظت أنَّ الارتباك والكآبة استولتا عليه، لكنَّني بعد أشهر من القلق عليه، شعرت بالخديعة ولم أعد أكترث بمشاعره. ثرثرت مع صديقتي- وأعتقد أنَّها كانت ماتيلدا- بانشراح ومرح قدر المستطاع، وبالكاد نظرت إليه طوال الوقت الذي أمضيناه في الطابور.
لكن، بينما كنت أحمل طبقي باتجاه الموائد، تحرَّك تومي نحوي من الخلف، وقال بسرعة:
«كاث، أنا لم أحاول خداعك، إذا كان ذلك ما تفكرين فيه. هذا هو ما حدث بالضبط. سأشرح لك الأمر إذا أعطيتني الفرصة».
«لا تتفوَّه بهذا الهراء يا تومي».
«كاث، سأشرح لك الأمر. سأتوجَّه نحو البركة بعد الغداء. وإذا لاقيتني، سأخبرك».
وجَّهت له نظرة تأنيبيَّة، وابتعدت عنه من دون ردٍّ. ولكنَّني كنت، كما أظنُّ، قد بدأت أعتقد أنه ربَّما لم يختلق الحديث مع الآنسة لوسي. عندما جلست مع أصدقائي، كنت أحاول التفكير في طريقة أستطيع بها التسلُّل والانطلاق نحو البركة من دون إثارة الفضول لدى الجميع.

الفصل الثالث

تقع البركة جنوبي المنزل. للوصول إليها، تخرج من المدخل الخلفي وتنزل على الطريق الضيِّق الملتوي، وتسير إلى جانب بقعة تكاثف فيها نبات السرخس، الذي يسدُّ طريقك عادة في أوائل الخريف. إذا خلا الموقع من الحرَّاس، يمكنك أن تقطع البقعة المزروعة بالرواند. على كلِّ حال، فإنَّك عندما تقترب من البركة ستجد أجواء هادئة في انتظارك، وسيطالعك البطُّ، وأعشاب الديس المائية، وطحالب البرك. لكنَّ هذا الموقع لم يكن مع ذلك المكان الأنسب للحديث الخاصِّ على انفراد- ولا يشبه طابور الغداء. ذلك أنَّ بوسع الآخرين أن يشاهدوك بوضوح من المنزل. كما كان من الصعب التنبُّؤ بانتقال الصوت عبر الماء؛ وإذا أراد أحدهم أن يسترق السمع، فما عليه أن ينزل على الطريق الخارجي، ويقرفص بين الشجيرات على الجانب الآخر من البركة. لكن، بما أنَّني أنا التي قطعت الحديث مع تومي فجأة في طابور الغداء، افترضت أنَّ عليَّ بذل أقصى جهدي للقائه. كان ذلك أحد أيَّام شهر تشرين الأول/أكتوبر، إلَّا أنَّ الشمس كانت مشرقة يومذاك، فقرَّرت التظاهر بالتسكُّع هناك بغير هدف، ولقاء تومي صدفة.

ربَّما بسبب حرصي على المحافظة على هذا الانطباع- مع أنَّني لست متأكِّدة من أنَّ أحدًا كان بالفعل يشاهد ما يجري- فإنَّني لم أحاول الجلوس عندما وجدته لاحقًا جالسًا على صخرة مسطَّحة على مقربة من حافَّة الماء. ربَّما حدث ذلك يوم جمعة أو في عطلة نهاية الأسبوع، لأنَّنا كنَّا نرتدي ثيابنا العاديَّة. لا أذكر بالضبط ما كان يرتديه تومي- ربَّما كان أحد قمصان كرة القدم الرثَّة التي كان يرتديها حتَّى في أيَّام البرد القارس- لكنَّني كنت بالتأكيد أرتدي جاكيت بدلة الرياضة العنَّابية ذات السحَّاب الأماميِّ، التي اشتريتها يوم كنت في الصفِّ الأوَّل سينيور. سرتُ حوله ثمَّ وقفت وأدرت ظهري للماء وواجهت المنزل، لأعرف إذا كان آخرون قد بدأوا بالتجمُّع عند النوافذ. تحدَّثنا لعدَّة دقائق، ولكن ليس عن شيء محدَّد، وكأنَّ ما جرى في طابور الغداء لم يحدث قطُّ. لا أعلم إذا كان ذلك لصالح تومي، أو لصالح أيٍّ ممَّن يروننا. لكنَّني حافظت على وقفتي المؤقَّتة، ثمَّ بدأت بعد قليل مواصلة جولتي. لمحت عندئذ بعض إمارات الفزع على وجه تومي، وشعرت بالأسف فورًا لأنَّني ضايقته سابقًا، مع أنَّني لم أتعمَّد ذلك. لذلك قلت له، على ما أذكر:

«بالمناسبة، ما الذي قلته آنذاك؟ عمَّا أخبرتك به الآنسة لوسي؟».

«أوه»... حدَّق تومي إلى البركة خلفي، متظاهرًا كذلك بأنَّ ذلك الموضوع غاب عن خاطره. «الآنسة لوسي. آه ذلك الموضوع».

كانت الآنسة لوسي الأنشط في مجال الرياضة من جميع الحرَّاس في هيلشام، مع أنَّك لن تدرك ذلك من مظهرها. كانت ربعة القامة، تشبه البولدوغ تقريبًا، وكان شعرها الأسود النافر، عندما ينمو، ينتصب إلى أعلى بحيث لا يغطِّي أذنيها أو عنقها المكتنز. لكنَّها كانت بالفعل قويَّة وسليمة البنية. حتَّى عندما كبرنا فإنَّ أكثرنا، بمن فينا الأولاد، لم نسبقها في مباريات الجري. كانت رائعة في لعبة الهوكي، وقادرة على مضاهاة أولاد مرحلة السينيور في كرة القدم. وأذكر أنَّني تفرَّجت ذات يوم على محاولة جيمس ب. لعرقلتها حين تخطَّته بالكرة، فكان هو من ارتمى بعيدًا وليس هي. عندما كنَّا في مرحلة الجونيور، لم تأخذ أبدًا دور الآنسة جيرالدين، التي كنَّا نلجأ إليها في

ساعات الشدَّة. في الواقع، لم ترغب في الحديث إلينا كثيرًا عندما كنَّا أصغر عمرًا. لم نبدأ الإعجاب بأسلوبها الحيويّ إلَّا عندما وصلنا لمرحلة السينيور.

«كنت تقول شيئًا ما»، قلت لتومي، «شيئًا عن أنَّ الآنسة لوسي أبلغتك أنَّه لا يضيرك أن تفتقر إلى روح الابتكار والإبداع».

«قالت شيئًا من هذا القبيل. وقالت إنَّه لا ينبغي عليَّ الانزعاج من ذلك، وألَّا آبه لما يقوله الآخرون. حدث ذلك قبل شهرين. ربَّما أكثر».

في المنزل، كان بعض تلاميذ السينيور قد توقَّفوا عند إحدى نوافذ الدرج وبدأوا بمشاهدتنا. لكنَّني وقفت أمام تومي، وتوقَّفت عن التظاهر بأيِّ شيء.

«من الطريف أن تقول ذلك يا تومي. هل أنت واثق من أنَّك فهمت كلامها؟».

«بالطبع فهمته تمامًا»، خفت صوته فجأة، «لم تقلها لي مرَّة واحدة فقط. كنَّا في حُجرتها، وألقت عليَّ محاضرة كاملة عن هذا الموضوع».

أوضح تومي أنَّها حين دعته إلى مكتبها، إثر انتهاء حصَّة «تقدير الفنّ»، توقَّع أن تلقي عليه محاضرة أخرى حول ضرورة أن يبذل مزيدًا من الجهد- وتلك هي النصيحة التي تلقَّاها من شتَّى الحرَّاس، بمن فيهم الآنسة إيميلي نفسها. لكن فيما كانا في الطريق من المنزل إلى دفيئة البرتقال- حيث يُقيم الحرَّاس- تولَّد لدى تومي إحساس خفيٌّ بأنَّ هذا الأمر مختلف. فحالما جلس في مقعد الآنسة لوسي المريح- بينما ظلَّت هي واقفة إلى جانب النافذة- طلبت منه أن يروي لها القصَّة الكاملة لما حدث له. لهذا، أخذ تومي يسرد القصَّة بحذافيرها. وقبل أن يبلغ نصف القصَّة، تدخَّلت فجأة وبدأت هي بالحديث. قالت إنَّها عرفت الكثير من التلاميذ الذين واجهوا صعوبة كبيرة ليصبحوا مبتكرين في مجالات رسم اللوحات والرسوم والشعر على عدَّة سنوات. وذات يوم شهدت حياتهم منعطفًا جديدًا، وتفتَّحت مواهبهم دفعة واحدة. ومن الممكن أن يكون تومي واحدًا من هؤلاء.

سمع تومي بتلك الأمور جميعها في الماضي، ولكنَّ شيئًا ما في سلوك الآنسة لوسي دفعه إلى مزيد من التركيز على ما تقوله.

«كنت أدرك أنَّها كانت ستصل إلى شيء ما. شيء مختلف».

الحقيقة أنَّها سرعان ما بدأت تقول أشياء كان من الصعب على تومي فهمها. ولكنَّها ظلَّت تكرِّرها مرَّة تلو مرَّة، حتَّى فهمها. قالت إنَّها تتمنَّى لو أنَّ تومي حاول بما فيه الكفاية، إلَّا أنَّه لم يكن مبتكرًا، ولكن لا ضير في ذلك على الإطلاق، وينبغي ألَّا يأبه بالأمر. من الخطأ أن يقوم أيُّ شخص، سواء كان من التلاميذ أم الحرَّاس، بمعاقبته أو بالضغط عليه بأيِّ شكل. فالخطأ ليس خطأه ولا ذنب له في ذلك. عندما احتجَّ تومي بأنَّ كلام الآنسة لوسي جيِّد جدًّا ولكنَّ الجميع **يعتقدون** أنَّه هو المخطئ، تنهَّدت ونظرت خارج نافذتها. ثمَّ قالت:

«ربَّما لن يساعدك ما سأقوله كثيرًا، ولكن عليك أن تتذكَّره. هناك شخص واحد على الأقل هنا في هيلشام يعتقد غير ما يظنُّه الآخرون. على الأقل شخص واحد يعتقد أنَّك تلميذ جيِّد للغاية، ومن أفضل من عرفتهم في حياتي، بصرف النظر عن مدى إبداعك».

«لم تضحك عليك، أليس كذلك؟»، سألتُ تومي، «لم تكن تلك طريقة ذكيَّة للهزء منك؟».

«لم يكن الأمر كذلك بالتأكيد. وعلى أيِّ حال»... ولأوَّل مرَّة، بدا عليه القلق من أن يكون أحد يتنصَّت على ما يقول، استدار وألقى نظرة خاطفة على المنزل. كان تلاميذ السينيور قد فقدوا الاهتمام وغادروا المكان؛ وكانت بعض البنات من دُفعتنا نفسها في طريقهن إلى السرادق، إلَّا أنَّهن بعيدات عنه. استدار تومي نحوي، وقال بما يشبه الهمس:

«على أيِّ حال، كانت **ترتجف** عندما قالت ذلك».
«ماذا تقصد، ترتجف؟».
«ترتجف غضبًا. كنت أعرف ذلك. كانت ساخطة. كانت في أعماق نفسها شديدة السخط».
«على من؟».
«لا أعرف بالتأكيد. ليس عليَّ أنا في كلِّ حال، وهذا هو الأمر الأهمُّ!»، ضحك، ثمَّ تحوَّل إلى الجدِّية مرَّة أخرى، «لا أعلم على من كانت غاضبة على أيِّ حال».
وقفت مرَّة أخرى، لأن رَبلتي ساقيَّ كانتا تؤلمانني.
«هذا شيء في منتهى الغرابة يا تومي».
«الغريب أنَّ حديثها معي، أفادني كثيرًا. ما كنت تقولينه قبل قليل، عن أنَّ الأمور تبدو بالنسبة لي أفضل. أظنُّ أنَّ هذا هو السبب. لأنَّني فكَّرت في كلامها بعد ذلك، أدركت أنَّ ما ذكرته لي صحيح، وأنَّه لا ذنب لي في ذلك. كلُّ ما في الأمر أنَّني لم أُحسن التصرُّف. ولكن حين أفكِّر مليًّا في الموضوع، أدرك أنَّه لا ذنب لي. وهذا هو المهمُّ. وكلَّما أزعجني هذا الموضوع، ألمحها تتجوَّل هنا وهناك، أو أجد نفسي داخل غرفة الصفِّ التي تدرِّس فيها، ولا تتطرَّق بأيِّ شكل إلى ما دار بيننا من حديث، ولكنَّني أنظر إليها، وتراني هي أحيانًا فترسل لي إيماءة خفيفة. حسنًا، هذا ما حدث. ولكن يا كاث، إيَّاك أن تشيري ولو بكلمة واحدة لأيِّ شخص. هل تعدينني بذلك؟».
أومأت له، ولكنَّني سألت: «هل طلبت منك أن تتعهَّد بذلك؟».
«لا، لا، لم تطلب منِّي وعدًا بأيِّ شيء. ولكن لا ينبغي أن تبوحي أنتِ بأيِّ كلمة. عليكِ أن تعديني بذلك».
«موافقة». كانت البنات المتَّجهات إلى السرادق قد شاهدنني، فلوَّحن لي ونادينني. لوَّحت لهنَّ وقلت لتومي: «عليَّ الذهاب الآن. يمكننا أن نتحدَّث عن الموضوع مرَّة أخرى قريبًا».
لكنَّ تومي تجاهل ذلك، وأردف قائلًا: «هناك شيء آخر لم أفهمه تمامًا، وكنت أريد أن أسألك عنه. لقد قالت إنَّنا لم نتلقَّ تعليمًا كافيًا، أو ربَّما شيئًا من هذا القبيل».
«تعليم كافٍ؟ هل تعني أنَّها تعتقد أنَّ علينا الدراسة بجدِّية أكثر؟».
«لا، لا أعتقد أنَّها كانت تقصد ذلك. كانت تتحدَّث عنَّا **نحن**. عمَّا قد يحدث لنا ذات يوم. التبرُّعات وما إلى ذلك».
«لكن **نحن** تعلَّمنا عن كلِّ ذلك»، قلت، «أتساءل ماذا قصدَتْ. هل تقصد أنَّ هناك أشياء لم يخبرونا بها حتَّى الآن؟».
فكَّر تومي للحظة، ثمَّ هزَّ رأسه: «لا أعتقد. أظنُّها ترى أنَّنا لم نتلقَّ **تعليمًا** كافيًا. لأنَّها قالت إنَّ لديها هي نفسها القدرة على أن تكلِّمنا عن الأمر».
«عن ماذا بالضبط؟».
«لست متأكِّدًا. وربَّما أسأتُ الفهم يا كاث، أنا لا أعرف. ربَّما قصدَت شيئًا آخر مختلفًا تمامًا، شيئًا يتعلَّق بأنَّني أفتقر إلى الابتكار. أنا في الواقع لم أفهم».
نظر تومي إليَّ وكأنَّه يتوقَّع منِّي أن أطرح الجواب. فكَّرت لعدَّة ثوانٍ، ثمَّ قلت: «تومي، تذكَّر ما حدث بدقَّة. قلت إنَّها كانت غاضبة»...
«حسنًا... هكذا بدا الأمر. كانت صامتة، ولكنَّها كانت ترتجف».
«طيِّب، مهما كان الوضع. لنقل إنَّها غضبت. هل بدأت بالحديث عن هذا الموضوع عندما غضبت؟ أي عن أنَّنا لم نتعلَّم كفايةً عن منح التبرُّعات وما إلى ذلك؟».

«أظنُّ ذلك»...
«الآن ركِّز تفكيرك يا تومي. لماذا أثارت هذا الموضوع. بدايةً تحدَّثت عنك وذكرت أنَّك لا تجيد الابتكار. ثمَّ بدأت فجأة بالحديث عن الموضوع الآخر. ما هي الرابطة بين هذا وذاك؟ لماذا أثارت موضوع التبرُّعات وما أشبه ذلك؟ ما علاقة ذلك بكونك غير مبدع؟».
«لا أعلم. ربَّما هناك سبب ما كما أعتقد. ربَّما ذكَّرها أحد الأشياء بشيء آخر. كاث، لقد استأثر هذا الموضوع الآن بكل اهتمامك».
ضحكتُ، لأنَّه كان على حقٍّ: لقد كنت مقطبة، وغارقة تمامًا في أفكاري. والحقيقة أنَّ أفكاري كانت مشتَّتة في عدَّة اتجاهات في وقت واحد. وقد ذكَّرني ما قاله تومي عن حديثه مع الآنسة لوسي بشيء ما، بل ربَّما بسلسلة طويلة من الأشياء، بأحداث صغيرة من الماضي لها علاقة بالآنسة لوسي، أوقعتني يومذاك في حيرة.
«نعم، أصبت»... توقَّفت ثمَّ تنهَّدت، «لا أستطيع أن أفهم الأمر، حتَّى بيني وبين نفسي. ولكنَّ كلَّ هذا، وكلَّ ما تقوله، ينسجم مع كثير من الأشياء المحيِّرة، التي تشغل تفكيري. منها الأسباب التي كانت تدفع المدام إلى أن تأخذ أفضل ما رسمناه من صور. ماذا كان السبب تمامًا؟».
«كان ذلك بسبب المعرض».
«ولكن ما **هو** هذا المعرض؟ لقد واصلت المجيء إلى هنا وأخذ أفضل أعمالنا. لا بدَّ من أنَّ لديها أكداسًا منها الآن. سألت الآنسة جيرالدين ذات يوم منذ متى بدأت المدام بالقدوم إلى هنا، فقالت إنَّها ما زالت تفعل ذلك منذ إنشاء هيلشام. ما هو هذا **المعرض**؟ ولماذا يكون لديها معرض تحتفظ فيه بأفضل أعمالنا؟».
«ربَّما كانت تبيعها. في الخارج، في أماكن أخرى، حيث يبيعون كلَّ شيء».
هززت رأسي: «لا يمكن ذلك. لا بدَّ من أنَّ للموضوع علاقة بما أخبرتك به الآنسة لوسي. عنا، وعمَّا سيدفعنا ذات يوم إلى منح التبرُّعات. لا أعلم السبب، ولكنَّ هذا الشعور ما زال يراودني منذ زمن. عليَّ أن أذهب الآن يا تومي. ينبغي ألَّا نبوح لأحد بما تحدَّثنا عنه».
«لا. ولا تنسي أن تتجنَّبي ذكر الآنسة لوسي لأيِّ شخص».
«ولكن هل ستبلغني أنت بكلِّ ما تقوله لك عن هذا الموضوع؟».
أومأ تومي، ثمَّ ألقى نظرة خاطفة حوله مرَّة ثانية: «كما قلت. عليك أن تغادري يا كاث. لا بدَّ من أنَّ شخصًا ما سيتنصَّت علينا قريبًا».
كان المعرض الذي تحدَّثنا عنه، تومي وأنا، شيئًا تعايشنا معه مع تقدُّمنا في العمر. كان الجميع يتحدَّثون عنه كما لو كان موجودًا بالفعل، مع أنَّ أحدًا منَّا لم يكن في الحقيقة متيقِّنًا من ذلك. وأنا متأكِّدة من أنَّني لم أكن الشخص الوحيد الذي لا يتذكَّر كيف أو متى سمعت عنه للمرَّة الأولى. من المؤكَّد أنَّني لم أسمع عنه من الحرَّاس: فهم لم يأتوا على ذكر المعرض قطُّ، وكان هناك عُرفٌ ينصُّ ألَّا نثير الموضوع على مسمع منهم.
أظنُّ أنَّ هذا الموضوع قد تناقلته أجيال مختلفة من تلاميذ هيلشام. أذكر يوم كنت في الخامسة أو السادسة من العمر، وكنَّا نجلس إلى طاولة صغيرة على مقربة من أماندا س. وأيدينا ملطَّخة بطين الصلصال الذي نصنع منه المجسَّمات. لا أذكر ما إذا كان هناك أطفال آخرون غيرنا، أو من كان الحارس المشرف علينا. كلُّ ما أذكره أنَّ آماندا س.- التي تكبرني بسنة واحدة- نظرت إلى ما كنت أفعله وهلَّلت بإعجاب: «هذا رائع بالفعل، رائع بالفعل يا كاثي! إنَّه شيء **فاتن**، أراهن أنَّه سيؤخذ إلى المعرض!».

لا بدَّ من أنَّني كنت آنذاك أعرف عن المعرض، لأنَّني أذكر ما شعرت به من الحماسة والاعتزاز عندما قالت تلك العبارة- وما حدَّثت به نفسي بعد ذلك بلحظة واحدة: «هذا أمر مثير للسخرية. ليس بيننا حتَّى الآن من يصلح للمعرض».

وفيما كنَّا نتقدَّم عمرًا، بقينا نتحدَّث عن المعرض. فإذا أردت الإشادة بعمل شخص ما، فإنَّك ستقول: «عمله يصلح للمعرض». وبعد اكتشافنا المفارقة الساخرة، فإنَّنا إذا شاهدنا عملًا سيِّئًا ويدعو للسخرية، فإنَّنا سنقول: «آه بالتأكيد! هذا العمل للمعرض على الفور!».

ولكن، هل كنَّا نؤمن بوجود المعرض بالفعل؟ أنا لست متأكِّدة من ذلك هذه الأيَّام. وكما أسلفت، لم نذكر ذلك على الإطلاق للحرَّاس، وعندما أستعيد الماضي، يبدو لي أنَّنا نحن الذين فرضنا ذلك العُرف على أنفسنا، وذلك ما خطَّط له الحرَّاس كذلك. هناك حادثة ما زلت أذكرها يوم كنَّا في الحادية عشرة. كنَّا في الحجرة ٧ ذات صباح شتويٍّ مشمس. وكانت حصَّة السيِّد روجر قد انتهت، وتخلَّف بعضنا للدردشة معه. كنَّا نجلس على مناضدنا الصغيرة، ولا أتذكَّر تمامًا ما كنَّا نتحدَّث عنه، إلَّا أَن السيِّد روجر كان كعادته يُضحكنا أكثر وأكثر. ثمَّ قالت كارول هـ. وهي تقهقه: «يمكن أن يأخذوها منك إلى المعرض!». وضعت كفَّها فورًا على فمها، وندَّت عنها صرخة مكتومة: «أوووووبس!» وبقي الجوُّ مشوبًا بالمرح وخفَّة الدم، ولكنَّنا جميعًا، بمن فينا السيِّد روجر، علمنا أنَّها أخطأت. لكن لم يكن الأمر كارثة تمامًا: فلم يكن الوضع ليختلف عن ذلك لو أنَّ أحدنا تفوَّه بكلمة نابية، أو ذكر اسم الكنية الذي أسبغناه عليه أو عليها. ابتسم السيِّد روجر بتسامح، وكأنَّه يقول: «لا بأس عليك. سنتظاهر بأنَّك لم تقولي ذلك». وواصلنا الحديث كأنَّ شيئًا لم يكن.

ومع أنَّ المعرض ظلَّ في نظرنا بقعة ضبابيَّة غامضة، فإنَّ من الحقائق الثابتة أنَّ المدام كانت، كعادتها، تزورنا مرَّتين، وأحيانًا ثلاث أو أربع مرَّات سنويًّا، وتنتقي بعضًا من أفضل أعمالنا. وكنَّا نسمِّيها «المدام» لأنَّها كانت فرنسيَّة أو بلجيكيَّة- وهذه مسألة لم تُحسم- وكانت تلك هي التسمية التي درج الحرَّاس والحارسات على استخدامها دائمًا. كانت امرأة نحيفة طويلة القامة، ذات شعر قصير، وربَّما كانت في ريعان الشباب، رغم ظنِّنا أحيانًا أنَّها ليست كذلك. وكانت دائمًا ترتدي بزَّة رسميَّة رماديَّة. خلافًا لعمَّال الحدائق وللسائقين الذين ينقلون إلينا المؤن، وخلافًا بالفعل لجميع من كانوا يفدون إلينا من الخارج، فإنَّها لم تتحدَّث إلينا، بل كانت تتجنَّبنا بنظرتها القاسية. كنَّا، على مدى عدَّة سنوات، نعتبرها «مُتكبِّرة»، ولكن عندما كنَّا في الثامنة أو نحوها، طرحت رُوث ذات ليلة نظريَّة أخرى.

«إنَّها تخاف منَّا»، أعلنت.

كنَّا نرقد في منامتنا في العتمة. في مرحلة الجونيور، كان كلُّ خمسة عشر شخصًا يتقاسمون منامة واحدة. لذلك لم نكن نميل إلى الأحاديث المطوَّلة الحميمة التي سنعرفها في منامات مرحلة السينيور. لكنَّ أكثر من ضمَّتهنَّ «مجموعتنا» كنَّ يرقدن في أسرَّة متقاربة آنذاك، واعتدنا أن نتحادث طويلًا خلال الليل.

«ماذا تقصدين بقولك إنَّها تخاف منَّا؟»، سألت إحدانا، «هل من الممكن أن تخشانا؟ ماذا يمكننا أن نفعل بها؟». «لا أعرف»، أجابت رُوث، «لا أعرف، ولكنَّني متأكِّدة من ذلك. كنت أعتقد أنَّها متكبِّرة، ولكنَّها في الحقيقة شيء آخر. أنا الآن متأكِّدة من ذلك. المدام تخاف منَّا».

تناقشنا في ذلك بصورة متقطِّعة خلال الأيَّام القليلة التالية. ولم يتَّفق أكثرنا مع رُوث، ولكنَّ ذلك زاد من تصميمها على إثبات أنَّها محقَّة. لهذا اتَّفقنا على خطَّة للتأكُّد من صحَّة نظريَّتها عندما تقوم المدام بزيارتها القادمة إلى هيلشام.

ومع أنَّ زيارات المدام لا تُعلن مُسبقًا، فقد كانت مواعيد وصولها متوقّعة وواضحة. وكان الاستعداد لها يبدأ قبل قدومها بأسابيع. إذ تبدأ الحارسات بتفقُّد أعمالنا- لوحاتنا واسكتشاتنا والخزفيات وجميع مقالاتنا وقصائدنا. كان ذلك يستغرق في العادة نحو أسبوعين على الأقل. وقبل انتهاء هذه الفترة، تكون أربعة أو خمسة أعمال من صنع كلِّ صفٍّ من صفوف الجونيور والسينيور قد نُقلت إلى غرفة البلياردو، التي تُغلق تمامًا خلال تلك الفترة. لكن، إذا وقفت على الجدار السفليِّ للسطح الخارجي، فسيكون بوسعك، أن تشاهد عبر النوافذ أكداسًا من تلك الأعمال وهي تتعاظم يومًا بعد يوم. وعندما تبدأ الحارسات بتوضيبها بشكل أنيق على المناضد وأعمدة الإسناد، بشكل تبدو معه أشبه بصورة مصغَّرة لأحد مهرجاناتنا، تدرك أنَّ المدام ستأتي خلال يوم أو يومين.

في فصل الخريف الذي أتحدَّث عنه الآن، لم نكن نريد أن نعرف فقط يوم زيارة المدام، بل اللحظة المحدَّدة التي تصل فيها، لأنَّها لم تكن تمكث عندنا أكثر من ساعة أو ساعتين. لذا، عندما رأينا الأعمال معروضة في غرفة البلياردو، قرَّرنا المرابطة بالتناوب لاستطلاع وقت وصولها.

طريقة إنشاء المباني سهَّلت مهمَّتنا للغاية. فقد بُنيت هيلشام في فلاة منبسطة، تحيطها حقول مرتفعة من جميع الجهات. يعني ذلك أنَّ بوسعك وأنت تنظر من خلال أيٍّ من نوافذ غرف الدراسة تقريبًا في المنزل الرئيس- وحتَّى في السرادق- أن تستطلع بشكل كامل الطريق الطويلة الضيّقة التي تمرُّ عبر الحقول باتجاه البوَّابة الرئيسة. كانت البوَّابة نفسها في موقع بعيد، لذلك كان على أيَّة عربة أن تسلك الطريق المفروشة بالحصباء، وتمرَّ بين الشجيرات ومسابك الورد، لتصل أخيرًا إلى الساحة الأمامية للمنزل الرئيس. وقد تنقضي أحيانًا عدَّة أيَّام من دون أن نرى عربة تنزل على الطريق الضيّقة، باستثناء سيَّارات الشحن والشاحنات المقفلة التي كانت تُحضر المؤن أو الجنائنيين أو العمَّال. أمَّا السيَّارات فكانت نادرة، وكان ظهور إحداها عن بُعد كافيًا لإثارة الهرج والمرج خلال الحصَّة الصفِّيَّة.

في ظهيرة اليوم الذي شوهدت فيه سيَّارة المدام وهي تعبر الحقول، بدأ الجوُّ مشمسًا وتذروه الرياح، ثمَّ راحت السحب العاصفة بالتجمُّع. كنَّا في الحجرة ٩ الطابق الأوَّل مقابل المنزل الرئيس- وعندما تبادلنا الهمسات، لم يفهم السيِّد فرانك المسكين، الذي كان يحاول تعليمنا أصول التهجئة، لماذا تولَّانا الاضطراب فجأة.

الخطَّة التي وضعناها لاختبار صحَّة نظريَّة رُوث كانت بسيطة جدًّا: سنختبئ- نحن الستَّة اللواتي دبَّرن الخطَّة- ونتربَّص في مكان ما انتظارًا للمدام، ثمَّ ننهض بسرعة، ونحتشد حولها دفعة واحدة. سنظلُّ جميعًا في غاية التهذيب ونمضي في سبيلنا. لكن إذا كان توقيتنا سليمًا، وإذا لم تؤخذ على حين غرَّة، فسوف ندرك- كما أصرَّت رُوث- أنَّها كانت تخاف منَّا بالفعل.

كان مصدر قلقنا الوحيد ألَّا تتاح لنا الفرصة خلال زيارتها القصيرة لهيلشام. لكن عندما أوشكت حصَّة السيِّد فرانك على الانتهاء، استطعنا مشاهدة المدام مباشرة في الساحة السفليَّة وهي توقف سيَّارتها. عقدنا اجتماعًا سريعًا على بسطة الدرج، ثمَّ لحقنا ببقيَّة الصفِّ نزولًا على الدرج وتلكَّأنا في المدخل الرئيس. استطعنا رؤية الساحة المشرقة، حيث كانت المدام ما زالت جالسة وراء المقود، تنقِّب في محفظتها. وأخيرًا هبطت من السيَّارة وأقبلت نحونا، ببزَّتها الرماديَّة المعهودة، وقد ضمَّت محفظتها بإحكام بذراعيها كليهما إلى صدرها. بإشارة من رُوث هبَّينا وقوفًا، وتقدَّمنا نحوها رأسًا، ولكن كان ذلك كلُّه أشبه بالحلم. عندما توقَّفت هي تمامًا، غمغمت كلٌّ منَّا: «معذرة يا آنسة»، وتفرَّقنا.

لن أنسى على الإطلاق التغيُّر الغريب الذي أصابنا بعدئذٍ. فحتَّى تلك اللحظة، كان موضوع المدام قضيَّة خاصَّة نريد تسويتها بيننا، إن لم يكن نكتة بالتحديد. لم نفكِّر كثيرًا أن تصبح المدام نفسها، أو أيُّ شخص آخر، جزءًا منها. ما أعنيه هنا هو أنَّها كانت حتَّى تلك اللحظة مسألة طفيفة، مع أنَّها كانت تنطوي على عنصر الجرأة. بل بدا وكأنَّ المدام لم تتصرَّف بشكل مختلف عمَّا توقَّعناه: فقد تجمَّدت في مكانها، وانتظرت منَّا أن نمضي في حال سبيلنا. لم تصرخ، أو حتَّى تلهث. لكنَّنا كنَّا حريصات كلَّ الحرص على معرفة استجابتها، وربَّما كان ذلك هو سبب تأثُّرنا الكبير. عندما توقَّفتْ عن الحركة، ألقيتُ نظرة خاطفة على وجهها، وذلك ما فعلته البنات الأخريات بالتأكيد، وما زلت أتذكَّر حتَّى اليوم الرعدة التي حاولَت، على ما يبدو، التستُّر عليها، والفزع الحقيقيَّ الذي كانت إحدانا ستثيره عرضًا في نفسها إذا لمستها. مع أنَّنا واصلنا السير، فقد شعرنا بها بالفعل؛ وبدا الأمر كأنَّنا هربنا من أشعَّة الشمس إلى ظلٍّ بارد. إنَّ رُوث على حقٍّ. المدام **تخاف** منَّا بالفعل. لكنَّها تخاف منَّا كما يخاف أحدنا من العناكب. لم نكن مستعدَّات لذلك. ولم يحدث قطُّ أنَّنا فكَّرنا بما يمكن أن نشعر به **نحن**، إذا اعتُبرنا كذلك، أي كعناكب.

عندما عبرنا الساحة ووصلنا إلى العشب، كنَّا مجموعة تختلف كلَّ الاختلاف عمَّا كنَّا عليه ونحن نترقَّب بانفعال خروج المدام من سيَّارتها. أوشكت هانا على البكاء. بل إنَّ رُوث نفسها كانت مستثارة بالفعل. ثمَّ قالت إحدانا، أظنُّها لورا:

«إذا كانت تكرهنا، فلماذا تريد أخذ أعمالنا؟ لماذا لا تتركنا في حالنا؟ وعلى أيِّ حال من طلب منها أن تأتي إلى هنا؟».

لم يُجبها أحد. تابعنا المسير إلى السرادق، من دون أن نقول أيَّ شيء عمَّا حدث.

عندما أستعيد هذه الذكريات الآن، أُدرك أنَّنا كنَّا في مرحلة من العمر لم نعرف خلالها إلَّا أقلَّ القليل عن أنفسنا- عن هويَّتنا، وعن اختلافنا عن حرَّاسنا والناس في الخارج- لكنَّنا لم نُدرك كذلك ما تعنيه هذه الأمور آنذاك. أنا متأكِّدة من أنَّك، خلال طفولتك، قد شهدت تجربة كتلك التي شهدناها ذلك اليوم؛ وإن لم تكن تشبهها من حيث التفاصيل الفعليَّة، فإنَّها تماثلها في عمق المشاعر. لأنَّ محاولات حرَّاسك لإعدادك وتأهيلك غير مهمَّة: جميع المحاضرات والفيديوهات والمناقشات والإنذارات، لا شيء منها سيُجدي نفعًا. ليس وأنت في الثامنة من العمر، وبرفقة آخرين في مكان مثل هيلشام، وحرَّاسك مثل حرَّاسنا، ويمازحك الجنائنيُّون وعمَّال التوصيل ويضحكون معك وينادونك بكلمة «حبيبي».

رغم كلِّ شيء، لا بدَّ من أن يسكنك جانب من ذلك. لا بدَّ من أن يترسَّخ فيك. فعندما تأتي تلك اللحظة، سيكون جزء منك في انتظارها. ربَّما وأنت بعدُ في سنٍّ مبكرة، في الخامسة أو السادسة من عمرك، تسمع همسات في رأسك تقول: «ذات يوم، يوم ليس بالبعيد، ستعرف ذلك الإحساس». لذا تنتظر، حتَّى وإن لم تدرك ذلك، تنتظر اللحظة التي ستعرف فيها أنَّك تختلف عن الآخرين بالفعل؛ وأنَّ هناك أناسًا مثل المدام لا يكرهونك أو يرغبون في إيذائك، بل إنَّهم يرتعدون لمجرَّد التفكير بك، أو بالطريقة التي أتيت بها إلى هذا العالم، وبالأسباب التي دفعت إلى ذلك. اللحظة التي ستلمح فيها نفسك بعيون أشخاص من هذا النوع ستكون لحظة قاسية، أشبه بالمرور أمام مرآة مررت بها كلَّ يوم في حياتك، وفجأة تراها تعكس لك شيئًا آخر، شيئًا غريبًا مثيرًا للقلق.

الفصل الرابع

سأنهي خدماتي كمرشدة مع نهاية العام الحالي، ومع أنَّني أفدت كثيرًا من عملي هذا، إلَّا أنَّ عليَّ الإقرار بترحيبي بفرصة الاستراحة- التوقُّف والتفكير والتذكُّر. أنا متأكِّدة من أنَّ الأمر يعود، جزئيًّا، إلى التمهيد لتغيير إيقاع حياتي، ومن هنا راودتني الرغبة الملحَّة لاستحضار جميع هذه الذكريات القديمة. أظنُّ أنَّ ما كنت أريده بالفعل هو أن أدوِّن جميع الأشياء التي حدثت بيني وبين تومي ورُوث بعد أن كبرنا وغادرنا هيلشام. لكنَّني أدرك أنَّ كثيرًا ممَّا حدث في وقت لاحق إنَّما كان امتدادًا للفترة التي أمضيناها في هيلشام، ولهذا السبب، أريد أن أستحضر تلك الذكريات المبكرة بكلِّ عناية. خذ، على سبيل المثال، مسألة الفضول حول المدام. لقد كانت، من ناحية، مجرَّد مزاح وعبث طفولي. ولكنَّها من ناحية أخرى كانت، كما سترى، بداية لسيرورة ظلَّت تتنامى وتكبر على مدى سنوات حتَّى سيطرت على حياتنا.

بعد ذلك اليوم، لم يكن ذكر اسم المدام محرَّما تمامًا علينا، لكنَّه لم يتردَّد فيما بيننا إلَّا لمامًا. لم يقتصر ذلك على مجموعتنا الصغيرة، بل تجاوزها ليشمل جميع التلاميذ في دفعتنا. أستطيع القول إنَّنا كنَّا فضوليين حولها كما كنَّا من قبل، لكنَّنا شعرنا أنَّ التمادي في الاستقصاء والاستفسار- عمَّا كانت تفعله بأعمالنا الفنِّية وحول ما إذا كان ثمَّة معرض بالفعل- سيُفضي بنا إلى قضايا لم نكن مستعدِّين لها آنذاك.

لكنَّ موضوع المعرض ظلَّ يتردَّد بين الفينة والفينة، وقد عاد إلى ذاكرتي بعد عدَّة سنوات عندما كان تومي يحدِّثني إلى جانب البركة عن الحديث الغريب الذي دار بينه وبين الآنسة لوسي. تذكَّرت الموضوع عندما تركته جالسًا على الصخرة، وتوجَّهت بسرعة عبر الحقول لألحق بصديقاتي.

كان شيئًا ذكرته لنا الآنسة لوسي ذات يوم خلال الحصَّة. وقد علق بذاكرتي لأنَّه حيَّرني آنذاك، ولأنَّه كان يمثِّل إحدى المناسبات القليلة التي ورد فيه ذكر المعرض بصورة متعمَّدة أمام أحد الحرَّاس.

كنَّا آنذاك منشغلين بما أطلقنا عليه لاحقًا اسم «مساجلة الكوبونات». وقد ناقشت مع تومي قضيَّة مساجلة الكوبونات قبل بضع سنوات، ولم نتَّفق أوَّل الأمر على الزمن الذي بدأت به. وقد قلت إنَّنا كنَّا يومها في العاشرة من العمر؛ وقال هو إنَّها بدأت بعد ذلك، لكنَّه اقتنع برأيي آخر الأمر. أنا متأكِّدة من معلوماتي: كنَّا في الصف الرابع جونيور- بعد قليل من حادثة لقائنا المدام، ولكن قبل ثلاث سنوات من حديثنا إلى جانب البركة.

أظنُّ أنَّ مساجلة الكوبونات كانت جانبًا من تبلور الحاجة إلى الاستحواذ لدينا مع تقدُّمنا في العمر. فقد كنَّا، كما ألمحت سابقًا، نعتقد على مدى عدَّة سنوات أنَّ نقل أعمالنا إلى حجرة البلياردو، حتَّى وإن أخذتها المدام، كان نصرًا كبيرًا. لكنَّ موقفنا اتَّسم بالتردُّد عندما بلغنا العاشرة. المهرجانات، بما فيها نظام استخدام تلك القسائم ومقايضتها بمشتريات أخرى، علَّمتنا الأصول لتسعير أيِّ شيء نصنعه. وقد انشغلنا كثيرًا بمسألة القمصان، وتزيين الجدران حول أسرَّتنا، وإضفاء لمسة شخصية على مناضدنا. كما شغلتنا، بطبيعة الحال، العناية بما «جمعناه» من أعمالنا الفنِّية.

لا أعلم ما إذا كانت لديك «مجموعات» في الأماكن التي كنت تقيم فيها. فإذا حدث والتقيت بعض تلاميذ هيلشام القدامى، ستجدهم، عاجلًا أم آجلًا، يحنُّون إلى مجموعاتهم ويتوقون إلى تلك الأيَّام. حينذاك، كنَّا بالطبع نعتبرها أمورًا بديهيَّة مفروغًا منها. فقد كان لك صندوق خشبيٌّ كُتب عليه اسمك، تضعه تحت سريرك وتملؤه بممتلكاتك- أي التحف التي حصلت عليها في غرفة المبيعات أو خلال المهرجان. كان هناك، فيما أذكر، تلميذ أو تلميذان ممَّن لم تكن تعنيهم المجموعات كثيرًا، ولكنَّ أغلبنا كانوا يعتنون بها عناية فائقة، ويحضرون الأشياء ويعرضونها، وينقلون أشياء أخرى بدقَّة.

الفكرة هي، حين صرنا في العاشرة، بدا اعتزازنا باقتناء المدام لبعض الأشياء متعارضًا مع إحساسنا بأنَّنا نفقد أعمالنا الأكثر قيمة في السوق. جاءت لحظة الصدام خلال مساجلة الكوبونات.

بدأ الأمر عندما أخذ عدد من التلاميذ، وأغلبهم من الأولاد، بالتذمُّر والغمغمة بأنَّنا نستحقُّ كوبونات تعويضية مقابل ما تأخذه المدام من أعمالنا. وافق كثير من التلاميذ على ذلك، ولكنَّ تلك الفكرة أثارت حفيظة تلاميذ آخرين. استمرَّ النقاش الحامي الوطيس بيننا بعض الوقت، حتَّى اليوم الذي قرر فيه روي ج.- الذي كان يكبرنا بسنة واحدة، وكانت المدام قد أخذت عددًا من أعماله- أن يذهب ويناقش الأمر مباشرة مع الآنسة إيميلي.

كانت الآنسة إيميلي، المشرفة على حرَّاسنا، أكبر الحرَّاس سنًّا. لم تكن طويلة القامة بشكل خاصٍّ، ولكنَّ طريقة مشيها، منتصبة مرفوعة الرأس، تشعرك بأنَّها كانت كذلك. كانت تربط شعرها الفضِّيَّ إلى الوراء، ولكنَّ بعض الخصل كانت تنفلت منه وتتهدَّل حول وجهها، وتكاد تدفعني للجنون. كانت الآنسة إيميلي تتجاهل تلك الخُصل دائمًا، وكأنَّها غير موجودة. وفي المساء، كانت تبدو في هيئة غريبة، إذ تتطاير من رأسها بعض الشعرات الطليقة، لا تأبه لها عندما تتحدَّث معك بصوتها الهادئ الوقور. كنَّا نخشاها كثيرًا، ولم تكن بالنسبة لنا كما كان الحرَّاس الآخرون. لكنَّنا اعتبرناها منصفة، واحترمنا قراراتها، بل ربَّما أدركنا، ونحن في المرحلة الجونيور، أنَّ حضورها المثير للرهبة هو الذي يشعرنا بالأمن في هيلشام.

كانت محاولة الاجتماع بها من دون دعوة مسبقة أمرًا في غاية الصعوبة؛ كما كان عرض المطالب التي يحملها روي على ما يبدو خطوة انتحاريَّة. غير أنَّ روي لم يُستقبل بالنفور الذي كنَّا نتوقَّعه. ففي غضون الأيَّام التي تلت ذلك، بلغنا أنَّ الحرَّاس كانوا يتحدَّثون فيما بينهم -بل يتجادلون- حول مسألة الكوبونات. وفي آخر المطاف، أُعلن أنَّنا سنتسلَّم الكوبونات، ولكن ليس بأعداد كبيرة، لأنَّ اختيار المدام لبعض أعمالنا كان بحدِّ ذاته «شرفًا ما بعده شرف». لم يستسغْ أيٌّ منَّا هذه الخطوة، واستمرَّ تبادل الحجج بين هذا وذاك.

مقابل تلك الخلفية، طرحت بولي ت. سؤالها على الآنسة لوسي ذات صباح. كنَّا في المكتبة، جالسين حول طاولة البلُّوط الضخمة. أذكر أنَّ قطعة من الخشب كانت تشتعل في المدفأة، وكنَّا نتناوب على قراءة إحدى المسرحيَّات. وعندما وصلنا إلى أحد المشاهد، دفعت إحدى العبارات في المسرحية لورا إلى إلقاء نكتة ما أو ملاحظة حول مسألة الكوبونات. ضحكنا جميعًا، بمن فينا الآنسة لوسي، التي قالت إنَّه بما أنَّ الجميع في هيلشام لا يتحدَّثون إلَّا عن هذا الموضوع، علينا أن نتوقَّف عن قراءة المسرحية ونمضي بقيَّة الحصَّة في تبادل الآراء حول الكوبونات. فجأة، ومن دون أيَّة مقدِّمات، سألت بولي: «آنسة، إذن، لماذا تأخذ المدام بعض أعمالنا معها؟».

ران الصمت علينا. لم تكن الآنسة لوسي تغضب في الغالب، ولكنَّك ستعرف ذلك بالتأكيد عندما تفعل، تصوَّرنا لفترة وجيزة أنَّ بولي هي السبب. لكنَّنا لاحظنا أنَّ الآنسة لوسي لم تكن غاضبة، بل

كانت تفكِّر بعمق. أذكر أنَّني سخطت على بولي لأنَّها كسرت العُرف بهذه الصورة الحمقاء، لكنَّني ترقَّبت بمنتهى الحماسة ردَّ فعل الآنسة لوسي. اتَّضح أنَّني لم أكن الوحيدة في هذه الناحية، لأنَّ الجميع وجَّهوا سهامهم إلى بولي، قبل أن يتعاطفوا مع الآنسة لوسي، وذلك في رأيي إجحاف شديد بحقِّ بولي المسكينة. بعد ما بدا أنَّه وقت طويل جدًّا، قالت الآنسة لوسي:

«كلُّ ما أستطيع أن أقوله لكم اليوم هو أنَّه يوجد سبب وجيه لذلك. سبب مهمٌّ جدًّا. ولكن إذا حاولت أن أفسِّره لكم الآن، فإنَّني أعتقد أنكَّم لن تفهموه. وآمل أن يُفسَّر لكم ذات يوم».

لم نضغط عليها. كانت الأجواء حول الطاولة مشحونة بالحرج العميق. ورغم الفضول الذي شعرنا به، إلَّا أنَّنا أردنا أن تخرج أحاديثنا من تلك البقعة الضيِّقة. لكنَّنا بعد برهة وجيزة، تنفَّسنا الصعداء عندما عدنا للجدال، مرَّة أخرى- بصورة متكلِّفة إلى حدٍّ ما- حول الكوبونات. غير أنَّ كلمات الآنسة لوسي أوقعتني في حيرة، وظللت أفكِّر فيها مرَّة بعد أخرى لعدَّة أيَّام بعد ذلك. لهذا السبب عادت إلى خاطري ذكرى ذلك اليوم في المكتبة- وربَّما حادثة أو حادثتان صغيرتان من هذا النوع- عصر ذلك اليوم قرب البركة، عندما حدَّثني تومي عن حديثه مع الآنسة لوسي، وعن قولها له بأنَّنا لم «نتعلَّم بما فيه الكفاية» عن بعض الأمور.

***

في سياق حديثنا عن موضوع الكوبونات، أودُّ أن أقول شيئًا عن «المبيعات» التي سبق وأشرت إليها عدَّة مرَّات. كانت المبيعات مهمَّة بالنسبة إلينا لأنَّها الوسيلة التي نحصل بها على الأشياء من الخارج. حصل تومي على قميصه من ماركة بولو، مثلًا، من إحدى جولات المبيعات. وحصلنا من هناك كذلك على ملابسنا، وألعابنا، والأشياء الخاصَّة التي لم يكن يصنعها تلميذ آخر.

مرَّة كلَّ شهر، كانت شاحنة ضخمة بيضاء مغلقة تتحرَّك نزولًا على الطريق الطويل، وكنت تحسُّ بالانفعال الذي يغمر المنزل والساحات. وعندما تبدأ بالصعود نحو الساحة الرئيسة، حيث ينتظرها حشد من التلاميذ- أغلبهم من المرحلة الجونيور، لأنَّك عندما تتجاوز الثالثة عشرة من العمر لا يليق بك أن تتحمَّس بشكل واضح. لكنَّنا، في الحقيقة، كنَّا كذلك.

عندما أستعيد تلك الأيَّام، أستغرب مدى الحماسة التي كانت تتولانا آنذاك، لأنَّ المبيعات كانت مخيِّبة للآمال إلى حدٍّ كبير. لم تتضمَّن أشياء جديدة من قريب أو بعيد، بل كنَّا ننفق كوبوناتنا لتجديد الأشياء التي بَليت أو انكسرت بأشياء أخرى من النوع نفسه -لكنَّ النقطة المهمَّة، كما أعتقد، هي أنَّنا كنَّا في الماضي نجد شيئًا ما في المبيعات، شيئًا له صفة خصوصيَّة مميَّزة: سترة، أو ساعة يد، أو مقصًّا حادًّا لم يُستخدم من قبل، لكنَّني كنت أضعه باعتزاز قرب سريري. كنَّا نجد هذا الشيء أو ذاك كلَّ مرَّة. لذلك، لم نكن نخفي إحساسنا بالأمل والحماسة، على الرغم من تظاهرنا بعكس ذلك.

الواقع أنَّنا كنَّا نحتفي بقدوم الشاحنة وإنزال ما فيها. ولو كنتَ هناك- أي من تلاميذ الجونيور -كنت ستتابع العاملين اللذين كانا يرتديان ملابس العمل وهما يتحرَّكان من الشاحنة إلى حجرة المستودع وهما يحملان صناديق الكرتون الضخمة. وكنت ستسألهما عمَّا كان فيها، لتتلقَّى الإجابة المعتادة: «كثير من الأطايب، يا حبيبي». وإذا كرَّرت السؤال: **«هل المحصول وفير؟»**، فإنَّهما، إن آجلًا أو عاجًلا، سيبتسمان ويقولان: «أوه، نعتقد ذلك، يا حبيبي. المحصول وفير جدًّا»، ويطلقان ضحكة مرحة.

كانت الصناديق تُفتح من أعلى، لذا تستطيع أن تلمح ما فيها من أشياء. وأحيانًا كان العاملان يخالفان القاعدة، ويسمحان لك بتحريك بعض الأشياء لتشاهدها بصورة أفضل. لهذا السبب، عند بدء جولة المبيعات بعد ذلك بأسبوع أو نحو ذلك، تتردَّد الشائعات، وربَّما تدور حول نوع معيَّن من

ملابس الرياضة أو أشرطة الكاسيت الموسيقيَّة. وإذا حدثت أيَّة مشاكل، فإنَّ ذلك يعود إلى أنَّ عددًا قليلًا من التلاميذ قد استهوتهم سلعة محدَّدة بعينها.

كان موسم المبيعات يختلف كلَّ الاختلاف عن أجواء المهرجانات التي يسودها الصمت. وكانت تنظَّم في قاعة الطعام، ويغلب عليها التزاحم والصخب. الحقيقة أنَّ التدافع والصراخ كانا جزءًا من هذا النشاط الممتع الذي كان يتميَّز بالبهجة في أغلب الأحيان. وكما قلت، يُستثنى من ذلك أحيانًا، الحالات التي تخرج فيها الأمور عن نطاق السيطرة، ويتشابك فيها التلاميذ ويتدافعون وقد يتصارعون في بعض الأحيان. عندئذ سيتدخَّل الرقباء ويهدِّدون بإغلاق القاعة تمامًا، وبتلقِّي محاضرة تأنيبية من الآنسة إيميلي عند الاجتماع في صباح الغد.

كان يومنا في هيلشام يبدأ دائمًا بالاجتماع العامِّ، الذي كان قصيرًا في العادة - وبعدَّة إعلانات، وربَّما بقصيدة يلقيها أحد التلاميذ. لم تكن الآنسة إيميلي تتحدَّث كثيرًا، بل كانت تجلس بثبات على المسرح، وتومئ بالموافقة على كلِّ ما يقال آنذاك، وتُلقي نظرة قاسية على الجهة التي تتعالى منها أيَّة همسة من جانب الحضور. ولكنَّ الوضع سيكون مختلفًا في صبيحة اليوم التالي للمبيعات الصاخبة. فقد كانت تطلب منَّا أن نجلس على أرض القاعة- وكنَّا في العادة نظلُّ واقفين خلال تلك الاجتماعات- ولن تكون هناك أيَّة إعلانات أو أنشطة أخرى، بل إنَّ الآنسة إيميلي ستتحدَّث لنا مدَّة عشرين أو ثلاثين دقيقة، وربَّما لفترة أطول. نادرًا ما رفعت صوتها، ولكنَّ نبرتها كانت فولاذيَّة صارمة في تلك المناسبات، ولم يكن أحد من الحضور، بمن فيهم تلاميذ الصفِّ الخامس جونيور، ينبس بكلمة.

كنَّا بالفعل نحسُّ بالذنب، بصورة جماعيَّة، لأنَّنا خذلنا الآنسة إيميلي. لكنَّنا لم نستطع متابعة التركيز في هذه المحاضرات، مع أنَّنا حاولنا ذلك. يعود ذلك، جزئيًّا، إلى اللغة التي كانت تستخدمها. «لا تستحقُّون الاحترام» و«إساءة استخدام الفرصة»: كانت هاتان العبارتان هما الأكثر تواترًا في محاضراتها، وكنت أنا ورُوث، نستحضرهما عندما نتذكَّر تلك الأيَّام في غرفتها في وسط دوفر. كان تحوُّل الآنسة إيميلي من حالة إلى أخرى واضحًا بما فيه الكفاية: كنَّا فئة خاصَّة متميِّزة، لأنَّنا من تلاميذ هيلشام، لذا كان سلوكنا السيِّئ أكثر إحباطًا. وما عدا ذلك، أصبحت الأمور ضبابيَّة غائمة. كانت الآنسة إيميلي أحيانًا تتحدَّث بطلاقة، ثمَّ تتوقَّف فجأة وتتفوَّه بعبارة ما مثل: «عمَّ كنتُ أتحدَّث؟ عمَّ كنتُ أتحدَّث؟ ما الذي يمكن أن يعترض طريقنا؟». ثمَّ تظلُّ واقفة هناك، وقد أغمضت عينيها، وتجهَّمت قسماتها كما لو كانت تفتِّش عن إجابة للسؤال. رغم شعورنا بالحيرة والارتباك، فإننا كنَّا نجلس هناك، ونتمنَّى أن تكتشف المطلوب في رأسها. ويمكن أن تستأنف بعدها بتنهيدة عميقة- وهي إشارة إلى أنَّنا سنحظى بالعفو عمَّا ارتكبناه- أو أنَّها ستقطع الصمت ويُلعلع صوتها قائلة: «لن نرضخ للضغط والإكراه. أوه لا! ولن ترضخ هيلشام كذلك!».

عندما كنَّا نتذكَّر تلك الخطب المطوَّلة، كانت رُوث تشير إلى غرابة كون تلك القضايا غامضة وعميقة الغور، لأنَّ الآنسة إيميلي كانت، داخل الصفِّ وخلال الحصَّة، واضحة كلَّ الوضوح. عندما ذكرت ذات يوم أنِّي رأيت أحيانًا الرئيسة في أحلامي وهي تتجوَّل في أرجاء هيلشام، متحدِّثة مع نفسها، شعرت رُوث بالإهانة، وقالت:

«لم تكن كذلك على الإطلاق! تُرى، كيف قد تكون هيلشام لو أنَّ شخصًا تافهًا تولَّى إدارتها؟ تمتَّعت الآنسة إيميلي بذكاء حادٍّ ومرهف ومتَّقد».

لم أجادل في ذلك. من المؤكَّد أنَّ الآنسة إيميلي قد تكون خارقة الذكاء. فإذا كنت، على سبيل المثال، في مكان محظور عليك في المنزل الرئيس أو الساحات، وسمعت وقع أقدام أحد الحرَّاس

في طريقه إليك، فإنَّك تستطيع وقتذاك أن تجد مكانًا تختبئ فيه. لقد كانت هيلشام مليئة بالمخابئ، داخل الأبواب وخارجها: فهناك الخزائن، والزوايا، والشجيرات، والأسيجة. ولكن إذا رأيت الآنسة إيميلي قادمة، فسينخلع قلبك، لأنَّها تعرف دائمًا أنَّك مختبئ في مكان ما. يبدو كأنَّها كانت تتمتَّع بحاسَّة سادسة إضافية. فقد تختبئ داخل خزانة، وتغلق بابها بإحكام ولا تحرُّك ساكنًا، ولكنَّك كنت تعرف أنَّ خطوات الآنسة إيميلي ستتوقَّف في الخارج، وأنَّ صوتها سيقول: «حسنًا. اخرج الآن».

ذلك ما حدث لسيلفي س. ذات يوم على بسطة الطابق الثاني. استشاطت الآنسة إيميلي غضبًا يومذاك. لم تصرخ كما تفعل الآنسة لوسي مثلًا عندما تغضب عليك، إلَّا أنَّ نوبات الآنسة إيميلي كانت، في الأحوال كافَّة، أكثر إفزاعًا. كانت عيناها تضيقان، وتهمس باهتياج لنفسها كما لو كانت تناقش زميلًا غير مرئيٍّ لها حول مستوى قسوة العقوبة التي ستوقعها بك. كانت طريقتها في فعل ذلك تعني أنَّ نصفك كان مستميتًا لسماع رأيها ونصفك الآخر يرفض ذلك تمامًا. لكنَّ الآنسة إيميلي لم تكن تتَّخذ خطوات شنيعة آخر الأمر. فنادرًا ما كانت تأمر باحتجازك، أو ترغمك على الأعمال البيتية، أو تسحب ما تتمتَّع به من امتيازات. ومهما يكن من أمر، فإنَّك ستحسُّ بالتعاسة، لمجرَّد معرفتك بأنَّك فقدت احترامها، وتشعر أنَّ عليك فعل شيء على الفور لإنقاذ نفسك.

لكنَّ المهمَّ هو عدم وجود وسيلة للتكهُّن إذا كانت سيلفي ستنال عقوبة كاملة آنذاك من الآنسة إيميلي. لكن عندما شوهدت لورا وهي تركض عبر رقعة الراوند، أطبقت الآنسة إيميلي فكَّيها فجأة، وقالت بلهجة لاذعة: «ينبغي ألَّا تكوني هنا يا بنت، **انصرفي**»، ومضت في حال سبيلها.

ثمَّ هناك الفترة التي شعرتُ فيها بأنَّ العلاقة بيننا متوتِّرة للغاية. فقد كان من الأماكن الأثيرة جدًّا عندي تلك الطريق الصغيرة التي تلتفُّ حول المنطقة الخلفيَّة من المنزل الرئيس، مرورًا بجميع الزوايا وجميع الامتدادات؛ وكان عليك أن تحشر نفسك داخل الشجيرات، وتمرَّ تحت قوسين تغطِّيهما شجيرات اللبلاب، وعبر بوَّابة علاها الصدأ. وبوسعك دائمًا أن تسترق النظر عبر النوافذ، واحدة بعد أخرى. أعتقد أنَّ إيثاري الشديد لتلك الطريق كان يعود، جزئيًّا، إلى أنَّني لم أكن **متأكِّدة** من أنَّها كانت من المناطق المسموح بدخولها أو غير ذلك. من المؤكَّد أنَّ المرور كان ممنوعًا أثناء دوام الصفوف. ولكن لم يكن واضحًا على الإطلاق ما إذا كانت تلك القاعدة سارية المفعول في الأمسيات، أو خلال عطلة نهاية الأسبوع. لكنَّ أغلب التلاميذ كانوا يتحاشونها على أيِّ حال، وربَّما زاد من جاذبية تلك الطريق الشعور بالعزلة والابتعاد عن الجميع.

على أيِّ حال، فإنَّني قمت بتلك النزهة البسيطة عصر أحد الأيَّام المشمسة، عندما كنت في الصف الثالث جونيور. ألقيت نظرة خاطفة على الغرف الفارغة عند مروري بمحاذاتها. ونظرت فجأة إلى داخل أحد الصفوف، وشاهدت الآنسة إيميلي فيه. كانت هناك بمفردها، تمشي بتؤدة، تتحدَّث بصوت هامس، تؤشِّر وتدلي بملاحظات أمام جمهور خفيٍّ غير مرئيٍّ في الغرفة. افترضت أنَّها كانت تتدرَّب على تقديم إحدى الحصص أو على خطبة في أحد الاجتماعات، وكنت أوشك على مواصلة السير عندما لمحتني، فاستدارت على الفور، ونظرت إليَّ مباشرة. تجمَّدت، وأدركت أنَّ ساعتي قد حانت، ولكنَّني لاحظت أنَّها واصلت حديثها، إلَّا أنَّها أصبحت توجِّه كلامها لي. ثمَّ استدارت، بصورة طبيعيَّة، وحدَّقت إلى تلميذ متخيَّل آخر في جزء آخر من الصفِّ. واصلت سيري على الطريق. طوال اليوم التالي أو نحوه، ساورني الخوف ممَّا ستقوله الآنسة إيميلي عندما تراني. ولكنَّها لم تشرْ إلى الأمر على الإطلاق.

***

لكن هذا ليس الموضوع الذي أردت الحديث عنه بالفعل. ما أودُّ فعله الآن هو أن أذكر بعض

الأمور عن رُوث، وعن الطريقة التي تصادقنا بها، وعن الأيَّام السالفة التي قضيناها معًا. لأنَّني كنت أقود سيَّارتي مرَّة بعد أخرى في هذه الأيَّام، وأعبر تلك الحقول وقت الظهيرة، وربَّما أتناول قهوتي أمام إحدى النوافذ في إحدى محطَّات الخدمة، وأكتشف أنَّني أفكِّر فيها مجدَّدًا.

لم تكن الشخص الذي كنت أرغب في مصادقته أوَّل الأمر. أذكر أنَّني، عندما كنت في الخامسة أو السادسة من العمر، كنت أشارك هانا ولورا، وليس رُوث، في بعض الأنشطة. وأتذكَّر رُوث على نحو غامض في تلك الفترة المبكرة من العمر.

كنت ألعب في إحدى الحفر المليئة بالرمل، مع عدد من التلاميذ. كنَّا نتزاحم ونضايق بعضنا بعضًا. كنَّا في منطقة خالية، تحت أشعَّة الشمس الدافئة. ربَّما كانت حفرة رمليَّة في ملعب الأطفال، أو لعلَّها البقعة الرمليَّة الواقعة في نهاية ركن القفز العريض في الملعب الشمالي. مهما يكن من أمر، فقد كان الجوُّ حارًّا وكنت أشعر بالعطش، وغير راضية عن وجود هذا العدد الكبير منَّا في الحفرة الرمليَّة. كانت رُوث واقفة هناك، لا في الحفرة معنا، بل على بُعد عدَّة أقدام منَّا. كانت غاضبة من فتاتين خلفي، بسبب شيء حدث قبل ذلك، وقد وقفت هناك تحدِّق إليهما. أظن ُأنَّني لم أكن أعرف عن رُوث إلَّا أقلَّ القليل حتَّى تلك اللحظة. ولكن لا بدَّ من أنَّها تركت في نفسي انطباعًا طيِّبًا عنها، لأنَّني أذكر مواصلة الانشغال بما كنت أفعله في البقعة الرملية، أتوجَّس شرًّا من التفكير في أنَّها ستحدِّق إليَّ أنا. لم أنبس ببنت شفة، ولكنَّني جهدت في إقناعها بأنَّني لم أكن مع هاتين الفتاتين خلفي، ولا علاقة لي بالأمر الذي أغضبها.

هذا كلُّ ما أذكره عن رُوث في ذلك الزمن البعيد. كنَّا في الدفعة نفسها، ولا بدَّ من أنَّنا كنَّا نلتقي كثيرًا. ولكن باستثناء حادثة الحفرة الرمليَّة، لا أذكر أنَّني كنت ألتقيها إلَّا **عندما** أصبحنا في مرحلة الجونيور، أي بعد سنتين، عندما كنَّا في السابعة وعلى أعتاب الثامنة من العمر.

كان تلاميذ الجونيور يستخدمون الملعب الجنوبي أكثر من غيره. وكنت هناك ذات يوم في فترة الغداء، في الركن المجاور لأشجار الحور، عندما اقتربت رُوث منِّي ونظرت إليَّ طولًا وعرضًا، ثم سألت:

«هل تريدين أن تركبي حصاني؟».

كنت آنذاك منهمكة في اللعب مع اثنين أو ثلاثة من التلاميذ الآخرين، ولكن كان من الواضح أنَّ رُوث تخاطبني وحدي. أسعدني ذلك كلَّ السعادة، ولكنَّني أردت أن أتمنَّع قليلًا قبل الإجابة.

«حسنًا، وما اسم حصانك؟».

اقتربت رُوث منِّي خطوة واحدة. «إنَّه حصاني المفضَّل»، قالت، «اسمه ‘رعد’. لكنِّي لن أسمح لك بركوبه. إنَّه خطر جدًّا. ولكن يمكنك أن تمتطي ‘علَّيق’، شرط ألَّا تضربيه بسوطك الصغير. أو يمكنك إذا أردت أن تركبي أيًّا من الخيول الأخرى». وذكرت عدَّة أسماء لم أعد أذكرها. ثم سألت:

«هل عندك أية خيول؟».

نظرت إليها وفكَّرت بتؤدة قبل الإجابة: «لا. لا أملك أيَّة خيول».

«ولا حصانًا واحدًا؟».

«لا».

«حسنًا. يمكنك امتطاء ‘علَّيق’، وإذا راقك، يمكنك الاحتفاظ به. ولكن عليك ألَّا تضربيه بالسوط الصغير. ويجب أن تأتي معي الآن».

كان أصدقائي قد تركوني على أيِّ حال، وانشغلوا بمواصلة ما كانوا يفعلونه. لهذا هززت كتفي، وذهبت مع رُوث.

كان الحقل مليئًا بأطفال يلعبون، بعضهم أكبر منَّا سنًّا، إلّا أنَّ رُوث اخترقت صفوفهم بصورة متعمَّدة، وكانت تسبقني بخطوتين أو ثلاث. عندما اقتربنا من شبكة الأسلاك التي تشكِّل السياج الذي يفصلنا عن الحديقة، استدارت نحوي، وقالت:

«طيِّب. سنركب الآن. خذي 'علَّيق'».

تسلَّمت العنان غير المرئي الذي كانت تمسكه، ثم انطلقنا، جيئة وذهابًا، بمحاذاة السياج، نجري خببًا حينًا، وعدوًا حينًا آخر. كنت على حقٍّ عندما أبلغت رُوث أنَّني لا أملك أية أحصنة، لأنَّها، بعد تمضية بعض الوقت مع 'علَّيق'، سمحت لي بتجربة خيولها الأخرى واحدًا بعد الآخر، ووجَّهت لي، بصوت عالٍ، الإرشادات حول التعامل مع كلِّ حركات الجواد.

«لقد قلت لك**!** عليك أن تنحني إلى الأمام وأنت على ظهر 'نرجس برِّي'. انحني أكثر من ذلك**!** لن تكوني مرتاحة إلَّا إذا انحنيت إلى **الأمام!**».

لا بدَّ من أنَّني أحسنت التصرُّف، لأنَّها سمحت لي بعدئذ أن أمتطي 'رعد'، وهو جوادها المفضَّل. لا أعلم كم من الوقت قضينا مع خيولها ذلك اليوم. أظنُّ أنَّه كان وقتًا طويلًا، وأعتقد أنَّنا نسينا أنفسنا تمامًا في غمرة انشغالنا بتلك اللعبة. لكن رُوث أنهت اللعبة فجأة ودونما سبب ظاهر، زاعمة أنَّني كنت أتعمَّد إرهاق خيولها، وأنَّ عليَّ إعادتها جميعًا إلى الإسطبل. أشارت بيدها إلى قسم من السياج، فأخذت أدفع الخيول نحوه بينما بدا أنَّ غضب رُوث عليَّ كان يتعاظم شيئًا فشيئًا، وهي تقول إنَّني أرتكب الأخطاء في كلِّ ما أقوم به. ثمَّ سألتني:

«هل تحبِّين الآنسة جيرالدين؟».

ربَّما كانت تلك هي المرَّة الأولى التي أتساءل فيها عمَّا إذا كنت أحبُّ أحد الحرَّاس أو الحارسات. وأخيرًا قلت: «بالطبع، أنا أحبُّها».

«ولكن هل تحبِّينها **بالفعل؟** وكأنَّها شخص خاصٌّ بالنسبة لك؟ وكأنَّها الأثيرة لديك؟».

«نعم. بالتأكيد. إنَّها الأثيرة لدي».

نظرت رُوث إليَّ مليًّا، ولفترة طويلة. أخيرًا قالت: «طيِّب. في هذه الحالة، سأسمح لك بأن تكوني إحدى حارساتها السرِّيات».

بعدئذ سلكنا طريق العودة إلى المنزل الرئيس، وانتظرت منها تفسيرًا لما كانت تعنيه، ولكنَّها لم تفعل. إلَّا أنَّني تبيَّنت الأمر خلال الأيَّام اللاحقة.

الفصل الخامس

لا أعرف بالتأكيد الفترة التي استمرَّت فيها مسألة «الحراسة السرِّية». فعندما ناقشتها مع رُوث أثناء رعايتي لها في دوفر، زعمت أنَّها استمرَّت أسبوعين أو ثلاثة أسابيع- لكن من المؤكَّد أنَّ ذلك غير صحيح. ربَّما كانت تحسُّ بالحرج من ذلك، ولهذا فإنَّ المسألة كلَّها قد تبدَّدت في ذاكرتها. وأنا أخمِّن أنَّها استمرَّت نحو تسعة أشهر، بل مدَّة سنة، عندما كنَّا في السابعة من العمر وعلى أعتاب الثامنة.

لم أكن متأكِّدة على الإطلاق من أنَّ رُوث قد اخترعت الحراسة السرِّية بنفسها، ولكنَّها كانت من دون شكٍّ رئيسة العملية. كان عددنا يتراوح بين ستَّة وعشرة أعضاء، وكان العدد يتغيَّر كلَّما أدخلت رُوث عضوًا جديدًا أو طردت آخر. كنَّا نعتقد أنَّ جيرالدين كانت أفضل حارس في هيلشام، وانشغلنا بصنع هدايا لها- منها، إذا لم تخنِّي الذاكرة شرشف عريض ألصقت عليه أزهار مضغوطة. ولكنَّ السبب الحقيقي لوجودنا كان، بالطبع، حمايتها.

عندما انضممت إلى فريق الحراسة، كانت رُوث والآخرون يعلمون، منذ أمد بعيد، بمؤامرة اختطاف الآنسة جيرالدين. لم نعرف على الإطلاق من كان وراءها. وقد روادنا الشكُّ أحيانًا في بعض الأولاد من المرحلة السينيور، وبعض الأولاد من دفعتنا في تلك السنة. وكانت هناك حارسة لم نكن نحبُّها- هي الآنسة آيلين- اعتقدنا لفترة بسيطة أنَّها هي العقل المدبِّر للمؤامرة. ولم نكن نعرف موعد تنفيذ عملية الاختطاف، ولكنَّنا كنَّا متأكِّدين من شيء واحد، هو أنَّ الغابات ستكون طرفًا في العمليَّة.

كانت الغابات على قمَّة إحدى التلال وراء منزل هيلشام. لم نكن في الواقع نشاهد غير أطراف الأشجار، ولكن من المؤكَّد أنَّني لم أكن الوحيدة في تلك الفئة العمرية التي تشعر بوجودها ليلًا ونهارًا. عندما تسوء حالة الطقس، تُلقي الأشجار ظلَّها على هيلشام بأكملها؛ لم يكن عليك إلَّا أن تدير رأسك أو تتحرَّك باتجاه إحدى النوافذ، وستراها هناك تلوح في الأفق البعيد. وكان الموقع الأكثر أمنًا هو مدخل المنزل الرئيس، لأنَّه لم يكن بوسعك أن تراها من أيِّ شبَّاك. حتَّى في ذلك الموقع، فإنَّك لم تكن تستطيع أن تتحاشاها.

شاعت حكايات مرعبة عن الغابات. في إحدى المرَّات، قبل وقت قصير من التحاقنا بمدرسة هيلشام، تخاصم أحد الأولاد مع أصدقائه وهرب إلى خارج حدود هيلشام. وقد عُثر على جثَّته بعد يومين في بقعة عالية من الغابات مقيَّدًا على جذع شجرة وقد بُترت يداه وقدماه. ذكرت شائعة أخرى أنَّ شبح إحدى البنات كان يتجوَّل بين تلك الأشجار. كانت من تلميذات هيلشام إلى أن تسلَّقت ذات يوم أحد الأسيجة لتشاهد ما هو موجود في الخارج. جرى ذلك قبل وصولنا بزمن بعيد، عندما كان الحرَّاس أكثر تشدُّدًا، بل كانوا في منتهى القسوة. عندما حاولت العودة، رفضوا السماح لها بذلك. وظلَّت تلوب خارج الأسيجة، تتضرعَّ إليهم أن يسمحوا لها بالدخول، ولكن لم يساعدها أحد منهم. بعدئذ هامت على وجهها، ولا بدَّ من أنَّ شيئًا ما قد حدث فماتت. ولكنَّ شبحها كان يتجوَّل دائمًا في الغابات، يطلُّ بناظريه على هيلشام، ويتلهَّف إلى السماح له بالعودة.

درج الحرَّاس على القول بأنَّ هذه الأقاويل كانت محض هراء. ولكنَّ التلاميذ الأكبر سنًّا أبلغونا

أنَّ ذلك **بالضبط** هو ما قاله لهم الحرَّاس عندما كانوا أصغر سنًّا، وأنَّنا سنعرف، مثلهم، الحقيقة المرعبة لاحقًا.

كانت الغابات تتراءى في مخيِّلاتنا غالبًا بعد حلول الظلام، وفي مناماتنا عندما نحاول الخلود إلى النوم. تكاد تسمع حفيف الأغصان مع هبوب الريح، إلَّا أنَّ حديثنا عنها كان يزيد الأمر سوءًا. أذكر أنَّنا كنَّا ذات ليلة غاضبين من مارج ك.- التي كانت قد تصرَّفت بشكل أحرجنا خلال النهار- وقرَّرنا عقابًا لها أن نجرَّها من سريرها، ونضغط وجهها على زجاج النافذة، ونأمرها بالنظر نحو الغابات. وقد أغمضت عينيها تمامًا أوَّل الأمر، لكنَّنا لوينا ذراعيها وأرغمناها بالقوَّة على أن تفتح جفنيها، إلى أن شاهدت رؤوس الأشجار البعيدة في السماء التي يغمرها ضوء القمر. جعلها هذا المشهد تعيش ليلة مرعبة.

لا أعني هنا أنَّنا كنَّا في تلك الفترة من العمر منشغلين تمامًا بموضوع الغابات. فقد كنت أنا، على الأقل، أقضي أسابيع كاملة من دون أن تخطر على بالي إلَّا لمامًا. وقد تمرُّ أيَّام تنبعث فيها روح التحدِّي والشجاعة في نفسي، فأتساءل: «كيف صدَّقنا مثل هذا الهراء؟». ولكن كلَّ ما يحتاجه الأمر هو حادث صغير- أن يعيد شخص ما رواية هذه الحكايات، أو عبارة مفزعة من أحد الكتب، أو حتَّى إشارة عابرة تذكِّرك بالغابات- وسيؤدِّي ذلك إلى أن تداهمك الأشباح مرَّة أخرى. لذا لم يكن من المستغرب افتراض أنَّ الغابات ستلعب دورًا مركزيًّا في اختطاف الآنسة جيرالدين.

لكن عندما وقعت الواقعة، فإنَّنا، كما أذكر، لم نقم بخطوات عمليَّة كثيرة لحماية الآنسة جيرالدين؛ فقد كانت أنشطتنا تدور دائمًا حول جمع الأدلَّة الخاصَّة بالمؤامرة نفسها. ولسبب ما، كنَّا نعتقد أنَّ ذلك سيدرأ عنَّا جميع المخاطر.

جاءت أغلب «الدلائل» التي جمعناها من مشاهدتنا للمتآمرين وهم ينفِّذون العمليَّة. ففي صبيحة أحد الأيَّام، شاهدنا من الصفِّ في الطابق الثاني الآنسة آيلين والسيِّد روجر يتحادثان مع الآنسة جيرالدين في الساحة السفلية. وبعد فترة وجيزة ودَّعتهما الآنسة جيرالدين، وتوجَّهت إلى دفيئة البرتقال، لكنَّنا تابعنا النظر إليها، ورأينا الآنسة آيلين والسيِّد روجر يتقاربان ويتحادثان خلسة، وهما يحدِّقان إلى جسم الآنسة جيرالدين المبتعد عنهما.

في تلك المناسبة، تنهَّدت رُوث، وهزَّت رأسها قائلة: «السيِّد روجر، من كان يعتقد أنَّ له دورًا في هذه العملية؟».

بهذه الطريقة سجَّلنا قائمة بالأشخاص الذين علمنا أنَّ لهم ضلعًا في المؤامرة- وبينهم الحرَّاس والتلاميذ الذين اعتبرناهم من أعدائنا اللدودين. لكن، أعتقد أنَّنا أدركنا طوال الوقت أنَّ الأسس التي بنينا عليها أوهامنا الخيالية كانت واهية، لأنَّنا كنَّا على الدوام نتحاشى المواجهة. فقد نقرِّر، بعد مناقشات حثيثة، أنَّ التلميذ الفلاني متآمر، ولكنَّنا نجد الأعذار دائمًا لعدم مواجهته بذلك، ولانتظار اكتمال جميع البيانات والأدلَّة. وبالمثل، فقد اتَّفقنا دائمًا على عدم إطلاع الآنسة جيرالدين ولو على جانب بسيط ممَّا اكتشفناه، لئلَّا تفزع من دون مبرِّر أو سبب وجيه.

من السهل أن نزعم أنَّ رُوث وحدها هي التي احتفظت بالمعلومات عن الحراسة السرِّيَّة حتَّى بعد أن تقدَّمنا بالعمر وتجاوزنا تلك المرحلة. من المؤكَّد أنَّ مسألة الحراسة كانت مهمَّة بالنسبة لها. وقد علمت بأمر المؤامرة قبلنا بزمن طويل، وقد منحها ذلك سلطة عظيمة؛ فقد كان بوسعها أن تبرِّر أيَّ قرار تتَّخذه بالنيابة عن المجموعة، بالإشارة إلى أنَّ الدليل الفعليَّ قد تبيَّن قبل وقت طويل من انضمامي أنا وأمثالي إلى المجموعة، وأنَّ ثمَّة أمورًا كثيرة ستكشف عنها، بل تطلعنا عليها. وإذا قرَّرت طرد أحد التلاميذ، ولمست بعض المعارضة، فإنَّها ستشير بصورة عابرة إلى وجود أمور

كانت تعرفها عنه «مسبقًا». لا شكَّ في أنَّ رُوث كانت حريصة على استمرار هذا الموضوع. لكن من نشأ على مقربة منها أسهم بالفعل في بلورة تلك الحكاية المتخيَّلة، وإدامتها أطول فترة ممكنة. ما حدث بعد اللغط الذي ثار حول قضية الشطرنج يبيِّن بصورة واضحة تمامًا النقطة التي أطرحها الآن.

***

افترضت آنذاك أنَّ رُوث كانت خبيرة في لعبة الشطرنج، وتستطيع تعليمي. لم يكن ذلك أمرًا مستهجنًا: فقد كنَّا نمرُّ بالتلاميذ الأكبر سنًّا وهم ينحنون على رقعة الشطرنج وهم جالسون على المقاعد المجاورة للنوافذ على المنحدرات المعشوشبة، وكانت رُوث تتوقَّف لتتمعَّن في هذه اللعبة أو تلك. عندما نواصل السير مجدَّدًا، كانت تحدِّثني عن بعض الحركات التي لاحظت أنَّها فاتت كلا اللاعبَيْن. تهزُّ رأسها وتغمغم قائلة: «اللاعبان غبيَّان إلى درجة مذهلة». ساعد ذلك على زيادة شعوري بالدهشة، وبدأت أتشوَّق إلى الانهماك في معرفة تلك القطع المزخرفة. لهذا، عندما وجدت عدَّة شطرنج في موسم المبيعات وقرَّرت شراءها، رغم أنَّها ستكلِّفني كمِّية ضخمة من الكوبونات، كنت أراهن على مساعدة من رُوث.

مع ذلك، راحت خلال الأيَّام اللاحقة تتنهَّد كلَّما أثرت الموضوع معها، أو تتظاهر بأنَّها مشغولة بأمر آخر مُلحٍّ بالفعل. أخيرًا، عندما حاصرتها بعد ظهر يوم ماطر، وقمنا بفتح رقعة الشطرنج في قاعة البلياردو، بدأت تطلعني على لعبة ذات نقلات ملتبسة غامضة. وفق كلامها، فإنَّ الصفة المميَّزة للعبة الشطرنج هو أنَّ كلَّ القطع تتحرَّك على شكل L- وأظنُّ أنَّها عرفت ذلك من خلال مشاهدتها لحركة الحصان- وليس من طريقة تقسيم خانات الرقعة. لم أصدِّق ذلك، وانتابني الإحباط، لكنَّني قرَّرت ألَّا أقول شيئًا، وواصلت اللعب معها بعض الوقت. قضينا عدَّة دقائق وقطع إحدانا تطيح بقطع الأخرى عن الرقعة، مع تحريك القطعة المهاجمة على هيئة حرف L. استمرَّ ذلك إلى أن أوشكت على إلحاق الهزيمة بها، وزعمت بأنَّ هذا لا يُحتسب لأنَّني حرَّكت قطعتي في خطٍّ مستقيم.

في تلك اللحظة، وقفت، ورتَّبت القطع في العلبة، وخرجت. لم أقل علانية أبدًا إنَّها لا تتقن اللعب، وعلى الرغم من خيبة ظنِّي بها، كنت أعرف أنَّه لا يجدر بي التمادي- غير أنَّ خروجي العاصف كان، كما أفترض، تعبيرًا كافيًا.

بعد يوم واحد، ربَّما، دخلت الحجرة ٢٠ في أعلى طوابق المنزل، حيث يعطي السيِّد جورج حصص الشعر. لا أعرف ما إذا كان ذلك قبل الحصَّة أم بعدها، أو مدى الزحمة في الحجرة. أذكر أنَّني كنت أحمل كتبًا بيدي، وبينما كنت أتوجَّه إلى حيث كانت رُوث وآخرون يتحدَّثون، كانت أشعَّة الشمس الساطعة تغمر الطاولة التي يتحلَّقون حولها.

أدركت من الطريقة التي تقاربت بها رؤوسهم أنَّهم كانوا يناقشون مسألة الحراسة السرِّية. ورغم الشجار الذي دبَّ قبل يوم واحد، كما أسلفتُ، لكنَّني توجَّهت نحوهم، لسبب ما، من دون تردُّد. لحظة أوشكت على الوصول إليهم- ربَّما كانوا يتبادلون فيها النظرات- عرفت فجأة بما سيحدث. إنَّك تدرك في جزء من الثانية قبل أن تضع قدمك في بركة موحلة أنَّك ستتورَّط لا محالة، ولكنَّك لا تستطيع استدراك الأمر. وقد أحسست بالألم حتَّى قبل أن يخلدوا للصمت ويحدِّقوا إليَّ، وحتَّى قبل أن تقول رُوث: «أوه، كاثي، كيف حالك؟ إذا سمحت، نحن نتناقش حول إحدى المسائل الآن. سننتهي بعد دقيقة واحدة. أنا آسفة».

قبل أن تنهي تلك العبارة، كنت قد استدرت وبدأت بالخروج، ساخطة على نفسي أكثر من

سخطي على رُوث والآخرين، لأنَّني أنا التي بادرت بذلك. لا شكَّ في أنَّني كنت غاضبة، ولكنَّني لا أعلم ما إذا كنت قد بكيت بالفعل. في غضون الأيَّام القليلة التي تلت ذلك، كنت أحسُّ بموجة من الحميَّا تندفع إلى وجنتيَّ المتورِّدتين كلَّما رأيت الحرَّاس السرِّيين يتباحثون في إحدى الزوايا أو يعبرون أحد الحقول.

بعد يومين من واقعة الازدراء تلك في الحجرة ٢٠، كنت أهبط درج المنزل الرئيس عندما وجدت مويرا ب. خلفي مباشرة. بدأنا الحديث- ليس عن شيء محدَّد- ثمَّ أخذنا نتسكَّع خارج المنزل. ولا بدَّ من أنَّها كانت استراحة الغداء، لأنَّنا عندما دخلنا إلى الساحة شهدنا نحو عشرين تلميذًا يتجوَّلون في مجموعات صغيرة ويثرثرون. توجَّهت نظراتي على الفور إلى الطرف الأبعد من الساحة، حيث كانت رُوث وثلاثة من الحرَّاس السرِّيين يقفون معًا، وقد أداروا ظهورهم لنا، محدِّقين بتركيز إلى الملعب الجنوبي. كنت أحاول أن أتبيَّن ما كانوا يولونه كلَّ هذا الاهتمام عندما أدركت أن مويرا التي أصبحت إلى جانبي كانت تراقبهم كذلك.

تذكَّرت عندئذ أنَّها كانت منذ شهر واحد عضوًا في الحراسة السرِّية، ثم فُصلت بعد ذلك. لعدَّة ثوان، شعرت بالحرج من أنَّ على كلينا الوقوف جنبًا إلى جنب، يربط بيننا الإذلال الذي تعرَّضنا له مؤخَّرًا، ومواجهة رفضهم لنا وجهًا لوجه، إذا جاز التعبير. ربَّما كانت مويرا تحسُّ بمشاعر مماثلة؛ ولكنَّها، على أيِّ حال، هي التي كسرت حاجز الصمت، وقالت: «إنه شيء غبي للغاية، هذا الحرس السرِّي برمَّته. هل يعقل أنهم ما زالوا يؤمنون بمثل هذه الأشياء حتَّى الآن؟ كأنهم ما زالوا في الحضانة».

ما زالت حتَّى اليوم في حيرة من أمري حول عنف المشاعر التي غلبتني عندما سمعت مويرا تتفوَّه بذلك. استدرت نحوها وقد تملَّكني الغضب تمامًا:

«ماذا تعرفين **أنت** عن الموضوع؟ أنت لا تعرفين أيَّ شيء إطلاقًا، لأنَّك خرجت منذ أمد بعيد**!** لو عرفت كلَّ ما اكتشفناه ما كنت لتتجاسري على قول شيء غبيٍّ كهذا**!**».

«لا تتفوَّهي بهذا الهراء»، ومويرا لم تكن أبدًا من النوع الذي يتراجع بسهولة، «إنَّه أحد الأشياء التي اختلقتها رُوث، هذا كلُّ ما في الأمر».

«ولكن كيف تفسِّرين أنَّني قد سمعتهم، **شخصيًّا**، يتحدَّثون عنه؟ يتحدَّثون عن الطريق التي سيحملون بها الآنسة جيرالدين في شاحنة الحليب وينقلونها إلى الغابات؟ وكيف سمعتهم بنفسي يخطِّطون لذلك، ولا علاقة للموضوع برُوث أو أيِّ شخص آخر؟».

نظرت مويرا إليَّ بشكٍّ وتردُّد: «أنت سمعت ذلك بنفسك؟ كيف؟ أين؟».

«سمعتهم يتحدَّثون، بصوت واضح كلَّ الوضوح. سمعت كلَّ كلمة. لم يعلموا بوجودي هناك، قرب البركة. لم يعلموا أنني كنت أستطيع سماعهم. ويدلُّ ذلك على أنَّك لم تعلمي إلَّا القليل**!**».

مررت بجانبها ومضيت، وعندما عبرت الساحة المكتظَّة، ألقيت نظرة خاطفة على رُوث والآخرين وهم يوجِّهون أنظارهم إلى الملعب الجنوبي، ولا يدرون شيئًا عمَّا دار بيني وبين مويرا. ولاحظت أنَّني لم أعد غاضبة منهم على الإطلاق؛ كنت منزعجة جدًّا من مويرا فقط.

حتَّى هذه الأيَّام، عندما أقود سيَّارتي على طريق رمادية طويلة، ولا تدور أفكاري حول أيِّ موضوع محدَّد، قد أجد نفسي أقلِّب تلك الأمور رأسًا على عقب. لماذا أحسست بهذا القدر من العداء تجاه مويرا ذلك اليوم عندما كانت، بالفعل، حليفًا طبيعيًا لي؟ جلُّ الأمر، كما أظنُّ، أنَّ مويرا كانت تلمِّح إلى وجود نقاط اتفاق بيني وبينها، وأنا لم أكن مستعدَّة لذلك. أعتقد أنَّني شعرت بأنَّ وراء ذلك الخطِّ منطقة قاسية ومظلمة لا أريدها. إنَّها ليست لي، وليست لأيٍّ منَّا.

لكنَّني، في لحظات أخرى، أعتقد أنَّ ذلك خطأ، وأنَّ الأمر كان يتعلّق بي وبرُوث فقط، وبخصلة الوفاء التي ألهمتني إيَّاها في تلك الأيَّام. ربَّما كان ذلك هو السبب في أنَّني، على الرغم من رغبتي في ذلك خلال أكثر من مناسبة، لم أطرح هذا الموضوع على الإطلاق، أي الفترة الطويلة التي قضيتها في توفير الرعاية لرُوث في المركز في دوفر.

***

كلُّ هذه الأمور حول الآنسة جيرالدين تعيد إلى ذاكرتي ما حدث بعد ذلك بثلاث سنوات، أي بعد زمن طويل من اندثار فكرة الحراسة السرِّية.

كنَّا في الحجرة ٥ من الطابق الأرضي في مؤخِّرة المنزل، في انتظار بدء الحصَّة. كانت الحجرة ٥ أصغر الحجرات، وكانت مكتظَّة جدًّا، لا سيَّما في صبيحة الأيَّام الشتائية كذلك اليوم، عندما تشغَّل أجهزة التدفئة بالمياه الحارَّة، ويتصاعد البخار نحو النوافذ، فيفسد الهواء. ربَّما كنت أبالغ في الوصف، ولكنَّني أذكر أنَّ حصر جميع تلاميذ الصفِّ في تلك الغرفة يدفعهم إلى أن يجلس بعضهم فوق بعض.

في صباح ذلك اليوم، وضعت رُوث كرسيًّا خلف إحدى المناضد، ووقفت أنا قربها، مع اثنين أو ثلاثة توزَّعوا حولنا. في الواقع، أعتقد أنَّ المرة الأولى التي لاحظت فيها المقلمة كانت عندما أزحت جسمي جانبًا ليتسنَّى لشخص آخر أن يمرَّ إلى جانبي.

يحضرني المشهد كأنَّه يحدث هنا الآن، كانت المقلمة مشعَّة كحذاء ملمَّع؛ انتشرت فيه سحب بنِّية اللون تتخلَّلها هالات من النقاط الحمر. عُلِّقت بالسحَّاب أعلى المقلمة مَسْكة فرو تستخدم لفتحها. كدت أن أجلس على المقلمة عندما أبدلت جلستي، لولا أنَّ رُوث سارعت بإبعادها قليلًا عنِّي. لكنَّني شاهدتها، وهذا ما كانت تريد منِّي أن أفعله. قلت: «أوه! من أين حصلت عليها؟ هل كانت معروضة في المبيعات؟».

كانت الحجرة تعجُّ بالضوضاء، ولكنَّ الفتيات اللواتي كنَّ على مقربة منَّا سمعننا. وسرعان ما أخذنا نحن الأربعة أو الخمسة نحدِّق بإعجاب إلى علبة الأقلام. لم تقل رُوث شيئًا لبرهة وجيزة، فيما كانت تستطلع ملامح الوجوه حولها. وأخيرًا قالت بلهجة حازمة:

«دعونا **نتَّفق**. دعونا نتَّفق أنَّني قد حصلت عليها من المبيعات». ثمَّ ابتسمت وكأنَّها توحي لنا أنَّها تفهم كلَّ شيء.

قد يبدو ردُّ الفعل هذا من جانبها إجابة لطيفة، ولكن، بالنسبة لي، أحسست أنَّها هبَّت واقفة وصفعتني. داهمتني الحرارة والبرودة في آن معًا. فهمت تمامًا ما كانت تعنيه بذلك الجواب وتلك الابتسامة: كانت تزعم أنَّ علبة الأقلام هديَّة من الآنسة جيرالدين.

الأمر أكيد لا محالة، لأنَّه كان يتنامى على مدى أسابيع. استخدمت رُوث ابتسامة محدَّدة، وصوتًا محدَّدًا - مصحوبين أحيانًا بوضع إصبع على الشفتين، أو رفع إحدى اليدين كما لو كانت تهمس على المسرح، عندما تريد التلميح إلى أنَّ الآنسة جيرالدين قد أسدت لها معروفًا ما: لقد سمحت الآنسة جيرالدين لرُوث أن تشغِّل شريطًا موسيقيًا في قاعة البلياردو قبل الساعة الرابعة خلال أيَّام العمل؛ وكانت قد أمرت بالتزام الصمت في أحد المعابر في الحقل. لكن عندما اقتربت رُوث منها، فإنَّها سمحت لبقيَّة المجموعة بالحديث. كانت الحركات دائمًا على هذا النحو، غير معلنة، بل متضمّنة في تلك الابتسامة، وبتعبيرات تعني «فلنتوقَّف عن الكلام الآن».

بطبيعة الحال، لم يكن يفترض في الحرَّاس، «رسميًّا»، أن يُظهروا أيَّ نوع من المحاباة، ولكن كانت هناك حالات من التعاطف في جميع الأوقات وفي حدود معيَّنة؛ وكان أغلب ما تشير إليه

رُوث من هذا النوع. مع ذلك، كنت لا أطيق الوضع عندما تلجأ رُوث إلى التلميح على هذا النحو. لم أكن متأكِّدة بالطبع من أنَّها كانت تقول الحقيقة، ولكن لأنَّها لم تكن «صريحة» بالفعل، بل تلجأ إلى التلميح، فلم يكن بالإمكان الوقوف في وجهها. عندما يحدث ذلك، كنت أتغاضى عن الموضوع، وأعضُّ شفتيَّ، وأتمنَّى أن تمرَّ تلك اللحظة بسرعة.

في بعض الأحيان، أستطيع أن أستشفَّ من أسلوب المحادثة أنَّ تلك اللحظة آتية بالتأكيد، فأجهِّز نفسي لها. حتَّى إذا حدث ذلك، فإنَّ تلك اللحظة تستحوذ على اهتمامي بقوَّة، حتَّى أنَّني أقضي عدَّة دقائق لا أستطيع التركيز فيها على أيِّ شيء آخر حولي. لكنَّها دهمتني فجأة في صباح ذلك اليوم الشتائي في الحجرة ٥. حتَّى بعد أن رأيت المقلمة، فإنَّ التفكير بتقديم أحد الحرَّاس هديَّة من هذا النوع كان فوق التصوُّر، ولم ألمس دليلًا على أنَّه قادم لا محالة. لهذا، عندما قالت رُوث ما قالته آنذاك، فإنَّ فورتي العاطفية لم تمرَّ مرور الكرام كالعادة. حدَّقت إليها ولم أحاول التسترَّ على غضبي. ربَّما أحسَّت رُوث بالخطر، فقالت لي بسرعة وبأسلوب مسرحي هامس: «ولا كلمة واحدة!»، وابتسمت مجدَّدًا. لكن لم أستطع أن أردَّ على ابتسامتها بمثلها، وواصلت التحديق إليها. من حسن الحظِّ أنَّ الحارس وصل آنذاك وبدأت الحصَّة.

لم أكن أبدًا من الأطفال الذين يطيلون التفكير في الأمور لعدَّة ساعات من دون انقطاع. ولكنَّني بدأت أفعل ذلك إلى حدٍّ ما في الآونة الأخيرة، وهذا ما أفعله خلال الساعات الهادئة التي أقود فيها سيَّارتي عبر الحقول الخالية. لم أكن، على سبيل المثال مثل لورا، التي كانت رغم ميلها إلى التهريج، نهبًا للقلق طوال أيَّام، بل أسابيع، حول أمور بسيطة ذكرها أحدهم لها. لكن، بعد صباح ذلك اليوم في الحجرة ٥، كانت تنتابني نوبات أشبه بالغيبوبة. وخلال انخراطي في الحديث، كان ذهني يتحرَّك فجأة على غير هدى؛ وتمرُّ حصص بأكملها من دون أن أعرف ما يدور حولي. كنت مصمِّمة على ألَّا أسمح بأن تكون لرُوث الغلبة هذه المرَّة. لكن مرَّت فترة طويلة لم أقم فيها بأي خطوة إيجابية لتسوية الموقف، واكتفيت بتخيُّل مشاهد خيالية في رأسي تكشف عن حقيقتها وترغمها على الاعتراف بأنَّها اختلقت تلك الواقعة. بل اشتطَّ بي الخيال ذات مرَّة وتصوَّرت أنَّ الآنسة جيرالدين نفسها سمعت بالأمر، فقامت بتقريع رُوث وتأنيبها بمنتهى العنف على مرأى من الجميع.

بعد عدَّة أيَّام من ذلك، بدأت بالتفكير بصورة أكثر جدِّية. فإذا لم تكن علبة الأقلام قد جاءت من الآنسة جيرالدين، فمن أين جاءت إذن؟ ربَّما حصلت عليها من تلميذ آخر، ولكن ذلك مستبعد. فلو كانت ملكًا لشخص آخر، حتَّى وإن كان أكبر منَّا سنًّا، فإنَّ هذه التحفة الرائعة لم تكن لتمرَّ من دون أن يلاحظها أحد. ولم تكن رُوث لتخاطر بقصَّة من هذا النوع، لأنَّها كانت تعرف أنَّ المقلمة قد تناقلتها الأيدي في هيلشام. لا بدَّ من أنَّها ابتاعتها بالتأكيد في موسم المبيعات. يكمن هنا، أيضًا، خطر آخر بالنسبة لرُوث، فربَّما رأى آخرون المقلمة قبل أن تشتريها. إلَّا إذا كانت- كما يحدث أحيانًا مع أنَّه ممنوع بالفعل- قد عرفت مسبقًا بمجيء المقلمة، فطلبت من أحد الرقباء حجزها والاحتفاظ بها قبل بدء جولة المبيعات، وبالتالي فإنَّها تكون واثقة في تلك الحالة من أنَّ أحدًا لم يشاهدها قبلها.

من سوء حظِّ رُوث، أنَّ هناك سجلَّات بكلِّ ما كان يباع في موسم المبيعات، مع سجلٍّ بأسماء المشتركين. ومع أنَّه كان من الصعب الاطلاع على هذه السجلَّات- لأنَّ الرقباء كانوا يعيدونها إلى مكتب الآنسة إيميلي بعد كلِّ جولة، فإنَّها لم تكن من المعلومات السرِّية. فلو أنَّني تريَّثت قليلًا عند أحد الرقباء في جولة المبيعات القادمة، فلن يكون من الصعب استعراض صفحات السجلَّات.

هكذا وضعت الخطوط العريضة للخطّة، وأعتقد أنَّني انشغلت بتنقيحها على مدى عدَّة أيَّام، إلى أن تبيَّنت أنَّه ليس من الضروري بالفعل تنفيذ جميع الخطوات الواردة فيها. فإذا كانت نظريَّتي صحيحة حول مجيء المقلمة من المبيعات، فلم يكن عليَّ هنا إلَّا أن ألجأ للخداع.
كان هذا إذن هو السياق الذي تحدَّثت فيه مع رُوث تحت إفريز الدرج. انتشر الضباب وهطل الرذاذ ذلك اليوم. كنَّا، كلانا، نسير من أكواخ المنامات، ربَّما باتجاه السرادق، ولست متأكِّدة من ذلك. على أيِّ حال، تكاثف المطر فجأة بينما كنَّا نعبر الساحة، ولأنَّنا لم نكن في عجلة من أمرنا، فقد استترنا تحت إفريز المنزل الرئيس، على مقربة من أحد جانبي المدخل الأمامي.
احتمينا في تلك البقعة بعض الوقت، وبين الفينة والفينة، كان أحد التلاميذ يبرز من خلال الضباب ويدخل أحد أبواب المنزل، غير أنَّ المطر لم يخفَّ. كان توتُّري يتصاعد كلَّما طال وقوفنا هناك، لأنَّني كنت أعتقد أنَّ هذه هي الفرصة الوحيدة التي أترقبها. وأعتقد أنَّ رُوث كذلك قد أحسَّت أنَّ شيئًا ما يوشك على الحدوث. وأخيرًا، قرَّرت أن أدخل مباشرة إلى الموضوع.
«في مبيعات الثلاثاء الماضي»، قلت، « كنت أقلِّب صفحات الدفتر، أقصد، كما تعلمين، السجلّ».
«ولماذا تطَّلعين على ما في السجلِّ؟»، سألتني بسرعة، «لماذا تفعلين ذلك؟».
«أوه، لم يكن هناك سبب معين. لقد كان كريستوفر س. بين الرقباء، ولهذا تحدَّثت معه فقط. إنَّه بالتأكيد أفضل أولاد السينيور. كنت أقلِّب صفحات السجلِّ فقط، لمجرَّد التسلية وتمضية الوقت».
كانت الخلايا في دماغ رُوث كما لاحظت، تتقافز هنا وهناك، وقد عرفَت الآن ما كنت أرمي إليه. لكنَّها قالت بتؤدة: «عمل مملٌّ للغاية».
«لا، كان ذلك عملًا مسلِّيًا بالفعل. فبإمكانك أن تعرفي الأشياء التي اشتراها الآخرون».
قلت ذلك وأنا أحدِّق إلى المطر المنهمر في الخارج. ثم ألقيت نظرة سريعة على رُوث وأصبت بصدمة حقيقية. لا أعلم ما الذي كنت أتوقَّعه؛ فعلى الرغم من جميع أوهامي المتخيَّلة خلال الشهر الماضي، فإنَّني لم أكن أتوقَّع بالفعل ما سيكون عليه الوضع الذي كان يتكشَّف أمامي آنذاك. وقد شهدت الآن مدى ما كانت تحسُّ به رُوث من انزعاج؛ وكيف عجزت عن التعبير، وأدارت وجهها، وكادت عيناها أن تغرورقا بالدموع. فجأة، بدا تصرُّفي محيِّرًا تمامًا. كلُّ هذا الجهد، كلُّ هذا التخطيط بهدف إزعاج أعزِّ صديقاتي؟ هل يضيرها أن تكون قد كذبت كذبة صغيرة حول مقلمتها؟ ألم نحلم بين وقت وآخر بأن يقوم أحد الحرَّاس أو مشرف آخر بكسر القوانين ويحابينا ويَمنَّ علينا بشيء خاص؟ ضَمَّة تلقائية، رسالة سرِّية، هديَّة؟ إنَّ كلَّ ما فعلته رُوث هو واحد من أحلام اليقظة الزائدة عن الحدِّ؛ بل إنَّها لم تذكر اسم الآنسة جيرالدين على الإطلاق.
شعرت بالاضطراب، وتملَّكتني الحيرة. ولكن فيما كنَّا نقف هناك، ونحدِّق إلى الضباب والمطر، لم أستطع التفكير فيما يتوجَّب عليَّ عمله لإصلاح الخطأ الذي ارتكبته. أذكر أنَّني قلت شيئًا مثيرًا للشفقة مثل: «لا بأس. إنَّني لم أشهد شيئًا بعد»، وكانت عبارة فارغة عديمة المعنى. بعد عدَّة ثوان من الصمت، انصرفت رُوث تحت زخَّات المطر.

الفصل السادس

أعتقد أنَّني كنت لأصبح أحسن حالًا لو أنَّ رُوث أبدت عداءَها لي بأسلوب أوضح. ولكن تلك كانت إحدى المناسبات التي ترضخ فيها للأمر الواقع. بدا كأنَّها شعرت بالخزي من تلك المسألة- بل **بالانهيار**- أو حتَّى بالغضب، أو أنَّها كانت تريد التقرُّب منِّي واستمالتي. في المرَّات القليلة التي رأيتها فيها بعد الحديث الذي تبادلناه تحت شجرة السنديان، كنت أتوقَّع منها أن تكون متعجرفة، ولكنَّها كانت مهذَّبة تمامًا، بل على شيء من الضحالة. خطر لي أنَّها كانت تخاف من أن أكشف أمرها للجميع- مع أنَّ مسألة علبة الأقلام كانت قد مضت وانقضت بالتأكيد- وكنت أريد أن أقول لها إنَّ عليها ألَّا تخشَ شيئًا من جانبي. المشكلة هي أنَّ هذه المسألة لم تُناقش علنًا، ولهذا فإنَّني لم أجد الوسيلة المناسبة لإثارتها معها.

بذلت جهدي في تلك الأثناء لاغتنام كلِّ فرصة ممكنة لألمِّح إلى مكانة رُوث الخاصَّة في نفس الآنسة جيرالدين. كانت هناك أوقات، على سبيل المثال، عندما كانت جماعة منَّا تحاول، قدر الإمكان، أن تلعب في إحدى الجولات خلال فترة الاستراحة، لأنَّ جماعة من طلَّاب الصفِّ الأعلى من صفِّنا قد تحدَّتنا. كمنت المشكلة في أنَّها كانت تمطر، ومن المستبعد أن يسمحوا لنا بالخروج. لاحظت أنَّ الآنسة جيرالدين كانت واحدة من الحرَّاس المناوبين، فقلت:

«إذا ذهبت **رُوث** بنفسها لمقابلة الآنسة جيرالدين، فستكون لدينا فرصة».

إذا لم تخُنِّي الذاكرة، فإنَّ أحدًا لم يأبه بهذا الاقتراح؛ وربَّما لم يسمعه أحد، لأنَّنا كنَّا نتحدَّث جميعًا في وقت واحد. لكنَّ المهمَّ هو أنَّني تكلَّمت وأنا أقف وراء رُوث، وقد شعرت أنَّها كانت مسرورة بذلك.

في مناسبة أخرى، كانت جماعة منَّا تغادر الصفَّ مع الآنسة جيرالدين، ووجدت نفسي أوشك على الخروج من الباب بعد الآنسة جيرالدين نفسها مباشرة. تريَّثت عندئذ ليتسنَّى لرُوث أن تعبر الباب إلى جانب الآنسة جيرالدين. فعلت ذلك من دون أيَّة ضجَّة، كما لو كان ذاك هو التصرُّف الطبيعي الصحيح الذي تريده الآنسة جيرالدين، ووجدت نفسي، صدفة، بين اثنتين من أخلص صديقاتي. في تلك المناسبة، كما أذكر، بدت على رُوث الحيرة لبرهة من الزمن، ونظرت إليَّ، وأومأت، وواصلت السير.

مثل هذه الأمور الصغيرة ربَّما كانت ستجلب السرور إلى نفس رُوث، ولكنَّها بعيدة كلَّ البعد عمَّا حدث بيننا بالفعل تحت شجرة السنديان في ذلك اليوم الضبابي، وقد تعاظم إحساسي بأنني لم أفهم الوضع آنذاك. وأتذكَّر بصورة خاصَّة جلوسي وحيدة ذات مساء على أريكة خارج السرادق، أحاول مرَّة بعد أخرى التفكير في طريقة للخروج من تلك الأزمة، وقد دهمني مزيج من الندم والإحباط دفعاني إلى أن أذرف الدمع أو أكاد. أعتقد أنَّني بقيت على تلك الحال، ولم أكن متأكِّدة ممَّا قد يحدث. ربَّما كان الموضوع سيُنسى لاحقًا، أو سنفترق رُوث وأنا. غير أنَّ فرصة هبطت عليَّ من السماء لأضع الأمور في مسارها الصحيح.

كنَّا في منتصف إحدى حصص الفنون مع السيِّد روجر، عندما توقَّف وخرج لبعض شأنه. لذلك، بدأنا نتجوَّل في الممرَّات، وأخذنا نثرثر، وينظر بعضنا إلى عمل الآخر. أقبلت نحونا فتاة تدعى

ميدْج أ. وقالت لرُوث بلهجة ودودة تمامًا:
«أين مقلمتك؟ إنَّها فاتنة للغاية».
توتَّرت رُوث، وألقت نظرة خاطفة حولنا لتعرف الحاضرين، وكانوا يضمُّون الزمرة المعتادة وربَّما شخصين غريبين كانا يتجوَّلان على مقربة منَّا. لم أكن قد ذكرت شيئًا لأيِّ شخص عن قضيَّة سجلِّ المبيعات، لكنَّني أظنُّ أنَّ رُوث لم تعرف شيئًا عن المسألة. كان صوتها أكثر نعومة من عادته عندما ردَّت على ميدْج:
«ليست معي هنا. فأنا أحتفظ بها في صندوق مقتنياتي الخاصَّة».
«إنَّها فاتنة للغاية. من أين حصلت عليها؟».
كانت ميدْج توجِّه لها هذا الاستفسار بمنتهى البراءة، وكان ذلك واضحًا كلَّ الوضوح. ولكن جميع من كانوا في الحجرة ٥ تقريبًا عندما أحضرت رُوث العلبة لأوَّل مرَّة كانوا هنا الآن، يترقَّبون الردَّ. رأيت رُوث وقد بدا عليها التردُّد. لم أتبيَّن إلَّا في وقت لاحق، عندما استعدت ذكرى هذه الحادثة، كم كانت تلك فرصة ذهبية بالنسبة لي. لم أفكِّر في الأمر آنذاك. وقد تحدَّثت قبل أن تدرك ميدج والآخرون أنَّ رُوث كانت تواجه مأزقًا صعبًا.
«لا يمكننا البوح من أين جاءت».
نظرت رُوث وميدج وبقيَّتهم إليَّ، وقد بدت عليهم الدهشة إلى حدٍّ ما. لكنَّني حافظت على هدوئي وواصلت الحديث، موجِّهة كلماتي إلى ميدج وحدها.
«هناك أسباب عديدة تحول دون تصريحنا بالمصدر الذي جاءت منه».
هزَّت ميدج كتفيها قائلةً: «إذن هناك سرٌّ في الأمر».
«سرٌّ **كبير**»، قلت، وابتسمت لها ابتسامة تُشعرها بأنَّني لا أحاول إزعاجها.
أومأ الآخرون برؤوسهم تأييدًا لما قلت، مع أنَّ تعبيرات غامضة بدت على وجه رُوث، وكأنَّها انشغلت فجأة بشيء مختلف كلِّيًا. هزَّت ميدج كتفيها مرَّة أخرى وكان ذلك، إذا لم تخنِّي الذاكرة، نهاية الموضوع، فإمَّا أنها غادرت الحجرة أو أخذت تتحدَّث عن شيء مختلف.
والآن، لم تشكرني رُوث على الطريقة التي اعترضت بها على سؤال ميدج، وذلك للأسباب نفسها التي دفعتني إلى عدم مصارحة رُوث بما فعلته بشأنها في مسألة سجلِّ المبيعات. لكن سرورها منِّي كان واضحًا في طريقة تعاملها معي، ليس خلال الأيَّام القليلة اللاحقة فحسب، بل على مدى الأسابيع التي تلت ذلك. وحيث إنَّني كنت في وضع مشابه في الآونة الأخيرة، فقد كان من السهل عليَّ أن أتلمَّس محاولاتها لإيجاد فرصة لتقوم بعمل إيجابي، عمل إيجابي خاص لصالحي. وقد شعرت بارتياح بالغ، وأذكر أنَّني فكَّرت مرَّة أو مرَّتين بأنَّه كان من الأفضل ألَّا تحظى رُوث بهذه الفرصة لكي يتواصل هذا الشعور الطيِّب المتبادل بيننا. لكن ما حدث هو أنَّ تلك الفرصة أتيحت لها، بعد نحو شهر من واقعة ميدْج، أي في الوقت الذي أضعت فيه الشريط الصوتي المفضَّل لديَّ.

***

ما زلت احتفظ بنسخة من هذا الشريط المسجَّل، وقد كنت حتَّى عهد قريب أسمعه في عدَّة مناسبات وأنا أقود سيَّارتي في المناطق الريفية المكشوفة في يوم ممطر. غير أنَّ المسجِّل في سيَّارتي أصبح صعب المراس، ولا أجرؤ على تشغيل الشريط فيه. لا يبدو كذلك أنَّ لديَّ الوقت الكافي لتشغيله عندما أعود إلى غرفة النوم. ومع ذلك، فإنَّ ذلك الشريط هو واحد من أثمن مقتنياتي. وربَّما سأستمع إليه مرَّة بعد مرَّة عند نهاية السنة، عندما أتخلَّى عن مهمَّاتي كمرشدة.

اسم الألبوم «**أغنيات ما بعد الظلام**» لجودي بريدجووتر. الموجود لديَّ اليوم ليس الكاسيت الفعلي الذي كان عندي في هيلشام وأضعته. هذا الشريط وجدته أنا وتومي في نورفولك بعد ذلك بعدَّة سنوات، ولكنَّ هذه قصَّة أخرى سأعود إليها لاحقًا. ما أريد أن أحكي عنه الآن هو الشريط الأوَّل، الذي اختفى.

عليَّ أن أشرح قبل المضي قدمًا أمر نورفولك برمَّته في تلك الأيَّام. لقد حافظنا على استمراره عامًا بعد عام، وغدا أشبه بالمزحة بيننا كما أظنُّ، وقد بدأ في حصَّة حضرناها ونحن صغار.

كانت الآنسة إيميلي تعلِّمنا الدروس عن مقاطعات إنجلترا. ثبَّتت على اللوح خارطة ضخمة، وإلى جانبها حاملًا معدنيًا. فإذا تحدَّثت مثلًا عن أكسفوردشير، فإنَّها تعلِّق على الحامل لوحة تزيِّنها مشاهد مصوَّرة عن تلك المحافظة. كانت لديها مجموعة كبيرة من تلك اللوحات المصوَّرة، وقد تعلَّمنا عن جميع المقاطعات بهذا الأسلوب. كانت تنقر بمؤشِّر في يدها على إحدى النقاط في الخارطة، ثمَّ تتحوَّل إلى الحامل وتُرينا صورة أخرى. وتتوالى مشاهد قرى صغيرة تتخلَّلها الجداول، والأنصاب البيضاء على سفوح التلال، والكنائس القديمة قرب الحقول؛ وعندما تحدِّثنا عن موقع ساحلي، ستظهر أمامنا الشواطئ المكتظَّة بالناس، والقمم التي تعلوها النوارس. أظنُّها كانت تريد منَّا أن نتعرَّف ونفهم ما يدور حولنا. من المدهش، حتَّى الآن، وبعد خدمتي لسنوات طويلة كمرشدة، أنَّ أفكاري وانطباعاتي عن تلك المقاطعات المختلفة هي نفسها التي تولَّدت لديَّ آنذاك من الصور التي كانت الآنسة إيميلي تعلِّقها على الحامل. عندما أقود سيَّارتي عبر ديربيشير، مثلًا، أنظر إلى هذه القرية المخضوضرة أو تلك، وألمح حانة مبنيَّة على الطراز التيودوري، وينتصب فيها نصب تذكاري يتعلَّق بالحرب، فإنَّ ما يلوح في خاطري هو الصورة التي عرضتها الآنسة إيميلي، وعرفت فيها شيئًا عن ديربيشير للمرَّة الأولى.

النقطة المهمَّة، على أيِّ حال، هي أنَّ مجموعة المعلومات الجغرافية لدى الآنسة إيميلي كانت منقوصة وفيها ثغرة: فلم يكن فيها ولو صورة واحدة عن نورفولك. وقد ألقت علينا هذه المحاضرات مرارًا وتكرارًا، وكنت دائما أتساءل عمَّا إذا كانت في تلك الأثناء قد وجدت صورة لنورفولك. ولكن الوضع لم يتغيَّر على الإطلاق. كانت تمرُّ بالمؤشِّر في يدها على الخارطة وتقول، وكأنَّها تحاول استدراك شيء فاتها: «وهنا، كما ترون، نشاهد نورفولك. مكان جميل جدًّا».

أذكر أنَّها، في تلك اللحظة، توقَّفت عن الحديث، وتشتَّتت أفكارها، ربَّما لأنَّها لم تكن قد خطَّطت لما ستقوله بدلًا من الصورة. أخيرًا تنبَّهت ونقرت مرَّة أخرى على الخارطة.

«وكما تلاحظون، فإنَّها تقع في أقصى الجانب الشرقي، في هذا النتوء السنامي داخل البحر، وهي لا تشكِّل معبرًا إلى أي مكان. الناس يتحرَّكون شمالًا وجنوبًا»- وحرَّكت المؤشِّر إلى الأعلى ثمَّ إلى الأسفل- «ويمرُّون عليها وإلى جانبها مرور الكرام. لهذا السبب، فهي ركن مسالم هادئ من إنجلترا، وزاوية لطيفة جدًّا. ولكنَّها أشبه ببقعة ضائعة».

بقعة ضائعة. هذا هو الوصف الذي أطلقته عليها. كانت تلك نقطة البداية. فقد كان لنا في هيلشام، وعلى الطابق الثالث، «بقعة ضائعة»، تُحفظ فيها المفقودات. كنت تتوجَّه إلى تلك الزاوية إذا وجدت أو أضعت شيئًا. وقد زعم أحد الأشخاص- لا أذكر هويَّته بالضبط- بعد الحصَّة أن ما قالته الآنسة إيميلي هو أن نورفلولك هي «البقعة الضائعة» في إنجلترا، التي تترك فيها المفقودات الضائعة في البلاد. وقد تبلورت هذه الفكرة على نحو ما، وغدت حقيقة معترفًا بها بالفعل خلال العام الدراسي بأكمله.

حتَّى عهد قريب، عندما كنت وتومي نستعيد الذكريات عن جميع هذه الأمور، فإنَّه لم يؤمن بتلك

الفكرة على الإطلاق، بل اعتبر الأمر منذ اللحظة الأولى، مجرَّد مزحة. إلّا أنَّني متأكِّدة أنَّه كان مخطئًا في ذلك. صحيح أنَّ موضوع نورفولك غدا، عندما صرنا في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من العمر، أضحوكة كبيرة، ولكنَّ ما أذكره، مثلما تذكره رُوث، هو أنَّنا آمنَّا بنورفولك أوَّل الأمر بالمعنى الحرفي للكلمة؛ أي أنَّه في الوقت الذي كانت فيه الشاحنات تأتي إلى هيلشام بالأطعمة والأشياء الأخرى لعرضها في جولة المبيعات، فإنَّ عملية مشابهة كانت تجري، ولكن على نطاق أوسع بكثير، وتتمثَّل في وجود عربات أخرى تتحرَّك في جميع أرجاء إنجلترا، وتترك كلَّ ما تبقَّى في الحقول وفي القطارات، في تلك البقعة المسمَّاة نورفولك. ممَّا أسبغ المزيد من الغموض على هذه المسألة المحيِّرة أنَّنا لم نشاهد قطُّ صورة لذلك الموقع.

قد يشير ذلك إلى أنَّ عقولنا كانت تعاني حالة من الاختلال، ولكن لا تنسَ أنَّه بالنسبة لنا في تلك المرحلة من العمر كلُّ مكان خارج هيلشام كان من غرائب الخيال؛ وكانت تراودنا أوهام ضبابية عمَّا كان ممكنًا أو غير ممكن في العالم الخارجي. يضاف إلى ذلك أنَّنا لم نرغب على الإطلاق في تمحيص نظريَّتنا عن نورفولك بصورة مفصَّلة. كان العنصر المهمُّ لدينا، كما قالت رُوث ذات مساء عندما جلسنا في تلك الحجرة المبلَّطة في دوفر نتأمَّل غروب الشمس، هو أنَّنا «إذا أضعنا شيئًا ثمينًا، وبحثنا عنه في كلِّ مكان ولم نعثر عليه، فإنَّنا لا ينبغي أن نحزن. ظلَّ الأمل يراودنا عندما كبرنا في أن نتجوَّل بحرِّية في أنحاء البلاد ونواصل البحث، إلى أن نعثر عليه مرَّة أخرى في نورفولك».

أنا متأكِّدة من أنَّ رُوث لم تجانب الصواب. لقد كانت نورفولك مصدرًا للسلوى بالنسبة لنا، وربَّما أهمَّ بكثير ممَّا اعترفنا به آنذاك، وقد واصلنا التحدُّث- حتَّى بوصفها نكتة مضحكة- بعد أن كبرنا. لهذا السبب، عندما وجدت مع تومي نسخة من ذلك الشريط ذات يوم بعد سنوات عديدة، في إحدى البلدات على ساحل نورفولك، فإنَّنا لم نعتقد أنَّ ذلك كان مصادفة عابرة؛ وشعرنا في أعماقنا بنوع من النشوة، وبرغبة قديمة للإيمان مرَّة أخرى بشيء كان أثيرًا لدينا ذات يوم.

***

لكنَّني كنت أريد الحديث عن شريطي المسجَّل، عن **أغنيات ما بعد الظلام** التي تغنِّيها جودي بريدجووتر. أظنُّ أنَّها كانت في الأصل على أسطوانة طويلة المدَّة سُجِّلت عام ١٩٥٦. أمَّا التي كانت لديَّ فمسجَّلة على كاسيت، وكانت الصورة التي على الغطاء نسخة مصغَّرة عن الصورة الكبيرة على غطاء الأسطوانة. كانت جودي بريدجووتر ترتدي فستانًا من الساتان البنفسجي، من تلك الفساتين المكشوفة الكتفين التي شاعت في تلك الأيَّام. وبوسعك أن تراها من خصرها فصعودًا لأنَّها تجلس على كرسي عالٍ في إحدى الحانات. أعتقد أنَّها كانت في أميركا الجنوبية، لأنَّ وراءها أشجار نخيل، ونُدُلٌ سُمر يرتدون السترات البيض. أنت تنظر إلى جودي من المكان الذي يكون فيه الساقي عندما يقدِّم لها المشروب، وهي تنظر إليك نظرة ودودة، ليست مثيرة تمامًا، كمن تحاول مغازلتك على نحو خفيف، وكأنَّك شخص تعرفه منذ أمد بعيد. لكن الشيء الآخر حول الغلاف هو طريقة وضع كوعيها على البار وإمساك سيجارة مشتعلة باثنتين من أصابعها. هذه السيجارة هي السبب الذي دفعني إلى التستُّر على الشريط، منذ لمحته بين السلع المعروضة للبيع.

لا أعلم كيف تسير الأمور في المكان الذي تعيش فيه، ولكنَّ الحرَّاس في هيلشام كانوا متشدِّدين للغاية فيما يتعلَّق بالتدخين. من المؤكَّد أنَّهم كانوا يتمنَّون لو أنَّ التدخين لم يوجد أصلًا. وبما أنَّ ذلك مستحيل، فقد حرصوا على إلقاء محاضرة علينا كلَّما ورد ذكر التدخين في جميع الأحوال. حتَّى عندما كانت تُعرض علينا صور كاتب مشهور أو زعيم عالمي، وصادف أنَّه يحمل سجائر

بين أصابعه، فإنَّ الحصَّة كانت تتوقّف على الفور. حتَّى أنَّ إحدى الشائعات تناولت إقصاء بعض الكتب الكلاسيكية- مثل روايات شارلوك هولمز- من مكتبة المدرسة لأنَّ بعض الشخصيَّات الرئيسة فيها كانت تدخِّن بصورة مفرطة. وعندما تلاحظ أن إحدى الصفحات قد انتُزعت من أحد الكتب أو إحدى المجلّات المصوَّرة، فإنَّ ذلك يعود إلى وجود صور شخص يدخِّن. كما كانت هناك حصص دراسية يعرضون علينا فيها صورًا مفزعة لما يُحدثه التدخين داخل جسمك. كان ذلك هو السبب في أنَّ السؤال الذي طرحته مارج ك. على الآنسة لوسي قد أحدث تلك الصدمة العنيفة.

كنَّا نجلس على العشب بعد إحدى مباريات الراوندرز، فيما كانت الآنسة لوسي تلقي علينا إحدى محاضراتها المعهودة عن التدخين، عندما سألت مارج فجأة إذا كانت الآنسة لوسي قد دخَّنت ولو سيجارة واحدة في حياتها. لزمت الآنسة لوسي الصمت لحظات. ثمَّ قالت:

«كنت أتمنَّى لو كان جوابي بالنفي. لكنَّني، بصراحة، تعاطيت التدخين لبعض الوقت. لنحو سنتين، عندما كنت شابَّة».

يمكنك أن تتصوَّر هول الصدمة. قبل أن تجيب الآنسة لوسي، كنَّا نحدِّق إلى مارج، لأنَّ طرح هذا السؤال الجلف أمر منكر بالنسبة لنا- كما لو كانت قد سألت الآنسة لوسي عما إذا كانت قد هاجمت شخصًا باستخدام فأس. في الحقيقة، ما ذكرته سابقًا عن أنَّنا دفعنا مارج إلى حالة من التعاسة المطلقة لعدَّة أيَّام؛ عندما ضغطنا وجهها على زجاج نافذة المنامة لنرغمها على النظر إلى الغابة، إنما كان جزءًا ممَّا حدث بعد سؤالها ذاك. لكنَّنا في تلك اللحظة، التي قالت فيها الآنسة لوسي ما قالته، كنَّا من الحيرة بحيث لم نفكِّر كثيرًا في مارج. أعتقد أنَّنا اقتصرنا على التحديق بفزع إلى الآنسة لوسي، انتظارًا لما قد تقوله بعد ذلك.

عندما بدأت الآنسة لوسي الحديث، راحت، كما يبدو، تزن بعناية تامَّة كلَّ كلمة تتفوَّه بها. «كان التدخين عادة ضارَّة بالنسبة لي. لم يكن مفيدًا لي فأقلعت عنه. ولكن عليكم أن تعلموا أنَّ التدخين بالنسبة لكم، بالنسبة لكم جميعًا، أشدُّ ضررًا ممَّا كان بالنسبة لي». توقَّفت مرَّة أخرى ولزمت الصمت. قال أحدنا في وقت لاحق إنَّها غرقت في واحد من أحلام اليقظة. غير أنَّني كنت متأكِّدة، مثلما كانت رُوث، من أنَّها كانت تفكِّر مليًّا فيما ستقوله بعد ذلك. وأخيرًا قالت:

«لقد أُبلغتم بذلك. أنتم تلاميذ. أنتم... **فئة خاصَّة**. لذلك فإنَّ محافظتكم على أنفسكم، ومحافظتكم على صحَّتكم، أمر أكثر أهمية لكلٍّ منكم ممَّا هو بالنسبة لي».

توقَّفت مرَّة أخرى ونظرت إلينا بصورة تدعو إلى الاستغراب. بعدئذ، عندما ناقشنا المسألة، كان بعضنا متأكِّدين من أنَّها كانت تنظر بفارغ الصبر أن يسألها شخص ما: «لماذا؟ لماذا الأمور أكثر سوءًا بالنسبة لنا؟». ولكنَّ أحدًا لم يسأل. فكَّرت فيما جرى ذلك اليوم أكثر من مرَّة، وأنا متأكِّدة الآن، على ضوء ما حدث لاحقًا، من أنَّه لم يتعيَّن علينا إلَّا أن نسأل، وأنَّ الآنسة لوسي كانت ستبلغنا بكثير من الأمور. كل ما كان يتطلَّبه الموقف هو طرح سؤال آخر عن التدخين.

لماذا، إذن، التزمنا الصمت ذلك اليوم؟ السبب، كما أظنُّ، هو أنَّنا، حتَّى في تلك السنِّ- في التاسعة أو العاشرة من العمر- كنَّا نعرف ما فيه الكفاية، بحيث نتوجَّس شرًّا من الحديث عن هذا الموضوع برمَّته. من الصعوبة بمكان أن نتذكَّر الآن مقدار ما كنَّا نعرفه آنذاك. لقد عرفنا بالتأكيد- ولكن ليس بصورة معمَّقة- أنَّنا كنَّا نختلف عن حرَّاسنا، وعن الناس الآخرين في الخارج كذلك. بل ربَّما ستكون أمامنا، بعد فترة طويلة، تبرُّعات سنقوم بها. لكنَّنا لم نعرف بالفعل ما يعنيه ذلك. إذا كنَّا حريصين على تجنُّب مواضيع معيَّنة، فربَّما كان ذلك يعود إلى أنَّها ستتسبَّب في **إحراجنا**. لقد كنَّا نكره الطريقة التي يصاب بها حرَّاسنا، الذين يعرفون كلَّ شيء في العادة، بالحرج كلَّما أوشكنا

على الحديث عن هذا المجال. كان هذا التغيُّر فيهم يثير أعصابنا. هذا هو السبب، كما أعتقد، في الامتناع عن طرح أيَّة أسئلة أخرى، وفي توقيع العقوبة الغليظة بمارج ك. بسبب إثارتها ذلك الموضوع يومذاك بعد مباراة الرواندر.

***

مهما يكن من أمر، فإنَّ ذلك هو السبب الذي دفعني إلى التستُّر على شريطي، حتَّى أنَّني جعلت باطنَه ظاهرَه بحيث لا ترى منه عندما تفتح العلبة البلاستيكية إلَّا صورة جودي وسيجارتها. ولكنَّ السبب الذي جعل الشريط يعني الكثير بالنسبة لي لا علاقة له بالسيجارة ولا حتَّى بالأسلوب الذي غنَّت به جودي بريدجووتر- مع أنَّها كانت من أبرز النجوم في تلك الفترة، ولا شراب الكوكتيل الشائع في البارات، وكلُّها من الأمور التي لم نكن معنيين بها في هيلشام. ما جعل لهذا الشريط قيمة خاصَّة لديَّ هو أغنية محدَّدة: رقم ثلاثة، **«لا تدعني أرحل أبدًا»**.

إنَّها بطيئة، ومسائية الإيقاع، وذات طابع أميركي، وفيها مقطع يتردَّد مرَّة بعد مرَّة عندما تغنِّي جودي: «لا تدعني أرحل أبدًا... آه يا حبيبي، حبيبي... لا تدعني أرحل أبدًا»... كنا آنذاك في الثالثة عشرة من العمر، ولم أكن قد استمعت إلى الكثير من الأغاني حتَّى ذلك الحين، ولكن هذه الأغنية بالذات هي التي سحرتني. حاولت أن أثبِّت دوران الشريط على هذا المقطع تحديدًا ليتسنَّى لي تشغيل هذه الأغنية كلَّما أتيحت لي الفرصة.

وبالمناسبة، لم تُتح لي فرص كثيرة، لأنَّ ذلك كلَّه حدث قبل أن يبدأ بيع مسجِّلات ووكمان في مواسم البيع في هيلشام.

كانت هناك آلة ضخمة في غرفة البليادرو، لكنَّني قلَّما شغَّلت الشريط هناك، لأنَّ المكان كان يعجُّ بالناس. كان ثمَّة جهاز آخر في حجرة الفنون، لكنَّ الأجواء كانت صاخبة هناك كذلك. منامتنا هي المكان الوحيد الذي أستطيع فيه الاستماع بهدوء.

كنَّا في ذلك الوقت قد نُقلنا إلى منامات صغيرة، تضمُّ كلٌّ منها ستَّة أسرَّة في أكواخ منفصلة. كان في منامتنا كاسيت متنقِّل موضوع على أحد الرفوف فوق جهاز التدفئة. كنت أذهب إلى هذا الركن حين لا يشغله تلاميذ آخرون، لأستمع إلى أغنيتي تلك مرارًا وتكرارًا.

ما الذي كان يميِّز تلك الأغنية بصفة خاصَّة؟ حسنًا، أريد أن أقول إنَّني لم أعتد الاستماع إلى كلمات الأغنية جميعها بصورة مناسبة؛ فقد كنت أنتظر المقطع الذي يقول: «حبيبي، حبيبي، لا تدعني أرحل أبدًا»... وما تخيَّلته يومئذ هو أنَّ إحدى النساء التي أُبلغت أنَّها لن ترزق بأطفال مع أنَّها كانت تتوق لهم فعلًا وتريدهم فعلًا طوال حياتها، تحدث معجزة ما وتلد طفلًا وتضمُّه إلى صدرها وتحتضنه وتتجوَّل به هنا وهناك وهي تغنِّي: «حبيبي، حبيبي، لا تدعني أرحل أبدًا...» لأنَّها، من ناحية، سعيدة كلَّ السعادة ولكنَّها، من ناحية أخرى، تخاف من حدوث شيء ما، مثل أن يمرض الطفل أو أن يُختطف منها. حتَّى في تلك الآونة، كنت أدرك أنَّ ذلك ليس هو التفسير الصحيح، وأنَّ ذلك التأويل لا ينسجم مع بقيَّة مقاطع الأغنية. ولكنَّ ذلك لم يكن أمرًا ذو بال بالنسبة لي، فالأغنية كانت تدور حول الموضوع الذي ذكرته، وكنت أستمع إليها مرارًا وتكرارًا بمفردي، حيثما وأينما أتيحت لي الفرصة.

وقع في تلك الفترة حادث غريب أودُّ هنا أن أحدِّثك عنه. وقد هزَّني بالفعل، مع أنَّني لم أدرك معناه الحقيقي إلَّا بعد عدَّة سنوات، فقد كانت له، حتَّى في تلك الأيَّام، بعض الدلالات العميقة.

عصر يوم مشمس، توجَّهت إلى منامتنا لأحضر شيئًا ما. أتذكَّر كم كان النهار مشرقًا ذلك اليوم لأنَّ الستائر في غرفتنا لم تكن قد أنزلت تمامًا، وكان بوسعك أن ترى أشعَّة الشمس المتدفِّقة عبر

النافذة وترى الغبار في الجوِّ. لم أقصد تشغيل الشريط، ولكن بما أنَّني كنت وحدي، فقد نازعتني نفسي إلى إخراج الكاسيت من صندوق مقتنياتي وإدخاله في الجهاز.
ربَّما كان صوت الجهاز قد رفع إلى الدرجة العليا من جانب من استخدمه آخر مرَّة، لا أدري. لكنَّه كان أعلى ممَّا اعتدت عليه، وربَّما كان ذلك هو السبب في أنَّني لم أسمعها قبل ذلك. أو أنني عوَّدت نفسي على ذلك في تلك اللحظة. أيًّا كان الأمر، فإنِّي رحت أتمايل بتؤدة مع إيقاع الأغنية، وأنا أضمُّ إلى صدري طفلًا متخيَّلًا. والحقيقة أنَّ ما جعل الأمر أكثر إحراجًا هو أنَّ تلك كانت من المرَّات القليلة التي أحتضن فيها وسادة ترمز إلى طفل رضيع، وأقوم فيها برقصة وئيدة، مغمضة العينين، وأشارك في الغناء بصوت خفيض كلَّما تردَّد هذا المقطع مرَّة بعد أخرى:
«آه يا حبيبي، **حبيبي**، لا تدعني أرحل أبدًا»...
عندما شارفت الأغنية على الانتهاء أدركت أنَّني لم أكن وحدي. فتحت عيني لأجد نفسي أحدِّق إلى المدام الواقفة في المدخل.
جمَّدني الرعب. بعد ثانية أو ثانيتين، بدأت أحسُّ بنوع جديد من الفزع، لأنَّني كنت أرى شيئًا غريبًا في الوضع. فالباب كان مفتوحًا فتحة نصفية- لأنَّ القاعدة المطبَّقة هناك هي عدم إغلاق الأبواب إغلاقًا تامًّا إلَّا عند النوم- غير أنَّ المدام لم تكن وقتذاك قد وصلت إلى العتبة. فقد كانت واقفة من دون حراك في الممرِّ، وقد أمالت رأسها إلى أحد الجانبين لتتبيَّن تمامًا ما كنت أفعله. الغريب أنَّها كانت تبكي. ربَّما كانت إحدى تنهُّداتها هي التي تغلغلت في الأغنية وأيقظتني من حلمي.
عندما أتذكَّر ذلك الآن، يبدو لي أنَّها حتَّى لو لم تكن حارسة، فقد كان بوسعها، بوصفها الأكبر سنًّا، أن تقول أو تفعل شيئًا، حتَّى ولو كان تقريعي وتأنيبي. كنت سأعرف عندئذ كيف أتصرَّف. لكنَّها ظلَّت واقفة هناك تنشج وتنشج، وتحدِّق إليَّ عبر الباب بتلك النظرة التي كانت تلقيها علينا دائمًا، كأنَّها كانت تشاهد شيئًا يقشعرُّ له البدن. لكن كان ثمَّة شيء آخر هذه المرَّة، شيء إضافي لم أستطع سبر غوره في تلك النظرة.
لم أعرف ما يتوجَّب عليَّ قوله أو فعله أو توقُّعه بعد ذلك. ربَّما كانت ستدخل الحجرة، وتصرخ في وجهي، وقد تضربني. لم تظهر أيَّة مؤشِّرات. ما حدث هو أنَّها استدارت، وتناهى إلى مسمعي بعد لحظة وقع خطواتها وهي تغادر الكوخ. لاحظت عندئذ أن الشريط قد انتقل إلى الوجه الآخر، فأطفأته، وجلست على أقرب سرير. عندئذ رأيتها عبر النافذة أمامي وهي تغذُّ الخطى باتجاه المنزل الرئيس. لم تنظر إلى الوراء، ولكنَّني أدركت من احديداب ظهرها أنَّها كانت تواصل النشيج.
عندما عدت إلى أصدقائي بعد بضع دقائق، لم أخبرهم شيئًا عمَّا حدث. لاحظت إحدى صديقاتي أنَّ الأمور لم تكن على ما يرام، غير أنَّني هززت كتفيَّ وحافظت على هدوئي. لم أشعر بالخزي تمامًا: لكنَّ الوضع كان شبيهًا بما حدث المرَّة الماضية حين اعترضنا سبيل المدام عندما كانت تنزل من سيَّارتها في الساحة. كنت أتمنَّى لو أنَّ ذلك لم يحدث على الإطلاق، وقد اعتقدت أنَّني، بإغفالي ذكره، أعمل معروفًا مع نفسي ومع الآخرين.
مع ذلك، فقد تحدَّثت بالفعل عن ذلك مع تومي بعد عدَّة سنوات. جرى ذلك بعد محادثاتنا على مقربة من البركة، عندما ائتمنني على ما كان من أمر الآنسة لوسي؛ في تلك الفترة التي بدأنا فيها، كما أذكر، بالتساؤل وطرح الأسئلة التي تواصلت بيننا على مدى عدَّة سنوات. حين أبلغت تومي بما حدث مع المدام في المنامة، خرج بتفسير بسيط إلى حدٍّ بعيد.

حينذاك، كان قد صار لدينا بالطبع إلمام بما لم نكن نعرفه سابقًا، وهو أنَّ أحدًا منَّا لن ينجب أطفالًا. من المحتمل أنَّ تلك الفكرة قد وصلتني عندما كنت أصغر، من دون أن أستوعبها تمامًا آنذاك. لذلك، فإنَّني لم أفهمها إلَّا عندما استمعت إلى تلك الأغنية. كان من المستحيل أن أفهمها قبل ذلك. لكنَّها، كما أسلفت، بُلِّغت لنا بوضوح عندما ناقشتها مع تومي. بالمناسبة، فإنَّ أيًّا منَّا لم ينزعج من تلك المسألة بصورة خاصَّة؛ أتذكَّر في الواقع أنَّ بعض الأشخاص سرُّوا لإمكان ممارسة الجنس من دون القلق من إمكانية الإنجاب- مع أن العلاقة الجنسية كانت بعيدة المنال بالنسبة لأكثرنا في تلك المرحلة. على أيِّ حال، فإنَّ تومي قال عندما شرحت له ما حدث:

«من المحتمل أنَّ المدام ليست شخصًا سيِّئًا، مع أنَّها تثير القشعريرة في النفس. لهذا السبب، فإنَّها عندما شاهدتك ترقصين على هذا النحو، وتضمِّين طفلك إلى صدرك، تصوَّرت أنَّ ذلك أمر فاجع، لأنَّه لم يكن من المقدَّر لكِ أن تلدي أطفالًا، فأخذت بالبكاء».

تساءلت: «ولكن يا تومي، أنّى لها أن تعرف أنَّ للأغنية علاقة بقدرة الأشخاص على إنجاب الأطفال؟ وكيف لها أن تفترض في الوسادة التي كنت أحتضنها أن تكون طفلي؟ لقد كان الموضوع كلُّه من بنات أفكاري».

فكَّر تومي في الأمر، ثمَّ قال بما يشبه المزاح: «ربَّما كانت المدام عليمة بذات الصدور. إنَّها غريبة الأطوار. لعلَّها تستطيع أن تعرف ما يدور في خلدك. ولا أستغرب ذلك».

أفزعنا ذلك. مع أنَّنا تضاحكنا حول الأمر، فإنَّنا لم نتحدَّث عنه مرَّة أخرى على الإطلاق.

***

اختفى الشريط بعد شهرين أو ثلاثة من الحادث مع المدام. لم أربط بين الحدثين على الإطلاق آنذاك، وما من سبب يدعوني إلى أن أفعل ذلك الآن. كنت في المنامة ذات ليلة، قبيل إطفاء النور، أنقِّب في صندوق مقتنياتي لمجرَّد قضاء الوقت قبل أن يعود الآخرون من الحمَّام. ومن الغريب أنَّني عندما اكتشفت غياب الشريط، فإنَّ أوَّل ما خطر على بالي هو ألَّا أظهر ما تولاني من ذعر. أذكر بالفعل أنَّني بالغت في الدندنة، وأنا شاردة الذهن فيما واصلت البحث. وقد فكَّرت مليًّا في الأمر وما زلت عاجزة عن تفسيره: إنَّ أفضل أصدقائي وصديقاتي يقيمون معي في هذه الحجرة، ومع ذلك، فإنَّني لم أكن أريدهم أن يعرفوا مدى اضطرابي لفقدان شريطي.

أعتقد أنَّ لذلك علاقة بسرِّية الموضوع وبمقدار ما كان يعنيه بالنسبة لي. ربَّما كان لكلٍّ منَّا في هيلشام أسراره الصغيرة من هذا النوع- زوايا أثيرة صغيرة خاصَّة اختلقناها لنلوذ بها وحدنا مع مخاوفنا وأشواقنا، ولكنَّ تلك الاحتياجات كانت ستشعرنا بأنَّنا ضللنا السبيل آنذاك- كما لو أنَّنا خذلنا أصدقاءنا الخلَّص.

على أيِّ حال، فإنَّني حالما تيقَّنت من ضياع الشريط، سألت كلَّ من في المنامة، بصورة عَرَضية، عمَّا إذا كان قد رآه. لم يغلبني الحزن على ذلك، لأنَّني علَّلت لنفسي بأنَّني نسيته في غرفة البلياردو؛ ومن ناحية أخرى، فربَّما كان أحدهم قد استعاره منِّي وسيعيده إليَّ في الصباح.

حسنًا، لم يظهر الشريط في صباح اليوم التالي، وما زلت لا أعرف شيئًا عن مصيره. والحقيقة كما أظنُّ، أنَّ حوادث السرقة في هيلشام كانت أكثر بكثير ممَّا كنَّا نعترف به- نحن والحرَّاس. غير أنَّ ما دفعني إلى الحديث عن هذا الموضوع الآن هو شرح الكيفية التي استجابت بها رُوث لذاك الحادث. عليك أن تتذكَّر أنَّني فقدت شريطي بعد أقلَّ من شهر واحد من إقدام ميدْج على مساءلة رُوث في غرفة الفنون عن مقلمتها، وتدخُّلي لإنقاذها. كما سبق وقلت، فإنَّ رُوث، التي كانت تسعى إلى تقديم خدمة لي لقاء ما فعلته من أجلها، سنحت لها فرصة حقيقية عند اختفاء الشريط. يمكنك

القول إنَّ العلاقات بيننا لم تعد إلى طبيعتها إلّا عند اختفاء الشريط- ربَّما للمرَّة الأولى منذ اختفاء الشريط، ومنذ ذلك الصباح الماطر الذي حدَّثتها فيه عن سجلِّ المبيعات تحت شجرة السنديان قرب المنزل الرئيس.

ليلة لاحظت اختفاء الشريط، تعمَّدت أن أسأل الجميع عنه، بمن فيهم رُوث بطبيعة الحال. عندما أستحضر ذلك، أفهم كيف أدركت تمامًا، في ذلك الظرف وفي ذلك الوقت، أهمِّية ضياع الشريط بالنسبة لي، من دون إثارة أيَّة ضجَّة حول الموضوع. ولكن في صبيحة اليوم التالي، عندما كنت عائدة من الحمَّام، كنت أستطيع سماعها، بصوتها الخفيض الذي يوحي بأنَّها تتحدَّث عن أمور تافهة، وهي تسأل هانا عمَّا إذا كانت قد رأت شريطي.

بعد نحو أسبوعين، وكنت وقتذاك قد عوَّدت نفسي على أنَّني فقدت الشريط بالفعل. جاءت والتقتني خلال فسحة الغداء. كان ذلك اليوم من أيَّام الربيع الرائعة في تلك السنة، وكنت أجلس على العشب أتبادل الحديث مع اثنتين أو ثلاث من الفتيات الأكبر سنًّا منِّي. عندما أتت رُوث وسألتني إذا كنت أرغب في مشوار قصير، كان من الواضح أنَّها كانت تفكِّر في شيء محدَّد. لهذا، فإنَّني تركت البنات الأكبر سنًّا، وتبعتها إلى طرف الملعب الشمالي، وصعدنا التلَّة الشمالية، إلى أن وقفنا هناك بمحاذاة السياج الخشبي المطلِّ على السهل الأخضر الذي انتشرت فيه جماعات صغيرة من التلاميذ. هبَّت نسمات قويَّة على قمَّة التلَّة. فوجئت بذلك، لأنَّني لم أحسَّ بمثلها على البقعة السفلية المعشوشبة. وقفنا هناك نستطلع السهل فترة من الزمن، ثمَّ قدَّمت لي حقيبة صغيرة. وعندما أمسكت بها، أحسست أنَّ فيها شريط الكاسيت، فطار قلبي فرحًا. غير أنَّ رُوث قالت على الفور:

«هذا ليس شريطك يا كاثي. ليس شريطك الذي ضاع. لقد حاولت العثور عليه، ولكنَّه ضاع بالفعل».

«صحيح»، قلت، «ذهب إلى نورفولك».

ضحكنا معًا. ثمَّ أخرجت الشريط من الحقيبة، وبدت على وجهي دلائل الإحباط. لست متأكِّدة من أنَّ هذه الدلائل استمرَّت عندما كنت أفحص الشريط.

كنت أمسك بشريط اسمه **عشرون لحنًا كلاسيكيًا راقصًا**. عندما شغَّلته فيما بعد اكتشفت أنَّها موسيقى أوركسترا مخصَّصة لحفلات الرقص. بطبيعة الحال، لم أكن أعرف نوعيَّة تلك الموسيقى عندما سلَّمتني الشريط، ولكنَّني أدركت أنَّها ليست مشابهة لأغنية جودي بردجووتر. ثمَّ أدركت، على الفور تقريبًا، ومرَّة أخرى، كيف أنَّ رُوث لم تكن تعلم بذلك، لأنَّها لا تعرف شيئًا عن الموسيقى، مع أنَّها تصوَّرت أنَّ هذا الشريط سيكون بسهولة بديلًا عن الشريط الذي فقدته. فجأة، أخذ إحساسي بالإحباط بالانحسار، وحلَّ محلَّه شعوري بسعادة غامرة. لم نكن في هيلشام نمارس أشياء مثل العناق والضمِّ. غير أنَّني ضممت إحدى يديها بكلتا يديَّ عندما شكرتها. قالت: «وجدته في جولة المبيعات الأخيرة. أظنُّه النوع الذي تريدينه». فقلت لها: «نعم، إنَّه النوع الذي أريده بالتأكيد».

ما زلت أحتفظ بالشريط حتَّى الآن. لا أشغِّله كثيرًا لأنَّ الموسيقى المسجَّلة عليه لا علاقة لها بأيِّ شيء. إنَّ الشريط هو مجرَّد شيء آخر، كأنَّه دبُّوس للزينة أو خاتم، وقد أصبح اليوم واحدًا من أثمن مقتنياتي الشخصيَّة، خصوصًا بعد رحيل رُوث.

الفصل السابع

أودُّ أن أتحوَّل الآن إلى سنواتنا الدراسية الأخيرة في هيلشام. أتحدَّث هنا عن الفترة التي كنَّا فيها بين الثالثة عشرة والسادسة عشرة من العمر. أتذكَّر أنَّ حياتي في هيلشام اشتملت على فترتين متميِّزتين: المرحلة الأخيرة، والفترة التي قبلها. السنوات المبكرة- التي حدَّثتك عنها للتوِّ- يتداخل بعضها مع بعض بما يشبه فترة ذهبية، وينشرح صدري كلَّما فكَّرت فيها، حتَّى الأحداث غير العظيمة فيها. لكنَّ تلك السنوات الأخيرة تبدو مختلفة. لا يعني ذلك أنَّها كانت تعيسة تمامًا- فما زالت في القلب ذكريات غنيَّة عنها- ولكنَّها كانت سنوات أكثر جدِّية، وعلى نحو ما أكثر قتامة. ربَّما بالغت فيها، غير أنَّ الانطباعات التي بقيت في النفس تشير إلى أنَّ الأشياء كانت تتغيَّر بسرعة آنذاك وتتداخل، مثلما يتداخل النهار والليل.

تلك المحادثة بيني وبين تومي قرب البركة: أفكِّر فيها الآن كعلامة فارقة بين المرحلتين. وذلك لا يعني أنَّ أمورًا مهمَّة قد حدثت بعدها مباشرة، إلَّا أنَّ تلك المحادثة كانت منعطفًا مهمًّا بالنسبة لي. وقد بدأت بالتأكيد النظر إلى الأشياء بصورة مختلفة. فقد كنت في الماضي أنأى عن الأمور المحرجة، وبدأت الآن أطرح الأسئلة بطريقة متزايدة، على الأقل في أعماق نفسي، إن لم يكن بصوت عالٍ.

دفعتني تلك المحادثة، بصورة خاصَّة، للنظر إلى الآنسة لوسي من زاوية جديدة. فقد راقبتها بصورة متأنِّية قدر المستطاع، لا من قبيل الفضول فحسب، بل بوصفها كذلك المصدر المهمَّ للمؤشِّرات المهمَّة. هكذا كان الأمر خلال السنة أو السنتين التاليتين، إذ بدأت ألاحظ أشياء صغيرة وغريبة ومتنوِّعة كانت تقولها أو تفعلها، لم ينتبه لها أصدقائي على الإطلاق.

حدث ذلك، مثلًا، ربَّما بعد بضعة أسابيع من حديث البركة، عندما أعطتنا الآنسة لوسي حصَّة اللغة الإنجليزية. كنَّا ندرس بعض القصائد، غير أنَّ مداولاتنا تشعَّبت وتطرَّقت إلى موضوع الجنود في الحرب العالمية الثانية الذين فرضت عليهم الإقامة في معسكرات السجون. سأل أحد الأولاد عمَّا إذا كانت الأسيجة التي تطوِّق المعسكرات مكهربة، ثمَّ قال تلميذ آخر إنَّ من المستهجن أن يعيش المرء في مكان من هذا النوع، لأنَّ بوسعك أن تُقدِم على قتل نفسك بمجرَّد ملامستك للسياج. ربَّما كان القصد من هذا الحديث جدِّيًا، إلَّا أنَّ بقيَّة التلاميذ اعتبروا ذلك مدعاة للاستطراف والمزاح. كنَّا جميعا نضحك، ونتكلَّم في وقت واحد عندما وقفت لورا، كعادتها، وبدأت بمحاكاة حركات تشنُّجات شخص صعقه التيَّار الكهربائي بأسلوب هستيري. تعالت الفوضى الصاخبة بعض الوقت عندما بدأ الجميع بالصراخ وتقليد حركة التماسِّ مع السياج المكهرب.

واصلتُ مراقبة الآنسة لوسي خلال ذلك، ولمحت، لثانية واحدة، تعبيرًا شبحيًّا على وجهها فيما كانت تراقب تلاميذ الصفِّ أمامها. ثمَّ، خلال مراقبتي المركَّزة لها، تماسكت، وابتسمت، وقالت: «من حسن الحظِّ أن الأسيجة في هيلشام ليست مكهربة، وتقع أحيانًا حوادث مرعبة».

قالت ذلك بلهجة رقيقة، ولكنَّ كلماتها ضاعت تقريبًا في غمرة الصراخ من جانب الجميع. لكنَّني سمعتها بوضوح. «تقع أحيانًا حوادث مرعبة». أيَّة حوادث؟ وأين؟ لكن لم يعلِّق على حديثها أحد، وعدنا إلى مناقشة القصيدة.

وقعت حوادث صغيرة أخرى من هذا النوع، ولم يمضِ وقت طويل حتَّى بدأت أرى أنَّ الآنسة لوسي لم تكن كغيرها من الحرَّاس. من الممكن أنَّني بدأت، منذئذ، أتفهَّم طبيعة هواجسها وخيباتها. قد يكون في قولي هذا بعض المبالغة؛ لكنَّني ربَّما لاحظت جميع هذه الأشياء في تلك الفترة، ولم أستطع تفسيرها بأيِّ شكل. إذا بدت تلك الحوادث حافلة بالدلالات الآن، فإنَّ ذلك يعود إلى أنَّني استحضرها على ضوء ما حدث بعدها، لا سيَّما ما حدث ذلك اليوم في السرادق، عندما اختبأنا هربًا من هطول المطر.

***

كنَّا وقتذاك في الخامسة عشرة من العمر، أي في السنة الأخيرة من دراستنا في هيلشام. وكنَّا في السرادق نترقَّب البدء بلعبة الراوندرز. كان الأولاد يمرُّون بمرحلة «الاستمتاع» بهذه العبة لأجل التودُّد إلينا نحن البنات، لذا كنَّا عصر ذلك اليوم أكثر من ثلاثين. كان المطر يهطل مدرارًا عندما بدأنا نغيِّر ملابسنا، ووجدنا أنفسنا نتجمَّع في الشرفة المسقوفة منتظرين انقطاع المطر. غير أنَّ المطر استمرَّ في الهطول. عندما انضمَّ إلينا آخر التلاميذ، كانت الشرفة في غاية الاكتظاظ، وتدافع الجميع بعصبيَّة. أذكر أنَّ لورا كانت تشرح لي أسلوب تمخيطٍ مقزِّزٍ لصدِّ ولد ما.

كانت الآنسة لوسي هي الحارسة الوحيدة معنا. انحنت فوق حافَّة الشرفة، وحدَّقت عبر زخَّات المطر، كأنَّها تحاول بنظرتها تلك اختراق الملعب. كنت في تلك الآونة أراقبها كالعادة بأقصى تركيز ممكن، بل إنَّني كنت، وأنا أتضاحك مع لورا، اختلس النظر إلى قفا الآنسة لوسي. أذكر أنَّني كنت أتساءل عن شيء غريب في وضعيَّة جسمها، وفي رأسها المنحني، كما لو كانت حيوانًا يستعدُّ للوثوب والانقضاض. كانت طريقة انحنائها فوق الحافَّة على هذا النحو تعني أنَّ قطرات المطر التي كانت تنزل من السقف تكاد تمسُّ رأسها، إلَّا أنَّها، على ما يبدو، لم تأبه لذلك. أذكر أنَّني أقنعت نفسي وقتذاك بالفعل أنَّه لم يكن هناك ما هو غير طبيعي في ذلك- وأنَّها كانت تنتظر أن يتوقَّف المطر، فعدت لمتابعة ما كانت تقوله لورا. بعد بضع دقائق، نسيت كلَّ شيء عن الآنسة لوسي، وكنت أضحك وأقهقه بصوت عالٍ من شيء ما، ثمَّ أدركت فجأة أن أمورًا أخرى تدور حولي، وأنَّ الآنسة لوسي كانت تتحدَّث.

كانت تقف في النقطة نفسها التي كانت فيها من قبل، ولكنَّها أدارت وجهها نحونا الآن بحيث التصق ظهرها بالحافَّة، وتساقط المطر وراءها.

«لا، لا، أنا آسفة. عليَّ أن أقاطعك»، قالت. لاحظت أنَّها كانت تخاطب اثنين من الأولاد يجلسان على أريكة مقابلها. لم يكن صوتها غريبًا تمامًا، ولكنَّها كانت تتحدَّث بصوت مرتفع جدًّا، يشبه صوتها عندما تعلن شيئًا ما أمامنا جميعًا، فيخيِّم علينا الصمت. «لا يا بيتر، عليَّ أن أوقفك عند حدِّك. لن أستمع إليك وألتزم الصمت من الآن فصاعدًا».

ثمَّ رفعت بصرها، ووجَّهت حديثها لنا جميعًا، وأخذت نفسًا عميقًا. «حسنًا، اسمعوا ما يلي. الأمر يخصُّكم جميعًا. لقد آن أوان الصراحة».

انتظرنا فيما واصلت التحديق إلينا. لاحقًا، قال بعض الأشخاص إنَّهم كانوا يتوقَّعون منها التصريح بنبأ خطير، بينما يترقَّبون الإعلان عن قانون جديد حول الأسلوب الذي ينبغي علينا أن نلعب به الراوندرز. لكنَّني كنت أعلم قبل أن تتفوَّه بأيَّة كلمة أنَّ الموضوع أبعد من ذلك.

«أعذراني لأنَّني كنت أسترق السمع. لكنَّكما كنتما ورائي مباشرة. بيتر، لماذا لا تبلغ الآخرين بما كنت تقوله لغوردون قبل قليل؟».

ذُهل بيتر ج.، ورأيت وجهه بعدئذ يستعيد براءته الجريحة. غير أنَّ الآنسة لوسي تحدَّثت مجدَّدًا،

ولكن بصوت أكثر لطفًا ونعومة:
«بيتر، استمرَّ. أبلغ الآخرين بما كنت تقوله لغوردون قبل قليل».
هزَّ بيتر كتفيه. «كنَّا نتحدَّث كيف ستكون الحال لو أنَّنا تحولنا إلى ممثِّلين. وكيف ستكون حياتنا آنذاك؟».
«نعم»، قالت الآنسة لوسي، «وكنت تقول لغوردون إنَّ عليك أن تتوجَّه إلى أميركا لأنَّك ستحظى هناك بأفضل الفرص».
هزَّ بيتر كتفيه مرَّة أخرى، وغمغم بهدوء: «نعم يا آنسة لوسي».
لكنَّ الآنسة لوسي راحت تجيل بصرها بين عدد أكبر من الحضور. «أعلم أنَّكم لا تضمرون السوء. ولكنَّ الأحاديث المتداولة حول هذا الموضوع كثيرة جدًّا. إنَّني أسمعها دائمًا، وقد سُمح لها بالاستمرار، وهذا لا يدلُّ على أنَّ الأمور على ما يرام». رأيت عندئذ مزيدًا من قطرات المطر تتساقط على كتفها، ولكنَّها لم تأبه لذلك على ما يبدو. «إذا لم يتحدَّث معكم أحد حول هذا الأمر، فسأتحدَّث أنا». أضافت: «المشكلة، كما أراها، هي أنَّكم قد بُلِّغتم بذلك، ولم تبلَّغوا به. لقد بُلِّغتم به، ولكن لم يفهمه أيٌّ منكم، وأتجرَّأ على القول إنَّ بعض الناس سعداء جدًّا بإبقاء الأمور على ما هي عليه. لكنَّني لست كذلك. إذا كنتم تريدون أن تعيشوا حياة كريمة، فعليكم أن تعلموا ذلك، وتعلموه بالشكل الصحيح. لن يغادر أيٌّ منكم هذا المكان إلى أميركا، ولن يصبح أيٌّ منكم نجمًا سينمائيًا. ولن يعمل أيٌّ منكم في الاستهلاكيات- وهذا ما سمعت بعضكم يخطِّطون له قبل أيَّام. لقد رُسِمت مسارات حياتكم بالفعل. ستبلغون سنَّ الرشد، ولكن قبل أن يتقدَّم بكم العمر، سيتعيَّن عليكم أن تباشروا بالتبرُّع بأعضائكم الحيويَّة ومنحها. هذا هو الهدف الذي خُلقتم من أجله. لن تكونوا مثل الممثِّلين الذين تشاهدونهم في أشرطة الفيديو، بل إنَّكم لستم مثلي أنا. لقد جيء بكم إلى هذا العالم لهدف محدَّد، وحيواتكم المقبلة جميعها قد قُرِّرت مسبقًا. عليكم إذن أن تتوقَّفوا عن الحديث في هذا الموضوع. ستتركون هيلشام قريبًا، وفي يوم ليس ببعيد ستجهِّزون أنفسكم لمنح أوَّل تبرُّعاتكم. عليكم أن تتذكَّروا ذلك. إذا أردتم أن تعيشوا حياة كريمة، فعليكم أن تعرفوا من أنتم، وما ينتظركم جميعًا في المستقبل».
التزمتْ عندئذ الصمت، وتصوَّرتُ أنَّها ستواصل الحديث عمَّا يدور في خلدها، لأنَّ نظراتها كانت تحوم حولنا، وتنتقل من وجه إلى وجه، وكأنَّها ما زالت تخاطبنا. تنفسَّنا الصعداء عندما تحوَّلت ببصرها إلى الملعب مرَّة أخرى. «لقد تحسَّن الجوُّ الآن»، قالت، مع أنَّ المطر لم يتوقَّف. «فلنتوجَّه إلى هناك الآن. ربَّما ستشرق الشمس مجدَّدًا ونحن هناك».
أظنُّ أنَّ ذلك هو كلُّ ما تفوَّهت به. عندما ناقشت الأمر قبل بضع سنوات مع رُوث في المركز في دوفر، زعمت أنَّ الآنسة لوسي أخبرتنا ما هو أكثر بكثير؛ وشرحت لنا أنَّ علينا، قبل التبرُّع أن نمضي بعض الوقت كمرشدات أو مرشدين، نتعرَّف خلاله على التسلسل المعتاد للتبرُّعات، وعلى مراكز الاستشفاء وما إلى ذلك- ولكنَّني متأكِّدة من أنَّها لم تفعل ذلك. حسنًا، لعلَّها كانت تعتزم ذلك عندما بدأت الحديث. لكن أظنُّ أنَّها ما إن بدأت الكلام، وشاهدت الوجوه الحائرة المكدَّرة أمامها، حتى أدركت أنَّ من المستحيل إكمال ما بدأت به.
من الصعوبة بمكان أن نتبيَّن بوضح الآثار التي خلَّفها هيجان الآنسة لوسي في السرادق. لقد كثرت بعدها الأقاويل بما يكفي، غير أنَّ الحديث تركَّز أساسًا على الآنسة لوسي والحرَّاس الآخرين؛ لا على ما كانت تحاول قوله لنا. ظنَّ بعض التلاميذ أنَّها أُصيبت بالتشتُّت الذهني لبعض الوقت، أو أنَّ الآنسة إيميلي أو آخرين قد طلبوا منها أن تقول ما قالته، بل إنَّ بعض هؤلاء كانوا

هناك بالفعل، ورأوا أنَّ الآنسة لوسي قالت ما قالته لترهيبنا جرَّاء تصرُّفنا الغوغائي على الشرفة. لكن لم يكن هناك، كما أسلفت، إلَّا أقلَّ القليل من النقاش حول ما قالته. وإذا ما أثير الموضوع، يميل الناس إلى القول: «طيِّب، وماذا بعد؟ كنَّا نعرف كلَّ ذلك».

لكنَّ ذلك هو الذي قصدته الآنسة لوسي بالضبط. لقد «بُلِّغنا ولم نُبَلَّغ» على حدِّ تعبيرها. قبل بضع سنوات، عندما استحضرت هذا الأمر مع تومي، وذكَّرته بفكرة الآنسة لوسي عن أنَّنا قد «بُلِّغنا ولم نُبَلَّغ»، فإنَّه طرح نظرية عن هذه المسألة.

اعتقد تومي أنَّ الحرَّاس ربَّما كانوا خلال السنوات التي أمضيناها في هيلشام يتحيَّنون الوقت المناسب وبصورة متأنِّية ومدبَّرة، ليقولوا لنا أيَّ شيء، لأنَّنا كنَّا على الدوام أصغر من أن نفهم بشكل صحيح آخر معلومة قدِّمت لنا. لكنَّنا تقبَّلناها على علَّاتها وعلى مستوى معين، لذلك لن ينقضي وقت طويل حتَّى تكون كلُّ هذه المعلومات قد تراكمت في أدمغتنا من دون تمحيصها على الوجه الصحيح.

بالنسبة لي، كان الأمر أقرب إلى نظريَّة عن مؤامرة- لم يكن الحرَّاس بهذا القدر من الحصافة- ولكن من المحتمل أنَّ هذا التفسير كان صحيحًا. يبدو لي بشكل مؤكَّد أنَّني طالما امتلكت فكرة غامضة عن التبرُّعات، حتَّى عندما كنت في السادسة أو السابعة. العجيب أنَّنا عندما تقدَّم بنا العمر، وحدَّثنا الحرَّاس عن تلك المواضيع، فإنَّ ذلك لم يكن أمرًا مفاجئًا لنا تمامًا. وقد بدا أنَّنا قد سمعنا كلَّ شيء في مكان ما **قبل ذلك**.

الفكرة التي تراودني الآن هي أنَّ الحرَّاس، عندما بدأوا بمحاضراتهم لنا عن الجنس، كانوا يميلون إلى دمجها بالحديث عن التبرُّعات. في تلك السنِّ، أي عندما كنت في نحو الثالثة عشرة من العمر، ساورنا القلق والحماسة حول مسألة الجنس، وتحوَّلت كلُّ الأمور الأخرى بطبيعة الحال إلى مسائل ثانوية. بعبارة أخرى، من المحتمل أنَّ الحرَّاس قد حشوا رؤوسنا بكثير من الحقائق الأساسية عن حياتنا المستقبلية.

يقتضي الإنصاف الإشارة إلى إمكانية دمج هذين الموضوعين معًا. فإذا حدَّثونا، مثلًا، عن الكيفية التي سنحرص بها على تجنُّب الأمراض عند ممارسة الجنس، فسيكون من المستغرب ألَّا يشيروا إلى أنَّ ذلك بالنسبة لنا أهمُّ بكثير ممَّا هو بالنسبة للناس العاديِّين في الخارج. وسيجرُّنا ذلك، بطبيعة الحال، إلى مسألة التبرُّعات.

هناك كذلك مسألة عدم قدرتنا على إنجاب الأطفال. درجت الآنسة إيميلي على تقديم كثير من المحاضرات عن الجنس بنفسها. وأذكر أنَّها أحضرت ذات يوم هيكلًا عظميًّا بالحجم الطبيعي من حصَّة علم الأحياء لتشرح لنا العملية الجنسية. تولَّتنا الدهشة البالغة لمشاهدة العملية عندما أعادت تشكيل الهيكل العظمي بجميع التواءاته وتعرُّجاته، وهي تنتقل بالمؤشِّر بين أصابعها من موضع إلى آخر من دون أدنى شعور بالخجل أو الارتباك، وقد غطَّت ممارسةَ الجنس بجميع تفاصيلها ومدخلاتها ومخرجاتها ومختلف أوضاعها كما لو كانت درسًا في الجغرافيا. فجأة، بينما كان الهيكل العظمي في وضع فاحش على الطاولة، استدارت وبدأت تنبِّهنا إلى ضرورة معرفة الشخص الذي نضاجعه، ليس بسبب الأمراض، بل، كما قالت، «لأنَّ الجنس يؤثِّر في العواطف بطرائق لا تتوقَّعونها»، وأنَّ علينا التنبُّه جيِّدًا لممارسة الجنس في العالم الخارجي، تحديدًا مع أشخاص ليسوا من التلاميذ، لأنَّ الجنس هناك يعني العديد من الأشياء. فقد وصل الأمر بالناس هناك إلى حدٍّ جعلهم يتقاتلون ويقتل بعضهم بعضًا حول «من يضاجع من» والسبب الذي جعله يعني الكثير- وأكثر بكثير ممَّا يعنيه الرقص أو كرة الطاولة مثلًا- هو أنَّ الناس هناك يختلفون عنَّا نحن التلاميذ:

فهم قادرون على إنجاب الأطفال عن طريق ممارسة الجنس، لهذا السبب من المهمِّ بالنسبة لهم أن يعرفوا من ضاجع من، ومع أنَّ من المستحيل تمامًا علينا أن نُرزق بأطفال، فإنَّ علينا في الخارج أن نتصرَّف مثلهم. وعلينا احترام القوانين والتعامل مع الجنس بوصفه أمرًا ذا خصوصية متميِّزة.
كانت محاضرة الآنسة إيميلي ذلك اليوم نموذجًا لما أتحدَّث عنه الآن. فقد كنَّا نركِّز على الجنس، ولكنَّ المواضيع الأخرى تتغلغل وتحشر نفسها فيه. أعتقد أنَّ ذلك كلَّه كان جزءًا من اللقب الذي أُطلق علينا، وهو «بُلِّغنا ولم نُبَلَّغ».
أظنُّ أنَّنا استوعبنا في نهاية المطاف قدرًا ضخمًا من المعلومات، لأنَّني أذكر أنَّ تغيُّرًا ملموسًا قد حدث عندما كنَّا في تلك المرحلة من العمر في فهمنا للمجال الكامل الذي تدور فيه مسألة التبرُّعات. فحتَّى ذلك الحين، كما أسلفت، كنَّا نبذل قصارى الجهد لتحاشي هذا الموضوع؛ وقد نأينا بأنفسنا عن أيَّة مشاركة عند ظهور مؤشِّر ما على اقترابنا من تلك المسألة، مع إنزال عقوبات غليظة على أيِّ معتوه- مثل مارج- المستهترة آنذاك. لكن، منذ بلغنا الثالثة عشرة من العمر، بدأت التغييرات. لم نناقش وقتذاك مسألة التبرُّعات وما لفَّ لفَّها؛ وبقينا نرى أنَّ تلك القضيَّة برمَّتها مثيرة للحرج. إلَّا أنَّنا اعتبرناها موضوعًا يصلح للمزاح والتنكيت حول الجنس. حين استحضر تلك الأيَّام الآن، أتذكَّر أنَّ القانون المتعلِّق بعدم مناقشة التبرُّعات علنًا كان ساري المفعول آنذاك، وبكامل قوَّته. لكن أمكن، بل غدا من المطلوب، الإشارة على سبيل المزاح، بين الفينة والفينة، إلى هذه الأمور التي تنتظرنا.
من الأمثلة على ذلك ما حدث لتومي عندما أصيب بجرح في كوعه. لا بدَّ من أنَّ ذلك قد وقع قبل حديثي معه قرب البركة؛ أي في الوقت الذي كان فيه تومي كما أظنُّ، يخرج من الدائرة التي كان يتعرَّض فيها للتنغيص والتهكُّم.

***

لم يكن الجرح بليغًا جدًّا، مع أنَّ تومي أُرسل إلى «وجه الغراب» لتعاينه، ولكنَّه عاد على الفور تقريبًا، وقد غُطِّي كوعه بضماد طبِّي مربَّع الشكل. لم يفكِّر أحد كثيرًا في الأمر إلَّا بعد يومين أو ثلاثة، عندما أزال تومي الضماد، وظهر أنَّ الجرح المفتوح لم يلتئم بعد. كان بوسعك أن ترى قطع الجلد وهي في طريقها إلى الالتئام. كنَّا عاكفين على تناول الغداء، فتوافد الجميع للإعراب عن أسفهم للحادث. عندئذ قال كريستوفر هـ. الذي يسبقنا بسنة دراسيَّة واحدة، وقد تجهَّمت تقاطيعه: «من المؤسف أنَّ الجرح حدث على هذا الجانب من الكوع. لو حدث في جانب آخر، لكان أقلَّ ضررًا».
بدا القلق على وجه تومي، الذي كان معجبًا بآراء كريستوفر في تلك الأيَّام، وسأله عمَّا يعينه. استمرَّ كريستوفر في تناول طعامه، وسأل بفتور: «ألا تعلم ذلك؟ إذا كان الجرح على الكوع مباشرة فإنَّه **سيُفْتَح**. كلُّ ما عليك فعله هو أن تثني ذراعك بسرعة. لا تلك البقعة فقط، بل الكوع بأكمله، سيُفتح مثل الحقيبة. ظننت أنَّك تعرف ذلك».
سمعت تومي يتذمَّر من أنَّ «وجه الغراب» لم تحذِّره من أيِّ شيء كهذا. إلَّا أنَّ كريستوفر هزَّ كتفيه، وقال:
«لقد ظننَّت بالطبع أنَّك تعلم ذلك. الجميع يعرفون».
غمغم عدد من الحضور موافقين. قال أحدهم: «عليك أن تحافظ على استقامة ذراعك، لأنَّ التواءها بأيِّ شكل سيكون أمرًا خطيرًا بالفعل».
في اليوم التالي، رأيت تومي يتحرَّك، وقد مدَّ ذراعه بصورة مستقيمة تمامًا، وبدت عليه إمارات

القلق. كان الجميع يسخرون منه. أغضبني ذلك، لكن عليَّ الإقرار بوجود جانب مضحك في هذا الموقف. عند نهاية فترة الظهيرة، وكنَّا نغادر غرفة الفنون، أقبل عليٌّ في الممرِّ وقال: «كاث، هلَّا تحدَّثنا قليلًا؟».

ربَّما كان ذلك بعد أسبوعين أو ثلاثة من ذهابي إليه في الملعب لأذكِّره بقميصه البولو. وقد غدا من المعروف أنَّنا صديقان، وأنَّ صداقتنا من نوع خاصٍّ على نحو ما. على أيِّ حال، فإنَّ مطالبته بحديث خاصٍّ معي كان أمرًا محرجًا أفقدني توازني. ربَّما كان ذلك، في جانب منه، هو الذي جعلني أقلَّ استعدادًا للمساعدة ممَّا اعتدت عليه.

بعد أن انتحى بي جانبًا، بدأ بالقول: «أنا لست قلقًا على الإطلاق. ولكنَّني أريد أن أتصرَّف بشكل صحيح سليم. هذا كلُّ ما في الأمر. وعلينا ألَّا نخاطر في أمور تتعلَّق بأوضاعنا الصحِّية. أريد شخصًا يساعدني يا كاث». أوضح لي أنَّه كان مهمومًا بما يتوجَّب عليه أن يفعله أثناء النوم. فهو قد يثني كوعه وهو نائم. «تراودني دائمًا تلك الأحلام عن معركة تدور بيني وبين جيش عرمرم من الجنود الرومان».

عندما طلبت منه المزيد من الإيضاح، تبيَّن لي أنَّ تشكيلة من الأشخاص- الأشخاص الذين لم يكونوا هناك خلال استراحة الغداء- كانوا يتبادلون معه الحديث ويكرِّرون أمامه التحذير الذي أطلقه كريستوفر هـ.، ولكن قلَّة قليلة منهم تمادت في المزاح حول هذا الأمر؛ لقد أخبروه عن تلميذ أصيب مثله بجرح في كوعه، وقد صحا من نومه ذات يوم ليجد الجانب العلويَّ من ذراعه بالإضافة إلى يده قد تحوَّلا إلى سلسلة عظمية، عُرِّيت ممَّا كان عليها من لحم، ونُثر جلدها إلى جانبه، «مثل أحد تلك القفازات الطويلة التي شاهدناها في فيلم 'سيِّدتي الجميلة'».

ما يريده تومي منِّي الآن هو أن أربط له جبيرة تحافظ على صلابة ذراعه واستقامتها خلال الليل.

«لا أثق بأيِّ شخص آخر»، قال وهو يمسك بمسطرة سميكة يريد منِّي استخدامها لهذا الغرض. «إنَّهم يتعمَّدون فعل ذلك بحيث يصيبها العطب خلال الليل».

كان ينظر إليَّ ببراءة تامَّة، ولم أعرف ما ينبغي عليَّ قوله. أراد جانب منِّي بالفعل أن يشرح له حقيقة ما كان يجري آنذاك، وأظنُّ أنَّني أدركت وقتذاك أنَّ قيامي بأيِّ تصرُّف آخر كان يعني تقويض الثقة التي بنيناها منذ اللحظة التي ذكَّرته فيها بقميصه البولو. إذا قمت بتثبيت ذراعه بتلك الجبيرة، فسيعني ذلك مشاركتي في تدبير تلك المزحة. ما زلت أشعر بالخزي لأنَّني لم أبلغه يومذاك بذلك. لكن عليك أن تتذكَّر أنَّني كنت صغيرة، وعليَّ أن أقرِّر خلال ثوانٍ معدودة. عندما يتضرَّع أحد الأشخاص ويطلب منك أن تقوم بعمل ما، فلن تستطيع الرفض.

أظنُّ أنَّ الشيء المهمَّ كان ألَّا أغضبه. فقد كنت ألاحظ تأثُّر تومي، رغم قلقه حول كوعه، بمشاعر التعاطف التي اعتقد أنَّه تلقَّاها. وكنت أعلم بالطبع أنه سيكتشف الحقيقة إن آجلًا أم عاجلًا ولكنَّني لم أصرِّح له بذلك في تلك اللحظة. وأفضل ما كان بوسعي فعله هو أن أسأله:

«هل طلبت'وجه الغراب' منك أن تفعل ذلك؟».

«لا. ولكن تصوَّري مدى غضبها لو انزلق كوعي وانكشف العظم».

ما زلت أشعر بالأسف إزاء ذلك. لكنَّني وعدته بتجبير ذراعه- في الحجرة ١٤ قبل نصف ساعة من قرع الجرس الليلي- وشاهدته بعد ذلك وهو يتركني ممتنًّا ومطمئنًا.

تبيَّن لاحقًا أنَّني لم أكن مضطرَّة لفعل ذلك، لأنَّ تومي اكتشف الأمر بنفسه. ففي نحو الساعة الثامنة مساء، كنت أنزل على الدرج الرئيس، فسمعت ضحكات مجلجلة تتصاعد من الطابق

الأرضي إلى الطابق العلوي. توقّف قلبي في تلك اللحظة لأنَّني عرفت على التوِّ أنَّ لذلك علاقة بتومي. تريَّثت عند بسطة الطابق الأوَّل، ونظرت من فوق الدرابزون فيما كان تومي يغادر غرفة البلياردو بخطواته الصاخبة. أذكر أنَّني قلت لنفسي: «على الأقل لا يصرخ». لم يفعل ذلك، فيما توجَّه إلى ركن إيداع المعاطف، حيث التقط حاجيَّاته وترك المنزل الرئيس. طوال الوقت كان الضحك يتعالى من بوَّابة غرفة البلياردو المفتوحة، وتتصاعد الأصوات والعبارات الاستفزازية مثل: «إذا فقدت أعصابك، فإنَّ ذراعك ستنخلع **بالتأكيد!**».

فكَّرت في اللحاق به خلال تلك الأمسية، والحديث معه قبل أن يصل إلى المنامة، لكنَّني تذكَّرت عندئذ أنَّني وعدته بإثبات جبيرة على ساعده خلال الليل، فلم أتحرَّك، بل اكتفيت بالقول لنفسي: «على الأقل لم يستشط غضبًا، ولم يجنَّ جنونه».

ها أنا قد شططت عمَّا أردت قوله. السبب الذي دفعني إلى الحديث عن ذلك هو أنَّ فكرة «فتح الكوع» قد انتشرت بعد واقعة كوع تومي، وغدت نكتة شائعة بيننا حول مسألة التبرُّعات. الفكرة هي أنَّ بوسعك، عندما تحين الساعة، أن تفتح جسمك تنتزع جزءًا منه، مثل الكلية، وتسحبه إلى الخارج وتتبرَّع به. لم تكن هذه الفكرة بحدِّ ذاتها مسلِّية أو ممتعة بالنسبة لنا؛ لقد كانت وسيلة يستخدمها الواحد منَّا لمنع الآخرين من الاستيلاء على وجبته. فأنت، على سبيل المثال، تنتزع كبدك، وتضعه على صحن أحدهم، أو أي شيء من هذا القبيل. وأذكر أن غاري ك. الذي كانت شهيَّته للطعام فوق التصوُّر، كان يلتهم ثلاث دفعات إضافية من حلوى البودنغ، ثمَّ يقوم كلٌّ واحد من الجالسين حول المائدة باقتطاع جزء من نفسه، افتراضيًا، ورَكْمه على طبقه، بينما يعكف هو على ازدراده وحشوه في أحشائه بمنتهى الإصرار.

لم يكن تومي يحبُّ أن يثار هذا الموضوع أمامه على الإطلاق. ولكن مع مرور الزمن، انقضت الأيَّام التي كان يتعرَّض فيها للإزعاج، ولم يعد أحد يربط بينه وبين تلك النكتة. فقد أصبحت قيد التداول لمجرَّد المزاح والتفكُّه، ولحرمان أحدهم من عشائه أو- كما أظنُّ- كوسيلة للإقرار بما هو بين أيدينا. كانت تلك هي النقطة الأساسية لديَّ. في تلك المرحلة من حياتنا لم نتجنَّب الحديث عن التبرُّعات، كما كنَّا قبل سنة أو سنتين؛ ولكن لم نتحدَّث عنها أو نناقشها بصورة جادَّة، وكان موضوع «الفتح» من الأمور المعتادة التي كانت تتخلَّل دردشاتنا عندما كنَّا في الثالثة عشرة من العمر.

لهذا أقول إنَّ الآنسة لوسي لم تخطئ عندما قالت بعد ذلك بسنتين إنَّنا قد «بُلِّغنا ولم نُبَلَّغ».

تذكَّرت الآن شيئًا آخر، هو أنَّ ما قالته الآنسة لوسي لنا عصر ذلك اليوم قد أدَّى إلى تحوُّل حقيقيٍّ في مواقفنا. فبعد ذلك بيوم واحد، انحسرت النكات حول التبرُّعات وتبدَّدت، وبدأنا نفكِّر في الأمور بطريقة صحيحة. وقد أصبحت التبرُّعات على العموم، من المواضيع التي ينبغي تحاشيها، ولكن ليس على النحو الذي اتبعناه عندما كنَّا أصغر عمرًا. لم يكن الحديث عنها محرجًا هذه المرَّة، بل أصبح جادًّا ورصينًا.

قال لي تومي عندما كنَّا قبل بضع سنوات نستحضر، مجدَّدًا ذكريات تلك الأيَّام: «غريب أنَّ أحدًا منَّا لم يفكِّر في مشاعرها، مشاعر الآنسة لوسي نفسها. لم نأبه إذا واجهت بعض المشاكل جرَّاء ما أبلغتنا إياه. لقد كنَّا في منتهى الأنانية في تلك الأيَّام».

«ولكن لا تستطيع أن تنحو باللائمة علينا»، قلت. «لقد علَّمونا أن يهتمَّ الواحد منَّا بأمر الآخر، ولكن ذلك لا يشمل الحرَّاس. لم يخطر في بالنا قطُّ أنَّ الحرَّاس كانوا مختلفين».

«لكنَّنا كنَّا ناضجين بما فيه الكفاية»، قال تومي، «في تلك السنِّ، كان **يجب** أن نفكِّر في ذلك.

ولكن لم نفعل، إنَّنا لم نفكِّر في الآنسة لوسي المسكينة مطلقًا. حتَّى بعد تلك الأيَّام، كما تعلمين، عندما رأيتِها».

أدركت على الفور ما يعنيه. كان يتحدَّث عن صباح مبكر في الصيف الأخير لنا في هيلشام، عندما التقيتها بالصدفة في الحجرة ٢٢. حين أتذكَّر ذلك الآن، أعترف بأنَّ تومي كان على حقٍّ، فقد كان من المفروض أن يكون واضحًا، حتَّى بالنسبة لنا، مدى الاضطراب الذي كانت تعانيه الآنسة لوسي. لكنَّنا، كما قالت، لم ننظر إلى أي شيء من وجهة نظرها، ولم يخطر لنا قطُّ أن نقول أو نفعل أي شيء لمساندتها.

الفصل الثامن

كان كثيرون منَّا آنذاك قد بلغوا السادسة عشرة من العمر. توجَّهنا بعد إحدى الحصص في المنزل الرئيس إلى الساحة، عندما تذكَّرت أنَّني تركت شيئًا في الصفِّ. فعدت إلى الطابق الثالث، وحدث ذلك الأمر المتعلِّق بالآنسة لوسي.

كنت حينذاك أمارس تلك اللعبة السرِّية. فعندما أكون وحدي، أستطلع من خلال النافذة أو من باب إحدى الغرف، ولو لعدَّة ثوان، مشهدًا ما- أيَّ مشهد خالٍ من الناس. كنت أفعل ذلك لعلِّي أتصوَّر في مخيلتي ذلك المكان وقد خلا من جمهرة التلاميذ، وتحوَّلت هيلشام بدلًا من ذلك إلى المنزل الرئيس الهادئ الساكن الذي عشت فيه مع أربعة أو خمسة آخرين فقط. ما عليك لأجل ذلك إلَّا أن تتوهَّم أنَّك تحلم، وتنأى بنفسك عن كلِّ ذاك الضجيج وتلك الأصوات الشاردة. وعليك في العادة أن تتحلَّى كذلك بالصبر. فإذا كنت، على سبيل المثال، تركِّز ناظريك على بقعة معيَّنة من الملعب، فإنَّ عليك أن تنتظر فترة طويلة إلى أن تطلَّ تلك الثواني القليلة التي لا يظهر خلالها أي شيء آخر في مدى الرؤية. على أيِّ حال، فهذا ما كنت أفعله في صبيحة ذلك اليوم بعد إحضار ما نسيته في غرفة الصفِّ، وعودتي إلى بسطة الطابق الثالث.

وقفت من دون حراك على مقربة من إحدى النوافذ أنظر إلى طرف الملعب الذي كنت فيه قبل قليل. كان أصدقائي قد تركوا المكان وخلت الساحة من الناس تدريجيًّا. لذلك كنت أترقَّب بداية لعبتي المخادعة عندما سمعت خلفي ما يشبه نفحات حادَّة من الغاز أو البخار.

كان الهسيس يستمرُّ نحو عشر ثوانٍ، ويتوقَّف، ثمَّ ينطلق مرَّة أخرى. لم يستولِ عليَّ الفزع تمامًا، ولكن لأنَّني كنت الشخص الوحيد هنا، فقد ظننت أنَّ من الأفضل أن أذهب وأستقصي.

عبرت البسطة في اتجاه الصوت، مررت في الممرِّ المحاذي للحجرة التي كنت فيها قبل قليل، ثم إلى الحجرة ٢٢، وهي الثانية قبل نهاية الممرِّ. كان الباب نصف مفتوح، وحين اقتربت منه، انطلق الهسيس مجدَّدًا، ولكن بصورة أكثر حدَّة من ذي قبل. لا أعرف ما توقَّعت اكتشافه عندما دفعت الباب بحذر، ولكنَّني فوجئت تمامًا برؤية الآنسة لوسي.

نادرًا ما كانت الحجرة ٢٢ تستخدم للتدريس، لأنَّها كانت صغيرة جدًّا، وقلَّما تدخلها أشعَّة الشمس حتَّى في يوم كهذا. كان الحرَّاس يدخلونها أحيانًا لمراجعة أعمالنا أو لمواصلة دروس المطالعة. في ذلك الصباح، كانت الحجرة أشدَّ عتمة ممَّا هي عليه في العادة، لأنَّ الستائر أسدلت بشكل كامل. غير أنَّ الآنسة لوسي كانت هناك وحدها في آخر الغرفة. رأيت عدَّة صحائف متناثرة من الورق الداكن اللامع أمامها على المنضدة. أمَّا هي، فقد انحنت فوقها وأنزلت جبهتها، بتركيز شديد، ووضعت ساعديها على سطح المنضدة، فيما كانت ترسم خطوطًا مهتاجة بقلم الرصاص على إحدى الصفحات. في أسفل الخطوط السود، رأيت عبارات زرقاء أنيقة مخطوطة باليد. فيما كنت أشاهد ذلك، واصلت حكَّ الورقة بطرف القلم، كما لو كانت تظلِّل الرسوم في حصَّة الفنون، إلَّا أنَّ حركاتها كانت أكثر غضبًا، كأنَّها لا تبالي إذا أدَّى الضغط إلى اختراق الصحيفة. أدركت في تلك اللحظة أنَّ ذلك هو مصدر الصوت العجيب، وما توهَّمت قبل قليل أنَّه أوراق داكنة لامعة على المنضدة إنَّما كان قبل ذلك صفحات مخطوطة باليد لكتابات أنيقة.

لشدَّة استغراقها فيما كانت تفعله، لم تدرك وجودي هناك إلّا بعد فترة. عندما نظرت إليَّ، كان وجهها متورِّدًا، ولكنِّي لم ألمح آثار دموع. حدَّقَت إليَّ، ثم وضعت القلم.

«مرحبًا يا صبيَّة»، قالت، ثم أخذت نفسًا عميقًا، وأضافت: «أيَّة خدمة أقدِّمها لك؟».

أظنُّ أنَّني استدرت لأتجنَّب النظر إليها والأوراق على المنضدة. لا أذكر ما إذا كنت قد قلت الكثير- أو أنَّني شرحت مسألة الهسيس، وخشيتي من أن يكون صادرًا عن الغاز. على أيِّ حال، لم تكن هناك بيننا أيَّة محادثة بمعنى الكلمة: فهي لم تكن تريد أن أكون هناك، وكان شعوري تجاهها كذلك. أظنُّ أنَّني أعربت عن اعتذاري على نحو ما وخرجت، متوقِّعة أن تطلب منِّي العودة. لكنَّها لم تفعل. ما أذكره الآن هو أنَّني هبطت الدرج يغمرني الشعور بالخزي وبالسخط. تمنَّيت في تلك اللحظة لو لم أرَ ما رأيت، مع أنَّه لم يكن بوسعي لو سئلت أن أفسِّر طبيعة ما شعرت به. ربَّما كان الخزي كما أسلفت أحد الأسباب، وكذلك الغضب. ولكن ذلك لم يكن موجَّهًا ضدَّ الآنسة لوسي نفسها. كنت محتارة تمامًا، وربَّما ذلك ما منعني من إبلاغ أصدقائي بالأمر حتَّى وقت متأخِّر جدًّا.

بعد ذلك الصباح، اقتنعت بوجود شيء آخر، ربَّما بغيض، يتعلَّق بالآنسة لوسي. فركَّزت بصري وأصخت سمعي لمعرفته. لكن مرَّت الأيَّام ولم أسمع شيئًا. لم أعلم آنذاك أنَّ **أمرًا مهمًّا** قد حدث بعد عدَّة أيَّام من مشاهدتي لها في الحجرة ٢٢ - شيئًا جرى بين الآنسة لوسي وتومي وأدَّى إلى إغضابه وحيرته. في وقت غير بعيد بدأت وتومي نتبادل فورًا ما لدينا من أخبار كهذه في البداية، ولكن في ذلك الصيف، حدثت أمور عديدة منعتنا من الحديث بحرِّية.

لذا لم أسمع شيئًا عن الموضوع لمدَّة طويلة. بعدئذ، صرت ألوم نفسي لأنَّني لم أتوقَّع الأمور، ولم أطلب من تومي أن يشرح لي. ولكن، كما أسلفت، كانت تحدث أمور كثيرة آنذاك، بين تومي ورُوث، سلسلة طويلة منها، وقد عزوت ما لاحظته عليه من تغيُّرات إلى تلك الأمور.

ربَّما كان من المبالغة القول إنَّ تصرُّفات تومي كلَّها قد ساءت في ذلك الصيف. ولكن كانت ثمَّة أوقات تولَّاني فيها قلق جدِّي من أنَّه قد تغيَّر وانتكس وعاد إلى ما كان عليه من تقلُّبات وتغيُّرات قبل عدَّة سنوات. ففي إحدى المرَّات، على سبيل المثال، كان عدد قليل منَّا في طريق العودة من السرادق إلى أكواخ المنامات، عندما وجدنا أنفسنا نسير وراء تومي وبعض الأولاد الآخرين. كانوا يسبقوننا بخطوات قليلة، وبدوا جميعًا- بمن فيهم تومي- في أحسن حال، يتضاحكون ويتدافعون. الواقع أنَّني لاحظت أنَّ لورا، التي كانت تسير إلى جانبي، قد تأثَّرت بأسلوب العبث والمزاح بين الأولاد. لا بدَّ من أنَّ تومي جلس على الأرض قبل ذلك، لأنَّ بقعة واسعة من الطين كانت تلطِّخ جانبًا من ظهر قميص الرغبي الذي يرتديه. ومن الواضح أنَّه لم يكن يعرف ذلك، ولا أعتقد أنَّ أصدقاءه أيضًا شاهدوا اللطخة أو لمحوها. مهما يكن من أمر، فإنَّ لورا، لأنَّها لورا التي لا تتغيَّر، صاحت بعبارة من نوع: «تومي! هناك لطخة مضحكة على ظهرك! ماذا كنت تفعل بنفسك؟».

قالت ذلك بطريقة ودِّية تمامًا، وإذا كان بعضنا قد أصدروا حينئذ بعض الأصوات، فإنَّ ذلك لم يكن أكثر ممَّا يفعله التلاميذ في كلِّ الأوقات. من هنا كانت الصدمة عنيفة وتامَّة عندما توقَّف تومي فجأة، واستدار، واربدَّ وجهه وحدَّق إلى لورا. توقَّفنا جميعا كذلك، وبدت الحيرة علينا وعلى الأولاد. حسبت، لعدَّة ثوان، أنَّ تومي سينفجر لأوَّل مرَّة منذ سنوات. لكنَّه عاد ومشى متبخترًا باستعلاء، وتركنا نتبادل النظرات ونهزُّ أكتافنا.

وقع الحادث المؤسف الآخر عندما أطلعته ذات يوم على روزنامة باتريشيا س. التي تسبقنا بسنتين. الجميع كانوا معجبين جدًّا بمهارتها في الرسم، وكانت رسومها مطلوبة دائمًا خلال مبادلات الفنون. وقد سعدت بهذه الروزنامة بصورة خاصَّة، التي حصلت عليها في «التبادل»

الأخير، لأنَّ الحديث كان يدور حولها لعدَّة أسابيع قبل ذلك. هي لا تشبه، على سبيل المثال، التقويمات الملوَّنة الطيِّعة للآنسة إيميلي عن المقاطعات الإنجليزية. فقد كانت روزنامة باتريشيا صغيرة وقصيرة وسمينة، ولكلِّ شهر، كان هناك رسم مدهش بقلم واحد لمشاهد الحياة في هيلشام. ليتها ما زالت معي الآن، لا سيَّما وأنَّ بعض الصور فيها- مثل الصور في شهري حزيران\يونيو وأيلول\سبتمبر- تُظهر لك وجوه أشخاص معيَّنين من التلاميذ والحرَّاس. وهي إحدى الأشياء التي فقدتها عندما تركت الأكواخ، عندما كان شيء آخر هو الذي يستأثر باهتمامي، ولم أكن أولي اهتمامًا خاصًّا بما أخذته معي- لكنَّني سأتحدَّث عن ذلك في موضع آخر. ما يهمُّني هنا هو أنَّ روزنامة باتريشيا كانت «لقطة» نادرة، وكنت فخورة باقتنائها، وأردت إطلاع تومي عليها لهذا السبب.

لمحته واقفًا تحت أشعَّة الشمس بعد ظهر ذلك اليوم، إلى جانب شجرة الجمَّيز الضخمة قرب الملعب الجنوبي، وبما أنَّني كنت أحتفظ بالروزنامة في حقيبتي- حيث كنت أطلع التلاميذ الآخرين عليها أثناء حصَّة الموسيقى- فقد توجَّهت إليه لهذه الغاية.

كان مستغرقًا في متابعة مباراة كرة القدم التي يشارك فيها أولاد أصغر سنًّا في الحقل المجاور. كان آنذاك رائق المزاج، بل مطمئنَّ الخاطر. ابتسم حين اقتربت منه، وتحدَّثنا لنحو دقيقة واحدة من دون أن نركِّز على موضوع محدَّد. ثمَّ قلت: «تومي، انظر إلى ما حصلت عليه». لم أحاول أن أتستَّر على إحساسي بالنصر أو إعجابي بنفسي وأنا أُخرج الروزنامة من حقيبتي وأسلِّمها له. عندما أمسك بها، تجلَّت على ملامحه بقايا ابتسامة، غير أنَّ أساريره علاها الانقباض حالما بدأ بتقليب الصفحات.

«إنَّ باتريشيا»، بدأت بالقول، ولكنَّني أحسست أنَّ لهجتي قد تغيَّرت، «في غاية الذكاء»...

إلَّا أنَّ تومي كان في تلك اللحظة قد أعادها لي. ثمَّ مرَّ بجانبي من دون أن يتفوَّه بكلمة واحدة متوجِّهًا إلى المنزل الرئيس.

كان من المقدَّر أن تزوِّدني الحادثة الأخيرة ببعض الخواطر. لو فكَّرت فيها، حتَّى بصورة عابرة، لأدركت، على سبيل التخمين، أنَّ لحالات تومي المزاجية الأخيرة علاقة بالآنسة لوسي ومشاكله القديمة مع «الابتكار» والإبداع. لكنِّي لم أفعل ذلك على الإطلاق، كما أسلفت مع استمرار الأمور على هذا النحو. أعتقد أنَّني افترضت أنَّ تلك المشاكل القديمة قد طواها النسيان في مرحلة مبكرة من حياتنا، وأنَّ القضايا الكبرى التي يخيِّم شبحها على الأفق هي وحدها التي ستشغل كلَّ واحد منَّا.

ما الذي كان يجري، إذن؟ حسنًا، لقد دبَّ شجار جدِّي بين رُوث وتومي أوَّل الأمر. كان عمر علاقتهما الحميمة نحو ستِّ سنوات؛ على الأقلّ تلك هي الفترة التي كانت العلاقة بينهما «علنية» فيها- وكانا يسيران وكلٌّ منهما يلفُّ ذراعه حول الآخر، وما إلى ذلك. كانا يتمتَّعان بالاحترام كشخصين متحابَّين لأنَّهما لم يلجآ إلى الاستعراض. ذلك أنَّ آخرين، مثل سيلفيا ب. وروجر د. كانا يثيران الغثيان، ولا يخفِّفان من غلوائهما إلَّا بعد جوقة صاخبة من صراخنا وغثياننا. غير أنَّ رُوث وتومي لم يقوما بأيِّ تصرُّف شنيع أمام الناس، وإذا حدث عناق أو ما شابه، يفعل أحدهما ذلك لأجل الآخر وليس للجمهور.

عندما أستحضر ذلك الآن، أدرك أنَّ تفكيرنا بموضوع الجنس كان مشوَّشًا تمامًا. لا عجب في ذلك، كما أعتقد، لأنَّنا كنَّا بالكاد قد بلغنا السادسة عشرة من العمر. لكن ما زاد في ذلك الخلط - كما ألاحظ بوضوح أكثر الآن- هو أنَّ حرَّاسنا أنفسهم كانوا مشوَّشين كذلك. فقد كنَّا مثلًا نستمع من

ناحية إلى محاضرات الآنسة إيميلي التي تؤكِّد أنَّنا لا ينبغي أن نستحي من أجسادنا وأن «نحترم حاجاتنا الجسدية»، وأنَّ الجنس «هبة جميلة كلَّ الجمال» طالما أنَّ الطرفين المعنيَّين يرغبان فيه بالفعل. ولكن عندما يتطرَّق الحديث إلى هذا الموضوع، فإنَّ الحرَّاس والحارسات يجعلون من المستحيل على أيٍّ منَّا أن يتصرَّف من دون انتهاك القوانين. لم يكن بوسعنا أن نزور منامات الأولاد، ولا أن يزوروا مناماتنا، بعد الساعة التاسعة. كما كانت حجرات الصفوف بمثابة «أرض حرام» في الأماسي. شأنها شأن المناطق الواقعة خلف السقائف والسرادق. وأنت، من ناحية أخرى، لا تريد أن تمارس تلك العلاقة في الحقول، حتَّى عندما يكون الجوُّ دافئًا، لأنَّك ستكتشف بالتأكيد لاحقًا أنَّ هناك من يراقبونك من المنزل باستخدام المناظير. بعبارة أخرى، رغم الحديث عن روعة الجنس ترسَّخ لدينا الانطباع الأكيد بأنَّنا سنواجه المشاكل إذا ما ضبطَنا الحرَّاس بالجرم المشهود.

أقول ذلك مع أنَّ الحالة الحقيقية الوحيدة التي عرفتها شخصيًّا هي مداهمة جيني س. وروجر د. في الحجرة ١٤. حدث ذلك بعد الغداء، وعلى سطح إحدى الطاولات فعليًّا، عندما دخل السيِّد جاك يبحث عن شيء ما. وحسب رواية جيني، فإنَّ وجه السيِّد جاك قد احمرَّ، فخرج على التوِّ، ولكن تملَّكهما الخوف فتوقَّفا. وكانا على وشك الانتهاء من ارتداء ملابسهما عندما عاد السيِّد جاك، وكأنَّه يدخل الحجرة للمرَّة الأولى، وتظاهر بأنَّه دُهش وصُدم ممَّا رأى.

«ما كنتما تفعلانه واضح تمامًا بالنسبة لي، وهو شيء غير لائق»، قال، وطلب منهما أن يذهبا لمقابلة الآنسة إيميلي. ولكن عندما قابلاها، أبلغتهما أنَّها في طريقها إلى اجتماع مهمٍّ، ولا وقت لديها للحديث معهما. وأردفت قائلة:

«لكنَّكما تعلمان أنَّه لم يكن يليق بكما أن تفعلا ما كنتما تفعلانه، وأنا أتوقَّع منكما ألَّا تكرِّراه». ثمَّ انطلقت خارجة مع ما تحمله من ملفَّات.

كان الجنس المِثلي، بالمناسبة، من الأمور الأكثر إرباكًا وتشويشًا لنا. لسبب ما، كنَّا ندعوه «جنس المظلَّة»؛ فإذا اشتهيت شخصًا من جنسك، فإنَّك ستكون «مظلَّة». لا أعرف كيف كان الوضع في المكان الذي أنت فيه، ولكن من المؤكَّد أنَّنا في هيلشام لم نتساهل على الإطلاق مع أيِّ دليل على وجود النزعة المثلية. لقد كان بوسع الأولاد بشكل خاصٍّ أن يرتكبوا أقبح الأعمال. وحسب ما تقوله رُوث، فإنَّ ذلك يعود إلى أنَّ عددًا لا بأس منهم قد فعلوا، بعضهم مع بعض، أشياء معيَّنة عندما كانوا صغار السنِّ، ثم أدركوا بعدها طبيعة ما فعلوه. وها هم الآن يعانون التوتُّر جرَّاء ذلك بصورة تدعو إلى السخرية. لا أعلم ما إذا كانت على حقٍّ فيما تقوله، ولكن من المؤكَّد أنَّ اتِّهام شخص ما بأنَّه قد تحوَّل إلى «مظلَّة» قد ينتهي بمشاجرة آخر الأمر.

عندما كنَّا نناقش هذه الأمور كلَّها- وقد فعلنا ذلك مرارًا في تلك الأيَّام، لم نكن متأكِّدين من أنَّ الحرَّاس أرادوا لنا ممارسة الجنس أم غير ذلك. اعتقد بعض الأشخاص أنَّهم أرادوا ذلك بالفعل. وقد حاولنا، لكن في الأوقات الخطأ. طرحت هانا نظرية مفادها أنَّه كان من واجب الحرَّاس أن يتركونا نمارس الجنس لأنَّنا بغير ذلك لن نكون مانحين صالحين لاحقًا. وكانت ترى أنَّ أعضاء معيَّنة لديك، مثل الكلى والبنكرياس لن تعمل بكفاءة إلَّا إذا واصلت ممارسة الجنس. وقال آخر إن علينا أن نتذكَّر أنَّ الحرَّاس كانوا أشخاصًا «أسوياء» عاديين. لهذا السبب، فقد كان موقفهم غريبًا من هذا الموضوع؛ فبالنسبة لهم، الغرض من الجنس هو الإنجاب، ومع علمهم بأنَّه لم يكن بمقدورنا الإنجاب، لم يكونوا مرتاحين لممارستنا الجنس لأنَّهم في أعماقهم، لم يؤمنوا بأنَّنا غير قادرين على إنجاب الأطفال آخر الأمر.

طرحت آنيت ب. نظريَّة أخرى: الحرَّاس غير مرتاحين لممارستنا الجنس، الواحد مع الآخر، لأنَّهم سوف **يريدون** عندئذ أن يمارسوا الجنس معنا. وقالت إن السيِّد كريس بصورة خاصَّة كان ينظر إلينا نحن البنات على هذا الأساس. وقالت لورا إنَّ ما كانت تقصده آنيت بالفعل هو أنَّها هي التي تريد مضاجعة السيِّد كريس. سخرنا جميعًا من ذلك لأنَّ التفكير بممارسة الجنس مع السيِّد كريس هو أمر عبثي، بل هو مسألة مقزِّزة تمامًا.

النظرية الأقرب إلى المعقول، في رأيي، هي التي عرضتها رُوث. «إنهم يطلعوننا على موضوع الجنس،» على حدِّ تعبيرها، «لأنَّهم يريدون منَّا، بعد مغادرة هيلشام، أن نمارسه بطريقة لائقة مع من نحبُّ، من دون أن نصاب بالأمراض. يريدون أن نفعل ذلك بعد المغادرة، وليس هنا، لأنَّ ذلك سيجلب لهم المزيد من المتاعب».

في تقديري، على أي حال، أنَّ ما جرى من علاقات جنسية أقل ممَّا تصوَّره الآخرون. ربَّما كان هناك الكثير من التقبيل والملامسة؛ وقد **يلمِّح** الحبيبان إلى أنَّهما كانا يمارسان العملية كاملة. ولكنَّني عندما أتذكَّر ذلك لا أعرف مدى صحَّة هذا الكلام. إذا كان كلٌّ من زعم صادقًا، فإنَّك كنت ستشاهد تلك الممارسات عندما تتجوَّل في هيلشام، وكنت سترى المحبِّين يفعلونها هنا وهناك وفي كلِّ مكان.

ما أتذكَّره الآن هو اتِّفاقنا جميعًا على ألَّا نتحدَّث كثيرًا فيما بيننا عن مزاعمنا. فعلى سبيل المثال، إذا أشاحت هانا ببصرها عند مناقشتنا لموضوع فتاة أخرى وغمغمت قائلة: «عذراء»، فهذا يعني: «بالطبع نحن **لسنا عذارى**، ولكنَّها كذلك، فماذا تتوقَّعون إذن؟». لا مجال بالتأكيد لسؤال: «مع من؟ ومتى؟ وأين؟». الجواب هو أن تومئ للتدليل على معرفتك بالأمر، فيبدو كأنَّ هناك عالمًا موازيًا مارسنا فيه جميعًا تلك العملية.

لا بدَّ من أنَّني عرفت يومذاك أنَّ جميع هذه الادِّعاءات المتداولة لم تكن تعني الكثير. ومهما كان، عندما أطلَّ فصل الصيف، بدأت أشعر بصورة متزايدة بأنَّني غريبة في تلك الأجواء. وعلى نحو ما، فإنَّ الجنس كان قبل بضع سنوات يعني «الابتكار» والإبداع. وتعيَّن عليك، إذا لم تكن قد مارسته، أن تسارع إلى ذلك فورًا. بالنسبة لي غدا الأمر أكثر تعقيدًا لأنَّ اثنتين من أقرب صديقاتي قد **مارستاه بالتأكيد**. لورا مع روب د.، مع أنَّهما لم يكونا على الإطلاق زوجين بالمعنى المعهود. وكذلك رُوث مع تومي.

لهذه الأسباب كلِّها أرجأت الموضوع مدَّة طويلة، وأنا أذكِّر نفسي مرَّة بعد أخرى بنصيحة الآنسة إيميلي- «إذا لم تعثري على شخص تتوقين بالفعل لمشاركته التجربة، **فلا تفعليها!**». لكنِّي بدأت في فصل الربيع الذي أتحدَّث الآن بالتفكير في أنَّه لا ضير من مضاجعة أحد الأولاد. ليس لمجرَّد معرفة طبيعة ذلك الشيء، بل كذلك لأنَّني كنت بحاجة إلى كسب الخبرة، ولا بأس من تعاطيه أوَّل الأمر مع ولد لا أهتمُّ بأمره كثيرًا. فإذا جرى الأمر مع شخص مميَّز لاحقًا، سيُتاح لي القيام بكلِّ الأشياء بالطريقة الصحيحة. أعني بذلك أنَّه إذا كان كلام الآنسة إيميلي صحيحًا، وأنَّ للجنس هذه القيمة العظيمة بين الناس، فإنَّ توقيته ليس أهمَّ من جودة أدائه.

على هذا الأساس، وضعت هاري س. نصب عينيَّ. وقد اخترته لعدَّة أسباب. الأوَّل أنَّني عرفت أنَّه اختبر الأمر مع شارون د.، والثاني أنَّه لم يكن يستهويني كثيرًا، ولكنَّه لم يكن من النوع الذي يثير الغثيان. كما كان شخصًا محترمًا وهادئ الطبع، ومن المستبعد أن يلجأ لاحقًا إلى الثرثرة والقيل والقال إذا كانت النتيجة كارثية. وقد ألمح غير مرَّة أنه يريد مضاجعتي. حسنًا، كثير من الأولاد كانوا في تلك الأيَّام يعبثون بصوت عالٍ، ولكن كان من الممكن التمييز بين التودُّد الحقيقي

والأعيب الأولاد المعتادة.
لهذا السبب وقع اختياري على هاري. تريَّثت في الأمر نحو شهرين لأنَّني أردت التأكُّد من أنَّني على ما يرام جسديًا. وكانت الآنسة إيميلي قد أبلغتنا أنَّ العملية ربَّما تكون مؤلمة وفاشلة تمامًا إذا لم نبتلَّ بما فيه الكفاية، وكان ذلك هو الموضوع المهمُّ بالنسبة لي. لا يعني ذلك تسديد طعنة نجلاء إلى الجزء السفلي من جسدي- وهو ما كنَّا كثيرًا ما نتبادل النكات حوله، مثلما كان مصدرًا للخوف السرِّي لدى عدد لا بأس به من الفتيات. وقد دأبت على التفكير بأنَّه لن تكون هناك أيَّة مشكلة إذا ابتللت بسرعة. وقد فعلت ذلك بنفسي للتأكُّد من الأمر.
أدرك أنَّني قد أبدو مهووسة بهذا الأمر، وأنَّه استحوذ على مشاعري تمامًا. أذكر أنَّني قضيت وقتًا طويلًا في إعادة فقرات من الكتب التي تتناول أشخاصًا مارسوا الجنس، وأمعن النظر في السطور مرارًا وتكرارًا، في محاول لالتقاط المزيد من الأفكار والإشارات. المشكلة هي أنَّ الكتب في هيلشام لم تكن تفيد على الإطلاق. كانت لدينا كتب كثيرة من القرن التاسع عشر لتوماس هاردي وأمثاله، والتي كانت عديمة الفائدة تقريبًا. بعض الكتب الحديثة لمؤلِّفين مثل إدنا أوبريان ومارغريت دابل، تضمَّنت بعض الموضوعات الجنسية، ولكنَّها لم تكن توضح ما يحدث بالفعل، لأنَّ المؤلِّفين كانوا يفترضون دائمًا أنَّ لديك تجربة جنسية غنية، وبالتالي لم تكن ثمَّة تفاصيل. لهذا، فإنَّ تجربتي مع الكتب كانت مخيِّبة للآمال، كما أنَّ أشرطة الفيديو لم تكن أفضل من ذلك. امتلكنا جهاز فيديو في غرفة البلياردو قبل سنتين، وجمعنا في فصل الربيع ذاك مجموعة جيِّدة من الأفلام. كان عدد كبير منها يتضمَّن مادَّة جنسية، غير أنَّ أكثر المشاهد فيها تنتهي عندما يبدأ الجماع. وإذا بدأ أحد المشاهد **المثيرة**، فسيكون من الصعب عليك مشاهدته أكثر من لحظة خاطفة، لأنَّ هناك في العادة عشرين مشاهدًا آخر معك في الحجرة. وقد وضعنا نظامًا نستطيع بموجبه أن نكرِّر بعض اللقطات المفضَّلة، ومنها على سبيل المثال، اللحظة التي يحلِّق فيها الأميركي فوق الأسلاك الشائكة على درَّاجته في فيلم **الهروب الكبير**. ترتفع عندئذ النداءات: «إعادة! إعادة!». إلى أن يحصل أحدهم على جهاز التشغيل عن بُعد، فنرى المقطع ثانية، وربَّما مرَّتين وأحيانًا ثلاث مرات أو أربع، غير أنَّني قلَّما طالبتُ بإعادة تدوير الشريط لمجرَّد مشاهدة اللقطات الجنسية مرَّة أخرى.
من هنا، أرجأت الأمر أسبوعًا بعد أسبوع، فيما كنت أجهِّز نفسي. وحين أقبل الصيف قرَّرت أنَّني قد غدوت جاهزة قدر المستطاع. بحلول ذلك الوقت، كنت واثقة بالأمر إلى درجة معقولة، وبدأت بإرسال إشارات خفيَّة إلى هاري. سار كلُّ شيء على ما يرام ووفق الخطَّة حتَّى وقع الانفصال بين رُوث وتومي، فاضَّطرب كلُّ شيء.

الفصل التاسع

حدث أنَّني كنت مع بعض الفتيات الأخريات في غرفة الفنون بعد الانفصال بعدَّة أيَّام، عاكفات على رسم لوحة من النوع الذي يمثِّل الجمادات. أذكر أنَّ الطقس كان حارًّا وخانقًا في ذلك اليوم، مع أنَّ المروحة كانت تخشخش وراءنا. كنَّا نستخدم الفحم، ولأنَّ أحدهم استولى على جميع حاملات الألواح، اضطررنا إلى وضع ألواح الرسم على أحضاننا. كنت أجلس إلى جانب سنثيا إ. وقد بدأنا بالتحدُّث والشكوى من حرارة الجوِّ. ثم انتقلنا، بطريقة ما، للحديث عن الأولاد، فقالت من دون أن ترفع رأسها عن لوحة الرسم:

«بالنسبة لتومي، كنت أعرف أنَّه لن يواصل علاقته مع رُوث. حسنًا، أفترض أنَّكِ ستكونين خليفتها الطبيعية».

ألقت تلك العبارة ببساطة. ولكنَّ سنثيا كانت فتاة حسَّاسة. ولأنَّها لم تكن من مجموعتنا، فإنَّ ملاحظتها كانت أكثر أهمِّية. أعني أنَّ ما قالته كان يمثِّل ما يفكِّر فيه أيُّ شخص آخر على صلة بالموضوع من قريب أو بعيد. فقد كنت وتومي صديقين لعدَّة سنوات، حتى برزت حكاية الارتباط تلك. وكان ممكنًا إلى حدٍّ كبير، بالنسبة لشخص خارج المجموعة، أن أكون «الخليفة الطبيعية لرُوث». تركت الأمر من دون تعليق، كما أنَّ سنثيا، التي لم تكن تحاول تضخيم المسألة، لم تواصل الحديث عن هذا الموضوع.

ربَّما بعد يوم أو يومين، كنت أغادر السرادق مع هانا عندما وكزتني فجأة، وأشارت إلى مجموعة من الأولاد في الملعب الشمالي.

«انظري»، قالت بهدوء، «تومي يجلس بمفرده».

هززت كتفي وكأنَّني أقول: «طيِّب... ما أهمِّية ذلك؟». كان هذا كلَّ ما حدث آنذاك. غير أنَّني وجدت نفسي بعد ذلك أفكِّر كثيرًا في الأمر. ربَّما أرادت هانا الإشارة إلى أنَّ تومي منذ الانفصال عن رُوث قد أصبح أقرب إلى قطعة غيار. لكنَّني لم أقتنع بذلك؛ فأنا أعرف هانا حقَّ المعرفة، الطريقة التي همزتني بها وخفضت بها صوتها تدلُّ بمنتهى الوضوح على أنَّها تفصح عن فرضية ما، ربَّما كانت ممارسة لعبة الراوندرز، أو كوني «الخليفة الطبيعية».

تسبَّب ذلك، كما أسلفت، في إرباكي على نحو ما، لأنَّني كنت وقتذاك قد أجمعت أمري على المضي قدمًا في خطَّتي مع هاري. الحقيقة أنَّني، عندما أعود بذاكرتي إلى الوراء، كنت سأجامع هاري لو لم تبرز قضية «الخليفة الطبيعية». كنت قد رتَّبت الأمور وهيَّأت الخطَّة كاملة. مع ذلك، فإنَّني ما زلت أعتقد أنَّ هاري كان خيارًا موفَّقا لتلك المرحلة من حياتي. أعتقد أنَّه كان سيتفهَّم بلطف ما أريده منه.

رأيت هاري بصورة خاطفة قبل سنتين في مركز الاستشفاء في وِلتشير. كان قد أُحضر إلى هناك بعد قيامه بالتبرُّع. لم أكن في أفضل حالاتي النفسية، لأنَّ المانح الذي أشرف عليه قد استكمل في الليلة السابقة. لا ألام على ذلك- فقد كانت عمليَّة مضطربة- لكنَّني على العموم لم أكن مرتاحة تمامًا. فقد سهرت أغلب الليل، وقمت بجميع الترتيبات، وكنت في مكتب الاستقبال الأمامي أتهيَّأ للخروج عندما رأيت هاري داخلًا. كان في كرسيٍّ متحرِّك، لأنَّه كان في غاية الضعف، كما علمت لاحقًا، لا لأنَّه لم يكن قادرًا على المشي. لست متأكِّدة من أنَّه عرفني عندما تقدَّمت منه وحيَّيته. أظنُّ أنَّه لم يكن ثمَّة سبب يذكِّره بي. لم نتواصل في الماضي إلَّا مرَّة واحدة. بالنسبة له، هذا إذا تذكَّرني على الإطلاق، كنت تلك الصبيَّة الخرقاء التي اقتربت منه ذات يوم، وسألته عمَّا إذا كان

يريد الجماع، ثمَّ تراجعت. لا بدَّ من أنَّه كان شخصًا ناضجًا بالنسبة لسنِّه، لأنَّه لم ينزعج أو يثرثر لاحقًا مع الآخرين، ولم يقل إنَّني مجرد صبيَّة رعناء أو شيء من هذا القبيل. لذلك، فإنَّني عندما رأيته يدخل بتلك الهيئة، شعرت بالامتنان له، وتمنَّيت لو كنت مرشدته. نظرت حولي، ولكن الشخص الذي يفترض أن يكون مرشده لم يكن موجودًا. كان مساعدو الممرِّضين قد نفذ صبرهم، ويريدون الإسراع بنقله إلى غرفته، لهذا لم أُطل الحديث معه، بل حيَّيته وأعربت له عن الأمل في أن يتحسَّن سريعًا، فابتسم لي وقد بدا عليه الإعياء. عندما ذكرت اسم هيلشام، رفع إبهامه إلى أعلى، ولكنَّني متأكِّدة من أنَّه لم يعرفني. ربَّما كان سيعرفني ويتذكَّرني في وقت لاحق، عندما يزول تعبه أو يخفُّ مفعول دوائه.

على كلِّ حال، ما كنت أودُّ قوله عن تلك الأيَّام هو ما يلي: ما إنْ وقع الانفصال بين رُوث وتومي حتَّى ارتبكت جميع مخطَّطاتي. عندما أسترجع الماضي الآن، أشعر بالأسف على هاري. فبعد كلِّ التلميحات التي أبديتها في الأسبوع الفائت، وجدت نفسي فجأة أهمس بعض الأمور لأبعده عنِّي. أظنُّني افترضت أنَّه توَّاق للعلاقة معي، فعملت على إبعاده عنِّي. فكنت عندما نلتقي أسارع إلى فعل شيء ما، وأبتعد قبل أن يتفوَّه بكلمة. لم يخطر لي، إلَّا بعد وقت طويل جدًّا، أنَّ الجماع ربما لم يكن في باله مطلقًا. على حدِّ علمي، ربَّما كان ليسعد بنسيان الموضوع برمَّته، لولا أنَّي كنت أهمس له بأعذار مختلفة حول عدم رغبتي في جماعه كلما التقينا في الممرِّ أو الساحة. ولا بدَّ من أنَّ ذلك كان يبدو في نظره تصرُّفًا أحمق، ولو لم يكن إنسانًا شريفًا، لغدوت بسرعة أضحوكة في أعين الناس. لكنَّ محاولات التخلُّص من هاري استمرَّت ربَّما لأسبوعين أو ثلاثة، حتَّى جاء طلب رُوث.

***

في ذلك الصيف، وحتَّى انحسار الأجواء الدافئة، كنَّا قد درجنا على الاستماع إلى الموسيقى معًا في الحقول. فقد بدأت أجهزة «ووكمان» تظهر في هيلشام منذ جولة المبيعات في السنة الفائتة. كانت آنذاك ستَّة أجهزة منها على الأقل قيد التداول. إحدى الصرعات الشائعة في تلك الأيَّام أن يجلس عدد من التلاميذ على العشب حول جهاز «ووكمان» واحد ويتبادلون سمَّاعة الأذن بينهم. حسن، قد يبدو ذلك أسلوبًا غبيًّا للاستماع إلى الموسيقى، ولكنَّه كان يغمرنا بشعور طيِّب. فأنت قد تستمع لمدَّة عشرين ثانية، ثمَّ تنزع السمَّاعة، وتحوِّلها إلى من يليك. بعد فترة، وإذا واصلت الاستماع إلى الشريط نفسه مرَّة بعد أخرى، فإنَّك ستُفاجأ بالإحساس بأنَّك قد استمعت وحدك للشريط بأكمله. وكما قلت، فإن تلك الصرعة استمرَّت بالفعل طوال الصيف. خلال استراحة الغداء، كنت ترى زمرًا من التلاميذ منبطحين على العشب حول أجهزة «ووكمان». لم يكن الحرَّاس يحبِّذون ذلك، لأنَّه، في رأيهم، يسبِّب التهاب الأذن، ولكنَّهم مع ذلك سمحوا لنا بالاستمرار. لا أستطيع أن أتصوَّر ذلك الصيف بمعزل عن أوقات الظهيرة تلك التي كنَّا نقضيها حول أجهزة «ووكمان». إذا خطر لأحدهم أن يسأل: «ما هو اللحن الآتي؟»، وسمع إجابة مرضية، فإنَّه يجلس على العشب وينتظر دوره. كانت هناك أجواء لطيفة بصورة دائمة تقريبًا خلال تلك الجلسات، ولا أذكر أنَّ أيّ شخص قد حُرم من استخدام السمَّاعات.

على أيِّ حال، كان ذلك هو موضوع الحديث بيني وبين عدَّة فتيات أخريات عندما أقبلت علينا رُوث، وطلبت أن نتحدَّث على انفراد. أدركت أنَّ الموضوع مهمٌّ، فتركت صديقاتي وسرت معها على طول الطريق حتَّى كوخ المنامات. عندما وصلنا إلى الحجرات، جلستُ على سرير رُوث، قرب النافذة- وكانت أشعَّة الشمس قد سخَّنت الغطاء- بينما جلست هي على سريري القريب من

الحائط الأسود. كانت ذبابة زرقاء تطنُّ حولنا. وقد تضاحكنا لمدَّة دقيقة ونحن نحرِّك أيدينا كمن يلعب تنس الطاولة بتلك الحشرة. أخيرًا خرجت الذبابة من النافذة، وقالت رُوث:

«أنا وتومي نريد أن نستعيد ما كنَّا عليه. كاثي، هل لك أن تساعدينا في ذلك؟»، ثم سألت: «هل هناك مشكلة؟».

«أبدًا. لقد فوجئت فقط. بعد أن حدث ما حدث، بالطبع سوف أساعد».

«لم أخبر أيَّ شخص عن رغبتي في إعادة العلاقة مع تومي. حتَّى هانا. فأنت الشخص الوحيد الذي أثق به».

«وماذا تريدين منِّي أن أفعل؟».

«فقط تكلَّمي معه. لديك دائمًا أسلوبك الخاص في التعامل معه. سيصغي لك، وسيعرف أنَّ ما تقولينه عنِّي ليس من باب الترهات والكلام الفارغ».

جلسنا هناك بعض الوقت وأقدامنا تتأرجح تحت السريرين.

ثمَّ قلت: «أنا سعيدة لأنَّك أبلغتني بهذا الأمر. ربَّما كنتُ أفضل من يقوم بهذا. الحديث مع تومي وما إلى ذلك».

«ما أريده هو أن نبدأ بداية جديدة. نحن متساويان الآن. لقد فعل كلٌّ منَّا أشياء غبية لإلحاق الضرر بالآخر، ولكن ذلك يكفي الآن. تلك اللعينة مارثا هـ، أسألك بالله! ربَّما فعلها لأنَّه كان يريد إضحاكي. طيِّب، يمكنك إخباره أنَّه نجح في ذلك، وأنَّنا متعادلان مرَّة أخرى الآن. آن لنا التصرُّف كأشخاص بالغين والبدء من جديد. أعلم أنَّ بوسعك التفاهم معه يا كاثي. ستعالجين الأمر بأفضل أسلوب ممكن. إذا لم يكن مستعدًّا للتعقُّل الآن، سأعلم ألَّا جدوى من متابعة الأمر معه».

هززت كتفي قائلة: «كما قلت، طالما استطعت أنا وتومي أن نتحادث».

«بلى، وهو يحترمك كذلك. كثيرًا ما كان يتحدَّث عن هذا الأمر، وعن شجاعتك وقيامك بما تعدين به دائمًا. قال لي مرَّة إنَّه إذا وجد نفسه ذات يوم في مأزق، فإنَّه يفضِّل أن تسانديه أنت، لا أحد الأولاد الآخرين». أطلقت ضحكة سريعة. «عليك أن تعترفي الآن بأنَّ ذلك إطراء حقيقي. هكذا ترين أنَّك المنقذ الوحيد لنا، لقد خُلق أحدنا للآخر، أنا وتومي. سيستمع إليك. ستفعلين ذلك من أجلنا، أليس كذلك يا كاثي؟».

لم أقل شيئًا لبضع لحظات. ثمَّ سألت: «رُوث، هل أنت جادَّة فيما يتعلَّق بتومي؟ أقصد أنَّني إذا استطعت إقناعه، وعدتما كأنَّ شيئًا لم يكن، فلن تسيئي له مرَّة أخرى؟».

أطلقت رُوث تنهيدة تدلُّ على نفاذ الصبر. «بالطبع أنا جادَّة. إنَّنا شخصان بالغان وناضجان الآن. سوف نترك هيلشام في وقت قريب. الأمر ليس لعبة على الإطلاق».

«حسنًا. سأتحدَّث معه. كما قلتِ، سنغادر هذا المكان قريبًا. علينا ألَّا نضيِّع المزيد من الوقت».

أذكر أنَّنا بقينا جالستين على السريرين نتحدَّث بعض الوقت. كانت رُوث تريد الحديث عن كلِّ شيء مرارًا وتكرارًا: عن تصرُّفه بغباء، والأسباب التي كان كلٌّ منهما مناسبًا للآخر تمامًا، وكيف أنَّهما سيتعاملان بصورة مختلفة في المستقبل، وكيف أنَّهما سيحافظان على الخصوصية بشكل أفضل، وكيف سيمارسان الجنس في أماكن أفضل وفي أوقات أفضل. تحدَّثنا عن هذه الأمور جميعها، وطلبت نصيحتي حول كلِّ شيء. في لحظة معيَّنة، بينما كنت أنظر عبر النافذة إلى التلال البعيدة، تملَّكتني الدهشة عندما شعرت برُوث إلى جانبي، وهي تحتضن كتفي بقوَّة.

«كاثي، أعرف أنَّ بإمكاننا الاعتماد عليك»، قالت. «تومي على حقٍّ. إنَّك الشخص الذي يمكن الاعتماد عليه عندما نكون في مأزق».

***

لسبب أو لآخر، لم تُتح لي الفرصة للتحدُّث مع تومي لعدَّة أيَّام. بعدئذ رأيته أثناء استراحة الغداء في طرف الملعب الجنوبي يتدرَّب على كرة القدم. بعد أن تدرَّب على بعض الركلات مع ولدين آخرين، راح يطوِّح بالكرة في الهواء وحده. اقتربت منه، وجلست على العشب وراءه، وأسندت ظهري إلى أحد أعمدة السياج. لم يحدث ذلك غالبًا بعد فترة طويلة من وقت حادثة روزنامة باتريشيا، حين تركني ومضى، لأنَّني أتذكَّر عدم ارتياح كلٍّ منَّا تجاه الآخر. واصل رمي الكرة في الهواء، وهو يقطِّب جبينه بتركيز عندما ترتطم بركبته، أو قدمه، أو رأسه، بينما جلست أعبث بأعشاب البرسيم، وأحدِّق إلى الغابات البعيدة التي كانت تخيفنا ذات يوم. قرَّرت أخيرًا أن أقطع الصمت، وقلت:

«تومي، دعنا نتكلَّم الآن. هناك أمر أريد أن أتحدَّث في شأنه معك».

حالما قلت ذلك، ركل الكرة فتدحرجت مسافة بعيدة وجاء وجلس إلى جانبي. كان من عادة تومي فور يدرك أنَّني على وشك الحديث تختفي فجأة جميع مظاهر التجهُّم على وجهه؛ ويحلَّ محلَّها التشوُّق وإمارات الامتنان، ممَّا يذكِّرني بعادتنا يوم كنَّا في المرحلة الجونيور، عندما كان أحد الحرَّاس يوبِّخونا في لحظة ما، يلاطفنا بعد قليل كأنَّ شيئًا لم يكن. كان يتنفَّس بصعوبة إلى حدٍّ ما، ومع أنَّني كنت أعرف أنَّ ذلك يعود إلى كرة القدم، فإنَّه زاد من حدَّة التشوُّق على ملامحه. بعبارة أخرى، وقبل أن نبدأ الحديث، تعاطفت معه. عندما قلت له: «تومي. أحسُّ أنَّك لم تكن مرتاحًا في الآونة الأخيرة»، قال: «ماذا تقصدين؟ أنا في غاية الارتياح. أنا مرتاح تمامًا». وابتسم ابتسامة عريضة، تلتها ضحكة صادرة من القلب. كان ذلك هو الذي حسم الموقف. بعد سنوات، عندما تعاودني الذكرى مرَّة بعد مرَّة، أبتسم. لكنَّها أثَّرت بي في تلك الآونة. فإذا قال لك تومي: «أنا منزعج فعلًا من ذلك»، سيعزِّز كلماته على الفور بتلك التعبيرات المتجهِّمة على وجهه الكئيب. لا أعني بذلك أنَّه يفعل ذلك على سبيل السخرية، فقد كان يعتقد بالفعل أنَّ ذلك سيزيد من قدرته على الإقناع. ها هو يحاول الآن المبالغة في إظهار اللطف ليثبت أنَّه سعيد بالفعل. كما قلت، ستأتي أيَّام أظنُّ فيها أنَّ ذلك كان أمرًا جميلًا وقتذاك، ولكن كلَّ ما رأيته في ذلك الصيف هو المظاهر التي تؤكِّد أنَّه ما زال طفلًا، وأنَّ بوسعك استغلال تلك الخصلة فيه. لم أكن في تلك الأيَّام أعرف الكثير عن العالم خارج هيلشام، لكنَّني ظننت أنَّ علينا استغلال كلَّ ما كان لدينا من قدرات، وعندما يفعل تومي شيئًا من هذا القبيل، فإنَّني أصاب بما يشبه الفزع. كنت، حتَّى ظهر ذلك اليوم أدع الأمور تمضي في حال سبيلها، غير أنني لم أتمالك نفسي وانفجرت في تلك اللحظة:

«تومي، إنَّك تبدو في غاية الغباء عندما تضحك على هذا النحو! إذا أردت التظاهر بالسعادة، فليس عليك أن تسلك هذا السلوك! خذها منِّي، لا يجب أن تتصرَّف بهذه الطريقة! عليك أن تتوقَّف عن ذلك! انتبه، عليك أن تكبر. وعليك أن تضع نفسك على المسار الصحيح. لقد بدأت حياتك تتهاوى مؤخَّرًا وكلانا نعرف السبب».

بدا على تومي الذهول والحيرة. عندما تأكَّد من أنَّني أنهيت كلامي، قال: «أنت على حقٍّ، جميع الأشياء تتهاوى بالنسبة لي. ولكنَّني لا أفهم ما تقصدينه يا كاث. ماذا يعني قولك إنَّنا نعلم كلانا؟ لا أعلم كيف عرفت بالأمر. أنا لم أخبر أحدًا على الإطلاق».

«واضح أنَّني لست ملمَّة بكلِّ التفاصيل. لكنَّنا جميعًا نعلم بأمر انفصالك عن رُوث».

ظلَّ تومي ذاهلًا. وأخيرًا، أطلق ضحكة صغيرة أخرى، ولكنَّها كانت حقيقية هذه المرَّة. «فهمت الآن ما تقصدين»، غمغم قائلًا، ثمَّ تريَّث قليلًا ليفكِّر في شيء ما. «بصراحة يا كاث»، قال بعد

قليل، «ليس هذا الموضوع هو ما يزعجني. إنَّه بالفعل أمر مختلف تمامًا. إنَّه يسيطر على تفكيري دائمًا، وهو يتعلَّق بالآنسة لوسي».

هكذا بدأت معرفتي بما حصل بين تومي والآنسة لوسي في بداية ذلك الصيف. في وقت لاحق، عندما أُتيح لي أن أفكِّر في الأمر، استنتجت أنَّ الأمر قد حصل قبل بضعة أيَّام فقط من صبيحة ذلك اليوم، حين شاهدت الآنسة لوسي عاكفة على الخربشة فوق الأوراق في الحجرة ٢٢. أنَّبت نفسي كما أسلفت على أنَّني لم أكتشف الموضوع قبل ذلك.

حدث ذلك عند الظهيرة، وقد اقتربت «الساعة الميِّتة»- عندما تنتهي الحصص المدرسية ويتوفَّر لنا بعض الوقت قبل العشاء. رأى تومي الآنسة لوسي خارجة من المنزل الرئيس، وبين ذراعيها حمولة من الأوراق والملفَّات. ولأنَّها كانت، كما يبدو، توشك على إسقاط بعضها على الأرض في أيَّة لحظة، انطلق راكضًا نحوها لتقديم المساعدة.

«حسنًا، لقد حمَّلتني بعض الأشياء، وقالت إنَّنا سنعود إلى مكتبها بتلك الأشياء جميعها. كان حجمها أكبر من قدرتنا على حملها، بل إنَّني أسقطت عددًا منها على الطريق. عندما اقتربنا من دفيئة البرتقال، توقَّفَت فجأة، فاعتقدتُ أنَّها أسقطت أشياء أخرى. لكنَّها كانت تنظر إليَّ هكذا، إلى وجهي مباشرة، نظرة جادَّة. بعدئذ قالت إنَّ علينا التحدُّث، التحدُّث بصورة مفصَّلة. فقلتُ ‹حسنًا›، ودخلنا الدفيئة الزجاجية، ثمَّ إلى مكتبها، وأنزلنا حمولتنا من الأوراق. طلبت منِّي الجلوس، وانتهى بي الأمر إلى الوضع الذي كنت فيه، كما تعلمين، منذ سنوات عديدة. أستطيع القول إنَّها ما زالت تتذكَّر ذلك الوقت أيضًا، لأنَّها بدأت تحدِّثني عنه كما لو كان يوم أمس. من دون أيَّة تفسيرات وأيِّ شيء آخر، بدأت تقول ما معناه: ‹تومي، لقد أخطأتُ عندما قلتُ ما قلته لك. كان عليَّ أن أصحِّح الوضع معك منذ وقت طويل›. ثمَّ قالت إنَّ عليَّ نسيان كلِّ ما قالته لي قبل ذلك. وأنَّها قد أساءت لي كثيرًا عندما طلبت منِّي ألَّا أنزعج بسبب افتقاري لموهبة الابتكار والإبداع. وأنَّ الحرَّاس الآخرين كانوا على حقٍّ طوال الوقت، وأنَّه لم يكن لديَّ أيُّ مبرر لأنتج أعمالًا فنِّية هي أقرب إلى الزبالة»...

«انتظر لحظة، تومي. هل قالت بالفعل إنَّ عملك الفنِّي ‹زبالة›؟»

«إذا لم تستخدم كلمة ‹زبالة›، فإنَّها وصفته بشيء من هذا القبيل. تافه. ربَّما كانت تلك هي الكلمة. أو ربَّما استخدمت كلمة ‹غير جدير›. أو ربَّما كانت كلمة ‹زبالة›. قالت إنَّها آسفة على ما قالته لي في المرَّة الأخيرة لأنَّها لو لم تقل لي لكنت أنا قد فهمت الأمر بنفسي».

«وماذا قلت أنت عندئذ؟».

«لم أعرف ما كان يتعيَّن عليَّ قوله. أخيرًا، سألتْ هي: ‹تومي، ما الذي تفكِّر فيه؟›. فقلت إنَّني غير متأكِّد ولكن لا يجب أن يساورها القلق من ناحيتي في جميع الأحوال لأنَّني على ما يرام. لكنَّها قالت لا، وإنَّ الأمور ليست على ما يرام. إنَّ عملي الفنِّي زبالة، وهي الملومة في ذلك، جزئيًا لأنَّها هي التي رأت ذلك. سألتها عن أهمِّية ذلك؟ فأنا على ما يرام الآن، ولا يسخر منِّي أحد بسبب ذلك. ولكنَّها واصلت هزَّ رأسها وهي تقول: ‹الأمر مهمٌّ. ليتني لم أقل ما قلت›. خطر لي أنَّها تتحدَّث عن فترة لاحقة، كما تعلمين، أي بعد أن نغادر. لهذا قلت: ‹لكنِّي سأكون على ما يرام، يا آنستي. إنَّني في وضع جيِّد وأستطيع الاهتمام بأموري بنفسي. عندما يحين وقت التبرُّعات، سأؤدِّي مهمَّاتي على أحسن وجه›. عندما قلت ذلك، أخذت تهزُّ رأسها، وتهزُّه بعنف إلى درجة خشيت معها أن تصاب بالدوار. ثمَّ قالت: ‹اسمع يا تومي عملكم الفنِّي مهمٌّ. ليس لأنَّه دليل، ولكن لأجلكم أنتم. أنت تستمدُّ منه الكثير. لأجلك أنت›».

«مهلًا، ما الذي قصدَتْه من كلمة ‘دليل’ تلك؟».
«لا أعلم، ولكنَّها قالت ذلك بالتأكيد. قالت إنَّ عملنا الفنِّي مهمٌّ، ‘ليس لأنَّه دليل’. والله أعلم ما كانت تعنيه. وقد سألتها بالفعل عندما قالت ذلك. قلت لها إنَّني لم أفهم ما قالته، وهل له علاقة بالمدام والمعرض الخاصِّ بها؟ فتنفَّست الصعداء بعمق وقالت: ‘معرض المدام، نعم. هذا مهمٌّ. بل أكثر أهمِّية ممَّا كنت أظنُّ. هذا ما أراه الآن’. ثمَّ قالت: ‘انظر، هناك مجموعة من الأشياء التي لا تفهمها يا تومي، ولا أستطيع أن أشرحها لك. أشياء عن هيلشام، عن وضعك في هذا العالم الواسع، وأنواع أخرى من الأشياء. ولكن ربَّما ستحاول وستكتشفها ذات يوم. وهي لن تجعل حياتك أكثر يسرًا. ولكن إذا كنت تريد، إذا كنت تريد بالفعل، فقد تكتشفها’. وأخذت تهزُّ رأسها ثانية بعد ذلك، ولكن ليس بالشدَّة نفسها كما حدث قبل قليل، ثمَّ قالت: ‘لماذا ستختلف عن الآخرين؟ التلاميذ الذين يغادرون هذا المكان لا يكتشفون الكثير على الإطلاق. فلماذا ستختلف عنهم بأيِّ شكل؟’. لم أعرف ما كانت تتحدَّث عنه، لهذا اكتفيت بالقول، مرَّة أخرى: ‘سأكون على ما يرام يا آنستي’. لزمت الصمت لبعض الوقت، ثمَّ وقفت فجأة وانحنت فوقي وعانقتني. ليس بطريقة جنسية. بل بصورة قريبة ممَّا كنَّا نفعله في طفولتنا. حافظت على هدوئي قدر المستطاع. استقامت وقالت إنَّها تأسف لما قالته لي من قبل. وإنَّ الوقت لم يفت بعد، وعليَّ أن أبدأ على الفور، وأعوِّض ما فات، وأعتقد أنَّني لم أقل شيئًا. نظرت إليَّ، وحسبت أنَّها ستضمُّني مرَّة أخرى، لكنَّها بدلًا من ذلك قالت: ‘قم بالأمر من أجلي يا تومي’. قلت لها إنَّني سأبذل قصارى جهدي، لأنَّ كلَّ ما أردته في تلك اللحظة هو مغادرة المكان. وأظنُّ أنَّني كنت عندئذ متورِّد الخدَّين بعد احتضانها لي وما إلى ذلك. أعني أنَّ الأمور اختلفت، ولم تعد كما كانت، فقد كبرنا الآن’.
حتَّى اللحظة ركَّزت كلَّ اهتمامي على قصَّة تومي، حتَّى أنَّني نسيت السبب الذي دفعني إلى إجراء هذا الحديث معه. لكنَّ إشارته إلى أنَّنا قد «كبرنا» ذكَّرتني بطبيعة مهمَّتي الأصلية.
«انظر يا تومي»، قلت. «علينا أن نتحدَّث عن هذا الموضوع بأكمله في وقت قريب. إنَّه مثير للانتباه، وأنا الآن أدرك لماذا سبَّب لك كلَّ هذه التعاسة. ولكن عليك، في كلِّ الأحوال، أن تتماسك. سنغادر هذا المكان خلال الصيف. وعليك أن تستعيد توازنك مرَّة أخرى. وليست هناك غير وسيلة واحدة الآن لتحقيق ذلك. لقد أخبرتني رُوث أنَّها على استعداد لإنهاء الخصومة واستعادة العلاقة معك. أعتقد أنَّها فرصة طيِّبة أمامك. فلا تضيِّعها».
صمت لعدَّة ثوانٍ، ثمَّ قال: «لا أعلم يا كاث. هناك أشياء عديدة أخرى يجب التفكير فيها».
«اسمع يا تومي. أنت محظوظ بالفعل. رُوث مولعة بك أنت دون الجميع هنا. وستكون معها عندما نغادر هذا المكان، فلا تقلق. إنَّها الأفضل. ستكون على ما يرام طالما بقيت معك. هي تقول إنَّها تريد بداية جديدة. لا تضيِّع هذه الفرصة».
انتظرت، ولكنَّ تومي لم يردَّ. شعرت مرَّة أخرى بما يشبه الفزع. طأطأت رأسي، وقلت: «انتبه، أيُّها الأحمق. لن تتمتَّع بفرص أخرى غير هذه. ألا تعلم أنَّنا لن نكون سويًا هنا لفترة طويلة؟».
فوجئت عندما أعطاني تومي الجواب بهدوء وتروٍّ، وذلك العنصر في شخصية تومي سيبرز ويتنامى تدريجيًا في السنوات القادمة.
«أعرف ذلك، يا كاث. لهذا السبب فإنَّني لن أستعجل العودة إلى رُوث. علينا أن نتأنَّى في التفكير في الخطوة التالية فعلًا». تنهَّد عندئذ ونظر إليَّ مباشرة. «كما قلت يا كاث، سنغادر هذا المكان قريبًا. لا يمكننا أن نتلاعب بالأمر، علينا أن نفكِّر بهدوء».
تملَّكتني الحيرة فيما سأقوله، فبقيت جالسة هناك أنكش أعشاب البرسيم. شعرت بأنَّه يوجِّه نظراته

إليَّ، لكنَّني لم أرفع بصري نحوه. ربَّما كان هذا الوضع ليستمرَّ بعض الوقت، لولا أنَّ شيئًا قد قطع تفكيرنا، وأظنُّ أنَّ الولدين اللذين كانا يلعبان كرة القدم قبل قليل قد عادا، أو أنَّ بعض من كانوا يتسكَّعون هناك قد أتوا وجلسوا معنا. أيًّا كان الأمر، فإنَّ حديثنا الحميم قد شارف على النهاية، فغادرت المكان، وأحسست أنَّني لم أقم بما كنت أنوي عمله، وأنَّني قد خذلت رُوث.

***

لم أستطع أن أقدِّر الأثر الذي خلَّفه حديثي مع تومي، لأنَّ الخبر انتشر في اليوم التالي. حدث ذلك في منتصف الصباح التالي، عندما كنَّا في إحدى جلسات «التوجيه الثقافي»؛ وهي حصص نقوم فيها بأدوار أشخاص شتَّى سنجدهم في الخارج- النُدُل في المقاهي، والشرطة، وغيرهم. كنَّا نتحمَّس في تلك الجلسات ونقلق في الوقت نفسه، وكنَّا كذلك في غاية الانتباه في جميع الحالات. في نهاية الحصَّة، وفيما كنَّا نستعدُّ للخروج، اندفعت تشارلوت ف. إلى داخل الحجرة، وانتشر نبأ مغادرة الآنسة لوسي لهيلشام انتشار النار في الهشيم. أمَّا السيِّد كريس، المشرف على الحصَّة، والذي لا بدَّ من أنَّه كان يعرف بالأمر، فقد سارع إلى مغادرة الحجرة محرَجًا، قبل أن توجَّه له أيَّة أسئلة. لم نكن متأكِّدين أوَّل الأمر من أن تشارلوت كانت تنقل إحدى الشائعات، ولكنَّ مواصلتها الحديث أثبتت لنا بكلِّ وضوح أنَّ الخبر صحيح. ففي وقت مبكِّر من ذلك الصباح، كان أحد صفوف المرحلة السينيور في الحجرة ١٢ ينتظر البدء بحصَّة «تذوُّق الموسيقى» مع الآنسة لوسي. لكنَّ الآنسة إيميلي هي التي كانت هناك بدلًا منها، وأبلغتهم أنَّ الآنسة لوسي لم تستطع الحضور، لذلك ستقوم هي بتدريس الحصَّة. خلال العشرين دقيقة التالية أو نحوها، سارت جميع الأمور بصورة طبيعية تمامًا. فجأة- في منتصف جملة كانت تقولها- عدلت الآنسة إيميلي عن الحديث عن بيتهوفن، وأعلنت أنَّ الآنسة لوسي غادرت هيلشام ولن تعود. انتهت الحصَّة قبل موعدها بعدَّة دقائق- وقد عاجلت الآنسة إيميلي باختتامها بعد أن بدا على ملامحها الانشغال والعبوس، وبدأ الخبر بالذيوع فور خروج التلاميذ من الحجرة.

انطلقت على الفور للبحث عن تومي، لأنَّني أردت أن أكون أوَّل من ينقل له الخبر. ولكن عندما دخلت الساحة، أدركت أنَّني قد تأخَّرت كثيرًا. فقد كان تومي هناك، على الطرف البعيد، على حافَّة حلقة دائرية من الأولاد، وهو يومئ بالإيجاب لما كان يقال. كان الأولاد الآخرون يتحرَّكون بانفعال، بل بحماسة، غير أنَّ عيني تومي كانتا فارغتين. في تلك الأمسية، تصالح تومي ورُوث. أذكر أنَّ رُوث التقت بي بعد ذلك بأيَّام قليلة، وشكرتني على "إصلاح الأمور بمنتهى البراعة». قلت لها إنَّني ربَّما لم أساعد بما فيه الكفاية، ولكنَّها أكَّدت أنَّ ذلك غير صحيح. غدوت يومذاك بالتأكيد أتمتَّع بمرتبة خاصَّة لديها. واستمرَّ ذلك طوال الأيَّام الأخيرة التي أمضيناها في هيلشام.

الجزء الثاني

الفصل العاشر

أحيانًا، أسوق سيَّارتي على طريق طويلة متعرِّجة عبر المستنقعات أو بمحاذاة صفوف من الأثلام في الحقول، والسماء فوقي فسيحة وداكنة لا تتغيَّر ميلًا بعد ميل. وأجد نفسي غارقة في التفكير بمقالتي، أي الدراسة التي كان من المفترض آنذاك أن أضعها عندما كنَّا في الأكواخ. وقد حدَّثنا الحرَّاس عن مقالاتنا عدَّة مرَّات في الصيف الماضي، وحاولوا مساعدة كلٍّ منَّا على اختيار موضوع سيشغلنا بصورة تامَّة لنحو سنتين. لكن لسبب ما- ربَّما لأنَّنا لمحنا شيئًا ما في سلوك الحرَّاس- فإنَّنا لم نعتقد بأنَّ هذه المقالات كانت أمرًا مهمًّا بالفعل، بل إنَّنا قلَّما ناقشنا تلك المسألة بيننا. أذكر أنَّني عندما التقيت الآنسة إيميلي لأبلغها بأنَّ الموضوع الذي اخترته كان الرواية في العصر الفيكتوري، فإنَّني لم أكن قد فكَّرت كثيرًا في المسألة، كما أنَّها بدت عارفة بالأمر. ألقت عليَّ واحدة من نظراتها الثاقبة، ولم تتفوَّه بأية كلمة.

إلَّا أنَّ المقالات اكتسبت أهمِّية جديدة بعد انتقالنا إلى الأكواخ. خلال الأيَّام الأولى من إقامتنا هناك، ولفترة أطول للبعض منَّا، بدا أنَّ تمسُّكنا بتلك المقالات، وهي آخر المهمَّات في هيلشام، إنَّما كان بمثابة هديَّة وداع من جانب الحرَّاس. فسوف يطويهم النسيان مع مرور الوقت، ولكنَّ تلك المقالات ساعدت على تعويمنا وتعزيز وجودنا في تلك الأجواء الجديدة.

عندما أفكِّر اليوم في مقالتي، فإنَّني أستعرضها بالتفصيل: أظنُّ أنه ربَّما كان بوسعي اتِّباع مقاربة جديدة تمامًا لمعالجة الأمر، أو التركيز على دراسة مجموعة مختلفة من الكتَّاب والكتب. وقد أكون أتناول القهوة في إحدى محطَّات الخدمة ذات يوم، عندما تخطر المقالة على بالي من دون سبب. أستمتع وقتذاك باستعراضها في مخيِّلتي بجميع جوانبها. بل راودتني في الآونة الأخيرة فكرة العودة واستئناف العمل عليها عندما تنتهي خدماتي كمرشدة ويكون لديَّ متَّسع من الوقت. لكنَّني أعتقد في نهاية المطاف أنَّني لست جادَّة في ذلك. إنَّها مجرَّد لحظة من الحنين إلى الماضي لقضاء الوقت. أتذكَّر موضوع المقالة مثلما أتذكَّر لعبة الراوندرز التي تفوَّقت فيها بصورة خاصَّة في هيلشام، أو مناقشة جرت منذ أمد بعيد، وكان بوسعي أن أطرح خلالها أفكارًا نيِّرة. هذا كلُّ ما في الأمر- مجرَّد أحلام يقظة. لكن، كما قلت، لم تكن الأحوال كذلك عندما انتقلنا إلى الأكواخ.

استقرَّ ثمانية منَّا، ممَّن تركوا هيلشام خلال ذلك الصيف في الأكواخ. وتوجَّه آخرون إلى العزبة البيضاء في تلال ويلز، أو إلى مزرعة السنديان في دورسيت. لم نكن نعلم وقتها أنَّ الروابط بين تلك الأماكن وهيلشام كانت واهية إلى هذا الحدِّ. وصلنا إلى الأكواخ، وتوقَّعنا أن نجد هناك نسخة من هيلشام للتلاميذ القدامى، وأظنُّ أنَّنا قد اعتبرناها كذلك لبعض الوقت. من المؤكَّد أنَّنا لم نفكِّر في حياتنا خارج الأكواخ، أو من يشرفون عليها، أو أين تقع في نطاق العالم الواسع حولنا. لم نفكِّر بهذا الأسلوب في تلك الأيَّام.

كانت الأكواخ من مخلَّفات مزرعة قديمة أفلست قبل سنوات. كان هناك بيت زراعي، وحوله حظائر ومراحيض خارجية، وإسطبلات، وقد غُطِّيت كلُّها لنقيم فيها ونستخدمها. وكانت هناك مبانٍ أخرى، بعيدة وآيلة للسقوط، ولم نكن نستخدمها كثيرًا، مع أنَّنا كنَّا، بصورة غامضة، نحسُّ بأنَّنا مسؤولون عنها، وذلك لمصلحة كيفرز. كان هذا العجوز الغاضب دائمًا يأتي للعناية بالمكان مرَّتين

أو ثلاث مرَّات في الأسبوع، بشاحنته المقفلة الملطّخة بالطين. لم يكن ميَّالًا إلى الإكثار من الحديث معنا، وكانت طريقته في التجوُّل في المنطقة وهو يتنهَّد ويهزُّ رأسه بقرف تدلُّ على أنَّنا لم نقم بما يتوجَّب علينا للمحافظة على نظافة المكان. لكن لم يكن من الواضح أبدًا ما كان يريد منَّا أن نفعله بالضبط. فقد قدَّم لنا عند وصولنا إلى الأكواخ قائمة بالأعمال المنزلية، وكان التلاميذ القدامى، أو «المحاربون القدامى» على حدِّ تعبير هانا، قد أعدُّوا منذ وقت بعيد، جدولًا بالأعمال حافظنا عليه بصورة منتظمة، ولم يكن هناك ما يتعيَّن علينا عمله عدا الإبلاغ عن حالات التسرُّب من قنوات الصرف الصحيِّ لتنظيفها بعد الفيضانات.

كان بيت المزرعة القديمة، وهو بمثابة المركز بين الأكواخ، يحتوي على عدد من المواقد التي كنَّا نحرق فيها الجذوع المقطَّعة المخزونة في الحظائر الخارجية. عدا ذلك، كان علينا أن نكتفي بالسخَّانات الضخمة. المشكلة أنَّ هذه كانت تعمل بأسطوانات الغاز، وإذا لم يكن الطقس باردًا جدًّا، فإن كيفرز كان يرفض إحضار عدد كبير منها إلينا، ويهزُّ رأسه وقد بدا عليه الكدر، وكأنَّنا سنستعملها بتهوُّر، أو سنتسبَّب في انفجارها. أذكر أنَّ الطقس كان شديد البرودة في أغلب الأوقات، باستثناء أشهر الصيف. كنَّا قبل الخروج نرتدي كنزتين أو ثلاث كنزات، وكانت بنطلونات الجينز التي نرتديها تتيبَّس من شدَّة البرد. كنَّا أحيانًا ننتعل الجزمات طوال اليوم، ونلطِّخ الممرَّات وأرضيَّات الغرف بالطين والبلل. عندما يلاحظ كيفرز ذلك، يهزُّ رأسه مرَّة أخرى، ولكن عندما نسأله عمَّا يُفترض أن نفعله ما دامت أرضيَّات الغرف على هذه الحال، فإنَّه لا يعطي أيَّ جواب.

قد يوحي ما أقوله إنَّ الوضع كان سيِّئًا تمامًا، غير أنَّنا لم نكن نأبه بأيِّ شكل من الأشكال لمشاعر الاستياء الناجمة عن ذلك- لأنَّها أحد عناصر الحماسة التي كنَّا نحسُّ بها في الأكواخ. وبصراحة، فإنَّ أكثرنا يعترفون بأنَّهم افتقدوا الحرَّاس، لا سيَّما في بداية تلك الفترة. بل إنَّ عددًا منَّا كان يحاول، لبعض الوقت، أن يعتبر كيفرز واحدًا من الحرَّاس على نحو ما، ولكنَّه لم يعتبر نفسه كذلك. حين تتوجَّه لتحيَّته عند وصوله بشاحنته المغلقة، فإنَّه يحدِّق فيك كما لو كنت شخصًا مجنونًا. لكنَّنا عرفنا ذلك أكثر من مرَّة: لن يكون ثمَّة حرَّاس بعد هيلشام، لذلك فإنَّ من واجب كلٍّ منَّا أن يعتني بالآخر ويراعيه. أعتقد على العموم أنَّ هيلشام قد هيَّأتنا لهذا الأمر.

انتقل أغلب التلاميذ الذين كانوا مقرَّبين منِّي في هيلشام آخر الأمر إلى الأكواخ. لم أكن لأمانع وجود سنثيا إ.- الفتاة التي قالت ذات يوم في غرفة الفنون إنَّني «الخليفة الطبيعية» لرُوث، ولكنَّها ذهبت إلى دورسيت مع باقي مجموعتها. أمَّا هاري- الولد الذي أوشكت أن أضاجعه، فقد سمعت أنَّه ذهب إلى ويلز. لكنَّ عصابتنا بقيت معًا. وإذا اشتقنا للآخرين أحيانًا، كنَّا نحدِّث أنفسنا بأنَّه ليس هناك ما يمنعنا من زيارتهم. رغم حصص الخرائط التي علَّمتنا إيَّاها الآنسة إيميلي، لم تكن لدينا أيَّة فكرة حقيقية آنذاك عن المسافات وعن السهولة أو الصعوبة التي سنواجهها عند زيارة موقع ما. كنَّا نتحدَّث عن أنَّنا سنطلب مرافقة القدامى عندما يقومون برحلاتهم، أو أنَّنا سنكون قد تعلَّمنا السياقة بأنفسنا في الوقت المناسب، وسنلتقي بهم كما نشاء.

بطبيعة الحال فإنَّنا، من حيث الممارسة الواقعية، وفي الأشهر الأولى على الخصوص، قلَّما كنَّا نتجاوز حدود الأكواخ، بل إنَّنا لم نكن نتجوَّل في المنطقة الريفية المحيطة بنا أو نتسكَّع في القرية المجاورة. لا أعرف ما الذي كنَّا نخشاه بالضبط. كنَّا نعلم أنَّ أحدًا لن يمنعنا من التجوال هناك، طالما أنَّنا نعود خلال النهار، وتظهر أسماؤنا في دفتر الحسابات الذي يحتفظ به كيفرز. خلال الصيف الذي قدمنا فيه، كنَّا نشاهد على الدوام القدامى وهم يحملون حقائب اليد والظهر وينطلقون في رحلات تستغرق يومين أو ثلاثة دفعة واحدة، ما كان يبدو لنا رباطة جأش مخيفة. كنَّا نراقبهم

بدهشة، ونتساءل عمَّا إذا كنَّا سنفعل مثلهم في الصيف القادم. كنَّا سنفعل ذلك بطبيعة الحال، ولكنَّ ذلك لم يكن ممكنًا في تلك الأيَّام. عليك أن تتذكَّر أنَّنا لم نكن حتَّى ذلك الحين قد تجاوزنا حدود هيلشام على الإطلاق، كنَّا في غاية الدهشة. سأتَّهمك بالجنون لو قلت لي يومذاك إنَّني، في غضون سنة واحدة، سأعتاد على المشي وحيدة ولمسافات طويلة، أو سأبدأ التدرُّب على سياقة السيَّارة.

***

رُوث نفسها أصيبت بالرهبة في ذلك اليوم المشمس عندما أوصلتنا الحافلة الصغيرة أمام المزرعة، ودارت حول البركة الصغيرة قبل أن تختفي خلف المنحدر. شاهدنا عن بُعد التلال التي ذكَّرتنا بتلك التي قبالة هيلشام. إلَّا أنَّها بدت لنا ملتوية بصورة غريبة، كما لو أنَّك ترسم صورة صديق، وهي تقريبًا صحيحة ولكن ليس تمامًا، فيثير الوجه المرسوم فيك الرعب. لكنَّ الوقت كان على الأقلّ صيفًا، وليس كما ستكون الأكواخ بعد عدَّة أشهر، عندما تتجمَّد البُرك الموحلة ويغطِّي الصقيع الصلب الأرض الجافَّة. كان المكان جميلًا ومريحًا ويغطِّي العشبُ جميع أرجاءه- وذلك أمر جديد بالنسبة لنا. تجمهرنا نحن الثمانية هناك، وراقبنا كيفرز وهو يدخل المزرعة ويخرج منها، متوقِّعين أن يخاطبنا في أيَّة لحظة. لكنَّه لم يفعل، ولم تصدر عنه إلَّا غمغمة ساخطة على التلاميذ الذين يعيشون هناك أصلًا. بينما كان في طريقه لإحضار شيء ما من باصه، ألقى علينا نظرة مزاجية خاطفة، ثمَّ عاد إلى المزرعة، وأغلق البوَّابة وراءه.

لم يمضِ وقت طويل حتَّى اقترب لمساعدتنا المحاربون القدامى، الذين كانوا مستمتعين برؤيتنا في وضع يثير الشفقة- وذلك ما سنفعل مثله في الصيف القادم مع القادمين الجدد. أذكر الآن أنَّهم في الواقع قد بالغوا في تقديم العون لنا لنتمتَّع بالاستقرار هناك. أحسسنا في الأسابيع الأولى بالغربة، رغم سعادتنا باجتماعنا معًا في ذلك المكان. كنَّا نتجوَّل معًا، ونمضي جانبًا من النهار واقفين بارتباك خارج المزرعة، من دون أن نعرف ما سنفعله آنذاك.

من المضحك أنَّني أتذكَّر الآن أوضاعنا في بادئ الأمر، لأنَّني عندما أفكِّر في تينك السنتين اللتين قضيناهما في الأكواخ، لا أجد أنَّ تلك البداية المحفوفة بالخوف والارتباك تنسجم مع ما تلاها. فإذا ذكر أحدهم الأكواخ اليوم، أفكِّر في تلك الفترة السلِسة حين كنَّا ندخل ونخرج بحرِّية من وإلى غرف بعضنا الآخر، والطريقة التي تتغلغل فيها الظهيرة في المساء ثمَّ في الليل. وأفكِّر في أكوام كتبي، ذات الأغلفة الورقية، وقد تماوجت صفحاتها كما لو أنَّها كانت يومًا من كائنات البحر. أفكِّر في طريقة قراءتي لتلك الكتب، منبطحةً على العشب في عصر الأيَّام الدافئة، وشعري مُسدل دائمًا على عينيَّ، وقد أطلته في تلك الأيَّام. وأفكِّر في لحظات الصباح حين كنت أستيقظ في حجرتي في القسم الأعلى من الحظيرة السوداء على أصوات التلاميذ وهم يتجادلون في الحقل حول قضايا الشعر والفلسفة؛ أو أيَّام الشتاء الطويلة، ووجبة الإفطار في المطبخ المشبع بالبخار، والمناقشات المتبادلة حول المائدة عن كافكا أو بيكاسو. ذلك كلُّ ما كان يدور بيننا ساعة الإفطار؛ ولن يدور الحديث إطلاقًا عن الشخص الذي مارست معه الجنس في الليلة الماضية، أو عن الأسباب التي توقَّف فيها لاري وهيلين عن تبادل الحديث.

ولكن، مرَّة أخرى، عندما أفكِّر في الأمر، أشعر بأنَّ صورتنا في ذلك اليوم الأوَّل، وقد تجمهرنا معًا أمام المزرعة، لم تكن سيِّئة على الإطلاق. ربَّما كان ذلك يعود إلى أنَّنا، على نحو ما، لم نترك هذه الذكرى وراءنا ونتجاهلها تمامًا كما توهَّمنا. ذلك أنَّها استقرَّت في أعماقنا، وغدت جزءًا منَّا: الخوف من العالم حولنا، وعدم القدرة على الافتراق، رغم احتقارنا لأنفسنا جرَّاء ذلك.

***

أمَّا القدامى، الذين لم يعرفوا شيئًا عن تاريخ العلاقة بين تومي ورُوث، فقد عاملوهما كزوجين مترابطين منذ وقت طويل. وكان ذلك مصدر سرور لا حدود له بالنسبة لرُوث. في الأسابيع الأولى بعد وصولنا، عملت على تضخيم تلك العلاقة، وحرصت دائمًا على أن تضمَّ تومي بذراعيها، وأن تلاطفه وتقبِّله في زاوية إحدى الغرف على مشهد من الجميع. حسنًا، ربَّما كان ذلك أمرًا مقبولًا في هيلشام، ولكنَّه تصرُّف غير ناضج في الأكواخ. لم يكن من عادة الأزواج القدامى أن يقوموا بتصرُّفات استعراضية أمام الناس، بل هم يتصرَّفون بشكل معقول، على نحو ما يفعل الأب والأمُّ في عائلة عادية.

بالمناسبة، لاحظت بين الأزواج القدامى شيئًا فاتت ملاحظته على رُوث، رغم دراستها لهم عن كثب، وهو أنَّ كثيرًا من أنماط سلوكهم كانت نسخة طبق الأصل عمَّا يعرضه التلفزيون. اكتشفت ذلك عندما كنت أراقب الزوجين سوزي وغريغ- وربَّما كانا أقدم التلاميذ في الأكواخ- ويُعتبران على العموم «المشرفين» على المكان. هناك حركة مميَّزة كانت تقوم بها سوزي كلَّما شرع غريغ بتقديم إحدى محاضراته حول بروست أو أيِّ شخص آخر: إذ كانت تقلب عينيها وتحرِّك شفتيها على سبيل التأكيد وبصوت مسموع: «رحمتك يااا ربِّي». صحيح أنَّه كانت هناك قيود على مشاهدة التلفزيون في هيلشام، أمَّا في الأكواخ، مع أنَّه لم يكن هناك ما يمنعنا من مشاهدته طوال اليوم- لكنَّنا لم نحرص على ذلك. كان هناك جهاز قديم في المزرعة، وآخر في الحظيرة السوداء، وكنَّا نشاهد التلفزيون بين الفينة والفينة. من هنا عرفت أنَّ عبارة «رحمتك يااا ربِّي» وردت في مسلسل تلفزيوني أميركي، يضحك فيه الجمهور على كلِّ ما تقوله أو تفعله إحدى الشخصيات. كان من بينها امرأة تسكن بجوار إحدى الشخصيات الرئيسة، وتفعل ما تفعله سوزي، عندما يقول زوجها كلامًا معسولًا، وينتظر الجمهور منها أن تقلب عينيها وتقول «رحمتك يااا ربِّي»، فيطلقون تلك الضحكة المجلجلة. عندما شاهدت ذلك، بدأت ألاحظ كثيرًا من الأمور التي تعلَّمها هذان الزوجان القديمان من البرامج التلفزيونية: أي الأسلوب الذي يومئ به كلٌّ منهما للآخر، أو جلوسهما معًا على الأريكة، بل حتَّى الطريقة التي يجادلان بها ويغادران الغرف بصورة صاخبة.

على أيِّ حال، المهمُّ هنا هو أنَّ رُوث سرعان ما أدركت أنَّ أسلوب تعاملها مع تومي كان خطأ لا يناسب أجواء الأكواخ، فأخذت تعدِّل من الطريقة التي يتعاملان بها أمام الناس. كانت هناك بالتحديد تلك الحركة التي تعلَّمتها من القدامى. ففي الفترة الماضية، إذا افترق زوجان في هيلشام، حتَّى لدقائق معدودة، كانا يتذرَّعان باللجوء إلى المعانقة والمداعبة على نطاق واسع. أمَّا في الأكواخ، فإن الزوجين لا يتبادلان أيَّة عبارات عند الوداع، ولا يلجآن مطلقًا إلى العناق أو القبلات. وبدلًا من ذلك، فإنَّك تربِّت برفق على ساعد شريكك عند الكوع برسغ يدك كما تفعل عندما تريد أن تلفت انتباه شخص ما. الفتاة هي التي تربِّت على الولد في العادة فيما هما يسيران جنبًا إلى جنب. كانت تلك العادة قد انقرضت بحلول الشتاء، غير أنَّها عادت مع وصولنا إلى الأكواخ، وسرعان ما أخذت رُوث تمارسها مع تومي. يجب الإشارة هنا إلى أنَّ تومي لم يكن أوَّل الأمر يعرف ما كان يجري، بل كان يستدير نحو رُوث فجأة، ويقول: «ما هذا»، فتحدِّق هي إليه ساخطة، كما لو كانا يمثِّلان في مسرحية، وقد نسي ما يتوجَّب عليه قوله. أظنُّ أنَّها تحدَّثت معه حول هذا الأمر، لأنَّ الأمور كانت بينهما على ما يرام بعد أسبوع، وبصورة مماثلة تقريبًا لما كان يجري بين الأزواج القدامى.

في الحقيقة، لم أشاهد بنفسي لطمة الكوع على شاشة التلفزيون، لكنَّني متأكِّدة تمامًا من أين جاءت الفكرة، مثلما أنا متأكِّدة من أنَّ رُوث لم تكن تعرف ذلك. لهذا السبب، فإنَّني، عصر ذلك

اليوم الذي كنت أطالع فيه رواية «دانييل ديروندا» مستلقية على العشب، قرَّرت أنَّه آن الأوان لأنّبهما لذلك.

***

كنَّا على أعتاب الخريف، وقد بدأت البرودة تشيع في الجوِّ، وأصبح القدامى يقضون وقتًا أطول داخل المسكن، ويمارسون على العموم بصورة روتينية، ما كانوا يمارسونه قبل الصيف. غير أنَّ القدامين من هيلشام استمرُّوا في الجلوس على العشب غير المقصوص- لأنَّنا كنَّا نريد الإبقاء قدر المستطاع، ولأطول مدَّة ممكنة، على التصرُّف الروتيني الوحيد الذي بقي لنا. مع ذلك، عصر ذلك اليوم، ربَّما كنت مع ثلاثة أو أربعة آخرين نقرأ في الحقل، وبما أنَّني بذلت قصارى الجهد لأجد لنفسي ركنًا هادئًا، وكنت متأكِّدة تمامًا من أنَّ أحدًا لن يتنصَّت على ما كان يدور بيني وبين رُوث.

كنت مستلقية على قطعة من قماش التاربولين القديم، أطالع كما أسلفت رواية «دانييل ديروندا»، عندما أقبلت رُوث وجلست إلى جانبي. أمعنتِ النظر في غلاف الكتاب الذي كنت أطالعه وأومأت. بعد نحو دقيقة، وكما توقَّعت، بدأت تعرض لي الحبكة الرئيسة من الرواية. وحتَّى تلك اللحظة، كانت حالتي المزاجية على ما يرام، وكنت سعيدة لرؤية رُوث، ولكن تولَّاني الضِيق بعدئذ. لقد فعلت ذلك معي بضع مرَّات في الماضي، ورأيتها تقوم بالشيء نفسه مع آخرين. من ناحية، هناك الطريقة التي تتصرَّف بها: أي أسلوبها الصادق غير المكترث، وكأنَّها تتوقَّع من الناس أن يعبِّروا لها عن امتنانهم لما تقدِّمه من مساعدة. حسنًا، كنت حتَّى في ذلك الوقت، أدرك بصورة غامضة ما وراء ذلك. ففي تلك الأشهر الأولى، تبلورت لدينا فكرة مؤدَّاها أنَّ معيار استقرارك في الأكواخ - أي مستوى راحتك، إنَّما يقاس بعدد الكتب التي تطالعها. قد يبدو في ذلك بعض الغرابة، ولكنَّه ما حصل، وانتشرت الفكرة بيننا، أي بين مجموعتنا التي انتقلت من هيلشام. ظلَّت تلك الفكرة غائمة بصورة مقصودة- والواقع أنها تذكِّرنا بالطريقة التي كنَّا نتعامل بها مع مسألة الجنس في هيلشام. فقد يتضمَّن حديثك تلميحات إلى أنَّك قرأت أنواعًا عديدة من الأشياء، وتومئ للتدليل على معرفتك بما يقال أمامك، مثل رواية «الحرب والسلام». من المفهوم هنا هو أنَّ أحدًا لن يشكِّك في مزاعمك عن قدرتك العقلية. بما أنَّنا ترافقنا بصورة دائمة منذ قدومنا إلى الأكواخ، فإنَّ عليك أن تتذكَّر أنَّ من المستحيل أن يكون أحد منَّا قد قرأ «الحرب والسلام» من دون أن يلاحظ الآخرون ذلك. ولكن، مثلما كان الأمر بالنسبة للجنس في هيلشام، فقد كانت هناك اتفاقية غير معلنة للسماح بوجود بُعدٍ غامض حول ما نفعله وما كنَّا نطالعه.

كان الأمر، كما سبق وقلت، مجرَّد لعبة صغيرة انخرطنا جميعًا فيها إلى حدٍّ ما. مع ذلك، فإنَّ رُوث هي التي تمادت فيها أكثر من غيرها. فقد ادَّعت أنَّها قد سبق وأكملت أي شيء كان يفعله أو يقرأه أيُّ شخص آخر. وكانت الشخص الوحيد الذي يؤمن أنَّ أفضل وسيلة لإثبات تفوُّقك على الآخرين هي أن تحكي لكلٍّ من تلتقيهم الحبكة الأساسية للروايات التي وصلوا في قراءتها إلى منتصفها. لهذا السبب، فإنَّها عندما بدأت حديثها عن رواية «دانييل ديروندا»، التي لم أكن أستمتع كثيرًا بقراءتها، أغلقتُ الكتاب، وجلست، وقلت لها من دون مقدِّمات:

«رُوث، أردت أن أسألك. لماذا تلطمين تومي دائمًا على ذراعه على هذا النحو عندما تودِّعينه؟ أنت تعرفين ما أقصد».

بطبيعة الحال، زعمت أنَّها لا تفعل ذلك. لهذا السبب تحلَّيت بالصبر، وفسَّرت لها ما كنت أتحدَّث عنه. سمعت رُوث ما قلت وهزَّت كتفيها.

«لم أعرف أنَّني أفعل ذلك. لا بدَّ من أنَّني اكتسبت هذه العادة بشكل ما».

ربَّما كنت سأتجاهل الأمر لو أنَّه حدث قبل بضعة أشهر، وقد لا أثيره على الإطلاق. لكنَّني واصلت الحديث عن تلك النقطة عصر ذلك اليوم، وشرحت لها أنَّها التقطت تلك الحركة من المسلسل التلفزيوني. «ليست حركة تستحقُّ المحاكاة والنسخ»، قلت لها، «إنَّها ليست من الأشياء التي يقوم بها الناس هناك، في الحياة العادية، إذا كان هذا هو ما تظنّينه».

لاحظت عندئذ أنَّ رُوث تولَّاها الغضب، غير أنَّها لم تكن متأكِّدة من الطريقة التي سترد بها. نظرت بعيدًا وهزَّت كتفيها مرَّة أخرى، وقالت: «وماذا بعد؟ إنَّها ليست بالأمر المهمِّ. يفعلها كثيرون منَّا».

«ما تقصدينه هو أنَّ كريسي ورودني يفعلان ذلك».

حالما تفوَّهت بذلك، أدركت أنَّني قد أخطأت؛ فحتَّى تلك اللحظة التي ذكرت فيها هذين الشخصين، كنت أعتقد أنَّني وضعت رُوث في موقف حرج. لكنَّها تخلَّصت منه الآن. وبدا الأمر كما لو أنَّك خلال لعبة الشطرنج تقوم بحركة ما، وما إن ترفع إصبعك على البيدق حتَّى تدرك أنَّك قمت بالحركة الخطأ، فينتابك الفزع لأنَّك لا تعلم حتَّى تلك اللحظة حجم الكارثة التي عرَّضت نفسك لها. من المؤكَّد أنَّني لمحت بريقًا في عيني رُوث، وعندما عادت إلى الحديث، تحدَّثت بصوت جديد مختلف كلَّ الاختلاف.

«إذن، هذا هو الوضع، وهذا هو ما كان يكدِّر مزاج كاثي الصغيرة المسكينة. إنَّ رُوث لا توليها الاهتمام الكافي. إنَّ رُوث لديها أصدقاء جدد كثيرون، والأخت الصغيرة لا تجد من يلعب معها بما فيه الكفاية».

«توقَّفي عن ذلك كلِّه. على أيِّ حال، الأمور لا تحدث على هذا النحو في العائلات الحقيقية. وأنت لا تعرفين أيَّ شيء عن هذا الأمر».

«آه يا كاثي، الخبيرة العظيمة في شؤون العائلات الحقيقية. أنا آسفة جدًّا. ولكن هذا هو الموضوع الفعلي، أليس كذلك؟ ما زالت لديك هذه الفكرة. إنَّ علينا، نحن جماعة هيلشام، أن نظلَّ سويًّا، مجموعة صغيرة متماسكة متلاحمة، وعلينا ألَّا نرتبط بصداقات جديدة».

«لم أقل ذلك أبدًا. أنا أتحدَّث عن كريسي ورودني فقط. من الغباء أن تقلِّدي كلَّ شيء يفعلانه».

«لكنَّني على حقٍّ، أليس كذلك؟»، استطردت رُوث. «أنت غاضبة لأنَّني استطعت أن أتدبَّر أمري، وأرتبط بصداقات جديدة. إنَّ بعض القدامى بالكاد يعرفون اسمك، ومن يستطيع أن يلومهم على ذلك؟ أنت لا تتحدَّثين مع أيِّ شخص على الإطلاق، إلَّا إذا كان من جماعة هيلشام. ولكن لا تتوقَّعي منِّي أن أمسك بيدك على الدوام. لقد مضى علينا هنا نحو شهرين».

لم أقع في المصيدة التي نصبتها لي. قلت، بدلًا من ذلك: «لا تهتمِّي بأمري، ولا تهتمِّي بأمر هيلشام. لكنَّك لم تحسمي الموقف مع تومي. ما زلت أراقبك، وقد تصرَّفتِ على هذا النحو عدَّة مرَّات خلال هذا الأسبوع. أوقعته في حيص بيص، وجعلته أشبه بقطع الغيار. هذا تصرُّف مجحف. يفترض أن تكونا زوجين مترابطين، أنت وتومي. وذلك يعني أنَّ عليك الاهتمام بأمره».

«هذا هو عين الصواب يا كاثي. نحن زوجان متحابَّان، كما تقولين. وإذا أقحمت نفسك في هذه المسألة، فسوف أنبِّهك لذلك. لقد تحدَّثت معه عن هذا الأمر، وتوصَّلنا إلى اتِّفاق. إذا لم يشأ أن يتصرَّف كما كريسي ورودني أحيانًا، فالخيار له. ولن أدفعه إلى أن يقوم بأمر ليس جاهزًا له بعد. لكنَّنا اتَّفقنا على ذلك. لا يجدر به منعي من ذلك. أشكرك على اهتمامك بهذا الأمر». ثم أردفت قائلة بلهجة مختلفة تمامًا: «وعلى فكرة، أتصوَّر أنَّك لم تفوِّتي الفرصة للارتباط بصداقات جديدة مع بعض القدامى على الأقل».

ألقت عليَّ نظرة متأنِّية، ثم ضحكت وكأنَّها تقول: «ما زلنا أصدقاء، أليس كذلك؟». لم أشعر بأنَّ هناك ما يستوجب الضحك في ملاحظتها الأخيرة. فالتقطت كتابي ومضيت في حال سبيلي من دون أن أنبس بكلمة.

***

الفصل الحادي عشر

عليَّ أن أفسِّر الآن لماذا انزعجتُ تمامًا ممَّا قالته رُوث. كانت الأشهر الأولى من إقامتنا في الأكواخ تمثِّل مرحلة غريبة من صداقتنا. كنَّا نتخاصم حول أمور تافهة، ولكن، في الوقت نفسه، تأتمن إحدانا الأخرى، وتثق إحدانا بالأخرى أكثر من أيِّ وقت مضى. كنَّا، بصورة خاصَّة، نتبادل الحديث في العادة بيننا، نحن الاثنتين، في غرفتي في الجزء العلوي من الحظيرة السوداء، قبل أن نخلد إلى النوم. يمكنك القول إنَّ تلك الأحاديث كانت بمثابة استكمال لأحاديثنا قبل إطفاء النور في المنامة. مهما يكن من أمر، فإنَّ النقطة المهمَّة هي أنَّنا، مهما تخاصمنا خلال النهار، فإنَّني ورُوث نكون قبيل النوم، قد جلسنا جنبًا إلى جنب على فراشي نحتسي شرابنا الساخن وكأنَّ شيئا لم يكن. ما جعل هذه العلاقة بيننا تنبع من القلب إلى القلب، بل ما جعل الصداقة أمرًا ممكنًا بيننا في تلك المرحلة- كان يستند إلى تفاهمنا على أنَّ كل ما تُسِرُّ به إحدانا للأخرى في تلك الجلسات سيظلُّ طيَّ الكتمان، ولن تستخدمه إحدانا ضدَّ الأخرى بصرف النظر عمَّا حدث أو يحدث بيننا من شجار. صحيح أنَّنا لم نفصح عن ذلك بوضوح، ولكنَّه، كما قلت، كان مجرَّد تفاهم، وحتَّى عصر ذلك اليوم الذي تحدَّثنا فيه عن رواية «دانييل ديروندا»، فإنَّ أيًّا منَّا لم تنتهك ذلك التعهُّد. لهذا السبب، عندما قالت رُوث ما قالته عن أنَّني لم أفوِّت الفرصة للتعرُّف على بعض القدامى، فإنَّني لم أغضب فقط. فالنسبة لي، ذلك يرقى إلى مستوى الخيانة. لم يكن ثمَّة شكٌّ بما قصدته من ذلك؛ فقد كانت تشير إلى سرٍّ أفضيت به إليها عنِّي وعن الجنس ذات ليلة.

كما هو متوقَّع، كان الجنس في الأكواخ مختلفًا عمَّا كان عليه في هيلشام. كان مباشرًا بصورة أكبر بكثير- أي «أكثر نضجًا». فأنت هناك لم تكن تثرثر وتردِّد الأقاويل حول من كان يضاجع من. وإذا عرفت أنَّ أحد التلاميذ وإحدى التلميذات قد مارسا الجماع، فإنَّك لن تبادر إلى التساؤل حول ما إذا كانا سيصبحان زوجين أم غير ذلك. وإذا برز زوجان ذات يوم، فإنَّك لن تتحدَّث عن ذلك لمن هبَّ ودبَّ بوصفه حدثًا كبيرًا. كنت ستتقبَّل ذلك بهدوء، وبعدئذ، إذا ذكرت اسم أحدهما، فلا بدَّ أن تشير إلى الآخر، مثل «كريسي ورودني» أو «رُوث وتومي». وإذا أراد أحدهم ممارسة الجنس معك، فإنَّه يلجأ إلى الأسلوب السهل نفسه. يتقدَّم أحد الأولاد من البنت مثلًا، ويسألها أن تُمضي الليلة في حجرته «لمجرَّد التغيير»، أو شيء من هذا القبيل، ولا يكون للأمر أهمِّية كبيرة. فربَّما يكون في نيَّته أحيانًا أن تتحوَّلا إلى زوجين، وأحيانًا يقتصر الأمر على ليلة واحدة.

كانت تلك الأجواء، كما قلت، أكثر نضجًا. ولكن عندما أستحضر تلك الأيَّام، أدرك أنَّ الجنس في الأكواخ كانت له وظيفة محدَّدة. ربَّما كان ذلك يعود بالتحديد إلى غياب القيل والقال وعنصر الكتمان. أو ربَّما كان السبب هو البرد.

عندما أتذكَّر موضوع الجنس في الأكواخ، أفكِّر في ممارسته في غرف تتدنَّى فيها الحرارة إلى مستوى صقيعي، وتغمرها الظلمة الحالكة، وفي العادة تحت أكداس ضخمة من البطَّانيَّات التي لم تكن بطَّانيَّات بالفعل، بل تشكيلة ناشزة من المخلَّفات- ستائر قديمة بل حتَّى قطع سجَّاد. أحيانًا كنت من شدَّة البرد أغطِّي جسمي بأيِّ شيء، وإذا كنت تمارس الجنس وقتذاك وأنت في أسفل سافلين، ستشعر بأنَّ أطنانًا من الشراشف والأغطية ترجُّك رجًّا من فوق ومن تحت، فلا يمكنك التأكُّد خلال

نصف الوقت الذي تقضيه في تلك العملية إن كنت تقوم بها أو بأيِّ أمر آخر.
المهمُّ، على أيَّة حال، أنَّني مارست «جماع الليلة الواحدة» عدَّة مرَّات بعد انتقالي إلى الأكواخ، من دون تخطيط منِّي. كانت خطَّتي تقضي بأن أتريَّث ربَّما عندما أقترن بشخص أختاره بعناية. أنا لم أكن زوجًا من قبل. وبعد أن راقبت رُوث وتومي لبعض الوقت بشكل خاصٍّ، توخَّيت الحذر في الإقدام على تلك الخطوة بنفسي. لكن، كما قلت، كانت تلك هي الخطَّة، وعندما استمرَّت علاقات الليلة الواحدة تولَّاني الاضطراب. كان ذلك ما دفعني إلى ائتمان رُوث على أسراري في تلك الليلة.
كانت تلك الجلسة المسائية عادية بالنسبة لنا بأكثر من ناحية. فقد أحضرنا أكواب الشاي، وجلسنا جنبًا إلى جنب على الفراش في حجرتي، وانحنى رأسانا لئلَّا نلامس العارضة الخشبية. تطرَّق الحديث إلى عدد من الأولاد في الأكواخ، لنعرف ما إذا كان أحدهم مناسبًا لي. كانت رُوث في أفضل حالاتها: قدرتها على التشجيع، والإمتاع، واللياقة، والنصائح الحكيمة. لهذه الأسباب قرَّرت مصارحتها بعلاقات الليلة الواحدة. حدَّثتها عن ممارستي إيَّاها من دون أن أقصد ذلك بالفعل، وكيف أنَّ العملية، رغم أنَّنا لم نكن قادرين على إنجاب الأطفال، قد أثارت في نفسي مشاعر طريفة، مثلما حذَّرتنا الآنسة إيميلي. ثم قلت لها:
«رُوث، أريد أن أسألك. هل يراودك الإحساس بأنَّ عليك ممارستها بالفعل؟ مع أيِّ شخص تقريبًا؟». هزَّت رُوث كتفيها، ثمَّ قالت: «إنَّ لي قرينًا محدَّدًا. إذا أردت ذلك، فسيكون مع تومي».
«أظنُّ ذلك. ربَّما كانت تلك مشكلتي أنا. ربَّما هناك خلل ما فيَّ. لأنَّني أشعر أحيانًا بحاجة إلى ذلك، أحتاج له بالفعل».
«هذا أمر غريب يا كاثي»، ألقت إليَّ نظرة فاحصة، أثارت في نفسي مزيدًا من القلق.
«أنتِ إذن لا تمرِّين بمثل هذه الحالات».
هزَّت كتفيها مرَّة أخرى. «ليس إلى درجة الممارسة مع أيِّ شخص. ما تقولينه أمر غريب بعض الشيء يا كاثي. ولكن ربَّما ستستقرُّ الأمور بعد فترة قصيرة».
«أحيانًا لا تعاودني تلك الحالات لمدَّة طويلة. ثم تجيء فجأة. هذا ما حدث عندما دهمتني للمرَّة الأولى. فقد أخذ يداعبني فيما كنت أحاول صدَّه وإبعاده عنِّي. ولكنها سرعان ما حدثت، هكذا من دون مقدِّمات. رغبت بالأمر فعلًا».
هزَّت رُوث رأسها. «ما زال الأمر مستغربًا بعض الشيء. لكنَّه قد يزول. ربَّما كانت له علاقة بما نتناوله من طعام».
لم تساعدني كثيرًا، لكنَّها كانت عطوفة معي. شعرت بعد ذلك ببعض الارتياح. لهذا كان من المثير أن تتطرَّق رُوث بشكل مفاجئ إلى تلك النقطة في غمرة النقاش الذي دار بيننا في الحقل عصر ذلك اليوم. لا بأس. ربَّما لم يكن أحد يسترق السمع في تلك اللحظة، ومع ذلك، لم يكن من المناسب أبدًا أن تتصرَّف على هذا النحو. فخلال الأشهر الأولى في الأكواخ، ظلَّت صداقتنا وطيدة. كنت أرى، من وجهة نظري على الأقل، أنَّه ليست هناك رُوث واحدة، بل اثنتان مستقلَّتان ومختلفتان كلَّ الاختلاف. هناك رُوث الأولى التي تسعى إلى التأثير على القدامى، ولا تتردَّد في إهمالي أنا وتومي والآخرين جميعًا، إذا حاولنا تشويه أسلوبها. وتلك هي رُوث التي تثير امتعاضي، رُوث التي أراها كلَّ يوم تتباهى وتتظاهر بما ليس فيها- رُوث التي ابتكرت تلك اللطمة على الكوع. ولكن رُوث التي جلست إلى جانبي في حجرتي الصغيرة في الركن العلوي نهاية ذلك اليوم، وقد مدَّت ساقيها على حافَّة فراشي، والبخار يتصاعد من كوب الشاي الذي احتضنته بكلتا راحتيها، إنَّما هي رُوث التي عرفتها في هيلشام، وكنت، بصرف النظر عمَّا يكون قد حدث أثناء

النهار، أواصل الحديث معها من النقطة التي انتهينا إليها في لقائنا الأخير عندما جلسنا على هذا النحو. حتَّى عصر ذلك اليوم في الحقل، كان هناك تفاهم بيننا على أنَّ رُوث الأولى ورُوث الثانية لن تندمجا في رُوث واحدة؛ وأنَّ رُوث التي أأتمنها على أسراري قبل النوم هي التي تستحقُّ ثقتي بصورة مطلقة. هذا هو السبب الذي دعاها إلى القول بأنَّني لم أفوِّت الفرصة لمصادقة بعض القدامى، على الأقل، فأثارت ثائرتي تمامًا. دفعني ذلك إلى التقاط كتابي والمضيّ في حال سبيلي.

ولكن عندما أفكر في الأمر الآن، فإنَّ بوسعي النظر إلى الأمور من زاوية رُوث. بوسعي أن أرى، على سبيل المثال، كيف أحسَّت بأنَّني أنا التي انتهكت بنود التفاهم الذي كان بيننا أوَّل الأمر، وأنَّ ردَّ فعلها إنَّما كان إجراء انتقاميًا. فذلك لم يدُر في خاطري قطُّ آنذاك، لكنَّني أظنُّ الآن أنَّ ذلك ممكن، وأنَّه يفسِّر ما حدث. على أيِّ حال، لقد تطرَّقت إلى حكاية لطمة الكوع قبل أن تُدلي بتلك الملاحظة. من الصعب تفسير ذلك الآن، ولكن لا بدَّ من أنَّ نوعًا من التفاهم قد نشأ بيننا بالتأكيد حول طريقة تصرُّف رُوث أمام القدامى. حسنًا، لقد كانت تخادع وتدَّعي أشياء أعلم أنَّها غير صحيحة. في بعض الأحيان، كما قلت، كانت تقوم ببعض التصرُّفات لكي تعطي عن نفسها انطباعًا حسنًا أمامهم، ولكن على حسابنا. يبدو لي أنَّ رُوث كانت، على نحو ما، تعتقد أنَّها تقوم بتلك الأشياء **بالنيابة عنَّا** جميعًا. وكان دوري، بوصفي صديقتها الصدوق، أن أقدِّم لها الدعم الصامت، كما لو كنت أؤدِّي دورًا على المسرح أمام الجمهور، فيما تواصل هي أداء دورها، لقد كانت تبذل قصارى الجهد لتكون شخصًا آخر، وربَّما شعرت بالضغط أكثر منَّا لأنَّها، كما قلت، كانت على نحو ما تتحمَّل المسؤولية بالنيابة عنَّا جميعًا. في تلك الحالة، إذن، يمكن اعتبار حكاية اللطمة على الكوع نوعًا من الخيانة. ربَّما ثمَّة تبرير لخطوتها الانتقامية تلك. وكما سبق وقلت، فإنَّ هذا التفسير لم يخطر ببالي إلَّا في الآونة الأخيرة. ففي تلك الأيَّام، لم آخذ بالاعتبار الصورة الكاملة، أو دوري فيها. أظنُّ، على العموم، أنَّني في تلك الآونة لم أقدِّر أبدًا حجم الجهود التي كانت رُوث تبذلها للمضيِّ قُدُمًا إلى الأمام، لتغدو أكثر نضجًا وتترك هيلشام وراءها. عندما أستحضر ذلك الآن، أتذكَّر شيئًا قالته لي ذات مرَّة، عندما كنت أُشرف على رعايتها في مركز الاستشفاء في دوفر. كنَّا نجلس في غرفتها، نتأمَّل غروب الشمس كعادتنا، ونستمتع باحتساء المياه المعدنية، ونتناول البسكوت الذي أحضرته معي. أخبرتها أنَّني ما زلت أحتفظ بأغلب ما في صندوق مقتنياتي الخاصَّة في هيلشام في حرز حريز في خزانتي المصنوعة من خشب الصنوبر في حجرة النوم. لم أكن أحاول عندئذ أن أثبت أيَّ شيء أو أثير أيَّ موضوع محدَّد، لكنَّني قلت لها:

«لم تحتفظي بأيَّة مقتنيات حين تركت هيلشام، أليس كذلك؟».

التزمت رُوث وهي على السرير الصمت مدَّة طويلة، بينما كانت الشمس تغرب فوق السور المبلَّط خلفها. ثمَّ قالت:

«تذكرين أنَّ الحرَّاس كانوا ينبِّهوننا قبل أن نغادر إلى أنَّ بوسعنا أخذ مجموعة مقتنياتنا معنا، ولهذا فقد جمعت كلَّ ما كان في صندوقي ووضعته في تلك الحقيبة الضخمة. كنت أتوقَّع أن أجد صندوقًا خشبيًا ممتازًا بالفعل فور وصولي إلى الأكواخ. لكنَّني وجدت عند وصولي أنَّ أحدًا من هؤلاء القدامى لا يحتفظ بأيَّة مقتنيات. اقتصر ذلك علينا وحدنا، لأنَّهم لم يعتبروا ذلك أمرًا طبيعيًا. لا بدَّ من أنَّنا كنَّا نعرف ذلك، ولم أكن الوحيدة في هذا. لكنَّنا لم نتطرَّق إلى هذا الموضوع. أليس كذلك؟ لذلك فإنَّني لم أبحث عن صندوق جديد، وبقِيت أغراضي في تلك الحقيبة الضخمة لعدَّة أشهر، ثمَّ تخلَّصت منها آخر الأمر».

حدَّقت إليها. «هل رميت مجموعتك في سلَّة القمامة؟». هزَّت رُوث رأسها، وبدا أنَّها كانت،

لعدَّة لحظات، تستذكر في مخيِّلتها جميع الأشياء التي ضمَّتها مقتنياتها. أخيرًا قالت:
«وضعتها كلُّها في كيس للمهملات. لكنِّي لم أتحمَّل فكرة رميها في القمامة. لهذا سألت كيفرز العجوز ذات مرَّة، وهو يتهيَّأ لسياقة عربته ومغادرة المكان عمَّا إذا كان يرغب في أخذ الكيس إلى أحد المتاجر. كنت قد اكتشفت وجود متاجر للأعمال الخيرية. نقَّب كيفرز في محتويات الكيس قليلًا، ولم يعرف ما هي بالضبط- وكيف له أن يعرف؟- وأطلق ضحكته المعهودة، وقال إنَّه ليس هناك وفق علمه مكان واحد يمكن أن يقبل مثل هذه الخردة. لكنَّني قلت إنَّها أشياء جيِّدة. لاحظ انفعالي، فغيَّر عندئذ من لهجته، وقال ما مفاده: 'حسنًا، يا آنستي العزيزة. سآخذه إلى جماعة أوكسفام'. بذل بعدئذ بعض الجهد، وقال: 'لقد اطَّلعت عليها بصورة أفضل الآن. أنت على حقٍّ. إنَّها أشياء جيِّدة'. مع ذلك، لم يكن مقنعًا في ملاحظته. أعتقد أنَّه أخذها وطرحها في إحدى الحاويات في مكان ما. لكنِّي على الأقلِّ لم أعرف ما فعله بالضبط». ابتسمت عندئذ، وقالت: «أمَّا أنت، فكنت مختلفة. أتذكَّر ذلك. لم تتحرَّجي من مجموعتك، فحافظت عليها. ليتني فعلت مثلك».
ما أقوله هنا هو أنَّنا كافحنا للتكيُّف والتأقلم مع حياتنا الجديدة، وأظنُّ أنَّنا فعلنا آنذاك أمورًا ندمنا عليها لاحقًا. انزعجت فعلًا من ملاحظة رُوث في ذلك الوقت، ولكن لا جدوى الآن من الحكم عليها أو على أيِّ شخص آخر لتصرُّفات قاموا بها في تلك الأيَّام الأولى في الأكواخ.

***

جاء فصل الخريف، وازدادت معرفتي بما يحيط بنا، وأخذت ألاحظ أشياء فاتتني في وقت سابق. على سبيل المثال، كان هناك الموقف الغريب من التلاميذ الذين غادروا في الآونة الأخيرة. فقد سارع القدامى إلى اختلاق الحكايات المضحكة عن أشخاص التقوا بهم خلال رحلات إلى «العزبة البيضاء» أو إلى «مزرعة السنديان»؛ ولكنَّهم نادرًا ما أتوا على ذكر التلاميذ الذين كانوا- حتَّى قبيل وصولنا- من أصدقائهم الخلَّص.
من الأشياء الأخرى التي لاحظتها، وربطت بينها، الصمت المطبق الذي كان يلازم «المساقات» التدريبية- التي عرفنا، حتَّى نحن، علاقتها بإعداد المرشدين والمرشدات لأداء مهمَّاتهم. كان هؤلاء يغيبون ربَّما أربعة أيَّام أو خمسة، ولكن قلَّما أتى أحد على الإشارة إلى الأمر آنذاك؛ وعندما يعودون، لا يسألهم أحد أيَّ شيء بالفعل. أعتقد أنَّهم كانوا يتحدَّثون مع أصدقائهم المقرَّبين في مجالسهم الخاصَّة. لكن من المؤكَّد وجود تفاهم بعدم الإشارة إلى تلك الرحلات علانية. أذكر أنَّني كنت في صباح أحد الأيَّام أشاهد، عبر إحدى نوافذ المطبخ، اثنين من القدامى يغادران إلى أحد تلك المساقات، وأتساءل في الربيع أو الصيف القادمين عمَّا إذا كانا قد توجَّها لهذا الغرض أم غيره، مع حرصنا على ألَّا نشير إليهما.
لكن ربَّما كان من المبالغة الادِّعاء بأنَّ موضوع التلاميذ الذين يغادرون الأكواخ كان من الأمور المحرَّمة. فقد يشار إليهم عند الضرورة، وكان من الشائع أن تُسمح الإشارة إليهم، على سبيل المثال، إذا دعت الحاجة إصلاح خلل في أحد الأنابيب، ويدور عندئذ النقاش عن أنَّ «مايكل هو أفضل من قام بذلك». كان هناك جذع شجرة خارج الحظيرة السوداء، وكان الجميع يطلقون عليه لقب «جذع ديف» لأنَّ ذلك الولد كان، حتَّى قبل وصولنا ببضعة أسابيع، يجلس عليه ويقرأ ويكتب، حتَّى في الأيَّام الممطرة أو الباردة. ربَّما كان الأجدر بالإشارة بين هؤلاء هو ستيف. فلم يكتشف أحد منَّا على الإطلاق أيَّ شيء يدلُّ على شخصية ستيف ذاك- ما عدا كونه من عشَّاق المجلَّات الإباحية الخليعة.
بين الفينة والأخرى، كنت تعثر في الأكواخ على إحدى المجلَّات الإباحية مطروحة خلف إحدى

الأرائك، أو وسط كومة من الصحف القديمة. كانت من النوع الذي يمكنك أن تطلق عليه صفة الإباحية «الناعمة»، مع أنَّنا لم نكن نعلم شيئًا عن تلك الصفات آنذاك. ولم نكن حتَّى ذلك الحين قد عثرنا على مثلها، أو نعلم ما يجدر بنا التفكير به. عندما تظهر إحدى تلك المجلَّات، يتضاحك القدامى، ويقلبون صفحاتها بنوع من عدم الاكتراث قبل أن يطرحوها جانبًا، ففعلنا مثلهم. عندما كنت أسترجع مع رُوث ذلك كلَّه قبل بضع سنوات، كانت تزعم أنَّه كان هناك عشرات من تلك المجلَّات المتداولة في الأكواخ. «لم يعترف أحد بأنَّه كان يحبُّها»، قالت. «ولكنَّك تذكرين كيف كان الوضع. إذا ظهرت إحداها في إحدى الغرف، فسيزعم الجميع أنَّها مملَّة جدًّا. وعندما تعودين بعد نصف ساعة إلى الحجرة، فستجدين أنَّها اختفت تمامًا».

على أيِّ حال، الأمر المهمُّ هنا هو أنَّه حالما تظهر واحدة من تلك المجلَّات، فإنَّ الجميع سيزعمون أنَّها من مخلَّفات «مجموعة ستيف». بعبارة أخرى، كان ستيف المسؤول عن كلِّ مجلَّة خلاعية ظهرت هناك. وكما أسلفت، لم نعلم شيئًا آخر عن ستيف، مع أنَّنا عرفنا حتَّى في تلك الأيَّام الجانب المسلِّي في شخصيَّته، فإذا قال أحدهم: «انظروا، ها هي إحدى مجلَّات ستيف»، فإنَّه يتحدَّث بلهجة ساخرة. بالمناسبة، تلك المجلَّات كانت تدفع كيفرز العجوز إلى الجنون. وقد انتشرت شائعة مفادها أنَّه كان متديِّنًا ومعاديًا، لا للخلاعة فحسب، بل لموضوع الجنس على العموم. كان يستشيط غضبًا في بعض الأحيان- وتكتسي الحمرة وجهه حتَّى فوديه المرقَّطين اللذين علاهما الشيب، ويذرع المكان جيئة وذهابًا بصوته المجلجل، ويقتحم الغرف من دون أن يقرع الأبواب مصرًّا على جمع «مجلَّات ستيف كلِّها». حاولنا أن نستمتع بمشاهدته في تلك المناسبات، ولكن كان ثمَّة جانب مخيف في سلوكه عندما تنتابه تلك الحالات. فمن ناحية، تتوقَّف فجأة الغمغمة التي كان يهمهم بها، وكانت هناك هالة مفزعة تحيط بفترة الصمت تلك.

أذكر واحدة بالتحديد من تلك الأيَّام التي جمع فيها كيفرز ستًّا أو سبعًا من «مجلَّات ستيف»، وانطلق بها هائجًا مائجًا نحو حافلته الصغيرة. رأيته أنا ولورا من حجرتي في الطابق العلوي، وكنت أضحك لشيء قالته لورا قبل قليل. رأيت كيفرز يفتح باب الحافلة الصغيرة، وربَّما لأنَّه كان يحتاج إلى استخدام كلتا يديه لتحريك بعض الأغراض في الداخل، فإنَّه وضع المجلَّات فوق عدد من لبنات الطوب المكدَّس خارج كوخ الغلَّايات- كان بعض القدامى قد حاول قبل بضعة أشهر بناء موقد للشواء بها. انحنى كيفرز وأدخل رأسه وكتفيه داخل الحافلة وهو ينقِّب في بعض الأغراض فترة طويلة. شعرت وقتذاك أنَّه رغم ثورته قبل قليل، قد نسي أمر المجلَّات. وبعد عدَّة دقائق، رأيته يُخرج جسمه ويستقيم، ثم يجلس خلف المقود، ويصفق الباب، وينطلق.

عندما أخبرت لورا أنَّ كيفرز قد خلَّف المجلَّات، قالت: «حسنًا، لن تبقى هناك فترة طويلة، فهو سيجمعها مجدَّدًا في المرَّة القادمة، عندما يشنُّ حملة تطهير جديدة».

ولكن عندما كنت أتسكَّع مرورًا بكوخ الغلَّايات، بعد نحو نصف ساعة، وجدت أنَّ المجلَّات كانت هناك ولم يمسسها أحد. فكَّرت للحظة أن آخذها معي إلى غرفتي، لكنَّني أدركت أنَّه إذا عُثر عليها هناك، فسوف أتعرَّض لمضايقات لا أوَّل لها ولا آخر؛ ولن يفهم الناس الأسباب التي دفعتني إلى فعل ذلك. لهذا السبب، حملت المجلَّات ودخلت بها كوخ الغلَّايات.

كان كوخ غلَّايات الماء حظيرة أخرى بالفعل، وقد بُني في الطرف الأخير من المزرعة، وملئ بجزَّازات العشب والمذاري القديمة- وهي الأدوات التي اعتقد كيفرز أنَّ النيران لن تلتهمها إذا انفجرت إحدى الغلَّايات ذات يوم. كما كان كيفرز يحتفظ هناك بمنضدة عمل. وضعت المجلَّات عليها، وأزحت جانبًا بعض الأسمال القديمة البالية، ورفعت جسمي لأجلس على سطح المنضدة. لم

تكن الإنارة كافية، ولكن كانت هناك نافذة وسخة خلفي. عندما قلّبت صفحات المجلّة الأولى، وجدت أنَّ بوسعي مشاهدتها بارتياح.
كان هناك عدد ضخم من صور الفتيات اللواتي كنَّ يفرجن سيقانهنَّ أو يُبرزن عجيزاتهنَّ إلى الأمام. عليَّ الاعتراف بأنَّني كنت قد اطَّلعت على مثل تلك الصور سابقًا، فأثارت مشاعري، غير أنَّني لم أرغب على الإطلاق في مضاجعة فتاة مثلي. لكنَّ ذلك لم يكن هدفي عصر ذلك اليوم. رحت أقلِّب الصفحات بسرعة، ولم أكن أريد أن يشتِّت انتباهي أي فحيح جنسيٍّ يتصاعد من تلك الصفحات. الحقيقة أنَّني لم أمعن النظر إلَّا بالكاد في الأجساد المتأوِّهة، لأنَّني كنت أركِّز على الوجوه. دقَّقت النظر في وجوه الموديلات في الإعلانات التي تتخلَّل الصفحات، قبل أن أواصل التصفُّح.
كنت على وشك الانتهاء من كومة المجلَّات عندما أدركت أنَّ أحد الأشخاص يقف خارج الحظيرة، على مقربة من البوَّابة. فقد تركت البوابة مفتوحة لأنَّ ذلك هو الأمر الطبيعي، ولأنَّني أردت المزيد من الإضاءة؛ ووجدت نفسي أمعن النظر وأصغي السمع مرَّتين، إذ ظننت أنَّني سمعت صوتًا خفيفًا. ولكن لم يكن هناك أحد، فتابعت ما كنت أقوم به. لكنَّني تأكَّدت الآن، فأنزلت المجلَّة التي كنت أطالعها، وتنهَّدت تنهيدة عميقة لا بدَّ من أنَّها كانت مسموعة بوضوح.
كنت أتوقَّع أن يطلق أحدهم ضحكة، أو أن يقتحم الحظيرة اثنان أو ثلاثة من التلاميذ ليستمتعوا بإلقاء القبض عليَّ وأنا استعرض كومة من المجلَّات الإباحية. ولكن لم يحدث شيء من هذا القبيل. لهذا السبب ناديت، بلهجة قصدت أن يبدو عليها الضجر:
«سيكون من دواعي سعادتي أن تنضمَّ إليَّ. لماذا الخجل؟». سمعت همهمة مكتومة، ثمَّ ظهر تومي على العتبة.
«مرحبًا يا كاثي»، قال بخجل.
«ادخل يا تومي وشاركني المتعة».
تقدَّم منِّي بحذر، ثمَّ توقَّف على بُعد عدَّة خطوات منِّي. نظر إلى غلَّاية الماء، وقال: «لم أكن أعلم أنَّك تحبِّين مثل هذه الأشياء».
«ذلك مسموح للفتيات، أليس كذلك؟».
تابعت تقليب الصفحات. ظلَّ صامتًا لعدَّة ثوانٍ، ثمَّ سمعته يقول:
«لم أحاول التجسُّس عليك. لكنَّني رأيتك من حجرتي. شاهدتك تتوجَّهين إلى هنا لتأخذي المجلَّات التي تركها كيفرز».
ضحك بارتباك. «إنَّها مادَّة جنسية لا أكثر. أتوقَّع أنِّي رأيتها من قبل». ضحك مرَّة أخرى، ولكن عندما رفعت بصري إليه، لاحظت أنَّه كان ينظر إليَّ وعلى ملامحه تعبيرات جادَّة. ثمَّ قال:
«هل تبحثين عن شيء محدَّد يا كاث؟».
«ماذا تقصد؟ أنا أنظر إلى هذه الصور القذرة فقط».
«للتسلية فقط؟».
«أظنُّ أنَّ بإمكانك قول ذلك». وضعت جانبًا إحدى المجلَّات، وبدأت بمطالعة أخرى.
استمعت عندئذ إلى وقع خطوات تومي وهو يدنو منِّي حتَّى وقف إلى جانبي. عندما نظرت إليه مرَّة أخرى، كانت يداه تتحرَّكان باضطراب في الهواء، كما لو كنت أقوم بعمل يدويٍّ معقَّد وكان يحاول مساعدتي على ذلك.
«كاث، عليك ألَّا... حسنًا... إذا كنت تريدين اللعب والتسلية فلا يجب أن تتصرَّفي بهذه الطريقة.

عليك أن تمعني النظر بمزيد من التركيز. لن تستفيدي إذا تصرَّفت بهذه السرعة».
«وكيف عرفت بما يفيد الفتيات؟ لعلَّك اطَّلعت عليها مع رُوث، أنا آسفة. لم أكن أفكِّر في ذلك».
«كاث، عمَّ تبحثين؟».
تجنَّبت الإجابة. كنت على وشك الانتهاء من كومة المجلَّات، وحريصة على وضع حدٍّ لذلك. ثمَّ قال:
«رأيتك تفعلين ذلك سابقًا».
توقَّفت عندئذ ونظرت إليه. «ما الذي يحدث هنا يا تومي؟ هل كلَّفك كيفرز بمتابعة القضايا الإباحية؟».
«لم أكن أتجسَّس عليك. لكنَّني شاهدتك يومئذ في الأسبوع الماضي، حين كنَّا جميعًا في غرفة تشارلي. كانت هناك واحدة من تلك المجلَّات. رأيتك هناك، تقلِّبين صفحات المجلَّة».
«وماذا في ذلك؟ علينا جميعًا أن نتسلَّى بشكل أو بآخر».
«لم تقصدي التسلية. كنت متأكِّدًا من ذلك، مثلما أنا الآن. الأمر يتعلَّق بملامح وجهك يا كاث. كانت ملامحك غريبة آنذاك في غرفة تشارلي. وربَّما كنت حزينة، وخائفة إلى حدٍّ ما».
ترجَّلت وهببت واقفة، ولملمت المجلَّات، ورميتها بين ذراعيه: «عليك بها كلَّها. أعطها لرُوث. وأعرف وقتذاك ما إذا كانت ستفيدها».
تخطَّيته وانطلقت خارج الحظيرة. عرفت أنَّه سيصاب بخيبة الأمل لأنَّني لم أطلعه على أيِّ شيء. لكنِّي لم أكن في تلك اللحظة قد فكَّرت مليًّا في الأمر، ولم أكن مستعدَّة لإبلاغ أيِّ شخص. لكنَّني لم أتضايق لأنَّه تبعني إلى كوخ الغلَّايات. لم يزعجني ذلك على الإطلاق. شعرت بالارتياح، وأحسست بما يشبه الحماية، وقلت له ذلك لاحقًا. لكن ذلك لم يحدث إلَّا بعد عدَّة أشهر، عندما قمنا بالرحلة إلى نورفولك.

الفصل الثاني عشر

أريد أن أتحدَّث عن الرحلة إلى نورفولك، وعن كلِّ ما حدث ذلك اليوم. ولكن عليَّ العودة قليلًا إلى الوراء لأعطي خلفيَّة الأحداث، وأشرح الأسباب التي دعتنا إلى الذهاب.

كان شتاؤنا الأوَّل يشارف آنذاك على الانتهاء، وكنَّا نشعر جميعًا بقدر أكبر من الاستقرار. ورغم جميع المنغِّصات البسيطة، حافظت مع رُوث على ما اعتدنا عليه باختتام يومنا في غرفتي، وتناول شرابنا الساخن. في إحدى تلك الجلسات، فيما كنَّا نتبادل المزاح حول شيء ما، قالت فجأة:

«أظنُّ أنَّك عرفت ما تقوله كريسي ورودني».

عندما قلت لها إنَّني لم أعرف، أطلقت ضحكة، وأردفت قائلة: «على الأرجح يمازحانني. واحدة من نكتهما. تناسي الموضوع».

لكنَّني أدركت أنها تريد الإفصاح عن الأمر، فواصلت الضغط عليها إلى أن قالت أخيرًا بصوت خافت:

«تذكرين ما حدث في الأسبوع الماضي، عندما غابت كريسي ورودني؟ كانا يزوران تلك البلدة كرومر على ساحل نورفولك الشمالي».

«وماذا كانا يفعلان هناك؟».

«أوه، أعتقد أنَّ لهما صديقًا هناك، شخصًا كان يعيش هنا. هذه ليست هي النقطة المهمَّة. المهمُّ أنَّهما يزعمان رؤية تلك... المرأة. وأظنُّهما يعتقدان أنَّها **بديلتي**».

مع أنَّ أكثرنا تعرَّفوا لأوَّل مرَّة على فكرة «البدلاء» في هيلشام، فقد شعرنا أنَّ من واجبنا ألَّا نناقشها، فلم نفعل- مع أنَّها أصابتنا بالحيرة والاضطراب. لم نكن، حتَّى في الأكواخ نتحدَّث عن هذا الموضوع باستخفاف. كان الحديث عن مسألة البديل محرجًا أكثر بكثير ممَّا كان موضوع الجنس على سبيل المثال. في الوقت نفسه، كنت تحسُّ بأنَّ الناس مفتونون بهذا الموضوع، بل موسوسون به أحيانًا- لذلك فقد تكرَّر الحديث عنه، خلال المناقشات الجدِّية في العادة، وبصورة أبعد ما تكون عن مناقشتنا، مثلًا، عن جيمس جويس.

الفكرة الأساسية الكامنة وراء نظريَّة «البدلاء»، فكرة بسيطة، ولا تثير الكثير من الجدال. وهي على النحو التالي. بما أنَّ كلًّا مَّنا قد نُسخ في مرحلة من المراحل عن شخص عادي آخر، فلا بدَّ من أنَّ لكلٍّ منَّا، في مكان ما، نموذجًا نستمرُّ معه طوال عمره. يعني ذلك، نظريًّا على الأقل، أنَّ بوسعك أن تجد الشخص الذي استُنسِخت عنه بوصفه النموذج الأصلي. هذا يعني أنَّك عندما تكون بنفسك هناك- في البلدات، ومراكز التسوُّق، والمقاهي في محطَّات المواصلات- فإنَّك تجيل بصرك حولك دائمًا بحثًا عن «البدلاء»- الناس الذين ربَّما كانوا هم النماذج بالنسبة لك ولأصدقائك.

ليس هناك إجماع في الرأي إلَّا على هذه النقاط الأساسية. فمن ناحية، ليس هناك اتِّفاق على طبيعة ما نبحث عنه عندما نبحث عن «بديل». ظنَّ بعض التلاميذ أنَّ عليك البحث عن شخص يكبرك بعشرين أو ثلاثين سنة، وهي السنُّ التي يكون فيها الشخص العادي أبًا أو أمًّا. لكنَّ آخرين رأوا أنَّ في ذلك مبالغة عاطفية. لماذا ينبغي أن يكون هناك جيل «طبيعي» كامل بيننا وبين نماذجنا؟ ربَّما استخدم لهذا الغرض أطفال، أو أشخاص مسنُّون، فهل يُحدث ذلك أيَّ فرق؟ ويردُّ

آخرون على ذلك بالقول إنَّ النماذج قد تجيء من أشخاص في أفضل حالاتهم الصحِّية، ويجدر بالتالي أن يكون هؤلاء في الفئة العمرية التي يكون فيها الشخص من «الآباء أو الأمَّهات العاديِّين». لكنَّنا نقترب هنا من منطقة لا نريد دخولها، فتتوقَّف عندها كلُّ الحجج.

كانت هناك كذلك مسائل تتعلَّق بالأسباب التي تدفعنا إلى أن نتحرَّى عن نماذجنا بصورة عامَّة. إحدى الأفكار الكامنة وراء عثورك على نموذجك هي أنَّك عندما تفعل ذلك، فأنَّك تستشرف مستقبلك. لا أعني بذلك أنَّه إذا تبيَّن أنَّ شخصًا ما هو نسخة عن أحد العمَّال في محطَّة السكَّة الحديد، فإنَّ الشخص سيكون كذلك في المستقبل. كنَّا ندرك أنَّ الأمر لم يكن بتلك البساطة. مع ذلك، فقد كنَّا جميعًا، وبدرجات متفاوتة، نعتقد بأنَّك إذا رأيت الشخص الذي استُنسخت عنه، فستتبلور في أعماقك فكرة عن هويَّتك، وربَّما ستصير جانبًا ممَّا تخبِّئه لك الحياة.

ظنَّ آخرون أنَّ من الغباء الاهتمام بأمر «البدلاء» من الأساس. فنماذجنا لا طائل منها، لأنَّها مجرَّد ضرورة فنِّية لجلبنا إلى هذا العالم، ليس أكثر. لكلٍّ منَّا الحقُّ في أن يصوغ حياته على النحو الذي يريده. وكان هذا هو المعسكر الذي كانت رُوث تدَّعي أنَّها من أنصاره، وربَّما كنت أنا كذلك. على أيِّ حال، كان يغلبنا الفضول كلَّما تردَّدت الأخبار عن «بديل» ما، بصرف النظر عن هويَّته.

إذا لم تخنِّي الذاكرة، أتت مشاهدات البدائل على دفعات. فقد تمرُّ أسابيع من دون أن يرصد أحد شيئًا من هذا القبيل. ثمَّ تأتي مشاهدة واحدة وتغدو أشبه بشرارة تثير موجة من المشاهدات الأخرى. من الواضح أنَّ أكثرها لا يستحقُّ المتابعة: ومنها ما يشاهد في سيَّارة عابرة، أو شيء من هذا القبيل. لكن قد يبدو أنَّ لإحداها ميزة خاصَّة، كتلك التي حدَّثتني عنها رُوث تلك الليلة.

***

حسب رواية رُوث، فإنَّ كريسي ورودني كانا منشغلين باكتشاف تلك البلدة الساحلية التي يزورانها، وانفصل أحدهما عن الآخر بعض الوقت. عندما اجتمعا ثانية، كان الانفعال قد غلب على رودني الذي روى لكريسي كيف أنَّه كان يتجوَّل في الطرق الجانبية المتفرِّعة عن الشارع الرئيس، ومرَّ بجانب مكتب له واجهة زجاجية عريضة. ورأى في الداخل حجرة من الناس يجلس بعضهم وراء مكاتبهم، ويتحرَّك بعضهم وهم يتحادثون. وهناك شاهد «بديلة» رُوث.

«أتتني كريسي وأبلغتني بذلك فور عودتهما. وقد دفعت رودني إلى أن يصف لها كلَّ شيء. ففعل ذلك قدر المستطاع، ولكن كان من المستحيل الإبلاغ عن كلِّ شيء. هما يعرضان عليَّ الآن أن يأخذاني بالسيَّارة إلى هناك، لكنَّني لا أعرف كيف أتصرَّف. ولا أعرف إذا كان عليَّ فعل أي شيء حول هذه المسألة».

لا أذكر بالضبط ما قلته لها تلك الليلة، ولكن ساورني الشكُّ في تلك اللحظة، بصراحة، أنَّ كريسي ورودني قد اختلقا تلك المسألة برمَّتها. لا أريد هنا الإيحاء بأنَّ كريسي ورودني شخصان سيِّئان- فليس ذلك من الإنصاف بشيء. لكنَّ الطريقة التي عاملانا بها، ومع رُوث بصفة خاصَّة، كوافدين جدد، كانت أبعد ما تكون عن الصراحة.

كانت كريسي فتاة طويلة القامة، وتبدو بكامل جمالها عندما تقف منتصبة القوام. لم يظهر عليها أنَّها تدرك ذلك عندما تنحني لتكون مثلنا طولًا. تبدو بذلك أكثر شبهًا بساحرة شرِّيرة منها بنجمة سينمائية- وهو انطباع يعزِّزه قيامها بوخزك بأحد أصابعها بصورة مزعجة، قبيل إبلاغك بأيِّ شيء. كانت على الدوام ترتدي التنانير الطويلة أكثر من ارتدائها بنطلونات الجينز، ونظَّارتها تغوص عميقًا في وجهها. كانت واحدة من الأفراد القدامى الذين رحَّبوا بنا عند مجيئنا للمرَّة الأولى في الصيف، وقد أُعجبت بها كثيرًا أوَّل الأمر وأفدت من توجيهاتها. لكن تولَّدت لديَّ بعض

التحفّظات مع مرور الوقت. فقد كانت هناك سمة شاذّة في الأسلوب الذي تشير فيه دائمًا إلى أننَّا قد جئنا من هيلشام- وكأنَّ ذلك يفسِّر كلَّ ما له علاقة بنا تقريبًا. كما كانت على الدوام تطرح علينا الأسئلة عن هيلشام- وعن التفاصيل الدقيقة، مثلما يفعل المانحون الذين أتعامل معهم الآن. ومع أنَّها كانت تحاول أن تطرحها بصورة عرضيَّة جدًّا، فإنَّني كنت أتبيَّن بُعدًا آخر في اهتمامها بنا. ومن الأمور الأخرى التي كانت تُضيرني أنَّها كانت على ما يبدو تحاول فصل بعضنا عن الآخر. فهي تأخذ واحدًا منَّا وتُبعده عن المجموعة إذا كان عدد منَّا يقومون بعمل ما معًا، أو تدعو اثنين منَّا لفعل شيء ما بينما تتجاهل الآخرين، أو شيء من هذا القبيل.

قلَّما كنت ترى كريسي إلَّا ومعها حبيبها رودني. كان هذا يزهو بشعره الذي يربطه في مؤخِّرة رأسه على هيئة ذيل فرس، على غرار موسيقيِّي الروك في سبعينيات القرن العشرين، ويتحدَّث كثيرًا عن أمورٍ مثل التقمُّص. استلطفته بالفعل، لكنَّه كان واقعًا تحت سيطرة كريسي. كنتَ تعرف أنَّه سيأخذ برأي كريسي في أيَّة مناقشة، وإذا حدث وذكرت كريسي أيَّ شيء لطيف، فإنَّه كان يتهلَّل ويحرِّك رأسه، وكأنَّه لا يصدِّق مدى استمتاعه بذلك.

لا بأس، ربَّما كنت قاسية في الحكم على هذين الشخصين. عندما كنت أذكِّر تومي بهما في الآونة الأخيرة، كان يرى أنَّهما شخصان كريمان. لكنَّني أقول لك كلَّ هذه الأشياء الآن لأشرح الأسباب التي دفعتني إلى الشكِّ في حكاية مشاهدة «بديلة» رُوث. كما أسلفت، فإن انطباعي الغريزي الأوَّل كان عدم تصديقها، مع اعتقادي بأنَّ كريسي كانت تبيِّت أمرًا ما.

السبب الآخر الذي دفعني إلى الشكِّ في ذلك كلِّه يتعلَّق بالوصف الفعلي الذي أعطته كريسي ورودني: أي صورة امرأة تعمل في مكتب أنيق له واجهة زجاجية. وهو ما بدا لي آنذاك قريب الشبه بما كانت رُوث تدعوه «المستقبل الحالم».

أظنُّ أنَّنا نحن الوافدين الجدد، من تحدَّثنا عن «أيَّام المستقبل الحالمة» في ذلك الشتاء، مع أنَّ عددًا من القدامى فعلوا ذلك أيضًا. كان بعض هؤلاء من أفراد الرعيل الأوَّل- خصوصًا أولئك الذين بدأوا تدريبهم- يتنهَّدون بهدوء ويغادرون الغرفة عندما يبدأ الحديث عن هذا الموضوع، إلَّا أنَّنا لم نلاحظ ذلك لفترة طويلة. لست متأكِّدة ممَّا كان يدور في أذهاننا خلال تلك المناقشات. ربَّما كنَّا نعلم أنَّهم جادُّون، لكنَّنا مع ذلك لم نعتقد أنَّ الأوهام قد سيطرت على مخيِّلاتهم. ربَّما كان ذلك ممكنًا، بعد أن خلَّفنا هيلشام وراءنا، لفترة نصف السنة أو نحوها، وقبل انتشار الحديث عن تحوُّلنا إلى مرشدين، وقبل التدريب على السياقة. ربَّما كان ممكنًا نسيان جميع الفترات الزمنية التي عشناها؛ أن ننسى كلَّ ما قاله لنا الحرَّاس؛ أن ننسى فورات الغضب التي انتابت الآنسة لوسي ظُهر ذلك اليوم الماطر في السرادق، وكذلك جميع النظريَّات التي وضعناها على مدى السنوات. لم يكن الأمر ليستمرَّ بالطبع، ولكن، كما سبق وقلت، اعتدنا أن نعيش في حالة التوتُّر والترقُّب المريحة تلك، التي كنَّا نتأمَّل فيها حياتنا من دون القيود المعتادة. حين أستعيد الماضي الآن، أشعر بأنَّنا أمضينا دهرًا طويلًا في ذلك المطبخ المفعم بالبخار بعد تناول الإفطار، أو كنَّا نتجمَّع حول المواقد شبه المشتعلة في ساعات الصباح الأولى، وننغمس في الحديث عن مخطَّطاتنا للمستقبل.

أودُّ الإشارة هنا إلى أنَّنا **تحاشينا التمادي** والمبالغة في الحديث عن المستقبل. لا أذكر أحدًا توهَّم أنَّنا سنكون من نجوم السينما أو ما إلى ذلك. فالحديث كان على الأغلب عن أنَّ الواحد منَّا سيكون ساعيًا للبريد أو عاملًا في مزرعة، وأراد عدد لا بأس به منَّا أن يكونوا سائقين في هذا المجال أو ذاك. عندما يدور الحديث حول هذا الموضوع، يبدأ بعض القدامى على الأغلب باستعراضٍ مقارنٍ للطرق، والمناظر الطبيعية التي زاروها، والمقاهي المأثورة على جوانب الطرق، والدوَّارات

الصعبة، وأشياء من هذا القبيل. بوسعي أن أتحدَّث سرًّا بطبيعة الحال عن أكثر هذه الأمور اليوم. مع ذلك، فإنَّني في تلك الأيَّام اقتصرت على الاستماع، ولم أنطق ببنت شفة، وواصلت احتساء شرابي فيما هم يتحدَّثون. أحيانًا، عندما تطول السهرة، أُغمض عينيَّ، وأضع رأسي على ذراع إحدى الأرائك، أو أحد الأولاد، إذا كان ذلك في الفترة التي أكون فيها مرتبطة «رسميًا» بشخص معيَّن، وأغفو ثمَّ أصحو وهكذا دواليك، بينما تتراءى في خاطري صور تلك الطرق والمناظر.

مهما يكن من أمر، أعود الآن للتحدُّث عن تلك النقطة، عندما كانت تدور مثل تلك الأحاديث. كانت رُوث هي التي تتمادى في ذلك أكثر من غيرها- لا سيَّما عندما يكون عدد من القدامى بين الحضور. وما فتئت تتحدَّث عن المكاتب منذ بداية الشتاء، ولكن لم يبرز موضوع «المستقبل الحالم» بصورة فعلية إلَّا بعد جولتنا الصباحية تلك في القرية.

خلال تلك الفترة من البرد القارس كانت سخَّانات الغاز تسبِّب لنا المتاعب. أمضينا وقتًا طويلًا نحاول تشغيلها بالكبس على أزرارها من دون جدوى، وتدريجيًا فقدنا الأمل بإصلاحها أو إعادة الدفء إلى الغرف. رفض كيفرز التعامل معها، زاعمًا أنَّ مسؤولية ذلك تقع على كواهلنا، ولكنَّه مع تفاقم البرودة، سلَّمنا مغلَّفًا فيه بعض المال، وملاحظة عن وقود يتعيَّن علينا شراؤه. فتطوَّعت أنا ورُوث، وتوجَّهنا إلى القرية لإحضاره، ولهذا سرنا نزولًا على الطريق صباح ذلك اليوم القارس البرد. وصلنا إلى بقعة ترتفع فيها الأسيجة المشجَّرة على جانبي الطريق. كانت الأرض مغطَّاة بِرَوثِ البقر المتجمِّد. عندئذ توقَّفت رُوث على بُعد عدَّة خطوات ورائي.

تنبَّهت للأمر بعد لحظات قصيرة، وعدت أدراجي إليها. كانت تتنفَّس بتؤدة وتنظر إلى أسفل، مركِّزة بصرها على شيء قرب إحدى قدميها. ظننت للوهلة الأولى أنَّه مخلوق مسكين جمَّده الصقيع، ولكن عندما اقتربت، أدركت أنَّه مجلَّة ملوَّنة- ليست من مجلَّات ستيف- بل من المطبوعات البهيجة المشرقة التي توزَّع عادة مجَّانًا مع الصحف، وقد انفتحت أوراقها عن الصفحة الإعلانية الوسطى اللامعة. مع أنَّ الصفحة كانت مبلَّلة بالماء وإحدى زواياها مغطَّاة بالطين، فقد كان من الممكن رؤية ما فيها بوضوح. ظهرت لنا صورة مكتب جميل حديث مفتوح الجوانب، وفيه ثلاثة أشخاص أو أربعة من الموظَّفين يتبادلون النكات. كان مكتبًا بهيجًا، وكذلك الأشخاص. حدَّقت رُوث إلى الصورة، وعندما أحسَّت بوجودي إلى جانبها قالت: «هذا هو المكتب **المناسب** الذي أودُّ العمل فيه».

استعادت تركيزها عند ذلك، بل ربَّما غضبت لأنَّني شاهدتها في هذا الوضع. ثم غذَّت خطاها بأسرع ما كانت قبل ذلك.

بعد عدَّة ليالٍ، عندما جلس عدد منَّا حول الموقد في المزرعة، أخذت رُوث تحدِّثنا عن المكتب المثالي الذي تؤثر العمل فيه، وقد عرفتُه فورًا. راحت تستعرض كلَّ التفاصيل- النباتات، والمعدَّات اللامعة، والكراسي الدوَّارة، والعجلات- كانت تتكلَّم بحيوية دفعت الجميع إلى متابعتها وعدم مقاطعتها فترة طويلة. راقبتها عن كثب، ولكن لم يخطر على بالها أبدًا أنَّني اكتشفت الصلة بين هذا وذاك- ربَّما كانت هي قد نسيت من أين جاءت تلك الصورة، بل إنَّها، في لحظة ما، أوضحت كيف أنَّ جميع العاملين في مكتبها كانوا من النوع «الديناميكي المنطلق إلى الأمام». تذكَّرت بوضوح الكلمات نفسها المكتوبة في أعلى الصفحة الإعلانية: «هل أنت من النوع الديناميكي المنطلق إلى الأمام؟». أو شيء من هذا القبيل. لم أقل شيئًا بطبيعة الحال. الحقيقة أنَّني كنت خلال استماعي لها أتساءل عمَّا إذا كان كلُّ ذلك ممكن التحقيق: أي أنَّنا جميعًا قد ننتقل إلى مكان من هذا النوع ونعيش فيه معًا.

كانت كريسي ورودني معنا بالطبع في تلك الليلة، يتابعان كلَّ كلمة. ظلّت كريسي لعدَّة أيام لاحقة تحاول دفع رُوث للإدلاء بالمزيد من التفاصيل عن الموضوع.

كنت أمرُّ بهما جالستين معًا في زاوية إحدى الغرف، فأسمع كريسي تتساءل: «هل أنت متأكِّدة من أنَّكم لن تتنافروا لأنَّكم تعملون معًا في مكان كهذا؟». فتواصل رُوث الحديث بإسهاب مرَّة أخرى.

الملاحظ عن كريسي- ويصدق ذلك على عدد كبير من القدامى- أنَّها، رغم موقفها المساند لنا إلى حدٍّ ما إثر انتقالنا هنا، كانت ممتلئة رعبًا ورهبة من كوننا قد أتينا من هيلشام. أدركت ذلك بعد وقت طويل. خذ، على سبيل المثال، قضيَّة مكتب رُوث: إنَّ كريسي لم تُشِر على الإطلاق إلى العمل في أيِّ مكتب، حتَّى وإن كان يشبه ذاك. ولكن لأنَّ رُوث كانت من هيلشام، فإنَّ تلك الفكرة دخلت حيِّز الإمكان. نظرت كريسي إليها على هذا الأساس، وأعتقد أنَّ رُوث قد ذكرت بين الفينة والفينة بعض الأمور التي شجَّعت على قبول فكرة مفادها أنَّ منظومة من القوانين واللوائح المنفصلة تُطبَّق، على نحو غامض، علينا نحن تلاميذ هيلشام. لم أسمع قطُّ أنَّ رُوث قد كذبت على أحد من الرعيل الأوَّل؛ فقد اقتصر الأمر على عدم إنكار أشياء معيَّنة، وعلى مجرد التلميح ضمنيًا لأشياء أخرى. في بعض المناسبات كنت أستطيع تقليب الأمور رأسًا على عقب. ولكن إذا أحسَّت رُوث بالحرج أحيانًا، عندما أمعن النظر إليها خلال هذه الحكاية أو تلك، فإنَّها تبدو على ثقة من أنَّني لن أتخلَّى عنها. ولم أتخلَّ عنها بطبيعة الحال.

هذه، إذن، هي خلفية ادِّعاء كريسي ورودني أنَّهما شاهدا «بديلة» رُوث. يمكنك أن ترى الآن لماذا أتوخَّى الحذر من هذه المسألة. فلم أكن حريصة على ذهاب رُوث معهما إلى نورفولك، مع أنني لم أعرف السبب بالفعل. وعندما اتَّضح أنَّها مصرَّة تمامًا على الذهاب، قلت لها إنَّني سأذهب كذلك. سعدت كثيرًا بذلك أوَّل الأمر، بل إنَّها ألمحت إلى عدم السماح لتومي بمرافقتها كذلك. لكنَّنا، في نهاية المطاف ذهبنا جميعًا، نحن الخمسة: كريسي، ورودني، ورُوث، وتومي، وأنا.

الفصل الثالث عشر

اتَّخذ رودني، الذي يحمل رخصة سياقة، بعض الترتيبات لاستعارة سيَّارة ليوم واحد من عمَّال الزراعة في ميتشلي، الواقعة على بعد ميلين من آخر الطريق. كان يستعير السيَّارات على هذا النحو بصورة منتظمة في الماضي، غير أنَّ الترتيبات تعثَّرت هذه المرَّة قبل يوم واحد من ذهابنا المفترض. ومع أنَّ الأمور سوِّيت بسهولة لاحقًا- فقد توجَّه رودني إلى المزرعة وحصل على وعد بالحصول على سيَّارة أخرى- فإنَّ ما تجدر ملاحظته هو أسلوب ردِّ فعل رُوث على مدى عدَّة ساعات عندما بدا أنَّ من الممكن إلغاء الرحلة.

حتَّى تلك اللحظة، كانت تعتبر الأمر كلَّه أقرب إلى المزاح، وأنَّها لم تكن لتمضي قُدمًا بتلك الخطوة إلَّا لإرضاء كريسي. تحدَّثت كثيرًا عن أنَّنا لم نقم باكتشاف حرِّيتنا بما فيه الكفاية منذ مغادرتنا هيلشام؛ وكيف أنَّها كانت دائمًا تريد الذهاب إلى نورفولك «للعثور على أشيائنا المفقودة كلِّها». بعبارة أخرى، تجاوزت الحدود لإقناعنا بأنَّها لم تكن جادَّة حول إمكانيات العثور على «بديلتها».

قبل يوم مغادرتنا خرجت مع رُوث للتجوال، ودخلنا مطبخ المزرعة، حيث كانت فيونا وبعض القدامى يحضِّرون وجبة ضخمة من الحساء. أبلغتنا فيونا نفسها، من دون أن تزيح ناظريها عمَّا كانت تفعله، أنَّ صبيَّ المزرعة جاء قبل قليل بالرسالة. كانت رُوث واقفة أمامي تمامًا، فلم أستطع رؤية وجهها، لكنَّ وقفتها كانت متصلِّبة، ومن دون أن تنبس بكلمة، استدارت وانطلقت بمحاذاتي خارجة من الكوخ. من خلال نظرة خاطفة إلى وجهها، أدركت مدى انزعاجها. قالت فيونا شيئًا من نوع: «أوه، لم أعرف ذلك»... لكنَّني قلت لها بسرعة: «ليس هذا هو سبب امتعاض رُوث. السبب هو شيء آخر، شيء حدث في وقت مبكر». لم يكن ما قلته هو التصرُّف السليم، لكنَّه كان أفضل ما كان بوسعي أن أفعله عفو الخاطر.

كما أسلفت، حُلَّت أزمة العربة آخر الأمر، وفي وقت مبكر من صباح اليوم التالي، وفي تلك العتمة الكالحة، صعدنا نحن الخمسة إلى سيَّارة روفر متواضعة، ولكنَّها راقية تمامًا. جلست كريسي إلى جانب رودني في المقدِّمة ونحن الثلاثة في المؤخِّرة. كان ذلك هو الوضع الطبيعي، وقد جلسنا على هذا النحو من دون أن نفكِّر في الأمر. ولكن بعد عدَّة دقائق، عندما خرج بنا رودني من الدروب الوعرة المعتمة إلى الطرق المعبَّدة، انحنت رُوث، التي كانت تجلس على المقعد الأوسط، إلى الأمام ووضعت كلتا يديها على المقعد الأمامي وبدأت تتحدَّث مع هذين الشخصين من القدامى. فعلت ذلك بطريقة تعني أنَّنا، تومي وأنا، المجاورين لها، لن نسمع ما يتبادلونه من حديث. ولأنَّها كانت تجلس بيننا، فإنَّنا لم نكن نتحدَّث أو حتَّى يشاهد أحدنا الآخر. أحيانًا، في اللحظات النادرة التي يعود فيها ظهرها إلى الوراء، كنت أحاول أن أدير الحديث بيننا نحن الثلاثة، لكنَّ رُوث لم تأبه لذلك، بل تنحني إلى الأمام ثانية، ويختفي وجهها بين المقعدين الأماميين.

بعد نحو ساعة، وعند انبلاج النهار، توقَّفنا لنمدِّد سيقاننا، وابتعد رودني ليتبوَّل. وصلننا إلى حافَّة حقل فسيح خالٍ، فقفزنا فوق الخندق، وقضينا بضع دقائق نفرك أيدينا ونلتقط أنفاسنا. في لحظة ما،

لاحظت أنَّ رُوث قد ابتعدت عنَّا، وراحت تحدِّق عبر الحقل في شروق الشمس. فتقدَّمت منها واقترحت عليها أن نتبادل المقاعد- لأنَّها تريد أن تتحدَّث مع القديمَين فحسب وتخاطب كريسي- ما يسمح لي ولتومي أن نتناقش على نحو ما خلال الرحلة. وما كدت أنهي حديثي حتَّى همست رُوث قائلة:

«لماذا تصعِّبين الأمور؟ وفي هذا الوقت بالذات! أنا لا أفهم ذلك. لماذا تريدين إثارة المتاعب؟». ثم أدارتني بحيث يكون ظهرانا للآخرين ولا يعرفون أنَّنا نتجادل. كان هذا التصرُّف، وليس كلامها، هو الذي جعلني أدرك الأمور بالطريقة التي تريدها هي؛ فعرفت أنَّ رُوث تبذل جهدها لا لتمثِّل نفسها فحسب، بل لتمثِّلنا جميعًا كذلك، وبالأسلوب الصحيح، أمام كريسي ورودني؛ وها أنا الآن أحاول تقويض جهودها وافتعال هذا الموقف المحرج. رأيت ذلك كلَّه، فلمست كتفها وأدرت وجهي نحو الآخرين. حين عدنا إلى السيَّارة، تأكَّدت من أنَّنا نحن الثلاثة نجلس مثلما كنَّا قبل ذلك. ولكن الآن، بينما كانت السيَّارة تمضي بنا إلى الأمام، فإنَّ رُوث بعد عودتها إلى مقعدها ظلَّت شبه صامتة، وحتَّى عندما خاطبها كريسي ورودني بصوت عالٍ، لم تردَّ إلَّا بكلمات مقتضبة خافتة.

تحسَّنت الأمور بصورة ملموسة بعد وصولنا إلى البلدة الساحلية. بلغنا المكان ساعة الغداء أو نحوها وتركنا الروفر في مرأب إلى جنب ملعب غولف صغير يرفرف فيه عدد كبير من الأعلام. كان النهار رائقًا ومشمسًا. أذكر أنَّنا من شدَّة استمتاعنا خلال الساعة الأولى هناك لم نعد نفكِّر في سبب مجيئنا. في لحظة من اللحظات، أطلق رودني بالفعل عدَّة صيحات إعجاب صاخبة ملوِّحًا بذراعيه، وهو يتقدَّمنا بثبات صعودًا على الطريق. بمحاذاة صفوف من المنازل ومتاجر المنوَّعات. كنت تعرف من مشهد السماء الشاسعة أنَّك تتَّجه نحو البحر.

عندما وصلنا إلى البحر، وجدنا أنفسنا بالفعل واقفين على طريق محفورة في منحدر صخري شاهق، وبدا أوَّل الأمر أنَّ الانحدار يمتدُّ حتَّى الكثبان الرملية، غير أنَّك عندما تمعن النظر وتنحني فوق السور ترى دروبًا فرعية متعرِّجة تأخذك إلى جانب الجرف السفلي للواجهة البحرية.

كنَّا في تلك اللحظة نتضوَّر جوعًا، فتوجَّهنا إلى مقهى صغير فوق الجرف الصخري في البقعة التي تبدأ منها إحدى الدروب الفرعية. عندما دخلنا المقهى، لم يكن فيه غير المرأتين السمينتين العاملتين هناك، ترتدي كلٌّ منهما مئزرًا. كانتا تجلسان إلى إحدى الطاولات وتدخِّنان السجائر، ولكن سرعان ما نهضتا واختفتا في المطبخ، فخلا بذلك المكان لنا.

جلسنا حول الطاولة الواقعة في المؤخِّرة- أي كنَّا على مقربة من حافَّة الجرف. أحسست عندما جلسنا أنَّنا معلَّقون في الفضاء فوق البحر. لم يخطر ببالي أيُّ شيء يمكن أن أقارن به هذا المشهد آنذاك، لكنَّني أدركت أنَّ المقهى صغير للغاية، وليس فيه غير ثلاث طاولات أو أربع. كما أنَّ إحدى النوافذ تُركت مشرَّعة، ربَّما للحيلولة دون تشبُّع الجوِّ بروائح القلي- بحيث تهبُّ النسمات بين حين وآخر عبر الصالة، وترفرف معها اللوحات الإعلانية التي تروِّج لعروضهم الجيِّدة.

ثُبِّتت فوق النُّضُد لافتة كُتبت عليها بالألوان عبارة بقلم لبَّاد، وكُتبت فوقها كلمة «look»، رُسمت عين محدِّقة داخل كلِّ حرف O فيها. وُرسمت عين محدِّقة داخل حرفي O في الكلمة. أشاهد مثل هذه اللافتة كثيرًا هذه الأيام، حتَّى أنَّني لم أعد آبه بها، ولكن لم أكن قد شاهدتها قبل ذلك. لهذا فقد نظرت إليها بإعجاب، ونظرت إلى رُوث، وأدركت أنَّها كانت كذلك مندهشة بها، فانفجرنا ضاحكتين. كانت تلك لحظة بهيجة ومريحة شعرنا فيها أنَّنا خلَّفنا وراءنا المشاعر السيِّئة التي تولَّدت بيننا في السيَّارة. تبيَّن بعدئذ أنَّها كانت لحظة يتيمة لم تتكرَّر خلال ما تبقَّى من تلك الرحلة.

***

لم نأتِ على ذكر «البديلة» على الإطلاق منذ وصولنا إلى البلدة، وافترضت عندما جلسنا أنَّنا سنناقش الموضوع بطريقة مناسبة. لكن ما إن بدأنا بتناول شطائرنا حتَّى راح رودني يتحدَّث عن صديقهم القديم مارتن، الذي ترك الأكواخ قبل ذلك بعام واحد، وهو يعيش الآن في مكان ما في البلدة. أثار ذلك حماسة كريسي التي انضمَّت إلى رودني وأخذا يرويان الحكايات المفرحة عمَّا كان يفعله مارتن. لم نتابع الجزء الأكبر من الحديث، ولكن كريسي ورودني كانا، على ما يبدو، في غاية الاستمتاع. كانا يتبادلان النظرات ويتضاحكان. ورغم تظاهرهما بفعل ذلك لإمتاعنا، كانا يتذكَّران ذلك لمجرَّد الاستمتاع به. عندما أستحضر الماضي الآن، أتذكَّر أنَّ ما يشبه التحريم المفروض من الأكواخ على الحديث عن الأشخاص الذين تركوا هو الذي كان يحول بينهما وبين الحديث عن صديقهما، حتَّى ولو كان الحديث يدور بينهما فقط، وأنَّهما اغتنما فرصة الخروج للحديث المسهب عن هذا الموضوع.

كنت أضحك كلَّما ضحكا- من باب الأدب. بدا أنَّ تومي كان يفهم الأمور بدرجة أقلَّ منِّي، وكان يُطلق ضحكات مكتومة أخفَّ بكثير من ضحكاتي. أمَّا رُوث، فكانت تضحك ثمَّ تضحك، وتومئ إعجابًا بأيِّ شيء يُروى عن مارتن كما لو كانت تتذكَّره هي أيضًا. ذات مرَّة، عندما أشارت كريسي بصورة مبهمة إلى أحد الأمور، قالت شيئًا من نوع: «أوه، نعم، حدث ذلك عندما خلع بنطلونه الجينز!»- وأطلقت رُوث ضحكة صاخبة، وأشارت بيدها إليَّ وتومي، وكأنَّها تقول لكريسي: «استمرِّي، اشرحي لهما الموضوع ليستمتعا كذلك». لم يُضِرْني ذلك، ولكن عندما بدأت كريسي ورودني بمناقشة ما إذا كان علينا أن نذهب إلى شقَّة مارتن، قلت آخر الأمر، وربَّما ببعض البرود:

«ترى، ما الذي يفعله هنا؟ ولماذا لديه شقَّة؟».

ساد الصمت، وسمعت رُوث تطلق تنهيدة ساخطة. مالت كريسي برأسها نحوي فوق الطاولة وقالت بهدوء، كما لو كانت تشرح الأمر لأحد الأطفال: «إنَّه مرشد. ماذا كنت تظنِّين أنَّه يعمل هنا. إنَّه مرشد كامل الآن».

طرأ بعض التعديل الآن. فقلت: «هذا ما كنت أعنيه. لا يمكننا أن نذهب لزيارته».

تنهَّدت كريسي. «حسنًا، لا يفترض فينا أن نزور المرشدين. فذلك ممنوع منعًا باتًّا. وينبغي بالتأكيد عدم تشجيع ذلك».

أطلق رودني ضحكة خافتة، وأضاف: «ينبغي بالتأكيد عدم تشجيع ذلك. من المزعج... من المزعج إجراء الزيارة».

«مزعج جدًّا»، قالت كريسي، بلهجة توبيخية.

عندها أضافت رُوث: «كاثي لا تريد أن تكون مزعجة. ولكن من الأفضل أن نذهب ونزوره».

نظر تومي إلى رُوث، بحيرة جليَّة حول أي طرف ستؤيِّد. لم أكن أكيدة أيضًا. خطر لي أنَّها لا تريد المضي قدمًا في هذه الرحلة، وأنَّها تؤيِّدني على مضض. لذلك ابتسمت لها، ولكنها لم تبادلني الابتسام. ثمَّ سأل تومي فجأة:

«تُرى، أين شاهدت 'بديلة' رُوث يا رودني؟».

«أوه»... لم يعد رودني، على ما يبدو، مهتمًّا بموضوع «البديلة» ونحن في البلدة، ورأيت القلق يجتاح وجه رُوث. وأخيرًا قال رودني: «كان ذلك عند منعطف الشارع الرئيس، في مكان ما على الطرف الآخر. ربَّما كان ذلك يوم عطلتها بطبيعة الحال». ولم يقل أحد شيئًا، فأردف قائلًا: «لديهم

أيَّام عطلة، كما تعلمون. وهم لا يعملون بصورة دائمة».
عندما قال ذلك، خشيت لفترة قصيرة أن أكون أسأت تقدير الأمور إلى حدٍّ كبير: أي أنَّ القدامى، على حدِّ علمنا، غالبًا ما يستخدمون الإشارة إلى البدلاء كذريعة للقيام بالرحلات، ولا يتوقَّعون العودة إلى هذا الموضوع مرَّة أخرى. ربَّما كانت رُوث تفكِّر في تلك المسألة بالمنطق نفسه، لأنَّها كانت مهمومة بالتأكيد، لكنَّها ضحكت ضحكة خافتة أخيرًا، وكأن رودني قد ألقى نكتة ما.
عندئذ قالت كريسي بلهجة جديدة: «تعلمين يا رُوث أنَّنا قد نأتي إلى هنا في غضون سنوات قليلة لنزورك. عندما تعملين في مكتب أنيق. لا أعلم كيف يستطيع أحد أن يمنعنا من زيارتك آنذاك».
«هذا صحيح»، قالت رُوث بسرعة. «يمكنكم جميعًا أن تجيئوا وتلتقوا بي».
قال رودني: «أظنُّ أنَّه ليست هناك أيَّة قوانين حول زيارة الناس إذا كانوا يعملون في أحد المكاتب». وضحك فجأة. «إنَّنا لا نعرف ذلك. فنحن لم نجرِّب ذلك من قبل».
«سيكون كلُّ شيء على ما يرام»، قالت رُوث. «سيسمحون لكم بذلك. سيكون بوسعكم أن تأتوا جميعًا لزيارتي. باستثناء تومي، تحديدًا».
تجلَّت الصدمة على وجه تومي: «ولم لا أستطيع زيارتك؟».
«لأنَّك ستكون مقيمًا معي هنا يا أحمق»، قالت رُوث. «لأنَّني سأحتفظ بك».
ضحكنا جميعًا، وضحك تومي بعدنا بقليل.
«سمعت عن تلك الفتاة في ويلز»، قالت كريسي. «كانت من تلاميذ هيلشام، ربَّما قبل دفعتكم بعدَّة سنوات. ويظهر أنَّها تعمل هذه الأيَّام في متجر الملابس. صبيَّة حصيفة بالفعل».
تصاعدت غمغمات بالموافقة، وأخذنا ننظر حالمين إلى السحب في الخارج لبعض الوقت.
«هذه ستكون هيلشام بالنسبة لكم»، قال رودني بعد ذلك، وهزَّ رأسه كما لو كانت قد تولَّته الدهشة.
«كان هناك شخص آخر»، قالت كريسي مخاطبة رُوث، «ذلك الولد الذي حدَّثتنا عنه قبل أيَّام. الولد الذي يكبرك بسنتين ويعمل الآن حارسًا للمتنزَّه العام».
كانت رُوث تومئ برأسها بعناية. خطر لي أن أوجِّه نظرة تحذيرية خاطفة إلى تومي، ولكن عندما أدرت وجهي نحوه، كان قد بدأ الحديث.
«من هو هذا الشخص؟»، سأل بصوت ذاهل.
«أنت تعرف من هو يا تومي»، قلت بسرعة. ولم أشأ المخاطرة بتسديد ركلة له، أو بالغمز واللمز. ربَّما كانت كريسي ستعلم ذلك. لهذا قلت جملتي على الفور، وبلهجة تنمُّ عن الضجر، وكأنَّنا جميعًا قد فاض بنا الكيل من مَيل تومي الدائم إلى النسيان. ولكن ذلك عنى أنَّ تومي لم يفهم بعد.
«هل هو شخص **عرفناه**؟».
«تومي، لا نريد العودة إلى هذا الموضوع ثانية»، قلت. «يجب فحص قواك العقلية».
يبدو أنَّ هذه الملاحظة فعلت فعلها آخر الأمر. فقد صمت تومي.
قالت كريسي: «أعرف كم أنا محظوظة بوجودي في الأكواخ. لكنَّكم كنتم **محظوظين جدًّا** يا جماعة هيلشام. سأقول لكم شيئًا»... خفضت صوتها وانحنت إلى الأمام مرَّة أخرى. «هناك أمر كنت حريصة كلَّ الحرص على الحديث معكم عنه. لم تكن هناك فرصة لقوله في الأكواخ. فذلك مستحيل، لأنَّ الجميع يسترقون السمع».
دارت ببصرها حول الطاولة ثمَّ حدَّقت في رُوث. توتَّرت حالة رودني فجأة، وانحنى هو كذلك

إلى الأمام. خامرني الإحساس بأنَّنا سنشهد ما كان، بالنسبة لكريسي ورودني، الهدف المحوري لهذه الرحلة برمَّتها.

تابعت كريسي: «عندما كنت أنا ورودني هناك في ويلز، سمعنا عن تلك الصبيَّة في متجر الملابس. وسمعنا شيئًا آخر، شيئًا عن تلاميذ هيلشام. ما كان يقال هو أنَّ بعض تلاميذ هيلشام كانوا في الماضي، وفي ظلِّ ظروف معيَّنة، يحصلون على التأجيل، هذا شيء كنتم تحصلون عليه في هيلشام. هذا إذا كنتم قادرين على إقناعهم بالأمر. أي إذا كنتم **مؤهَّلين**».

تريَّثت كريسي ونظرت إلى كلِّ واحد منَّا، ربَّما لزيادة تأثير ما تقوله علينا، أو للحصول على مؤشِّرات تدلُّ على أنَّنا نقدِّر ما تقوله. ربَّما بدت الحيرة عليَّ أنا وتومي، لكنَّ ملامح رُوث وقتئذ لم توحِ بأنَّها تعرف ما يجري حولنا. «لقد قالوا»، أردفت كريسي، «إنَّه إذا أحبَّ ولد وبنت أحدهما الآخر بصدق، وكان حبُّهما حقيقيًّا، وعبَّرا عن ذلك، فإنَّ المشرفين على هيلشام سيدبِّرون الأمر بحيث يستطيعان قضاء بضع سنوات سويًّا قبل أن يبدآ بتقديم التبرُّعات».

هيمنت أجواء غريبة على الطاولة، وسرت في نفس كلٍّ منَّا رعشة خفيفة.

«عندما كنَّا في ويلز»، أردفت كريسي، «عرف التلاميذ في المزرعة البيضاء عن هذا الثنائي في هيلشام، وكان الشابُّ على وشك أن يصبح من المرشدين بعد عدَّة أسابيع. فذهبا وقابلا شخصًا ما، وأرجئت كلُّ أمورهما لثلاث سنوات. سُمح لهما بالعيش معًا هناك، في المزرعة البيضاء، ثلاث سنوات بطولها. لم يكن عليهما أن يواصلا التدريب أو أيَّ شيء من هذا القبيل. ثلاث سنوات يستمتعان بكلِّ دقيقة منها، لأنَّهما أثبتا أنَّ ما يجمعهما هو الحبُّ الحقيقيُّ».

عند هذا الحدِّ، لاحظت أنَّ رُوث تومئ بشكل يوحي بالسلطة. كما لاحظت كريسي ورودني ذلك، ونظرا إليها كما لو كانا منوَّميْن مغناطيسيًا لعدَّة ثوان. تصوَّرت ساعتئذ أنَّ كريسي ورودني كانا، في الأكواخ، وخلال الفترة التي امتدَّت حتَّى اليوم، يتفكَّران هذا الموضوع ويتناقشان فيه. وتصوَّرت أنَّهما كانا يعيدان بحث الموضوع، بصورة أوَّلية في البداية، وكل منهما يهزُّ كتفيه، ويضعانه جانبًا، ثمَّ يثيرانه مجدَّدًا، ولا يتخلَّيان عنه أبدًا، وقد خُيِّل لي أنَّهما كانا يفكِّران بالتحدُّث إلينا حول الأمر، ويحاولان تزويق الأسلوب الذي سيستخدمانه لمفاتحتنا بالمسألة، ويتخيَّران العبارات المناسبة تمامًا لذلك. نظرت إلى كريسي ورودني مرَّة أخرى، ثمَّ ركَّزت بصري على رُوث، وحاولت أن أعرف ما يدور في خلدهم. ظهرت على وجه كريسي دلائل الخوف والأمل في آنٍ معًا. ولكنَّ التوتُّر بدا على رودني، وكأنه يشكُّ في فقدان أعصابه وقول ما لا يفترض فيه أن يقوله.

لم تكن تلك هي المرَّة الأولى التي سُمعت فيها الإشاعة عن التأجيل. ففي غضون الأسابيع الماضية، كنت أسمع أطرافًا من الحديث عنها في الأكواخ. وكان القدامى هم الذين يشيرون إلى ذلك، ولكن فيما بينهم فحسب، وعندما يقترب أحدنا منهم يصابون بالارتباك ويلزمون الصمت. لكنَّني سمعت ما يكفي لأفهم جوهر المسألة؛ وكنت أعلم أنَّ للأمر علاقة بتلاميذ هيلشام. مع ذلك، فإنَّني لم استوعب تمامًا أهمِّية هذه الفكرة لدى بعض القدامى، إلَّا في ذلك اليوم في المقهى على الشاطئ.

استطردت كريسي وقد عرت صوتها رعشة خفيفة: «أظنُّ أنَّكم تعرفون عنها فيما بينكم. إنَّها من القوانين، وما إلى ذلك».

تبادلت هي ورودني النظرات معنا على التوالي، ثمَّ استقرَّت النظرات على رُوث.

تنهَّدت رُوث، وقالت: «حسنًا، مؤكَّد أنَّهم ذكروا لنا بعض الأشياء. ولكن»- وهنا هزَّت كتفيها-

«إنَّها ليست من الأمور التي نعرف عنها الكثير. لم نتحدَّث عنها كثيرًا في الواقع. وعلى أيَّة حال، علينا أن نتحرَّك من هنا سريعًا».
سأل رودني فجأة: «مع من ستذهبين؟ مع من قال إنّ عليك الذهاب إذا أردتِ **تقديم الطلب**؟».
هزت رُوث كتفيها مرَّة أخرى. «حسنًا، قلت لك ذلك. إنَّنا لم نتحدَّث كثيرًا عن هذا الموضوع».
بصورة شبه غريزية، نظرت إليَّ وإلى تومي طلبًا للعون، وربَّما أخطأت في ذلك، لأنَّ تومي قال:
«بصراحة، أنا لا أعرف عمَّ تتحدَّثون. ما هي هذه القوانين؟».
سدَّدت رُوث له نظرة حادَّة، وقلتُ بسرعة: «تعلم يا تومي أنَّ مثل هذا الحديث كان متداولًا بكثرة في هيلشام».
هزَّ تومي رأسه. «لا أتذكَّر ذلك»، قال بلهجة فاترة. كنت أرى في تلك اللحظة، مثلما رأت رُوث، أنَّه لم يتباطأ. «لا أتذكَّر على الإطلاق شيئًا من هذا القبيل في هيلشام».
أزاحت رُوث بصرها عنه، وقالت لكريسي: «مع أنَّ تومي كان في هيلشام، فإنَّه لم يكن من تلاميذ هيلشام، فهو ليس مثل تلاميذ هيلشام الفعليين. لقد أُقصي هناك من كلِّ شيء، وكان الجميع يهزأ منه. لا داعي إذن لسؤاله عن أيِّ شيء من هذا القبيل. أمَّا أنا، فأريد الآن أن أذهب لمشاهدة تلك المرأة التي رآها رودني».
بدت في عينَي تومي نظرة دعتني إلى أن حبس أنفاسي. نظرة لم أرَ مثلها منذ زمن بعيد، وتخصُّ تومي الذي كان يُحبس داخل غرفة الصفِّ عندما كان يحرن ويبدأ برفس المناضد. ثمَّ اختفت تلك النظرة، ونظر إلى السماء في الخارج، وتنفَّس بعمق.
لم يلاحظ القدامى شيئًا لأنَّ رُوث، في تلك اللحظة بالذات، كانت قد وقفت وراحت تعبث بمعطفها. حدثت بعض الفوضى عندما أخذنا تحريك كراسينا معًا بعيدًا عن الطاولة الصغيرة. كنتُ مخوَّلة بإنفاق المال، ولهذا الغرض توجَّهت لدفع الحساب. انطلقوا إلى الخارج، وعندما كنت انتظر الفكَّة، شاهدتهم عبر إحدى النوافذ التي غشيها الضباب وهم يمشون الهوينى تحت أشعَّة الشمس، ولا يتحدَّثون، بل يوجِّهون أبصارهم نحو البحر.

الفصل الرابع عشر

عندما خرجتُ، كان من الواضح أنَّ الحماسة التي غمرتنا عند وصولنا أوَّل الأمر قد تبخَّرت تمامًا. سرنا بصمت، يتقدَّمنا رودني. عبرنا دروبًا جانبية قلَّما اخترقتها أشعَّة الشمس. كان علينا أن نسير على الرصيف الجانبي الضيِّق في طابور واحد. تنفَّسنا الصعداء عندما خرجنا إلى الشارع الرئيس، حيث غلبت الضوضاء على مزاجنا المتعكِّر. عند إحدى شارات المرور، عبرنا إلى الجانب المشمس من الشارع، ولمحت كريسي ورودني يتبادلان الحديث عن أمر ما. تساءلت عن العلاقة بين هذه الأجواء القائمة واعتقادهما بأنَّنا نخفي أحد الأسرار المتَّصلة بهيلشام، وبمحاولة رُوث للتواصل مع تومي.

حالما قطعنا الشارع الرئيس، أعلنت كريسي أنَّها ستذهب مع رودني للتسوُّق وشراء بطاقات أعياد المولد. دهشت رُوث لذلك. غير أنَّ كريسي واصلت حديثها: «نحبُّ شراءها في مجموعات كبيرة. فهي أقلُّ كلفة على المدى البعيد، وتتوفَّر لديك كلَّما احتفل أحدهم بعيد مولده». أشارت إلى مدخل متجر وولورث. «بوسعك الحصول على بطاقات لطيفة بكلفة أقلَّ بالفعل».

كان رودني يومئ بالموافقة، وأعتقد أنَّني لمحت في ابتسامته بعض السخرية. «بالطبع»، قال. «ستكون لديك كمِّية كبيرة من البطاقات المتشابهة، ولكن بوسعك إضافة رسوم توضيحية إليها، كما تعرفين. أي إضافة لمسة شخصية عليها».

وقف المحاربان القديمان في منتصف الرصيف، بينما سمحا لمن يجرُّون العربات الصغيرة بالحركة حولهما. وكانا يتوقَّعان منَّا أن نقوم بحركة معاكسة. شعرت أنَّ رُوث كانت تحسُّ بالغيظ، ولكن لم يكن من الممكن عمل أيِّ شيء من دون مساعدة من رودني.

هكذا دخلنا متجر وولورث، وشعرت فورًا بالمزيد من الانشراح. وأنا، حتَّى الآن، أحبُّ مثل هذه الأمكنة: متجر فسيح تتقاطع فيه الممرَّات الجانبية، وتُعرض على جنباتها الدمى البلاستيكية البرَّاقة، وبطاقات التهنئة، وأكداس من مواد الزينة والتجميل، بل قد يكون هناك ركن للصور. وإذا كنت في البلدة هذه الأيام، وكان لديَّ متَّسع من الوقت، فإنَّني أتجوَّل داخل مكان من هذا النوع واستمتع بذلك، من دون شراء شيء، لأنَّ المسؤولين عن البيع لا يمانعون في ذلك على الإطلاق.

على أيِّ حال، دخلنا المتجر. وبعد قليل انتشرنا بين شتَّى الممرَّات للاستطلاع. بقي رودني على مقربة من المدخل إلى جانب محمل علِّقت عليه أعداد كبيرة من البطاقات، وعندما تحرَّكت إلى الداخل، شاهدت تومي واقفًا تحت ملصق ضخم عن إحدى فرق «البوب» الغنائية وهو ينقِّب في الكاسيتات الموسيقية. بعد نحو عشر دقائق، عندما كنت على مقربة من آخر القاعة، اعتقدت أنَّني سمعت صوت رُوث فتوجَّهت نحوها. عندما انحنيت ودخلت الممرَّ، الذي عُرضت على جانبيه حيوانات وصناديق لوحات الأحاجي، أدركت أنَّ رُوث وكريستي تقفان معًا في آخر الممرِّ، تتهامسان وجهًا لوجه. لم أعرف ما يجدر بي عمله: فلم أكن أريد المقاطعة، ولكن آن الأوان للمغادرة، فلم أرجع القهقرى كذلك. لذا توقَّفت مكاني، وتظاهرت بفحص لوحة للأحجية، وانتظرت منهما أن يرياني.

عندئذ أدركت أنَّهما قد عادتا إلى موضوع تلك الإشاعة. كانت كريسي تقول، بصوت خافت،

شيئًا من نوع:
«يدهشني أنَّك لم تفكري في اتِّخاذ هذه الخطوة طوال إقامتك هناك، ولم تعرفي إلى من ستذهبين وما إلى ذلك».
«أنت لا تفهمين الوضع»، قالت رُوث. «كنت ستدركين ذلك لو كنت من المقيمين في هيلشام. لم يكن الموضوع مهمًّا جدًّا بالنسبة لنا. أعتقد أنَّنا كنَّا نعرف دائمًا بأنَّنا إذا أردنا النظر في الموضوع، فما علينا إلَّا مخاطبة المشرفين في هيلشام»...
رأتني رُوث فقطعت حديثها، وعندما أنزلت لوحة الأحاجي ووجَّهت بصري إليهما، كانتا تنظران إليَّ بغضب. في الوقت نفسه، بدا وكأنَّني ألقيت القبض عليهما متلبِّستين بفعل غير لائق، فابتعدت إحداهما عن الأخرى بصورة واعية. «آن الأوان للمغادرة»، قلت، وتظاهرت بأنَّني لم أسمع شيئًا. لكنَّ رُوث ليست من النوع الذي يمكن استغفاله. فعندما مرَّت بي، ألقت عليَّ نظرة استهجان. وعندما حان وقت الخروج واللحاق برودني الذي سيبحث عن المكتب الذي شاهد فيه «بديلة» رُوث قبل شهر، كانت الأجواء التي سادت بيننا في أسوأ حالاتها على الإطلاق. زاد من سوء الوضع أنَّ رودني أدخلنا في الشوارع الخطأ مرَّة بعد أخرى.
وقد قادنا أربع مرَّات على الأقل، بكلِّ ثقة، عبر آخر منعطف في الشارع الكبير، إلى منطقة تخلو من المتاجر والمكاتب. فاضطررنا إلى أن نعود القهقرى، وبعد قليل، اتَّخذ رودني موقفًا دفاعيًا وبدا أنَّه يوشك على الاستسلام. لكنَّنا وجدناه آخر الأمر. فبعد أن عدنا أدراجنا باتِّجاه الشارع الكبير، حتَّى وقف رودني فجأة. ثمَّ أشار بصمت إلى مكتب على الجانب الآخر من الشارع. رأينا المكتب، ماثلًا للعيان، لم يكن مطابقًا تمامًا لصورة الإعلان في المجلَّة التي وجدناها على الأرض ذلك اليوم، غير أنَّه لم يكن مخالفًا لها تمامًا. كانت هناك واجهة زجاجية واسعة على مستوى الشارع، بحيث يستطيع جميع المارَّة أن يروا كلَّ ما في الداخل: حجرة واسعة مكشوفة الجوانب صُفَّت فيها اثنتا عشرة منضدة أو نحوها بطريقة غير منتظمة. كانت هناك فسائل نخيل في أصص، وآلات وأجهزة لامعة، ومصابيح كهربائية فضفاضة على المكاتب. وكان أناس يتحرَّكون بين المناضد، أو يميلون على الحاجز الذي يفصل بين أجزاء الغرفة، أو يثرثرون ويتبادلون النكات، بينما كان آخرون يقرِّبون كراسيهم الدوَّارة فيما بينهم، ويستمتعون بتناول القهوة والساندويتشات.
«انظروا»، قال تومي. «استراحة الغذاء، ولكنَّهم لا يخرجون، ولا يمكن أن نلومهم على ذلك».
واصلنا التحديق، وكان المكتب يبدو عالمًا رشيقًا ومريحًا ومتكامل العناصر. لمحت رُوث، ولاحظت أنَّ عينيها تدوران وتنتقلان من وجه إلى آخر خلف الزجاج.
«حسنًا يا رود»، قالت كريسي. «والآن، أين 'البديلة' بين هؤلاء؟».
قالت ذلك بلهجة ساخرة تقريبًا، كما لو كانت متأكِّدة من أنَّ كلَّ تلك الأمور ستسفر عن لا شيء، وأنَّها نتيجة لخطأ كبير من جانبه.
إلَّا أنَّ رودني قال بهدوء، وفي صوته نبرة من الحماسة:
«انظروا إلى هناك. إلى ذات اللباس الأزرق. إنَّها تتحدَّث الآن مع المرأة ذات الثوب الأحمر».
لم يكن الأمر واضحًا تمامًا، ولكن تبيَّن لنا مع إطالة النظر أنَّ ثمَّة قدرًا من الصحَّة في كلامه. كانت المرأة في نحو الخمسين من العمر، وقد حافظت على قوامها بشكل جيِّد. كان شعرها أكثر سوادًا من شعر رُوث- ربما لأنَّه قد صُبغ- وقد ربطته على هيئة ذيل حصان بسيط، مثلما كانت تفعل رُوث في العادة. كانت تضحك لشيء قالته صديقتها ذات الثوب الأحمر، كما كانت قسمات وجهها، تحديدًا عندما تُنهي ضحكتها بهزَّة من رأسها، تبيِّن لمسات لا يمكن أنكارها من وجه

رُوث.

واصلنا مراقبتها بصمت. ثمَّ أدركنا أنَّ ثمَّة امرأتين أخريين في جانب آخر من المكتب. رفعت إحداهما يدها ولوَّحت بطريقة غامضة. أثارت تلك الحركة مخاوفنا، فانطلقنا إلى الخارج، ونحن نقهقه بفزع.

***

توقَّفنا مرَّة أخرى في الشارع، وأخذنا نتحدَّث بانفعال في وقت واحد، باستثناء رُوث التي بقيت صامتة في وسط المجموعة. كان من الصعب استقراء ما يدور في خلدها في تلك اللحظة: من المؤكَّد أنَّها لم تكن محبطة، ولكنَّها لم تكن مبتهجة. علا وجهها شبه ابتسامة، من النوع الذي قد تظهره الأمُّ في عائلة عادية، وهي تحاول التعامل مع الموقف فيما يتقافز حولها الأطفال ويصيحون، طالبين منها أن توافق على كلِّ ما يفعلونه. كنَّا هناك إذن، خرجنا وكلٌّ منَّا يحمل آراءه الخاصَّة. فرحت لأنَّني كنت أستطيع أن أقول مع الآخرين، بصراحة، أنَّ المرأة التي شاهدناها لا يمكن إبقاؤها خارج الصورة. الحقيقة أنَّنا شعرنا جميعًا بالاطمئنان: فقد كنَّا، على غير معرفة منَّا، قد هيَّأنا أنفسنا للخذلان. لكن بوسعنا العودة إلى الأكواخ الآن، وقد تشجَّعت رُوث بفعل ما رأته، ويمكن لنا أن نقدِّم الدعم لها. لا بدَّ من أنَّ حياة المكتب التي ظهر أنَّ المرأة كانت تعيشها هي قريبة الشبه بالحياة التي تمنَّتها رُوث لنفسها ووصفتها أكثر من مرَّة. بصرف النظر عمَّا دار بيننا في ذلك اليوم، فإنَّ أحدًا منَّا لم يكن، في قرارة نفسه، يريد أن تعود رُوث إلى المنزل وقد تولَّاها القنوط. كنَّا حتَّى ذلك الحين نعتقد أنَّنا نتمتَّع بالأمن والأمان. وقد كنَّا كذلك بالتأكيد، لو أنَّنا أنهينا الموضوع في تلك اللحظة.

غير أنَّ رُوث قالت: «فلنجلس هناك، على الجدار، لعدَّة دقائق فقط. عندما ينسون أمرنا، سنذهب ونلقي نظرة أخرى».

وافقنا على ذلك، ولكن عندما توجَّهنا إلى الجدار الواطئ حول مرآب السيَّارات الصغير الذي أشارت إليه رُوث، قالت كريسي، وربَّما بشيء من اللهفة:

«حتَّى لو لم نرها مرَّة أخرى، فقد اتَّفقنا جميعًا على أنَّها ‘بديلة’. كما أنَّ المكتب لطيف فعلًا».

«فلننتظر بضع دقائق»، قالت رُوث. «وبعدئذ سنعود أدراجنا».

لم أجلس على الجدار، لأنَّه كان رطبًا وآيلًا للسقوط، ولأنَّني اعتقدت أنَّ أحد الأشخاص قد يظهر فجأة، ويوبِّخنا على جلوسنا هناك. إلَّا أنَّ رُوث جلست عليه، وفرجت ساقيها كما لو كانت تمتطي فرسًا. أستحضر الآن تلك الصور الحيَّة التي استمرَّت عشر دقائق أو عشرين دقيقة ونحن ننتظر هناك. لم يأتِ أحد على ذكر «البديلة» بعد ذلك، بل تظاهرنا بأنَّنا نقضي هناك بعض الوقت، وربَّما نستمتع بمشاهدة منظر جذَّاب في موقع ما خلال رحلة نهارية بهيجة. قام رودني بخطوات راقصة تعبِّر عن شعوره بالسعادة، فوقف على الجدار محافظًا على توازنه، ثمَّ تعمَّد السقوط. أمَّا تومي، فكان يُلقي النكات عن بعض المارَّة، ومع أنَّها لم تكن تثير الضحك، فقد تضاحكنا جميعًا. ولكن رُوث، التي كانت تتربَّع في الوسط على الجدار، لزمت الصمت. هبَّت نسمة عليلة بعثرت شعرها. ظلَّت ترسم ابتسامة على وجهها، لكنَّها لم تتحرَّك إلَّا لمامًا، وشمس الشتاء المشرقة تدفعها إلى إغماض عينيها، فلا تعلم ما إذا كانت تبتسم إعجابًا بنكاتنا أو غيرها، أو أنَّ ملامحها انقبضت جرَّاء أشعَّة الشمس. هذه هي الصور التي حفظتها في ذاكرتي عن تلك اللحظات التي انتظرنا فيها في موقف السيارات ذاك. وأظنُّ أنَّنا كنَّا ننتظر من رُوث أن تقرِّر ما إذا كنَّا سنعود لإلقاء نظرة ثانية. لكنَّها لم تتَّخذ القرار بسبب ما حدث بعد ذلك.

ذلك أنَّ تومي، الذي كان يعبث مع رودني على الجدار، قفز فجأة إلى الأرض وثبت في مكانه. ثمَّ قال: «ها هي نفسها. إنَّها المرأة نفسها».

أوقفنا كلَّ ما كنَّا نفعله، وسدَّدنا نظراتنا على الشخص القادم من جهة المكتب. إنَّها الآن ترتدي معطفًا واقيًا بلون القشدة، وتحاول جاهدة أن تُحكم إقفال حقيبتها الصغيرة فيما هي تخطو إلى الأمام. أتعبها مشبك الحقيبة فتباطأت وكرَّرت المحاولة عدَّة مرَّات. واصلنا مراقبتها باستغراق فيما كانت تسير على الجانب الآخر. عندما تحوَّلت إلى الشارع الكبير، سارعت رُوث إلى النهوض، وقالت: «فلنذهب الآن لنعرف إلى أين ستتوجَّه».

خرجنا من حالة الاستغراق وانطلقنا في إثرها. الحقيقة أنَّ كريسي نبَّهتنا لضرورة التباطؤ لئلَّا يتوهَّم بعض الناس أنَّنا عصابة من العيَّارين، تتعقَّب تلك المرأة. تابعنا السير في الشارع الكبير على بُعد مسافة معقولة من المرأة، ونحن نتضاحك ونتمايل عند مرورنا إلى جانب السابلة الآخرين، ونتباعد ثمَّ نجتمع ثانية. ربَّما كانت الساعة الثانية آنذاك، وكان ثمَّة جمع حاشد من المتسوِّقين على الرصيف. اختفت عن أنظارنا أحيانًا، لكنَّنا تتبَّعناها. عندما تدخل أحد المتاجر، كنَّا نتسكَّع أمام الواجهات التي وضعت وراءها المعروضات. كانت عند خروجها من هذا المتجر أو ذاك تندسُّ بين العربات الصغيرة والمسنِّين.

ثمَّ انعطفت المرأة عند نقطة ما في الشارع الكبير إلى شبكة من الدروب الفرعية على مقربة من الشاطئ. ساور كريسي القلق من أنَّها ستتبيَّننا وتميِّزنا عن تلك الجمهرة من الناس، غير أنَّ رُوث واصلت سيرها، ومضينا في إثرها.

وصلنا بعد ذلك إلى شارع جانبي ضيِّق لم يكن فيه إلَّا عدد قليل من المتاجر، ولكنَّه كان، أساسًا، شارعًا سكنيًا عاديًا. كان علينا، مرَّة أخرى، أن نسير في طابور واحد في الشارع، وعندما تجيء حافلة من الاتجاه المعاكس، نكاد نلصق أجسادنا بجدران المنازل لنسمح لها بالمرور. بعد فترة قصيرة، لم يبق في الشارع بأكمله سوانا والمرأة، ولو نظرت إلى الوراء نظرة خاطفة، لكانت بالتأكيد قد لاحظت وجودنا. غير أنَّها واصلت السير، وتقدَّمتنا بنحو عشر خطوات، ثمَّ دخلت عبر أحد الأبواب إلى «ستديوهات بورتواي».

زرت هذا المكان عدَّة مرَّات منذ تلك الأيام. تغيَّر مالكوه قبل بضع سنوات، وصار الآن يبيع جميع أنواع التحف الفنِّية: الأصص، والأطباق، والحيوانات الصلصالية. في الماضي، كان يتكوَّن من حجرتين بيضاوين واسعتين، عُلِّقت فيهما اللوحات فقط- كانت ثمَّة مساحات واسعة بين كلِّ لوحة وأخرى. ما زالت اللافتة الخشبية معلَّقة فوق الباب كما كانت من قبل. وعلى أيِّ حال، قرَّرنا أن ندخل، لا سيَّما بعد أن نبَّهنا رودني إلى أنَّ منظرنا يثير الشبهات في ذلك الشارع الصغير الهادئ. كان بإمكاننا داخل الستديوهات أن نتظاهر على الأقلِّ بأنَّنا نتفرَّج على الصور.

عندما دخلنا، شاهدنا المرأة التي كنَّا نتابعها تتحدَّث إلى امرأة أخرى شيباء الشعر، أكبر منها سنًّا، يبدو أنَّها المشرفة على المكان. كانتا تجلسان على جانبي منضدة صغيرة على مقربة من الباب. كان المكان خاليًا إلَّا منهما. لم تُبدِ أيٌّ من المرأتين اهتمامًا بقدومنا عندما دخلنا وانتشرنا متظاهرين بأنَّنا مفتونون بالصور المعروضة.

الواقع أنني حتَّى مع انشغالي ببديلة رُوث، بدأت أستمتع باللوحات وبالهدوء الذي يعمُّ المكان. شعرت بأنَّنا ابتعدنا مائة ميل عن الشارع الكبير. كانت الجدران والسقوف بلون النعناع، وكنت ترى هنا وهناك قطعة من شبكة لصيد السمك، أو قطعة خشبية من أحد الزوارق وقد أصابها العفن وارتفعت فوق كورنيش السقف. كانت اللوحات، وأغلبها مرسوم بالزيت وباللونين الأزرق

والأخضر، تعبِّر عن موضوعات بَحريَّة. لم أكن الوحيدة التي ساورتها الأحلام في ذلك المكان، ربَّما كان السبب هو التعب الذي انتابنا فجأة- فنحن بدأنا الرحلة قبل الفجر- وتجوَّلنا في مختلف الزوايا، وأمعنَّا النظر في جميع الصور، واحدة بعد أخرى، ولم ندلِ إلَّا نادرًا، وبصوت هامس، بإحدى الملاحظات من نوع: «تعالوا وانظروا هنا!». كنَّا طوال الوقت نسمع بديلة رُوث والمرأة الشيباء الشعر تتكلَّمان وتواصلان الحديث بينهما، وأصواتهما تملأ المكان. كانتا تتناقشان حول رجل ما تعرَّفتا عليه، وكيف أنَّه لم يكن يعرف شيئًا عن أطفاله. فيما كنَّا نستمع إليهما، ونلقي نظرات خاطفة عليهما، بدأ التغيُّر في شيء ما، بالتدريج. بدأ التغيُّر معي أنا، ثم انتشر ليصيب الآخرين. لو كنَّا قد تركنا الأمر في اللحظة التي رأينا فيها المرأة من خلال زجاج مكتبها، وحتَّى لو تبعناها وأضعناها، لكان بوسعنا العودة إلى الأكواخ سعداء غانمين. ولكن المرأة كانت قريبة جدًّا هنا في هذا المعرض، وأقرب بما لا يقاس ممَّا أردنا بالفعل. وكلما واصلنا الاستماع إليها والتمعُّن فيها، فإنَّها تغدو أقلَّ شبهًا برُوث. كان هذا الإحساس هو الذي انتابنا جميعًا تقريبًا بصورة ملموسة، وشعرت بأنَّ رُوث، التي كانت تنظر مليًّا إلى إحدى الصور في إحدى الزوايا الأخرى في الحجرة، كان يراودها الإحساس نفسه كالآخرين. ربَّما كان ذلك هو السبب الذي دفعنا إلى التجوُّل في المعرض طويلًا، فقد كنَّا نرجئ اللحظة التي سنتحادث فيها.

فجأة، اختفت المرأة. بقينا واقفين حيث كنَّا، يتحاشى أحدنا النظر إلى الآخر. لكنَّ أحدًا منَّا لم يفكِّر في تعقُّب المرأة، وبدا بمرور الوقت أنَّنا متَّفقون على كيفية تعاملنا مع هذا الوضع.

بعد ذلك بقليل، ابتعدت السيِّدة الشيباء الشعر من وراء الطاولة وقالت لتومي، الأكثر قربًا منها: «هذا عمل رائع بصورة خاصَّة. إنَّه من الأعمال الأثيرة لديَّ».

استدار تومي نحوها وضحك. عندما سارعت إلى مساعدته، وإنقاذه من هذا الموقف، سألت السيِّدة: «هل أنتم من تلاميذ الفنون؟».

«ليس تمامًا»، قلت، قبل أن يردَّ تومي. «إنَّنا، حسنًا، مجرَّد متابعين مهتمِّين بالأمر».

ابتسمت السيِّدة، وأخذت تحدِّثنا عن أن الفنَّان الذي نشاهد عمله قريب الصلة بها، وتشرح لنا مساره الفنِّي حتَّى تلك اللحظة. أسهم ذلك، على الأقل، في كسر حاجز الصمت وحالة التأمُّل التي كنَّا نشعر بها، اجتمعنا حولها لنسمع المزيد، على النحو الذي كنَّا نفعله في هيلشام عندما يبدأ أحد الحرَّاس بالحديث معنا. شجَّعها ذلك على مواصلة الحديث، ونحن نومئ بالموافقة، ونبدي إعجابنا، بينما تشرح لنا أين رُسمت هذه اللوحات، وأوقات النهار التي يفضِّل الفنَّان أن يعمل فيها، وكيف أنَّ بعضها قد رُسم رأسًا من دون مسوَّدات أوَّلية سابقة. ثمَّ وصلت إلى خاتمة طبيعية لمحاضرتها تلك، فتنفَّسنا جميعًا الصعداء، وشكرناها، وخرجنا.

لم نستطع التحدُّث بصورة مناسبة ولوقت طويل في الشارع الضيِّق خارج المعرض، وأعتقد أنَّنا كنَّا ممتنِّين لذلك. فعندما ابتعدنا عن المعرض في طابور واحد، شاهدت رودني وهو يلوِّح بذراعيه في المقدِّمة بطريقة مسرحية، على نحو ما فعل بابتهاج عندما وصلنا إلى البلدة أوَّل الأمر. لكنَّ ذلك لم يكن دليلًا مقنعًا، وتوقَّفنا جميعًا حالما خرجنا إلى شارع أوسع.

عدنا، مرَّة أخرى، إلى حافَّة الجرف. مثلما حدث من قبل، إذا نظرت إلى أسفل من فوق السياج، بوسعك أن ترى الدروب المتعرِّجة الممتدَّة حتَّى شاطئ البحر، كما أنَّ بوسعك هذه المرَّة أن تشاهد ممشى التنزُّه هناك، وقد انتشرت فوقه أكشاك حافلة بأنواع الأطعمة.

أمضينا وقتًا قصيرًا في التنزُّه، والاستمتاع بالنسيم العليل. حاول رودني الاستمرار في حالته المرحة، كما لو أنَّه قرَّر أنَّ أيًّا من تلك الأمور لن يفسد عليه هذه النزهة. كان يلفت انتباه كريسي

إلى شيء ناء في البحر، قريب من الأفق، ولكنَّ كريسي تحوَّلت عنه، وقالت:
«حسنًا، أعتقد أنَّنا متَّفقون، أليس كذلك؟ إنَّها **ليست** رُوث». أطلقت ضحكة قصيرة، ووضعت يدها على كتف رُوث. «أنا آسفة. كلُّنا آسفون. لكن لا يمكننا لوم رودني بالفعل. لقد حاول، لكن محاولته لم يحالفها النجاح، عليك الاعتراف، عندما رأيناها من خلال تلك النوافذ، كانت»... وقطعت حديثها فجأة، ولمست كتف رُوث مرَّة أخرى.
لم تقل رُوث شيئًا، بل هزَّت كتفيها هزَّة خفيفة، كأنَّها تريد التخلُّص من تلك اللمسة. كانت تحدِّق إلى الفضاء البعيد، في السماء لا في مياه البحر. عرفت أنَّها كانت غاضبة، ولكن من لا يعرفونها كانوا سيظنُّون أنَّها مستغرقة في التفكير.
«أنا آسف يا رُوث»، قال رودني، وربَّت هو كذلك على كتف رُوث. ابتسم، كأنَّه لم يتوقَّع للحظة واحدة أن يُوجَّه له اللوم على أيِّ شيء. كان ذلك أشبه بأن يعتذر لك أحد الأشخاص لأنَّه حاول أن يعمل معروفًا معك، ولكن المحاولة لم تُكلَّل بالنجاح.
أثناء مراقبتي كريسي ورودني في تلك اللحظة، كنت أعتقد أنَّهما قاما بالتأكيد بالتصرُّف السليم. في الوقت نفسه، أتذكَّر شعوري بالسخط عليهما نيابة عن رُوث- رغم أنَّهما هما اللذان تولَّيا الحديث بينما التزمنا تومي وأنا الصمت. فرغم إظهار التعاطف، بدا إنَّهما شعرا بالارتياح وتنفَّسا الصعداء. شعر كلاهما في قرارة نفسه بالارتياح لأنَّ الأمور أفضت إلى تلك النهاية؛ ولأنَّهما الآن في وضع يمكِّنهما من مواساة رُوث، بدلًا من تركها وحيدة في أعقاب الضربة التي مُنيت بها آمالها. شعرا بالارتياح كذلك لأنَّهما لن يضطرَّا، بكلِّ ما تحمله الكلمة من دلالات، أن يتقبَّلا الفكرة التي كانت، بالنسبة لهما، مصدرًا للإعجاب والشكوى والخوف في آن معًا: إنَّها الفكرة القائلة بأنَّه كانت أمامنا، نحن تلاميذ هيلشام، جميع أنواع الفرص التي لم تكن متاحة لهما. أذكر أنَّني فكَّرت يومذاك بمقدار الاختلاف بيننا، كريسي ورودني من جهة، ونحن الثلاثة من جهة أخرى.
قال تومي بعد ذلك: «لا أرى الفرق الذي أحدثه ذلك. كان الأمر مجرَّد شيء عملناه للتسلية».
«ربَّما لتسليتك أنت يا تومي»، قالت رُوث ببرود، وهي ما زالت تحدِّق إلى الأمام. «لم تكن لتفكِّر على هذا النحو لو كنَّا نبحث عن '**بديلك**' أنت».
«أظنُّ أنَّني كنت سأفكِّر بهذه الطريقة»، قال تومي. «لا أرى الفرق حتَّى لو عثرت على 'بديلك'، والنموذج الذي صمَّموك على أساسه. حتَّى لو عثرت عليه، فإنني لا أرى الفرق أو الاختلاف من أيِّ شيء».
«أشكرك على مساهمتك العميقة يا تومي»، قالت رُوث.
«لكنَّني أعتقد أنَّ تومي على حقٍّ»، قلتُ، «من الحماقة الافتراض بأنَّكم ستحيون الحياة نفسها على غرار نموذجكم. أوافقك يا تومي. إنها تسلية ممتعة، ولا ينبغي أن نعاملها بشكل جدِّي».
مددت يدي أيضًا ولمست كتف رُوث. كنت أريد أن أشعر بالمقارنة مع الطريقة التي لامستها بها كريسي ورودني، فاخترت البقعة التي لمساها في الكتف نفسها. وتوقَّعت بعض الاستجابة منها، وإعطاء إشارة إلى أنَّها قد تفهَّمت موقفي وموقف تومي بطريقة مختلفة عمَّا فعلته مع القديمين، لكنَّها لم تفعل شيئًا على الإطلاق، ولا حتَّى هزَّة الكتف التي أعطتها لكريسي.
سمعت خلفي وقع خطوات رودني المسرعة التي تدلُّ على أنَّه أحسَّ بالبرد القارس مع هبوب الريح القاسية. «لمَ لا نزور مارتن الآن؟»، قال. «إنَّ شقَّته قريبة من هنا، خلف تلك البيوت».
تنهَّدت رُوث فجأة ثمَّ تحوَّلت إلينا، وقالت: «بصراحة. اعتقدت طوال الوقت أنها مزحة حمقاء».
«صحيح»، قال تومي بحرارة. «مجرَّد شيء للتسلية».

رمقته رُوث بنظرة تدلُّ على الامتعاض. «تومي أرجوك، اخرس وتوقّف عن الحديث عن 'التسلية'. لا أحد يسمعك». التفتت بعدها إلى كريسي ورودني، وقالت: «لم أقل شيئًا عندما حدَّثتماني أوَّل الأمر عن هذا الموضوع. ولكن حذارِ، فأنا التي صدَّقته. إنهم لا يلجؤون **على الإطلاق** إلى الاستعانة بأشخاص مثل تلك المرأة، فكِّرا في الأمر. لماذا تُقدم هي على ذلك؟ نعلم جميعًا بالأمر، فلماذا لا نواجه الحقيقة. نحن لم نُصنع على أساس ذلك النموذج»...

قاطعتها بحزم: «رُوث. لا تفعلي ذلك».

لكنَّها استمرَّت: «كلُّنا نعرف ذلك. نحن صُنعنا على أساس نموذج من **القمامة**. من الخردة، من المومسات، والسكارى، والمتسوِّلين، وربَّما المجرمين، الشرط الوحيد ألَّا يكونوا مختلِّين عقليًّا. لقد أتينا من هؤلاء. كلُّنا نعرف ذلك، فلماذا لا نعترف به؟ امرأة مثل تلك؟ دعونا من ذلك. صحيح يا تومي. قليل من التسلية. دعونا نتسلَّى عن طريق التظاهر بالتسلية. هذه المرأة الأخرى هناك، وصديقتها العجوز في المعرض، ظنَّت أنَّنا من تلاميذ الفنون. هل تعتقدون أنَّها كانت ستتحدَّث إلينا لو عرفت من نحن بالفعل؟ مستحيل. هل تعرف أن صديقتها كانت نموذجًا للاستنساخ ذات يوم. كانت ستطردنا إلى الخارج. نحن نعرف ذلك، ومن هنا يجدر بنا أن نعترف بذلك. وإذا أردتم الحصول على 'بدلاء'، فيجب أن تحصلوا على الشيء المناسب. انظروا في حوض **المرحاض**. فهذا هو المكان الذي جئنا منه جميعًا».

«رُوث»- كان صوت رودني ثابتًا ذا نبرة تحذيرية- «دعينا من ذلك، ولنذهب ونرَ مارتن. إنَّه لا يعمل بعد ظهر اليوم. ستحبِّينه. إنَّه شخص يثير الإعجاب».

وضعت كريسي ذراعها حول رُوث: «هيَّا يا رُوث. فلنفعل ما يقترحه رودني».

نهضت رُوث على قدميها وبدأ رودني بالتحرُّك.

«حسنًا، تستطيعون الذهاب، جميعًا»، قلت بهدوء. «أنا لن أذهب».

التفتت رُوث نحوي وحدَّقت إليَّ بعناية قائلة: «حسنًا. ماذا تعرفين؟ من هو الغاضب الآن؟».

«أنا لست غاضبة. ولكن أحيانًا يكون كلامك زبالة في زبالة يا رُوث».

«أوه. انظري الآن من هو الغاضب. مسكينة كاثي. أنَّها لا تحبُّ الصراحة على الإطلاق».

«لا علاقة لذلك بالموضوع. أنا لا أريد أن أزور أحد المرشدين. لا يُفترض فينا ذلك. ثم إنَّني لا أعرف هذا الرجل».

هزَّت رُوث كتفها وتبادلت النظرات مع كريسي. «حسنًا»، قالت، «لا سبب يدفعنا إلى أن نكون جماعة واحدة في جميع الأوقات. إذا كانت الآنسة الصغيرة لا تريد الانضمام إلينا فلها ما تريد. دعوها تعُدْ بمفردها». عندئذ مالت إلى كريسي، وقالت بصوت أقرب إلى الهمسة: «هذا هو الوقت الأفضل عندما تكون كاثي صافية المزاج. اتركيها فترة لتستعيد توازنها، وستكون بعدئذ بأفضل حال».

قال رودني لي: «كوني في السيَّارة بعد نحو أربع ساعات، وإلَّا سوف تضطرِّين إلى الركوب مجَّانًا مع أحد الأشخاص». عندئذ أطلق ضحكة، وقال: «هيَّا يا كاثي، لا تستائي، تعالي معنا».

«لا، اذهب أنت. لست راغبة في ذلك».

هزَّ رودني كتفيه وبدأ بالتحرُّك. لحقت به رُوث وكريسي. لكنَّ تومي بقي مكانه. لم يبدأ بالحديث إلَّا حين حدَّقت رُوث إليه:

«سأبقى مع كاث. إذا انفصلنا فإنَّني سأبقى مع كاث».

حملقت رُوث فيه بسخط. ثمَّ استدارت وانطلقت بخطى واسعة. نظرت كريسي ورودني إلى

تومي نظرة مرتبكة، ثم بدآ بالمشي مرَّة أخرى.

الفصل الخامس عشر

اتَّكأت مع تومي على السياج، وأمعنَّا النظر في المشهد الذي أمامنا، إلى أن اختفى الآخرون عن الأبصار.

«إنَّه مجرَّد كلام»، قال بعد ذلك. بعد برهة وجيزة أضاف: «إنَّه ما يقوله الناس عندما يتحسَّرون على ما آلوا إليه. مجرَّد كلام. الحرَّاس لم يخبرونا بشيء من ذلك على الإطلاق».

بدأت بالسير- بأسلوب معاكس لسير الآخرين- وأبقيت تومي على بُعد خطوة واحدة من جانبي.

«الأمر لا يستحقُّ الغضب»، أضاف تومي. «لقد درجت رُوث على القيام بهذه التصرُّفات. إنَّها تنفِّس عن همومها فحسب. على كلِّ حال، كما قلنا لها، لو كان كلامها صحيحًا، أرى أنَّه لن يُحدِث أيَّ فرق. إنَّ نماذجنا، بالشكل الذي كانت عليه، لا علاقة لنا بها يا كاث. إنَّها لا تستحقُّ أن تعكِّر مزاجنا».

«حسنًا»، قلت، وبصورة متعمَّدة صدمت كتفه بكتفي. «حسنًا، حسنًا».

تصوَّرت أنَّنا كنَّا نتَّجه صوب وسط البلدة، مع أنَّني لم أكن متأكِّدة من ذلك. كنت أحاول التفكير في طريقة لتغيير الموضوع، عندما بادر تومي بالقول:

«هل تذكرين عندما كنَّا في وولورث سابقًا؟ عندما كنتِ مع الآخرين في الخلف؟ لقد كنت أحاول العثور على شيء ما. شيء لك أنت».

«هديَّة؟»، نظرت إليه وقد تولَّتني المفاجأة. «لست متأكِّدة من أنَّ رُوث سترضى بذلك. إلَّا إذا قدَّمت لها هديَّة أكبر».

«هديَّة من نوع ما. لكنَّني لم أجدها. لم أشأ إبلاغك بذلك. سأجدها في فرصة أخرى. لكن عليك مساعدتي في ذلك. فأنا لا أُحسن التسوُّق».

«تومي، عمَّ تتحدث؟ تريد أن تقدِّم لي هديَّة، وتريد منِّي أن أختارها بنفسي»...

«لا. إنَّني أعرف ما هي. كلُّ ما في الأمر أنَّني»... ضحك وهزَّ كتفيه. «أوه، يجدر بي أن أخبرك الآن. في ذلك المتجر كان هناك رفٌّ وُضعت عليه أكداس من الأسطوانات والأشرطة. رحت أبحث عن الشريط الذي أضعتِه آنذاك. هل تذكَّرت ذلك يا كاث؟ لكنَّني لم أعد أتذكَّر شكله».

«شريطي؟ لم أدرِ على الإطلاق أنَّك كنت تعرف شيئًا عنه يا تومي».

«أوه، صحيح. لقد طلبت رُوث من الجميع أن يبحثوا عنه لأنَّك كنت غاضبة لفقدانه. لهذا حاولت العثور عليه. لم أخبرك يومذاك، لكنَّني بذلت قصارى الجهد في ذلك. واعتقدت أنَّ ثمَّة أماكن لا تستطيعين الوصول إليها. مثل منامة الأولاد أو ما إلى ذلك. أذكر أنَّني بحثت عنه طويلًا، ولكن لم أعثر عليه».

ألقيت عليه نظرة خاطفة، وشعرت بأنَّ مشاعر الغيظ التي كانت تعتمل في نفسي قد تبخَّرت. «لم أعلم بذلك أبدًا يا تومي. كانت تلك خطوة لطيفة من جانبك».

«حسنًا، لم تنجح المحاولة. لكنَّني أردت بالفعل أن أعثر عليه من أجلك. عندما أحسست آخر الأمر أنَّ ذاك الشريط لن يظهر، قلت في نفسي إنَّني سأتوجَّه ذات يوم إلى نورفولك وسأعثر عليه لأجلها».

«البقعة الضائعة في إنجلترا»، قلت، ونظرت حولي. «وها نحن هنا الآن!».
نظر تومي حوله، ثمَّ توقَّفنا. كنَّا في شارع جانبيٍّ آخر، ليس ضيِّقا كشارع المعرض. وللحظة قصيرة، كنَّا نتطلَّع حولنا بشكل مسرحي، ثمَّ رحنا نقهقه.
«إذن لم تكن الفكرة غبيَّة إلى هذا الحدِّ»، قال تومي. «إنَّ متجر وولورث ذاك كان يحتوي في ذلك الوقت على جميع تلك الأشرطة، فحسبت أنَّ شريطك سيكون بينها. لكن لا أعتقد أنَّهم احتفظوا به».
«لا **تعتقد** أنَّهم احتفظوا به؟ آه يا تومي، تعني أنَّك لم تبحث عنه بما فيه الكفاية!».
«بحثت يا كاث. كلُّ ما في الأمر أنَّني منزعج فعلًا، لأنَّني لم أتذكَّر اسم الشريط. في تلك الأيَّام في هيلشام، كنت أنقِّب في صناديق المقتنيات الخاصَّة بالأولاد جميعها، ولكنَّني لا أتذكَّرها الآن. كانت تغنِّيها جولي بريدجز أو شيء من هذا القبيل»...
«جودي بريدجووتر. **أغنيات ما بعد الظلام**».
هزَّ تومي رأسه بوقار، «إنَّهم بالتأكيد لم يحتفظوا بهذا الشريط».
ضحكت ونخست ذراعه. بدا عليه الذهول، فقلت: «تومي، لن يحتفظوا بشيء مثل هذا في وولورث. فهم يبيعون الصرعات الأخيرة الحديثة العهد. وجودي بريدجووتر اختفت منذ عهد بعيد. لكنَّها برزت فجأة في أحد عروض المبيعات عندنا. لن تعرض في وولورث أيُّها الغبي!».
«حسنًا، كما قلت، لا أعلم الكثير عن مثل هذه الأمور. لكن لديهم أعدادًا ضخمة من الأشرطة»...
«لا يحتفظون هنا إلَّا **ببعض** الأشرطة يا تومي. آه، ما علينا. كان لطيفًا منك أن تفكِّر بذلك. وكان له أعمق الأثر في نفسي. وها هي نورفولك على أيِّ حال».
استأنفنا السير، قال تومي بلهجة متردِّدة: «حسنًا، هذا هو السبب الذي دفعني إلى إبلاغك بالأمر، كنت أريد مفاجأتك، ولكنَّ ذلك لم يجدِ نفعًا. لا أعرف أين أبحث، لم أعرف حتَّى اسم الشريط، وبما أنَّني أخبرتك الآن بالأمر، فإنَّ بوسعك مساعدتي ويمكننا أن نبحث عنه سويًا».
«تومي، عمَّ تتحدَّث؟». حاولت أن أنحو عليه باللائمة، ولكن لم أتمالك نفسي من الضحك.
«لا بأس. أمامنا نحو ساعة من الزمن. وهذه فرصة حقيقية».
«تومي، أيُّها الغبي. أنت تصدِّق ذلك، صحيح؟ هذه الحكايات عن البقعة الضائعة».
«لا أؤمن بها بالضرورة، ولكن بوسعنا أن نبحث الآن طالما أنَّنا وصلنا هنا. ما أعنيه هو أنَّك مرَّة أخرى تسعين للعثور عليه، أليس كذلك؟ ما الذي سنخسره على أيِّ حال؟».
«ممتاز، أنت غبيٌّ تمامًا. ولكن لا بأس».
بسط ذراعيه بيأس. «حسنًا يا كاث، إلى أين سنتوجَّه الآن؟ فأنا كما قلت، لا أحسن التسوُّق».
«علينا أن نبحث في متاجر الأدوات المستعملة»، قلت بعد لحظات من التفكير. «المتاجر المملوءة بالملابس القديمة، والكتب القديمة. فهم يحتفظون أحيانًا بصناديق مملوءة بالأشرطة والأسطوانات».
«حسنًا، ولكن أين هذه المتاجر؟».
عندما أسترجع تلك اللحظة الآن، وأنا أقف مع تومي في ذلك الشارع الفرعي الصغير، ونحن نوشك على بدء عملية البحث، أشعر بالدفء يغمرني. كان كلُّ شيء يبدو كاملًا. أمامنا ساعة كاملة، وما من وسيلة أفضل لقضائها. لم أتمالك نفسي بالفعل من الضحك بغباء، أو القفز صعودًا وهبوطًا على الرصيف كصبيٍّ صغير. قبل وقت قصير، عندما كنت أقوم بإرشاد تومي، وأثرت

موضوع رحلتنا إلى نورفولك، قال لي إنَّه أحسَّ بالشعور نفسه. لحظة قرَّرنا الذهاب للبحث عن شريطي الضائع بدا الأمر وكأنَّ جميع السحب قد تبدَّدت، ولا شيء يمنعنا من الاستمتاع والضحك.

في البداية، ضللنا الطريق وتنقَّلنا في عدد من الأماكن الخطأ: مكتبات للكتب المستعملة، أو متاجر مملوءة بالمكانس الكهربائية القديمة، ولكن لا أثر فيها على الإطلاق لما له علاقة بالموسيقى. بعد قليل، قرَّر تومي أنَّ معرفته أوسع من معرفتي، وأنَّه هو الذي سيكون الدليل. من حسن الحظِّ بالفعل، اكتشف على الفور شارعًا يضمُّ أربعة متاجر، في صفٍّ واحد تقريبًا، من النوع الذي نريده. وقد عرضت وراء واجهاتها الأمامية تشكيلة واسعة من الملابس، والحقائب اليدوية، ومجلَّات الأطفال السنوية. عندما تدخل المتجر تشمُّ رائحة حلوة خفيفة. كانت هناك أكوام من الكتب المجعدة ذات الأغلفة الورقية، والصناديق المغبرة المليئة بالبطاقات البريدية والخردوات. وكان هناك متجر متخصِّص بالأشياء التي تهمُّ الهِبِّيين، بينما يحتوي متجر آخر على ميداليات الحرب وصور الجنود في الصحراء. لكن كان في كلٍّ منها صندوق كرتوني أو اثنان يضمَّان أسطوانات كبيرة وأشرطة كاسيت. عكفنا على التنقيب في تلك المتاجر الأربعة، وبصراحة، فإنَّنا بعد عدَّة دقائق لم نعد نهتمُّ بأمر جودي بريدجووتر. استمتعنا للغاية بالخوض في جميع هذه الأشياء؛ كنَّا نفترق أحيانًا ثمَّ نلتقي ونجد أنفسنا جنبًا إلى جنب، وربَّما نتنافس على صندوق مليء بتحف الزينة في إحدى الزوايا المغبرة المكشوفة التي لوَّحتها أشعَّة الشمس.

أخيرًا، وجدتها بالطبع. كنت أحرِّك حزمة من علب الكاسيت، وأفكاري منصرفة إلى أمور أخرى، عندما عثرت عليها، تحت أصابعي، بالهيئة نفسها التي كانت عليها طوال تلك السنوات: جودي، وسيجارتها، ونظرة الغنج التي توجِّهها إلى ساقي الحانة، والنخلات الباهتة اللون في الخلفية.

لم يأخذني العجب، مثلما كان يأخذني عندما أعثر على أشياء أخرى أثارت في نفسي قدرًا أقلَّ من الحماسة. وقفت هناك من دون حراك، وأنا أحدِّق إلى العلبة البلاستيكية، غير متأكِّدة من أنَّني كنت سعيدة بالعثور عليها أم غير ذلك، بل بدا، للحظة واحدة، أنَّ ذلك حدث بطريق الخطأ. كان الشريط هو المسبِّب الرئيسي لكلِّ هذا الابتهاج، وبما أنَّنا عثرنا عليه، توجَّب علينا التخلُّص من ذاك الشعور. فوجئت بأنَّ ذلك ربَّما السبب الذي دفعني إلى التزام الصمت أوَّل الأمر؛ وإلى إنكار مشاهدتي له. ها هو الآن أمام ناظريَّ، وهذا الشريط يُشعرني بحرج غامض، كأنَّه شيء كان عليَّ التخلُّص منه قبل زمن. بلغ الأمر حدًّا دفعني بالفعل إلى تحريك الشريط بحيث تغطِّيه الأشرطة المجاورة له. لكنَّه ظلَّ ماثلًا للعيان، فاستدعيت تومي آخر الأمر.

«هل هذا هو الشريط؟»، سأل وكأنَّه بالفعل يشكُّ في ذلك، ربَّما لأنَّني لم أُثِر المزيد من الضجيج. رفعته وأمسكته بكلتا يديَّ. ثمَّ فجأة، شعرت بموجة غامرة من الفرح- وبشيء آخر، شيء أكثر تعقيدًا، إلى حدِّ دفعي بأن أشرق بدموعي. لكنِّي ضبطت مشاعري ولمست ذراع تومي.

«بلى، إنَّه هو»، قلت، وابتسمت بانشراح للمرَّة الأولى. «هل تصدِّق ذلك؟ لقد وجدناه بالفعل!».

«هل تعتقدين أنَّه هو نفسه؟ أعني الشريط الحقيقي. الشريط الذي أضعته؟».

فيما كنت أقلِّبه بين أصابعي، أدركت أنَّ بوسعي تذكُّر تفاصيل التصميم المرسومة على الوجه الآخر للعلبة، وأسماء الأغاني المسجَّلة، وجميع الأمور الأخرى.

«ربَّما كان كذلك، على حدِّ علمي، ولكن عليَّ إخبارك يا تومي أنَّه قد يتوفَّر الآلاف من أمثاله في كلِّ مكان».

بدأت عندئذ ألاحظ أنَّ تومي لم يكن يشعر بالفوز بصورة كافية.

«تومي، لا يبدو أنَّك تشاركني سعادتي بذلك»، قلت بصوت تغلب عليه روح المزاح.

«**إنَّني سعيد جدًّا** لك يا كاث. كلُّ ما في الأمر، حسنًا، أنَّني كنت أتمنَّى أن أعثر عليه أنا». أطلق ضحكة خفيفة، وأضاف: «في الماضي، عندما أضعتِ الشريط، فكَّرت كثيرًا في الأمر، وراودتني الخواطر، كيف ستكون الأمور لو أنَّني أنا الذي عثرت عليه وأحضرته لك. وماذا كنت ستقولين، وكيف ستكون ملامح وجهك، وجميع تلك الأشياء».

كان صوته أرقَّ من عادته، وركَّز بصره على العلبة البلاستيكية في يدي. فجأة، أدركت أنَّنا كنَّا الوحيدين في المتجر، باستثناء الرجل المسنِّ وراء منضدة المحاسبة، الذي كان منشغلًا بأوراقه. كنَّا في الركن الخلفي من المتجر، على منصَّة معتمة ومنعزلة، وكأنَّ الرجل العجوز لم يكن مهتمًّا بالخردوات الموجودة في منطقتنا وطردها من ذهنه. لعدَّة ثوانٍ، ظلَّ تومي في حالة أقرب إلى الذهول يتفكَّر في إحدى الحكايات التي كان سيرويها لو أنَّه هو الذي أعاد ذلك الشريط. على حين غرَّة، اختطف العلبة من يدي.

«حسنًا. أستطيع الآن أن **أبتاعه** لك»، قال وهو يبتسم، وقبل أن أستطيع إيقافه، كان قد بدأ التوجُّه نحو المنضدة الأمامية.

واصلت التجوُّل واستطلاع المعروضات في مؤخِّرة المتجر، بينما كان الرجل العجوز يبحث عن الشريط لإتمام عملية الشراء. كنت ما أزال أحسُّ بالحسرة البالغة على أنَّنا عثرنا عليه بهذه السرعة. لم أفرح لحصولنا على الشريط- والأغنية- مجدَّدًا إلَّا في وقت لاحق بعد عودتنا إلى الأكواخ، وكنت في حجرتي بمفردي. حتَّى في ذلك الوقت، كان أداة حنين أساسية. واليوم، عندما أُخرج الشريط وأنظر إليه، فإنَّه يُعيد لي ذكريات تلك الظهيرة في نورفولك بحذافيرها، مثلما تعيدها أيَّامنا في هيلشام.

***

عندما خرجنا من المتجر، كنت حريصة على استعادة حياتي المزاجية الخالية من الهموم وشبه الساذجة التي كنتُ عليها قبل ذلك. لكن عندما أُلقيت عدَّة نكات، بقي تومي مستغرقًا في تأمُّلاته، ولم تبدر عنه أيَّة استجابة.

بدأنا بصعود الطريق التي ترتفع ارتفاعًا حادًّا، شاهدنا- ربَّما على بُعد مائة ياردة بعدها- مشهدًا طبيعيًا على حافَّة الجرف تطلُّ منه المقاعد الطويلة على البحر. يمكن أن يكون في الصيف موقعًا مثاليًا ترتاده عائلة عادية، وتجلس فيه، وتتناول وجبة مخصَّصة للنزهة. وجدنا أنفسنا الآن، على الرغم من الريح القارسة، نتوجَّه نحو ذلك الموقع صعودًا، ولكن عندما أوشكنا على بلوغه، تباطأ تومي، وقال لي:

«كريسي ورودني، يبدو أنَّهما مهووسان بالفعل بتلك الفكرة. أنت تعرفين ما أعنيه، تلك الفكرة عن الأشخاص الذين يستطيعون إرجاء تبرُّعاتهم إذا كانوا متحابّين فعلًا، وهما مقتنعان بأنَّنا نعرف ذلك، ولكن لم يحدِّثنا أيُّ شخص عن ذلك في هيلشام. على الأقل لم أسمع بذلك أبدًا، فهل كنت تعرفين ذلك يا كاث؟ لا، إنَّه مجرَّد إشاعة تداولها القدامى في الآونة الأخيرة. ويقوم آخرون مثل رُوث بترويجها».

نظرت إليه بتركيز. لكن كان من الصعب تحديد إن قال تلك الكلمات بقصد الإيذاء أم للإعراب عن الاشمئزاز. لاحظت على أيِّ حال أنَّ باله مشغول بأمر آخر لا علاقة له برُوث. لذلك لم أقل شيئًا، بل انتظرت. بعدئذ توقَّف تمامًا وبدأ يركل كوبًا ورقيًا مهشَّمًا على الأرض.

«في الواقع يا كاث، فكَّرت في الموضوع جيِّدًا. أعتقد أنَّنا على صواب. فلم يجرِ الحديث حول

هذا الأمر عندما كنَّا في هيلشام. لكن كانت هناك أمور كثيرة لا معنى لها. أعتقد أنَّ هذه الإشاعة، إذا كانت صحيحة، تفسِّر الكثير. تفسِّر أمورًا كانت تبلبل أفكارنا».

«ماذا تقصد؟ وما هي تلك الأمور؟».

«المعرض، على سبيل المثال». خفض تومي صوته واقتربت منه، كما لو كنَّا ما زلنا في هيلشام نتحادث ونحن ننتظر دورنا في طابور العشاء أو إلى جانب البركة. «لم نفهم الأمر تمامًا على الإطلاق، ولم نعرف الهدف من ذلك المعرض، ولماذا كانت المدام تأخذ أفضل الأعمال. تذكرين يا كاث الوقت الذي كان الجميع يتحدَّثون فيه عن القسائم والكوبونات؟ وهل كانوا سيأخذونها أم سيستبدلونها بأشياء أخذتها المدام؟ وكيف ذهب روي ج. لمقابلة الآنسة إيميلي حول هذا الموضوع؟ حسنًا. كان ثمَّة شيء قالته الآنسة إيميلي آنذاك، شيء أدلت به، وهو ما دفعني إلى التفكير».

مرَّت بنا امرأتان تقودان كلبين. مع أنَّ ذلك كان سلوكًا بمنتهى الغباء، فقد توقَّفنا عن الحديث إلى أن تجاوزتانا على المنحدر الشديد الارتفاع، بحيث لا تسمعان ما نقول. ثمَّ قلت:

«أيُّ شيء يا تومي؟ ما الذي قالته الآنسة إيميلي؟».

«عندما سألها روي ج. لماذا تأخذ المدام أعمالنا معها. هل تذكرين ما كان من المفترض أن تقوله؟».

«أذكر أنَّها قالت إنَّ ذلك يعتبر من الامتيازات، وأنَّ علينا أن نفتخر»...

«لم يقتصر الأمر على ذلك»، انخفض صوت تومي إلى ما يشبه الهمس، «ما قالته لروي، وزلَّ به لسانها، ولم تكن تريد زلَّة اللسان تلك، هل تتذكَّرينه يا كاث؟ لقد أبلغت روي أنَّ الصور، والشعر وجميع هذه الأشياء **إنَّما تكشف عمَّا يدور في أعماقك**. قالت إنَّها تعبِّر عن **روحك**».

عندما قال ذلك، تذكَّرت إحدى الرسوم التي صوَّرت لورا فيها ذات يوم أمعاءها. ضحكت لذلك، ولكنَّ شيئًا آخر كان يتردَّد في خاطري.

«هذا صحيح»، قلت. «أذكر ذلك. ما الذي كنت تريد قوله إذن؟».

«ما أعتقده»، قال تومي ببطء، «هو ما يلي. لنفترض أنَّ ما يقوله القدامى صحيح. لنفترض أنَّه صحيح. لنفترض أنَّ بعض الترتيبات قد **اتُّخذت** بالنسبة لتلاميذ هيلشام. نفترض أنَّ شخصين قالا إنَّهما حبيبان بالفعل، ويريدان قضاء وقت إضافي معًا، فلا بدَّ يا كاث من توفُّر وسيلة ما لإثبات أنَّ ما يقولانه هو الحقيقة، وأنَّهما لا يقولان ذلك بقصد تأجيل التبرُّع فقط. هل تدركين مدى الصعوبة لتقرير ذلك؟ لنفترض كذلك أنَّ شخصين قد يعتقدان بالفعل أنَّ ما يجمعهما هو الحبُّ، وليس ممارسة الجنس. ليس نزوة عابرة. سيكون تقدير الوضع عندئذ في منتهى الصعوبة، وقد يغدو من المستحيل تقرير صحَّة ذلك كلَّ مرَّة. لكن المهمَّ هو أنَّهما يحتاجان إلى **ما يثبت** ذلك».

أومأت ببطء. «إذن هذا هو السبب لاستحواذهم على أعمالنا الفنِّية»...

«ربَّما. لدى المدام معرض لأعمال التلاميذ منذ طفولتهم. افترضي أنَّ شخصين أعلنا ذات يوم أنَّهما متحابَّان. بوسعها أن تراجع الأعمال الفنِّية التي قاما بها على مدى سنوات. تستطيع أن تتأكَّد من أنَّهما متوافقان، ومنسجمان أحدهما مع الآخر. ولا تنسي يا كاث أنَّ ما تملكه من أعمالنا يكشف أرواحنا. بوسعها أن تقرِّر بنفسها، وتميِّز بين التوافق التامِّ والنزوات الحمقاء».

تباطأت في السير مرَّة أخرى، بالكاد أنظر إلى الأمام. تباطأ تومي كذلك وهو ينتظر ردِّي.

«لست متأكِّدة من ذلك»، قلت أخيرًا. «ما تقوله قد يفسِّر بالتأكيد سلوك الآنسة إيميلي، وما قالته لروي. أظنُّ كذلك أنَّه يفسِّر لماذا كان الحرَّاس يؤكِّدون أهمِّية قدرتنا على الرسم وما إلى ذلك».

«تمامًا. ولهذا السبب»... تنهَّد تومي وواصل حديثه ببعض الجهد، «لهذا السبب اضطرَّت

الآنسة لوسي إلى الاعتراف بأنَّها أخطأت عندما أبلغتني بعدم أهمِّية ذلك. وقد قالت ذلك لأنَّها كانت تأسف لحالتي آنذاك. لكنَّها كانت في أعماقها تدرك مدى أهمِّيته بالفعل. كونك من هيلشام يعني أنَّ هذه الفرصة الخاصَّة كانت متاحة لك. وإذا لم تُعرض أعمالك في معرض المدام، تكون قد فوَّتَّ تلك الفرصة».

عندما قال ذلك، أدركت فجأة وقد أصابتني قشعريرة حقيقية، ما سيفضي إليه ذلك الحديث. فوقفت، واستدرت نحوه، ولكن تومي ضحك قبل أن يبدأ.

«إذا صحَّ فهمي للأمر، حسنًا، فإنَّ ذلك يعني أنَّني قد فوَّتُّ تلك الفرصة المتاحة لي».

«تومي، هل عُرض شيء من أعمالك **فعلًا** في المعرض؟ ربَّما كان ذلك في فترة طفولتك؟».

كان قد بدأ يهزُّ رأسه. «تعرفين كم كنت فاشلًا يومذاك. هناك كذلك تلك المشكلة مع الآنسة لوسي. أعلم أنَّ نواياها كانت حسنة. شعرت بالأسف تجاهي، وكانت تريد مساعدتي. وأنا متأكِّد أنَّها كانت كذلك. لكن إذا صحَّت نظريَّتي، فإنَّها»...

«إنَّها مجرَّد نظريَّة لا أكثر يا تومي. أنت تعلم معنى النظريات».

أردت تلطيف الأمور قليلًا، ولكن لم أستخدم اللهجة المناسبة، وكان من الواضح أنَّني ما زلت أفكِّر جدِّيًا بما قاله قبل قليل. «ربَّما تكون لديهم عدَّة وسائل للحكم على الموضوع». قلت بعد لحظات. «ربَّما كان الفنُّ من جملة أمور متعدِّدة أخرى، مجرَّد واحد من العناصر».

هزَّ تومي رأسه مرَّة أخرى. «مثل ماذا؟ إنَّ المدام لم تحاول معرفتنا إطلاقًا. لم تتذكَّرنا كأفراد. ومن جهة أخرى، قد لا تكون المدام هي الوحيدة التي تصدر القرار. ربَّما كان هناك أشخاص أعلى منها رتبة، أشخاص لم تطأ أقدامهم أرض هيلشام بتاتًا. فكَّرت في هذا الموضوع كثيرًا يا كاث. الأمر مفهوم الآن. فالمعرض كان مهمًّا جدًّا لهذا السبب. ولهذا السبب أيضًا أراد الحرَّاس منَّا أن نشتغل بجدٍّ على أعمالنا الفنِّية وعلى قصائدنا. كاث، فيمَ تفكِّرين؟».

من المؤكَّد أنَّني شردت. الواقع أنَّني كنت أفكِّر في عصر ذلك اليوم الذي كنت فيه بمفردي في منامتنا أشغِّل الشريط الذي عثرنا عليه للتوِّ؛ وكنت أتمايل يمنة ويسرة، وقد ضممت وسادة إلى صدري، وتذكَّرت كيف كانت المدام ترمقني من البوابة وعيناها دامعتنا. حتَّى تلك الحادثة، التي لم أجد لها تفسيرًا مقنعًا، يبدو أنَّها تنسجم مع نظريَّة تومي. تخيَّلت أنَّني أحتضن طفلًا، ولكن لم يكن بوسع المدام أن تعرف ذلك بطبيعة الحال. لا بَّد من أنَّها افترضت أنَّني أضمُّ عشيقًا بين ذراعيَّ. فإذا كانت نظريَّة تومي صحيحة، وإذا كانت المدام قد أقامت تلك العلاقة معنا لغرض وحيد هو إرجاء تبرُّعاتنا عندما نقع في الغرام لاحقًا، سيكون ذلك أمرًا مفهومًا رغم برودة موقفها تجاهنا- ولا بدَّ من أنَّها كانت ستتأثَّر بالفعل إذا شاهدتنا في مثل هذا الوضع. تزاحمت كلُّ هذه الخواطر في رأسي، وكنت على وشك الإفصاح عنها لتومي. لكنَّني أرجأت ذلك لأنَّني أردت الآن أن أقلِّل من أهمِّية نظريَّته.

«كنت أفكِّر في كلامك، هذا كلُّ ما في الأمر»، قلت. «علينا أن نعود الآن. فالعثور على موقف السيَّارة قد يستغرق بعض الوقت».

بدأنا بالعودة نزولًا نحو الوجهة التي أتينا منها، ولكن لم نسرع الخطى، لأنَّ لدينا متَّسعًا من الوقت.

«تومي»، سألته بعد أن سرنا مسافة لا بأس بها. «هل فاتحت رُوث بشيء من ذلك؟».

هزَّ رأسه وواصل السير. بعد قليل قال: «المهمُّ هو أنَّ رُوث تؤمن بذلك كلِّه، بكلِّ ما يقوله القدامى. حسنًا، إنَّها تدَّعي دائمًا أنَّ ما تعرفه أكثر بكثير ممَّا تتحدَّث عنه. لكنَّها تؤمن بذلك فعلًا.

وسوف تتمادى في الأمر، آجلًا أم عاجلًا».
«هل تعني أنَّها... أنَّها سوف»...
«نعم. ستقدِّم طلبًا بذلك. لكنَّها لم تدرس الموضوع بجميع وجوهه بعد. ليس على النحو الذي فعلناه للتوِّ».
«ألم تطلعها أبدًا على نظريَّتك حول المعرض؟».
هزَّ رأسه ثانية، ولم يقل شيئًا.
«إذا أطلعتها على نظريَّتك»، قلت، «وإذا قبلت بها... حسنًا، سوف تستشيط غضبًا».
كان تومي مستغرقًا بالتفكير على ما يبدو، فلم يقل شيئًا. لم يستأنف الحديث إلَّا عند وصولنا إلى الدروب الفرعية نهاية الشارع، وغلب على صوته الارتباك بصورة مفاجئة.
«الواقع يا كاث»، قال، «لقد **فعلت** عدَّة أشياء. من باب الاحتياط. ولم أخبر أحدًا بذلك، حتَّى رُوث. إنَّها مجرَّد بداية».
كانت تلك المرَّة الأولى التي أسمع فيها شيئًا عن حيواناته المتخيَّلة. عندما بدأ بوصف ما كان يفعله- ولم أشاهد شيئًا في الحقيقة إلَّا بعد عدَّة أسابيع- فقد كان من الصعب عليَّ أن أُظهر اهتمامًا كبيرًا. ينبغي الاعتراف في الواقع أنَّ ذلك أعاد إلى ذاكرتي صورة الفيل الواقف على العشب الذي أثار جميع المتاعب لتومي في هيلشام. استلهم الموضوع، كما أوضح لي، من أحد كتب الأطفال القديمة الذي ضاع غلافه الخلفي. وقد عثر عليه خلف إحدى الأرائك في أحد الأكواخ. وأقنع كيفرز وقتذاك بإعطائه أحد دفاتر الملاحظات السوداء الذي خربش في صفحاته تلك الأشكال. ومنذ ذلك اليوم، أنجز تومي عشرات على الأقل من تلك الكائنات الرائعة.
«الملاحظ هنا أنَّني رسمتها صغيرة بالفعل، بل ضئيلة. لم يخطر ذلك ببالي في هيلشام. أظنُّ أنَّني أخطأت في ذلك. فإذا كنت قد رسمتها بحجم ضئيل، وكان لا بدَّ من ذلك نظرًا إلى أنَّ مساحة الصفحات ضيِّقة، فإنَّ كلَّ شيء يتغيَّر، وكأنَّ الحياة تدبُّ فيها من تلقاء نفسها. عليك عندئذ أن ترسمي وتضيفي التفاصيل المختلفة إليها. وعليك أن تفكِّري في الكيفية التي توفِّر بها الحماية لنفسها، أو تتناول الأشياء. بصراحة يا كاثي، إنَّها لا تماثل أيَّ شيء قمت به في هيلشام».
بدأ بوصف الرسوم المفضَّلة لديه، لكنَّني لم أستطع التركيز بالفعل؛ فقد كان إحساسي بالقلق يتزايد مع تصاعد حماسته في الحديث عن حيواناته. كنت أريد أن أقول له: «ستجعل من نفسك أضحوكة أمام الآخرين مرَّة أخرى يا تومي. حيوانات متخيَّلة؟ ماذا حدث لك؟». لكنَّني لم أفعل، بل نظرت إليه بحذر، وواصلت حديثي: «هذا شيء جميل بالفعل يا تومي».
ثمَّ قال بعد قليل: «كما قلت لك سابقًا يا كاث، رُوث لا تعرف شيئًا عن الحيوانات». عندما قال ذلك، بدا كأنَّه تذكَّر كلَّ الأمور الأخرى، والسبب الذي دعانا إلى التحدُّث عن حيواناته أساسًا. ثمَّ هدأت ملامحه ولزم الصمت. سرنا صامتين مرَّة أخرى، وعندما بلغنا الشارع الكبير قلت:
«حسنًا، حتَّى لو كانت نظريَّتك صحيحة يا تومي، يجب أن نعرف الكثير من الأمور الأخرى. منها، مثلًا، كيف يقدِّم الحبيبان الطلب؟ وماذا يفترض أن يفعلا؟ وهل توجد نماذج يُفترض تعبئها بالمعلومات».
«فكَّرت بجميع هذه الأمور كذلك». قال بلهجة هادئة ورصينة مرَّة أخرى. «على حدِّ علمي، من الواضح أنَّ هناك وسيلة واحدة لا مفرَّ منها، وهي العثور على المدام».
فكَّرت في الأمر، وقلت: «قد لا يكون ذلك أمرًا سهلًا. فنحن لا نعرف شيئًا عنها في الواقع. بل إنَّنا لا نعرف حتَّى اسمها. تذكَّر كيف كانت؟ لم تكن تريد حتَّى أن نقترب منها. وإنْ استطعنا

الوصول إليها، أعتقد أنَّها لن تساعدنا».

تنهَّد تومي. «أعرف ذلك»، قال. «لا بأس، أعتقد أنَّ لدينا متَّسعًا من الوقت. ولسنا في عجلة من أمرنا».

***

عندما وصلنا إلى موقف السيَّارة وقت الظهر، كانت السحب قد انتشرت في الجوِّ، ومال الطقس إلى البرودة. لم يكن ثمَّة دليل على وجود أشخاص آخرين غيرنا، فاستندنا إلى السيَّارة، ونظرنا إلى ملعب الغولف الصغير. لم يكن هناك لاعبون، وكانت الرايات ترفرف مع هبوب الريح. لم أرغب في معاودة الحديث عن المدام، أو المعرض، أو أيٍّ من الأمور الأخرى، لهذا أخرجت شريط جودي بريدجووتر من حقيبته الصغيرة، وتأمَّلته مليًّا.

«شكرًا لأنَّك اشتريته لي»، قلت.

ابتسم تومي. «لو وصلتُ إلى صندوق الأشرطة، وكنتِ أنتِ في ركن الأسطوانات لكنت أنا الذي وجدته أوَّلًا. لكن الحظَّ لم يحالف تومي المسكين».

«لا فرق بين هذا وذاك، عثرنا عليه لأنَّك أنت الذي طلبت البحث عنه. لقد نسيتُ تمامًا حكاية 'البقعة الضائعة'. وبعد أن تغيَّرت أحوال رُوث، تعكَّر مزاجي. جودي بريدجووتر. صديقتي القديمة. كأنَّها لم تبتعد عنِّي أبدًا. وأتساءل دائمًا عمَّن سرقها آنذاك».

نظرنا إلى الشارع برهة من الزمن بحثًا عن الآخرين.

«تعلمين»، قال تومي، «عندما قالت رُوث ما قالته سابقًا، ولاحظت أنَّك كنت في غاية الانزعاج»...

«دعك من هذا يا تومي. ارتحت من هذا الموضوع الآن، ولن أثيره معها عندما تعود».

«لا، لم أقصد ذلك». أزاح جسمه عن هيكل السيَّارة واستدار، ثمَّ وضع قدمه على العجلة الأمامية كأنَّه يختبرها. «ما قصدته هو أنَّني عندما أثارت رُوث هذه الأمور كلَّها، أدركت لماذا واصلتِ الاطِّلاع على تلك المجلَّات الإباحية. حسنًا، لم **أدرك**. إنَّها مجرَّد نظريَّة. إحدى نظريَّاتي. ولكن عندما قالت رُوث ما قالته قبل ذلك، أدركت الأمر فورًا».

عرفت أنَّه كان ينظر إليَّ، ولكنَّني وجَّهت نظري إلى الأمام، ولم أقم بأيِّ ردٍّ.

«لكنِّي ما زلت عاجزًا عن فهم الموضوع يا كاث»، قال بعد قليل. «حتَّى لو كان ما قالته رُوث صحيحًا، وأعتقد أنَّه ليس كذلك، فلماذا كنت تبحثين في المجلَّات الإباحية القديمة عن بديلك أنت؟ ولماذا تصوَّرت أنَّ نموذجك يمكن أن يكون إحدى تلك الفتيات؟».

هززت كتفيَّ من دون أن أنظر إليه. «لا أزعم أنَّ ذلك كان يعني شيئًا محدَّدًا. إنَّه واحد من الأشياء التي أمارسها فقط». دمعت عيناي تلك اللحظة، فحاولت إخفاءهما عن تومي. تهدَّج صوتي عندما قلت: «إذا كان ذلك يزعجك، فلن أفعل مرَّة أخرى».

لا أعلم ما إذا كان تومي قد شاهد دموعي. لكنَّني على أيِّ حال كنت قد استعدت توازني عندما اقترب منِّي وضمَّني. كان يفعل ذلك معي عدَّة مرَّات في الماضي، ولكن لم يكن لهذا التصرُّف لمسة خاصَّة أو جديدة. أحسست وقتذاك بالارتياح، وندت عنِّي ضحكة قصيرة.

ابتعد عنِّي بعدئذ، ولكن ظللنا شبه متلامسين، جنبًا إلى جنب، وقد استند ظهرانا إلى السيَّارة.

«بلى، لم يكن لها أيُّ معنى»، قلت. «لكنَّنا كنَّا نمارس ذلك، أليس كذلك؟ كنَّا نتساءل جميعًا حول نموذجنا. هذا هو ما دفعنا إلى المجيء هنا اليوم. كلُّنا نفعل ذلك».

«لم أخبر أحدًا بالأمر كما تعلمين يا كاث. عن تلك اللحظة في كوخ الغلَّايات. لا أحد. ولا حتَّى

رُوث. لكن ما زلت عاجزًا عن فهم الموضوع. لا أفهم ما يدلُّ عليه».

«لا بأس يا تومي. سأشرح لك. قد لا يعني لك شيئًا بعد سماعه، لكنَّك ستسمعه في جميع الحالات. أحيانًا، ومرَّة بعد أخرى، تراودني تلك المشاعر القويَّة عندما أرغب في ممارسة الجنس. وهي تسيطر عليَّ أحيانًا لمدَّة ساعة أو ساعتين، وتبعث الخوف في نفسي. كلُّ ما أعرفه أنِّي قد أمارسه آخر الأمر مع العجوز كيفرز، وذلك وضع سيِّئ للغاية. لهذا السبب... لهذا السبب وحده مارسته مع هيووي، ومع أوليفر. لم يكن لهذا معنى في أعماق نفسي. بل إنَّني لم أكن راغبة فيه إلى حدٍّ بعيد. لا أعرف ما هو، لكنَّه يثير فيَّ المخاوف عندما ينتهي. لهذا السبب بدأت أفكِّر، بأنَّه يصدر من مكان ما. لا بدَّ من أنَّ لذلك علاقة بطبيعة شخصيَّتي». توقَّفت عن الحديث، ولكنَّ تومي لم ينبس بكلمة، فأردفت قائلة: «لهذا ظننت أنَّني إذا وجدت صورتها، في إحدى تلك المجلَّات، فقد يساعد ذلك على تفسير الوضع على الأقل. لم يكن ذلك يعني أنَّني تعمَّدت الذهاب للعثور عليها أو أي شيء من هذا القبيل. كلُّ ما في الأمر أنَّ ذلك، كما تعلم، سيفسِّر لماذا أنا في هذا الوضع».

قال تومي: «ذلك هو ما يحدث لي أحيانًا عندما أشعر برغبة فعلية في ممارسته. أعتقد أنَّ هذا ما يحسُّ به الجميع. إذا كانوا صادقين مع أنفسهم. لا أظنُّ أنَّك تختلفين عن الآخرين في ذلك يا كاث. الحقيقة أنَّني كثيرًا ما أمرُّ في مثل هذه الحالة»... توقَّف عن الحديث ثمَّ ضحك، لكنَّني لم أضحك معه.

«ما أتحدَّث عنه شيء مختلف»، قلت. «راقبت أشخاصًا آخرين. ربَّما تنتابهم تلك الحالة المزاجية، لكن ذلك لا يعني أنَّهم سيفعلونها. هم لا يفعلون أبدًا ما فعلته، ولا يمارسونه مع أمثال هيووي»...

ربَّما شرعت في البكاء مرَّة أخرى، لأنَّني شعرت بذراع تومي تحيط بكتفي. رغم انزعاجي، أدركت تمامًا أين كنَّا، وتصوَّرت أنَّه إذا وصلت رُوث والآخرَين إلى الشارع، وشاهدونا في تلك اللحظة، فلن يكون ثمَّة مجال لسوء الفهم. كنَّا نقف جنبًا إلى جنب، مستندَين إلى السيَّارة، سيلاحظون أنَّني كنت منزعجة لسبب ما، وأنَّ تومي يواسيني. عندئذ سمعته يقول:

«لا أعتقد أنَّ الوضع سيِّئ إلى هذا الحدِّ بالضرورة، فحالما تصادفين شخصًا ما يا كاث، شخصًا ترغبين فعلًا في أن تكوني معه، فقد يكون ذلك هو الوضع السليم. هل تذكرين ما كان الحرَّاس يقولونه لنا؟ إذا حدث ذلك مع الشخص المناسب، فسيكون ذلك هو الوضع الصحيح».

حرَّكت كتفي لأُبعد ذراع تومي عنِّي، ثمَّ التقطت أنفاسي. «فلننسَ الموضوع. وعلى أيِّ حال، أستطيع السيطرة على تلك الحالات المزاجية عندما تحدث. دعنا من هذا الموضوع».

«كما تشائين يا كاث، من السخف تصفُّح تلك المجلَّات».

«إنَّها حماقة بالتأكيد. تومي، لنترك الموضوع جانبًا. أنا على ما يرام الآن».

لا أتذكَّر ما تحدَّثنا عنه من موضوعات أخرى إلى أن جاء الآخرون. لم نناقش أيًّا من تلك المواضيع الجدِّية. وكأن الآخرين أحسُّوا أنَّ ذيول حديثنا ما زالت معلَّقة، فإنَّهم لم يُدلوا بأيِّ تعليق عليه. كانت روحهم المعنوية عالية، وبدت رُوث، بصورة خاصَّة، مصمِّمة على التعويض عن الأجواء السيِّئة السابقة. اقتربت منِّي وربَّتت على خدِّي، وأطلقت نكتة أو اثنتين، وعندما ركبنا في السيَّارة، حرصت على استمرار هذه الأجواء المرحة. تعمَّدت هي وتريسي أن تسترجعا وترويا كلَّ الحكايات المضحكة عن مارتن، وتقهقها بصوت عال وتتذكَّرا بصورة حميمة الوقت الذي أمضوه في شقَّته. لم يوافق رودني على ذلك فيما يبدو. أدركت أنَّ رُوث وكريسي تبالغان في الحديث عن تلك المسألة لإغاظته. لكن ذلك كلَّه كان يدور في جوٍّ بهيج. لكنَّني لاحظت أنَّه بينما كانت رُوث

تحاول في الماضي الحرص على أن تحجب عن تومي وعنِّي جميع النكات والإشارات خلال رحلتنا، فإنَّها راحت في طريق العودة تلتفت إليَّ، وتشرح بعناية كلَّ ما كانوا يتحدَّثون عنه. الحقيقة أنَّ ذلك كان مثيرًا للتعب بعد حين، إذ بدا أنَّ كلَّ ما يقال في السيَّارة كان لإفادتنا- ولإفادتي- بصورة خاصَّة. ولكنَّني سررت لأنَّ رُوث قد أثارت تلك الضجَّة. فهمت- مثلما فهم تومي- أنَّها أدركت سوء تصرُّفها من قبل، وأنَّ ذلك كان اعترافًا منها بالخطأ، كانت تجلس بيننا نحن الاثنين مثلما فعلت خلال الجزء الأوَّل من الرحلة، إلَّا أنَّها أمضت كلَّ وقتها في الحديث معي هذه المرَّة، وكانت تميل أحيانًا إلى الجانب الآخر لتضمَّ تومي ضمَّة خفيفة أو تعطيه قبلة خاطفة. كانت الأجواء طيِّبة، ولم يأتِ أحد على ذكر بديلة رُوث أو شيء من هذا القبيل. كما أنَّني لم أذكر شيئًا عن شريط جودي بريدجووتر الذي أحضره تومي لي. عرفت أنَّها ستكتشف الأمر عاجلًا أم آجلًا، لكنَّني لم أكن أريد أن تعرف عن الموضوع آنذاك. خلال رحلة العودة إلى البيت، وفيما العتمة تخيِّم على الطُرق الخالية، شعرت بأنَّنا، نحن الثلاثة قد تقاربنا مرَّة أخرى، ولم أرغب بتعكير هذا الجوِّ.

الفصل السادس عشر

الغريب في أمر رحلتنا إلى نورفولك أنَّنا قلَّما تحدَّثنا عنها بعد عودتنا منها. لبعض الوقت انتشرت شتَّى الإشاعات حول هدفنا منها. ومع ذلك، التزمنا الصمت، إلى أن فقد الناس اهتمامهم بالموضوع.

لست متأكِّدة حتَّى الآن لِمَ حدث ذلك. ربَّما لأنَّنا شعرنا بأنَّ الأمر متروك لرُوث، ولتقديرها لحجم ما سيقال، كنَّا ننتظر الإيعاز منها. أمَّا رُوث، فقد التزمت الصمت المطبق حول الموضوع لسبب أو لآخر، فربَّما كانت تشعر بالحرج إزاء ما آلت إليه الأمور بالنسبة لـ «بديلتها»، أو تستمتع بالأجواء المشوبة بالغموض. حتَّى فيما بيننا، تحاشينا الحديث عن الرحلة.

ساعدت أجواء السرِّية على امتناعي عن إبلاغ رُوث أنَّ تومي قد اشترى لي شريط جودي بريدجووتر. لم يصل الأمر إلى درجة إخفاء الشريط بالفعل. فقد كان دائمًا هناك في مجموعتي، في أحد الأكوام إلى جانب مجموعة من الزخارف. لكنِّي حرصت دائمًا ألَّا أتركه مكشوفًا أو على قمَّة أحد الأكوام. مرَّت لحظات أحسست فيها بالحاجة الماسَّة إلى إبلاغها، وذلك عندما كنت أريد أن نستعيد ذكريات هيلشام مع تشغيل الشريط في الخلفية. لكن كلما ابتعدنا عن موضوع الرحلة إلى نورفولك من دون أن أفضي السرِّ، كلَّما ازداد شعوري بالإثم. بطبيعة الحال، اكتشفت الشريط في وقت لاحق، وربَّما حدث ذلك في أسوأ الأوقات، لكن هذه هي الطريق التي يلعب بها الحظُّ أحيانًا.

عندما أطلَّ الربيع، تزايد عدد القدامى الذين يغادرون المكان ليبدأوا تدريبهم: ومع أنَّهم غادروا دونما ضجيج كما جرت العادة، فإنَّ أعدادهم المتزايدة جعلت تجاهلهم من المستحيلات. لا أعرف ما شعرنا به يومذاك ونحن نشاهدهم يغادرون. أظنُّ أنَّنا إلى حدٍّ ما، كنَّا نحسد المغادرين. فقد أحسسنا بأنَّهم يتوجَّهون إلى عالم أكبر وأكثر إثارة. لكنَّ مغادرتهم، بطبيعة الحال، زادت من دون شكٍّ شعورنا بعدم الاستقرار.

ثمَّ إنَّ أليس ف.، وأظنُّ أن ذلك حدث في أواسط أبريل/نيسان، كانت أوَّل المغادرين من مجموعتنا في هيلشام، ولحق بها بعد قليل غوردون س. وقد طلب كلاهما بدء التدريب، وغادرا مع ابتسامة عريضة على وجه كليهما. لكنَّ الأجواء في الأكواخ، بالنسبة لمجموعتنا، تغيَّرت إلى الأبد.

يبدو أنَّ كثيرًا من القدامى تأثَّروا كذلك بتعاظم معدَّل المغادرات، وربَّما كان من النتائج المباشرة لذلك، انتشار موجة من الإشاعات من النوع الذي تحدَّثت عنه كريسي ورودني في نورفولك. تردَّدت الأقاويل عن أنَّ بعض التلاميذ، في أمكنة أخرى من البلاد، قد حصلوا على الإرجاءات لأنَّهم أثبتوا أنَّهم عشَّاق. هؤلاء، في تلك الحالة، لم تكن لهم علاقة بهيلشام. هنا أيضًا، ابتعدنا نحن الخمسة الذين زرنا نورفولك، عن هذا الموضوع. بل إنَّ كريسي ورودني اللذين كانا ذات يوم محور الحديث، كانا يرتبكان ويتجنَّبان الموضوع إذا سمعا إحدى تلك الإشاعات.

بل إنَّ «آثار نورفولك» أصابتني أنا وتومي كذلك. فقد افترضت أنَّنا بعد عودتنا ستتوفَّر لدينا الفرصة، عندما نكون وحدنا، لتبادل الأفكار حول نظريَّته عن المعرض. لكن ذلك لم يحدث، لسبب ما، لا علاقة له به أو بي. أظنُّ أنَّ الاستثناء الوحيد كان في «بيت الإوزِّ»، في صباح اليوم الذي أراني فيه حيواناته المتخيَّلة.

***

كانت الحظيرة التي أسميناها «بيت الإوزّ» تقع على أحد الهوامش الخارجية للأكواخ. لم تُستخدم لأيِّ غرض، إلَّا كمكان يلتقي فيه العشَّاق خلال الأشهر الدافئة، لأنَّ الأمطار كانت تتسرَّب من سقف الحظيرة بغزارة، كما أنَّ مفاصل الباب كانت مخلَّعة دائمًا. كنت يومذاك قد بدأت القيام بمشاوير طويلة بمفردي. أعتقد أنَّني كنت أمرُّ إلى جانب «بيت الإوزّ» ذات يوم، عندما سمعت تومي يناديني. استدرت ورأيته يقف مرتبكًا، حافي القدمين على بقعة جافَّة من الأرض، تحيط به برك موحلة واسعة، وقد استند إلى حائط الحظيرة للمحافظة على توازنه.

«ماذا حدث لجزمتك يا تومي؟»، سألت. بالإضافة إلى قدميه الحافيتين، فإنَّه كان يرتدي سترته السميكة وبنطاله الجينز كعادته.

«كنت، كما ترين، **أرسم**»... وضحك. رفع بيده دفتر ملاحظات أسود، مثل الدفاتر التي كان كيفرز يحملها معه دائمًا أينما ذهب. كان ذلك بعد أكثر من شهرين على رحلة نورفولك، لكنَّني عرفت ما يريده عندما رأيت الدفتر. فانتظرت حتَّى قال:

«سأريك إيَّاه يا كاث، إذا شئت».

اقتادني إلى داخل بيت الإوزّ، وهو يتقافز فوق الأرض المثلمة. كنت أتوقَّع أن تكون الحظيرة معتمة في الداخل، لكن أشعَّة الشمس كانت تغمر المكان. تكدَّست أمام أحد الجدران خلال العام الماضي أكوام من قطع الأثاث المتنوِّعة- طاولات مكسَّرة، ثلَّاجات قديمة، وما إلى ذلك. بدا أنَّ تومي قد جرَّ إلى منتصف الأرضية كرسيًّا طويلًا يتَّسع لشخصين، وقد برزت الحشوة من ثقوب في غطائه البلاستيكي، وأعتقد أنَّه كان يرسم وهو جالس عليه عندما مررت به. على مقربة منَّا، كانت جزمته مرمية على الأرض وجارباه الخاصَّان بلعبة كرة القدم مقلوبين على الجهة الداخلية.

عاد تومي إلى الجلوس على الكرسي، وراح يعالج إبهامه. «أنا آسف. قدماي تؤلمانني قليلًا. خلعت كلَّ شيء من دون أن أدرك ذلك، لا بدَّ من أنَّني مصاب بجرح هنا. هل تريدين مشاهدة هذه اللوحات الآن؟ لقد شاهدتها رُوث في الأسبوع الماضي، وكنت منذئذ أعتزم أن أطلعك عليها. لم يرها أحد باستثناء رُوث. انظري يا كاث».

كانت تلك هي المرَّة الأولى التي أرى فيها حيواناته. عندما حدَّثني عنها في نورفولك، تصوَّرت أنَّها صور مصغَّرة عن تلك التي كنَّا نرسمها في طفولتنا. لهذا دُهشت لكثرة التفاصيل في كلٍّ منها. الواقع أنَّ التعرُّف عليها كحيوانات استغرق بعض الوقت. فقد كان الانطباع الأوَّل شبيهًا بما قد يتولَّد عندك إذا نزعت غطاء جهاز الراديو: قنوات صغيرة، وأوتار متموِّجة، وحزمة من البراغي والدواليب المصغَّرة المرسومة بدقَّة متناهية. لا تستطيع أن تتعرَّف على ما في الصفحة سواء كان حيوان الأرماديلو أو العصفور مثلًا إلَّا إذا رفعتها بعيدًا عنك.

«هذا هو كتابي الثاني»، قال تومي. «لن يرى الكتابَ الأوَّل أيُّ شخص. بذلت كثيرًا من الوقت لمواصلة العمل فيه».

استلقى على الكرسي وهو يغطِّي قدمه بأحد الجوارب، ويحاول الحديث بنوع من عدم الاكتراث، لكنَّني أدركت أنَّه كان ينتظر ردًّا من جانبي. مع ذلك، لم أبادر بالثناء على عمله بعبارات صادقة. ربَّما كان السبب، جزئيًا، هو خوفي من أن تُوقعه بعض أعماله الفنِّية في متاعب جديدة. ثمَّ إنَّ ما رأيته يومذاك كان مختلفًا تمامًا عمَّا درَّبنا الحرَّاس في هيلشام على عمله، فلم أستطع بالتالي تقييمه. قلت ما معناه:

«يا إلهي، لا بدَّ أنَّ ذلك يتطلَّب الكثير من التركيز يا تومي. إنَّني أتعجَّب كيف استطعت أن ترى

بوضوح وترسم تلك التفاصيل الدقيقة». فيما كنت أقلِّب الصفحات، وربَّما لأنَّني كنت أبحث بصعوبة عن العبارة المناسبة، قلت بتلقائية: «ترى، ما الذي ستقوله المدام عندما تشاهد هذه الأشكال؟».

قلت ذلك بما يشبه المزاح. ردَّ تومي بعبارة ساخرة قصيرة، ولكن كان في الجو شيء جديد لم يكن موجودًا من قبل. واصلت تقليب صفحات الكتاب- الذي كان ربعه مزيَّنًا بالأشكال- من دون أن أرفع بصري إليه. ليتني لم آتِ على ذكر المدام إطلاقًا. أخيرًا سمعته يقول:

«أعتقد أنَّ عليَّ أن أتحسَّن كثيرًا قبل أن ترى أيًّا من هذه الرسوم».

لست متأكِّدة ممَّا إذا كان يوعز لي أن أتحدَّث عن جمال تلك الرسوم، لكنَّني كنت وقتذاك مأخوذة بحقٍّ بتلك الكائنات المذهلة أمام ناظريَّ. فبالإضافة إلى ملامحها المعبِّرة الحادَّة، كان في كلٍّ منها لمسة حلوة، بل كسيرة. تذكَّرت أنَّه قال لي في نورفولك، إنَّ القلق ساوره حول قدرتها على حماية نفسها أو على التقاط الأشياء. عندما نظرت إليها الآن، انتابتني الهواجس نفسها. مع ذلك، ولسبب لم أسبر غوره، فإنَّ شيئًا ما منعني من الإشادة بما رأيت، ثمَّ قال تومي:

«مهما يكن من أمر، فإنَّني لا أرسم الحيوانات لهذا الغرض فحسب، بل لأنَّني أحبُّ أن أرسمها. تساءلت يا كاث عمَّا إذا كان عليَّ أن أحافظ على هذا السرِّ. أرى أنَّه لا بأس من أن يعرف الناس أنَّني أقوم بتلك الأشياء. ما زالت هانا ترسم بالألوان، وكثير من القدامى يعملون أشياء مشابهة. لا يعني ذلك أنني سأتجوَّل هنا وهناك لكي **أعرض** أعمالي على الجميع. لكنَّني كنت أفكِّر، حسنًا، بأنَّه ليس هناك ما يدعوني إلى التستُّر على ذلك بعد اليوم».

تمكَّنت أخيرًا من النظر إليه، وقلت ببعض الاقتناع: «تومي، ليس هناك من سبب، أي سبب على الإطلاق لذلك. إنَّها جيِّدة بالفعل. جيِّدة بالفعل. الحقيقة أنه إذا كان ذلك هو السبب في إخفائك لها، فهذا يدلُّ على الغباء بالفعل».

لم يعطِ تومي أيَّ جواب، لكنَّ مسحة من البشاشة علت قسماته، وكأنَّه كان يستمتع بنكتة سمعها، وعرفت أنَّني أسعدته كثيرًا بما قلت. لا أعتقد أنَّنا تحادثنا كثيرًا بعد ذلك. أظنُّه انتعل بعد وقت قصير جزمته وتركنا «بيت الإوزِّ». كانت تلك، كما أسلفت، هي المرَّة الوحيدة التي تطرَّقت فيها معه إلى نظريَّته في ذلك الربيع.

ثمَّ أقبل الصيف، بعد عام واحد من وصولنا إلى هنا. جاءت دفعة جديدة في حافلة صغيرة، مثلما أتينا نحن، ولكن لم يكن أحد منهم من هيلشام. تنفَّسنا الصعداء لذلك: لقد كان يساورنا القلق من أنَّ وصول دفعة جديدة من هيلشام سيزيد من تعقيد الأمر. لكن بالنسبة لي على الأقل، كان عدم قدوم مجموعة جديدة من هيلشام يشعرني بأنَّ هيلشام كانت من ذكريات الماضي السحيق، وأنَّ الروابط التي كانت تربطنا بالجيل القديم آخذة بالاهتراء. لم يكن الأمر فقط أنَّ أشخاصًا مثل هانا باتوا يتحدَّثون دائمًا عن الاقتداء بأليس والبدء بالتدريب؛ بل إنَّ آخرين، مثل لورا، قد وجدوا عشَّاقًا من خارج هيلشام، بحيث يمكنك أن تنسى أية علاقة ربطتهم بنا.

كانت هناك أيضًا نقطة أخرى هي ما تزعمه رُوث من أنَّها تنسى كثيرًا من الأمور عن هيلشام. صحيح أنَّ أكثرها كان أمورًا تافهة، ولكنَّ ذلك قد زاد من انزعاجي منها. فعلى سبيل المثال، كنَّا نجلس ذات يوم حول طاولة المطبخ بعد إفطار طويل، رُوث وأنا وبعض القدامى، وكان أحد القدامى يتحدَّث عن أنَّ تناول الجبن في المساء يؤدِّي دائمًا إلى إصابتك بالأرق، فاستدرت وقلت لرُوث شيئًا مفاده: «هل تذكرين كيف أنَّ الآنسة جيرالدين كانت تحدِّثنا عن ذلك دائمًا؟»، وكان ذلك مسألة تافهة لم تستحقَّ من رُوث أكثر من ابتسامة أو إيماءة، لكنَّها حدَّقت إليَّ بنظرة لا معنى

لها، كما لو كانت خالية الذهن من أيَّة إشارة إلى ما أقوله. لم تومئ رُوث بنظرة عابسة إلّا عندما ذكرت للقدامى كلمة «أحد حرَّاسنا»، على سبيل التوضيح، وكأنَّها تذكَّرت الموضوع في تلك اللحظة فقط.

تساهلت معها في تلك المرَّة، ولكني لم أفعل في مناسبة أخرى، حين كنَّا ذات أمسية نجلس في موقف الشاحنة المتهالك. غضبت يومذاك لأنَّ هناك فرقًا بين أن نقوم بتلك اللعبة أمام القدامى من جهة؛ وعندما نكون وحدنا، نتحدَّث في موضوع مهمٍّ. كنت قد أشرت، عرضًا، إلى أنَّ الطريق المختصر إلى البركة في هيلشام عبر شجيرات الراوند كان من المحظورات. عندما بدت في عينيها تلك النظرة الحائرة، تركت النقطة التي كنت أحاول إيضاحها، وقلت: «رُوث، مستحيل أن تكوني قد نسيت ذلك. لا تتصرَّفي معي على هذا النحو».

لو لم أوبِّخها بهذا الأسلوب الجارح- ولو اعتبرتُ الأمر مجرَّد نكتة مرَّت بسلام، وواصلت حديثي- فربَّما كانت ستدرك تفاهة الموضوع وتضحك. لكن، لأنَّني كنت قاسية معها على هذا النحو، حملقت فيَّ وقالت:

«ما أهمِّية ذلك على أيِّ حال؟ وما علاقة شجيرات الراوند بهذا كلِّه؟ عليك مواصلة الحديث من دون تلك الإشارات».

تأخَّر الوقت، وأوشكت تلك الأمسية الصيفية على الانتهاء، وانتشرت العفونة والرطوبة في موقف الشاحنة المتآكل بعد العاصفة الرعدية الأخيرة. لذلك لم أرغب في مناقشة ما إذا كان الموضوع مهمًّا أو غير ذلك. مع أنَّني أوقفت الحديث عن تلك المسألة، وواصلت مناقشة الأمر الذي كنَّا بصدده، فقد سيطرت البرودة على الجوِّ، ولم يساعدنا ذلك على حلِّ القضيَّة المهمَّة التي كانت بين أيدينا.

لكن، لشرح المسألة التي كنَّا نتحدَّث عنها تلك الأمسية، لا بدَّ من العودة قليلًا إلى الوراء. وعليَّ في الواقع أن أعود إلى الوراء عدَّة أسابيع. فقد كنت على علاقة غرامية مع أحد القدامى، وهو ولد يُدعى ليني، وهي كانت، بصراحة علاقة جنسية أساسًا. لكنَّه قرَّر فجأة أن يبدأ تدريبه، وغادر. كدَّرني ذلك قليلًا، لكن رُوث كانت في غاية الطيبة والحنوِّ معي، وأشرفت على رعايتي من دون أن تُحدث أيَّة ضجَّة، وكانت مستعدَّة دائمًا لإشاعة المرح في نفسي عندما تبدو عليَّ الكآبة. كما كانت تتفضَّل عليَّ بكثير من الأمور، مثل إعداد الساندويتشات لي، أو تحلَّ محلِّي في جدول التنظيفات.

بعد أسبوعين من رحيل ليني، كنت أجلس مع رُوث في غرفتي في العلِّية بعد منتصف الليل نشرب الشاي وندردش، وأضحكتني بالفعل فيما يتعلَّق بليني. فهو لم يكن شخصًا سيِّئًا، ولكن حالما بدأت بإبلاغ رُوث ببعض التفاصيل الحميمية عنه، حتَّى بدا كلُّ ما يتعلَّق به مثيرًا للابتهاج، وبقينا نضحك ونضحك. في إحدى اللحظات، أخذت رُوث تلامس بأحد أصابعها صفوف الكاسيتات المرتَّبة على أحد الرفوف، وقد فعلت ذلك كما لو كانت شاردة الذهن، لكنَّني شككت لاحقًا في أنَّ ذلك لم يحدث بالصدفة إطلاقًا؛ وأنَّها لاحظت الكاسيتات هنا ربَّما قبل ذلك بعدَّة أيَّام، وربَّما فحصتها للتأكُّد من الأمر، ثمَّ انتظرت الوقت المناسب «للعثور عليها». بعد ذلك بسنوات، ألمحت بلطف إلى ذلك في حديث مع رُوث، ولكن لم تكن تعلم على ما يبدو ما كنت أتحدَّث عنه، وربَّما أخطأت في ذلك. على أيِّ حال، كنَّا آنذاك نضحك ونضحك كلَّما ذكرت ملاحظة تفصيلية أخرى عن ليني المسكين. ثمَّ انقطع الحديث عنه نهائيًا، كما لو كان مصباحًا انقطع عنه التيَّار الكهربائي. بعد فترة صمت طويلة، قالت:

«مرَّة أخرى، منذ متى حصلت عليه؟».
شرحت لها بلهجة محايدة قدر المستطاع، أنَّني عثرت عليه مع تومي بينما كانت هي مع الآخرَين في مكان آخر، فأخذت تتفحَّصه، ثمَّ قالت:
«إذن فإنَّ تومي هو الذي عثر عليه».
«لا، أنا رأيته، أنا رأيته أوَّلًا».
«لم يخبرني أيٌّ منكما بذلك»، هزَّت كتفها، «حتَّى لو كنتِ أوَّل من رآه، فإنَّني على الأقل لم أسمع بذلك على الإطلاق».
«حكاية نورفولك كانت صحيحة»، قلت. «أنت تعرفين ذلك، حكاية 'البقعة الضائعة' في إنجلترا».
خُيِّل لي أنَّ رُوث ستزعم أنَّها لا تتذكَّر تلك الإشارة، لكنَّها أومأت بما معناه أنَّها تذكَّرت ذلك.
«لا بدَّ من أنَّني أتذكَّر ذلك»، قالت. «ربَّما كنت سأعثر على وشاحي الأحمر يومذاك».
ضحكنا كلانا، وبدا أنَّ عدم الارتياح قد زال. لكن، كان ثمَّة شيء في الأسلوب الذي أعادت به الشريط إلى موضعه من دون أن تواصل الحديث عنه. دفعني ذلك إلى الاعتقاد أنَّ الأمر لم ينته بعد.
لا أعلم ما إذا كانت المحادثة التي جرت بعد ذلك قد تأثَّرت بما اكتشفته رُوث، أو أنَّنا كنَّا نتحرَّك في هذا الاتجاه بكلِّ الأحوال، لكنَّ رُوث تمكَّنت لاحقًا من أن تقودها كما تشاء. عدنا إلى مناقشة موضوع ليني وبصورة خاصَّة أمور كثيرة عن طريقة ممارسته العلاقة الحميمة، وشرعنا نضحك مرَّة أخرى. عند تلك النقطة، تولَّاني الارتياح كما أعتقد لأنَّها وجدت الشريط آخر الأمر، ولم تُثِر ضجَّة كبيرة حول الموضوع، وربَّما لم أكن شديدة التركيز كما يجدر بي. فقد تحوَّلنا بعد وقت قصير من التضاحك حول ليني إلى التضاحك حول تومي. كنَّا، في البداية، نتصرَّف بشكل تلقائي، وكأنَّنا شغوفتان به، لكنَّنا بدأنا بعد ذلك بالضحك على حيواناته.
كما أسلفت، فإنَّني لم أكن على الإطلاق متأكِّدة من أنَّ رُوث أدارت الحديث إلى تلك الوجهة. للإنصاف، لست متأكِّدة من أنَّها هي التي أثارت مسألة الحيوانات أوَّل الأمر. لكنِّي بدأت أضحك مثلها، عندما تحدَّثنا حول أنَّ واحدًا من تلك الحيوانات كان، فيما يبدو، يرتدي سروالًا تحتيًا، وأنَّ حيوانًا آخر كان مستوحى من هيئة قنفذ مسحوق. أظنُّ أنَّه كان يجدر بي التنويه بجودة رسوم الحيوانات تلك، وبالجهود الطيِّبة التي بذلها تومي ليبلغ هذا المستوى من الأداء في رسمها. لكنَّني لم أفعل. كان ذلك يعود جزئيًا إلى الشريط، وربَّما، إذا شئنا الصراحة، إلى أنَّني كنت مسرورة بفكرة أنَّ رُوث لم تأخذ الحيوانات على محمل الجدِّ، وكل ما ينطوي عليه ذلك. أظنُّ أنَّنا افترقنا تلك الليلة متقاربتين أكثر من أيِّ وقت مضى. فقد ربَّتت على خدِّي عند خروجها قائلة: «إنَّه لشيء جميل أن تكوني يا كاثي قادرة على المحافظة على روحك المعنوية دائمًا».
لذلك، فإنَّني لم أكن مستعدَّة لما حدث في ساحة الكنيسة بعد ذلك بأيَّام. فقد اكتشفت رُوث في ذلك الصيف كنيسة قديمة جميلة تبعد نحو نصف ميل عن الأكواخ، وتمتدُّ خلفها مساحات برزت فيها شواهد القبور القديمة التي تتخلَّلها الحشائش. كان كلُّ شيء هناك يتَّسم بالضخامة. لكنَّ السلام هيمن على تلك البقعة، وقد اعتادت رُوث على مزاولة الجانب الأكبر من القراءة والمطالعة هناك، على مقربة من الأسيجة الخلفية، وعلى أريكة تحت إحدى أشجار الصفصاف.
لم أحرص أوَّل الأمر على تلك التطوُّرات، وتذكَّرت كيف كنَّا في الصيف الفائت نجلس معًا على الحشائش خلف الأكواخ. وعلى أيِّ حال فإنَّني إذا سرت في ذلك الاتِّجاه خلال نزهاتي، وعرفت أنَّ

رُوث قد تكون هناك، سأدخل من البوَّابة الخشبية السفلية ثمَّ ترسلني الطريق المعشوشبة إلى جانب شواهد القبور. بعد ظهر ذلك اليوم، كان الطقس دافئًا والأحوال هادئة، ونزلت من ذلك الطريق، في حالة مزاجية حالمة، وأنا أقرأ الأسماء على الشواهد عندما لم أرَ رُوث فقط، بل تومي أيضًا، على المقعد الموجود تحت الصفصافة.

كانت رُوث تجلس على المقعد بالفعل، بينما كان تومي يقف وقد وضع إحدى قدميه على المسند الصدئ وراح يمرِّن ذراعيه فيما هما يتحدَّثان. ربَّما كان عليَّ أن ألاحظ شيئًا في الطريقة التي وجَّها لي بها التحيَّة، لكنِّي متأكِّدة من أنَّه لم يكن هناك شيء واضح. كنت مستميتة في أن أنقل لهما جانبًا من القيل والقال الذي نُميَ إليَّ- عن واحد من القادمين الجدد- وتحدَّثت بعض الوقت فيما هما يومئان ويسألان شتَّى الأسئلة. مضى بعض الوقت قبل أن أتبيَّن وجود خطأ ما، بل إنَّني تريَّثت عندئذ وسألت بلهجة أقرب إلى المزاح: «هل تطفَّلت على ما كنتما تفعلانه هنا؟».

لكنَّ رُوث أجابت قائلة: «كان تومي يحدِّثني عن نظريَّته الكبيرة. وهو يقول إنَّه أخبرك بها، منذ أمد بعيد. لكنَّه تكرَّم الآن وأراد إطلاعي عليها».

تنهَّد تومي، وأوشكت على قول شيء، لكنَّها قالت بلهجة ساخرة هامسة: «نظريَّة تومي الكبرى عن المعرض!».

بعدئذ نظر كلاهما إليَّ، كأنَّني كنت وقتذاك مسؤولة عن الوضع، وعليَّ أن أقرِّر ما سيحدث بعد ذلك.

«ليست نظريَّة سيِّئة»، قلت. «ربَّما كانت صحيحة، وأنا لست متأكِّدة من ذلك. ما رأيك يا رُوث؟».

«كان عليَّ أن أنتزعها هنا بالقوَّة من هذا الولد الجميل. فهو لم يكن راغبًا في إطلاعي عليها، أليس كذلك يا جميل؟ لم يطلعني عليها إلَّا بعد أن ضغطت عليه كثيرًا ليشرح لي معنى هذا **العمل الفنِّي»**.

«لم أفعل ذلك لهذا الغرض فقط»، قال تومي وقد اكفهرَّ وجهه. كانت قدمه ما زالت فوق مسند الأريكة وهو يمرِّن ذراعيه. كل ما قلته هو أنَّه إذا **صحَّت النظريَّة** عن المعرض، فإنَّني يمكن أن أتابع المحاولة وأقدِّم رسومي»...

«تومي، حبيبي، لا تجعل من نفسك أضحوكة أمام صديقتنا. لا بأس من أن تفعلها أمامي، ولكن ليس أمام كاثي العزيزة».

«لا أفهم لماذا تعتبرينها نكتة»، قال تومي. «إنَّها نظريَّة محترمة، مثلها مثل النظريات الأخرى».

«إنَّها ليست من **النظريات** التي يستلطفها الناس يا حبيبي. ربَّما سيتقبَّلون النظريَّة ويرحِّبون بها. لكن التفكير بترويجها عن طريق إطلاع المدام على الحيوانات الصغيرة»... ابتسمت رُوث وهزَّت رأسها.

لم يقل تومي شيئًا، بل واصل تمرين ذراعيه. أردت الدفاع عنه، وحاولت العثور على شيء قد يرفع معنويَّاته من دون أن يزيد من غضب رُوث. هنا قالت رُوث ما قالته. كان سيِّئًا بما فيه الكفاية آنذاك، ولكني لم أتبيَّن في ساحة الكنيسة الآثار البعيدة لتداعيات ما حدث. ما قالته كان كما يلي:

«الأمر لا يتعلَّق بي وحدي، يا حبيبي. كاثي تعتبر حيواناتك مهزلة كاملة».

كنت سأردُّ بصورة غريزية أوَّل الأمر بإنكار ذلك، ثمَّ بالضحك. لكن كانت ثمَّة سلطة حقيقية في الطريقة التي تحدَّثت بها رُوث، وكنَّا نعرف نحن الثلاثة فيما بيننا أنَّه لا بدَّ من أن يكون هناك شيء

ما وراء كلماتها تلك. لهذا التزمت الصمت آخر الأمر، بينما تنقّل ذهني بجنون في شتّى الاتّجاهات، ثمَّ استقرَّ بصورة مفزعة علينا ونحن نحتسي الشاي في حجرتي تلك الليلة. عندئذ قالت رُوث:

«طالما أنَّ الناس يعتقدون أنَّك ترسم هذه المخلوقات الصغيرة لمجرَّد المزاح والتسلية، فلا بأس في ذلك، ولكن إيَّاك أن تعطي الانطباع بأنَّك تأخذها على محمل الجدِّ. أرجوك».

توقف تومي عن التمرين، وراح ينظر إليَّ نظرة استفهامية. فجأة، ومن دون أيَّة مقدِّمات، تحوَّل مرَّة أخرى إلى طفل ظهرت في عينيه دلائل القلق والانزعاج العميق.

«انتبه يا تومي، عليك أن تفهم الوضع»، أضافت رُوث. «ليس من المهمّ أنَّني وكاثي قد تضاحكنا بسببك. فقد اعدتنا على ذلك. ولكن أرجوك ألَّا يعرف هذا الوضع أناس آخرون».

فكَّرت في تلك اللحظات أكثر من مرَّة. كان يجدر بي أن أقول شيئًا ما. كان بوسعي أن أنكر ذلك، مع أنَّ تومي لم يكن سيصدِّقني وكانت الأمور ستزداد تعقيدًا لو حاولت أن أشرح الوضع بصدق. كان بوسعي أن أتحدَّى رُوث، وأقول إنَّها تتلاعب بالأمر، وأنَّني حتَّى لو لجأت إلى الضحك، فإنَّ ذلك لا يتَّفق مع ما كانت تشير إليه. ربَّما كنت سأقترب من تومي وأضمُّه على مرأى من رُوث. وذلك ما أدركته بعد عدَّة سنوات. وربَّما لم يكن ذلك هو الخيار الفعلي آنذاك، نظرًا لشخصيَّتي وللطريقة التي كنَّا نحن الثلاثة مترابطين فيها. لكن ربَّما كان ذلك وافيًا بالغرض، لأنَّ الكلمات كانت ستعمِّق فهمنا للأشياء.

لكنَّني لم أقل أو أفعل شيئًا. أظنُّ أنَّ ذلك يعود، في جانب منه، إلى أنَّني كنت على يقين من أنَّ رُوث ستلجأ إلى مثل هذه الخديعة. أذكر أنَّ موجة ضخمة من الإعياء قد غمرتني، وتولَّاني نوع من الخمول أمام الفوضى المتشابكة التي واجهتها. بدا الأمر كما لو كان محاولة لحلِّ مسألة رياضية بعد أن يهيمن الإرهاق على دماغك، وأنت تعلم أنَّ ثمَّة حلًّا ما في مكان ناء، ولكن لا تتوفَّر لديك الطاقة اللازمة لمحاولة الوصول إليه. استسلم جانب منِّي للأمر، وقال صوت صدر من أعماقي: «حسنًا، دعيه يتصوَّر الأسوأ على الإطلاق. دعيه يفكِّر في الأمر، دعيه يفكِّر في الأمر». أعتقد أنَّني نظرت إليه باستسلام، وملامحي تقول: «بلى، هذا صحيح، ما الذي كنت تتوقَّعه؟». بوسعي أن أتذكَّر الآن، وكأنَّ ذلك قد حدث بالأمس، وجه تومي نفسه، وقد بدأ الغضب بالانحسار عن قسماته لفترة قصيرة، وحلَّ محلَّه تعبير عن التعجُّب، كما لو كنتُ فراشة نادرة عثر عليها على عمود السياج.

لا يعني ذلك أنَّ عينيَّ كانتا ستغرورقان بالدمع، أو أنَّني سأفقد أعصابي أو ما إلى ذلك، ولكنَّني قرَّرت أن أستدير وأمضي قُدمًا. بل أدركت في وقت لاحق من ذلك اليوم أنَّني ارتكبت خطأً جسيمًا. كلُّ ما أستطيع قوله هو أنَّ أقصى ما كنت أخشاه آنذاك هو أن أحدهما سيرحل أوَّلًا، وسأبقى مع الآخر. لا أعلم السبب، ولكن لم يكن يبدو أنَّ رحيل أحدهما سيكون الخيار الأفضل، فاخترت أن أرحل أنا. لهذا انثنيت وعدت القهقرى على الطريق الذي أتيت منه، ومررت بشواهد القبور باتجاه البوَّابة الخشبية السفلى، وشعرت لعدَّة دقائق بأنَّني قد انتصرت؛ لقد تركتهما معًا الآن، يواجهان المصير الذي كانا يستحقَّانه.

الفصل السابع عشر

بعد أن تركت الأكواخ بوقت طويل، أدركت، كما أسلفت، أهمِّية ذلك اللقاء القصير في ساحة الكنيسة. صحيح أنَّني تكدَّرت يومذاك، لكنَّني لم أعتقد أنَّه كان مختلفًا جدًّا عن المشاجرات الأخرى التي واجهناها. لم يخطر لي على الإطلاق أنَّ حيواتنا، التي كانت حتَّى ذلك الحين، متداخلة إلى هذا الحدِّ، ستتكشَّف وسننفصل بسبب أمر كهذا.

لكنَّني أفترض، في الواقع، وجود سلسلة من الأسباب القويَّة للتفرقة بيننا في تلك الآونة، وكانت تنتظر الشرارة المناسبة لتفعل مفعولها. لو فهمنا ذلك آنذاك- ومن يدري؟- لشددنا الوشائج بيننا على نحو أقوى.

فمن ناحية، كان مزيد من التلاميذ يرحلون لكي يتحوَّلوا إلى مشرفين، وفي أوساط مجموعة هيلشام القديمة، تزايد الإحساس بأنَّ هذا المسار هو الخيار الأفضل. وكان علينا كذلك أن نُنهي مقالاتنا. لكن كان من المعروف تمامًا أنَّنا لن نكون مطالبين بذلك إذا اخترنا البدء بالتدريب. وخلال أيَّامنا الأولى في الأكواخ، كان التفكير بعدم إنهاء مقالاتنا أمرًا مستحيلًا. غير أنَّ تقادم العهد بعد انتقالنا من هيلشام قلَّل من أهمِّية المقالات. وقد خطرت لي يومذاك فكرة- ربَّما كانت صائبة- مؤدَّاها أنَّه إذا كانت أهمِّية تلك المقالات تتضاءل مع مرور الوقت، فإنَّ الروابط التي تجمعنا بوصفنا من تلاميذ هيلشام ستزول كذلك. هذا هو السبب الذي دفعني إلى الاستمرار في حرصي على القراءة وتدوين الملاحظات. لكن مع غياب المبرِّرات للاعتقاد بأنَّنا سنلتقي الحرَّاس ثانية، ومع استمرار الكثير من التلاميذ في المضيِّ قُدمًا، فإنَّ الفكرة بدت أشبه بالقضيَّة الخاسرة.

على كلِّ حال، في الأيَّام التي أعقبت ذلك الحديث في ساحة الكنيسة، بذلت قصارى الجهد لتناسي الموضوع. تصرَّفت مع تومي ورُوث كأنَّ شيئًا لم يكن، وتصرَّفا معي بصورة مماثلة. كانت هناك دائمًا أمور لافتة للانتباه، ولكن ليس بيني وبينهما. فمع أنَّهما استمرَّا في إظهار حبِّهما لبعضهما أمام الآخرين، ظلَّا يمارسان حركة لطم الذراع تلك عندما يفترقان- وكنت أعرفها بما فيه الكفاية، وأدرك أنَّهما بدآ بالتباعد والانفصال.

بطبيعة الحال، شعرت بالاستياء، خاصَّة لما يتعلَّق بحيوانات تومي. لكن ذلك لم يكن من السهولة بحيث أتوجَّه إليه وأُعرب عن الأسف وأشرح له واقع الأمر، فقد كان ذلك ممكنًا ومفيدًا قبل بضع سنوات، بل قبل ستَّة شهور. حينذاك كان بوسعي أنا وتومي أن نتحدَّث عن ذلك ونسوِّي الأمور. لكن الأمور اختلفت في فصل الصيف الثاني. ربَّما كان ذلك بسبب تلك العلاقة مع ليني، لا أدري. لقد كان الوضع، ظاهريًا على الأقل، مثل ما كان من قبل، لكنَّنا لم نأتِ أبدًا على ذكر الحيوانات أو ما حدث في ساحة الكنيسة.

كان ذلك، إذن، هو ما حدث قبل تلك المحادثة مع رُوث في موقف الحافلة القديم. كما سبق وقلت، فربَّما ما كنت لأغضب بشدَّة لو أنَّها لم تقطع حديثي في سياق مناقشتنا لتلك النقطة المهمَّة. حسنًا، كنَّا قد قطعنا شوطًا بعيدًا في تلك اللحظة، حتَّى لو كنَّا على وشك الاستعداد لإنهاء دردشتنا في تلك اللحظة، فقد كان ذلك جزءًا من محاولة تسوية الأمور بيننا، ولم يكن ثمَّة مجال للتظاهر بأشياء من هذا النوع.

ما حدث عندئذ كان كما يلي. مع أنَّ شيئًا ما قد حدث بيني وبين تومي، إلّا أنَّه لم يشبه ما حدث بيني وبين رُوث- هذا ما ظننته على الأقل- فقرَّرت وقتئذ أنَّ الوقت حان لأحدِّثها عمَّا جرى في ساحة الكنيسة. كان يومًا صيفيًا ممطرًا ومشحونًا بالعواصف الرعدية، وقد اعتكفنا في حجراتنا على الرغم من رطوبتها. عندما لاح أنَّ الطقس بدأ يصفو عند اقتراب المساء ومع غروب الشمس بأشعَّتها الوردية، اقترحت على رُوث أن نخرج لنستنشق الهواء النقيَّ. كنت قد اكتشفت دربًا للمشاة يمتدُّ صعودًا على حافَّة الوادي وحتَّى الطريق العام، حيث كان هناك موقف قديم للحافلات. انقطعت الحافلات عن استخدام الموقف منذ أمد بعيد، وأزيلت لافتة وقوف الحافلة. لم يبق عند الجدار في آخر الموقف إلَّا الإطار لما كان ذات يوم واجهة زجاجية تبِّين أوقات الوصول والمغادرة للحافلات. لكن الموقف، الذي كان أشبه بكوخ خشبي بُنِي بأسلوب لطيف، له باب صامد يطلُّ على سفح الوادي، والأريكة فيه كانت صالحة للاستخدام. هذا هو الموقع الذي جلست فيه مع رُوث لنلتقط أنفاسنا، ونتأمَّل خيوط العنكبوت المعلَّقة على العوارض الخشبية في تلك الأمسية الصيفية. قلت لرُوث ما معناه:

«تعلمين يا رُوث، علينا أن نحاول تسوية الأمور، حول ما حدث في ذلك اليوم».

قلت ذلك بلهجة تصالحية، فردَّت رُوث على الفور أنَّ ما حدث يدلُّ على الغباء، إذ نتشاجر نحن الثلاثة حول أتفه الأمور. استرجعت مرَّات أخرى تشاجرنا فيها، وضحكنا لذلك. لكن لم أرغب أن تتناسى رُوث الأمر على هذا النحو، لهذا قلت باللهجة الاسترضائية نفسها:

«رُوث، كما تعلمين، أظنُّ أنَّك عندما تصاحبين شخصًا ما، فإنَّك لا ترين الأمور بالوضوح نفسه كما يراها شخص من الخارج. أحيانًا فقط».

أومأت بالموافقة. «ربَّما كان ذلك صحيحًا».

«لا أريد التدخُّل. لكن أحيانًا، تحديدًا في الفترة الأخيرة، ألاحظ أنَّ تومي مضطرب، كما تعلمين، بسبب أشياء تقولينها أو تفعلينها».

كنت أخشى أن تغضب رُوث، لكنَّها أومأت وتنهَّدت.

«أعتقد أنَّك على حقٍّ»، قالت أخيرًا. «أنا أفكِّر كثيرًا بهذا الأمر كذلك».

«لم يجدر بي إذن إثارة هذا الموضوع. توجَّب عليَّ معرفة أنَّك تفهمين ما يجري. فهذا الأمر لا يخصُّني».

«بل يخصُّك أيضًا. أنت بالفعل واحدة منَّا، وبالتالي أمورنا تخصُّك دائمًا. أنت على حقٍّ، فالأمور لم تكن على ما يرام. أنا أفهم ما تقصدين. ذلك الموضوع يومذاك، حول حيواناته. لم يجرِ الأمر على ما يرام. قلت له إنَّني آسفة على ذلك».

«يسرُّني أنَّك تحدَّثت عن ذلك. لم أعرف أنَّك فعلت».

كانت رُوث تعبث ببعض القصاصات الخشبية إلى جانبها على الأريكة. بدا لفترة وجيزة أنَّها مستغرقة تمامًا بهذا العمل. ثمَّ قالت:

«انظري، يا كاثي. من المناسب أن نتحدَّث الآن عن تومي. كنت أعتزم إطلاعك على شيء ما، لم أحدِّد بالفعل الأسلوب أو التوقيت المناسب لذلك، أرجو أن تعديني بأنَّك لن تغضبي لذلك».

نظرت إليها وقلت: «طالما أنَّ الأمر لا يتعلَّق بموضوع قمصان التيشيرت ثانية».

«لا، ليس هذا الموضوع. عديني ألَّا تغضبي. لن أغفر لنفسي إذا استمرَّ صمتي عن الموضوع؟».

«حسنًا، ما هو الموضوع؟».

«كاثي، لقد فكَّرت طويلًا في ذلك. أنت لست غبيَّة، وربَّما تعلمين أنَّني وتومي لن نبقى حبيبين إلى الأبد. ذلك ليس مأساة بحدِّ ذاته. لقد كنَّا متوافقين ذات يوم. لا يعرف أحد ما سيحمله المستقبل. يكثر الحديث الآن عن بعض المحبِّين الذين سيحصلون على الإرجاء إذا أثبتوا، كما تعلمين، أنَّهم ما زالوا متوافقين. حسنًا، ما أريد قوله يا كاثي هو ما يلي: سيكون ما سيحدث أمرًا طبيعيًا تمامًا إذا قرَّرنا، أنا وتومي، أن نفترق. لسنا على وشك الانفصال، وأرجو ألَّا تسيئي فهمي. من الطبيعي أن تتعجَّبي من ذلك على الأقل. حسنًا يا كاثي، ما عليك أن تعرفيه أنَّ تومي لا ينظر إليك بهذه الصفة. إنَّه يميل إليك، يميل إليك بالفعل. **إنَّه يعتبرك رائعة حقًّا**. لكنَّه، كما تعلمين، لا يعتبرك حبيبة مناسبة له. بالإضافة إلى ذلك»... تريَّثت رُوث ثمَّ تنهَّدت. «بالإضافة إلى ذلك، أنت تعرفين تومي. إنَّه نكِد».

حدَّقت إليها. «ماذا تقصدين؟».

«لا بدَّ من أنَّك تعرفين ما أعنيه. تومي لا يميل إلى الفتيات اللواتي... حسنًا، كما تعلمين، صاحبن هذا الشخص أو ذاك. هذا هو مزاجه. أنا آسفة يا كاثي، ولكن من الخطأ عدم إطلاعك على ذلك».

فكَّرت مليًا في الأمر، وقلت: «من المستحسن دائمًا أن نعلم هذه الأمور».

شعرت بلمسة رُوث على ذراعي. «أعرف أنَّك ستفهمين الوضع بشكل صحيح. عليك إدراك أنَّك من أغلى الناس عنده. أنت كذلك بالفعل».

أردت أن أغيِّر الموضوع، لكنَّ ذهني كان خاليًا من أيِّ شيء لفترة قصيرة. لا بدَّ من أنَّ رُوث أدركت ذلك، لأنَّها رفعت ذراعيها، وتثاءبت على نحو ما، وقالت:

«إذا تعلَّمت قيادة السيَّارة ذات يوم، سآخذ الجميع إلى مكان في البرِّية. دارتمور مثلًا. نحن الثلاثة، وربَّما لورا وهانا كذلك. إنَّني مشتاقة لرؤية تلك المستنقعات وما إلى ذلك».

أمضينا عدَّة دقائق بعدئذ ونحن نتحدَّث عمَّا كنَّا سنفعله خلال تلك الرحلة، هذا إذا تمَّت. سألتُ أين سنقيم، ردَّت رُوث بأنَّنا قد نقترض خيمة كبيرة. فأشرت إلى أنَّ الرياح قد تكون عنيفة في مثل تلك البقاع، وقد تقتلع الخيمة وتطرحها بعيدًا خلال الليل. لم نأخذ ذلك على محمل الجدِّ. لكن تذكَّرت هنا يوم كنَّا في الجونيور في هيلشام، أثناء نزهة مع الآنسة جيرالدين على مقربة من البركة. وقد أرسل جيمس ب. لإحضار الكعكة التي أعددناها من قبل. لكن بينما هو في طريق عودته إلينا، هبَّت ريح عاتية، خلعت الطبقة الاسفنجية العليا للكعكة، وطوَّحت بها إلى داخل أوراق الراوند. قالت رُوث إنَّها بالكاد تتذكَّر ذلك، فقلت محاولة إنعاش ذاكرتها:

«ما حصل هو أنَّه واجه المتاعب، إذ تبيَّن أنَّه سلك الطريق الذي يمُّر في بقعة شجيرات الراوند».

عندئذ نظرت إليَّ رُوث، وسألت: «لماذا؟ وما الخطأ في ذلك؟».

ما أثارني هنا هو أسلوبها في طرح السؤال، فاجأني ما فيه من التلاعب الذي لم يكن ليخفى على من يشاهده. تنهَّدت وتولَّاني الاضطراب، وقلت:

«رُوث، كفاك. من المستحيل أنَّك نسيت. فأنت تعلمين أنَّ ذلك الطريق كان من الممنوعات».

ربَّما قلت ذلك بلهجة حادَّة إلى حدٍّ ما. مع ذلك، فإنَّ رُوث لم تتخلَّ عن رأيها. واستمرَّت في التظاهر بأنَّها لم تتذكَّر شيئًا، فزاد ذلك من انزعاجي. وهنا قالت:

«ما أهمِّية ذلك على أيِّ حال؟ وما علاقة بقعة الراوند بأيِّ شيء آخر. يجدر بك أن تواصلي الحديث عن الموضوع».

أعتقد أنَّنا عدنا بعد ذلك إلى الحديث بصورة ودِّية على العموم، وبعد فترة قصيرة سرنا على درب المشاة نزولًا في العتمة إلى الأكواخ. لكن الأجواء لم تكن أبدًا على ما يرام. عندما تبادلنا عبارة الوداع أمام الحظيرة السوداء، افترقنا من دون الملامسات الخفيفة على الذراعين والكتفين.

***

لم يمضِ وقت طويل حتَّى اتَّخذت قراري، ولم يتزحزح موقفي على الإطلاق. فقد صحوت ذات صباح، وأخبرت كيفرز أنَّني أريد البدء بالتدرُّب على الإرشاد. كان ذلك سهلًا بصورة مدهشة. فقد كان يعبر الساحة بجزمته الموحلة، يجأر بالشكوى كعادته، ويحمل قطعة من أحد الأنابيب. توجَّهت إليه وأبلغته بالأمر، فنظر إليَّ كما لو كنت سأطلب منه المزيد من الحطب للمدفأة. ثمَّ غمغم طالبًا منِّي أن أراه بعد الظهر للاطلاع على النماذج. وكان الأمر سهلًا للغاية.

استغرق ذلك بعض الوقت بطبيعة الحال. لكن المعاملة أخذت تتقدَّم إلى الأمام خطوة بعد خطوة. غدوت أنظر إلى كلِّ شيء- الأكواخ، وجميع من فيها- بعين جديدة. أصبحت الآن واحدة ممَّن سيغادرون، وسرعان ما عرف الجميع بذلك. ربَّما اعتقدت رُوث أنَّنا كنَّا نتحدَّث عن مستقبلي؛ وربَّما اعتقدت أنَّها ستؤثِّر تأثيرًا كبيرًا على تغيير موقفي من عدمه. لكنَّني نأيت بنفسي عنها، وعن تومي كذلك. لم نتحادث كثيرًا في الأكواخ في الواقع. ووجدت نفسي، بعد فترة وجيزة، ألقي تحيَّة الوداع.

الجزء الثالث

الفصل الثامن عشر

بصورة عامَّة، كانت ممارسة الإرشاد مناسبة تمامًا لي. يمكنك القول إنَّها كشفت عن أفضل ما فيَّ من مزايا. لكن بعض الناس ليسوا مؤهَّلين لهذه المهمَّة التي تتطلَّب منهم جهودًا استثنائية. قد يبدأون بداية إيجابية، لكن تجيء لاحقًا الأوقات التي يقضيها المرء في معاناة الألم والقلق. عاجلًا أو آجلًا، يفشل أحد المانحين، مع أنَّه، على سبيل المثال، يقوم بالتبرُّع للمرَّة الثانية فقط، ولم يكن أحد يتوقَّع أيَّة مضاعفات. فعندما يستكمل أحد المانحين المهمَّة على هذا النحو، ومن دون مقدِّمات، فلا يهمُّ ما سيقوله الممرِّضون والممرِّضات بعد ذلك، ولا أهمِّية كذلك للرسالة الموجَّهة لك، القائلة إنَّهم كانوا متأكِّدين أنَّك فعلت كلَّ ما في وسعك للمحافظة على مستوى الأداء. لفترة قصيرة على الأقل، ستحسُّ بهبوط في روحك المعنوية. بعضنا يتعلَّم بسرعة كيف يتعامل مع الوضع، ولكن آخرين، مثل لورا على سبيل المثال، لا يُفلحون في هذه الناحية على الإطلاق.

كما أنَّ هناك مسألة العزلة. فأنت تنشأ وسط جمهرة من الناس الذين تعرفهم حقَّ المعرفة. ثمَّ تتحوَّل فجأة إلى مرشد. وتقضي ساعات طويلة وأنت تنتقل بالسيَّارة عبر الضواحي الريفية، من مركز إلى آخر، ومن مستشفى إلى آخر، وتنام وحدك ليلة هنا وليلة هناك، وليس هناك من تحدِّثه عن همومك، أو تضحك معه. وبين الفينة والفينة تلتقي تلميذًا من معارفك- مرشدًا أو مانحًا تعرَّفت عليه في الأيام الخوالي- لكن لن يكون هناك متَّسع من الوقت. فأنت دائمًا على عجلة من أمرك، أو أنَّك تكون متعبًا إلى حدٍّ لا تستطيع معه أن تتحدَّث مع أيِّ شخص بصورة مناسبة. سرعان ما تغدو تلك الساعات الطويلة، والأسفار والنوم المتقطِّع جانبًا من شخصيَّتك، وجزءًا لا يتجزَّأ من كيانك، وذلك ما يلمسه الجميع حولك، في وقفتك، وفي نظراتك، وفي طريقة مشيك أو حديثك.

لا أدَّعي أنَّني كنت مبرَّأة من كلِّ ذلك، لكنَّني تعلَّمت كيف أتعايش معه. غير أنَّ بعض المرشدين خانتهم قواهم تمامًا. كثير منهم، كما ستلاحظ، يقومون بالخطوات المطلوبة، انتظارًا لليوم الذي سيُطالبون فيه بالتوقُّف ليتحوَّلوا إلى مانحين. يسوؤني كذلك أنَّ كثيرًا منهم «ينكمشون» حالما يدخلون المستشفى. لا يعرفون ماذا سيقولون للأردية البيضاء، ولا يمكنهم أن يتحدَّثوا بالنيابة عن مانحيهم. لا عجب إذن في أنَّهم يشعرون أخيرًا بالإحباط، وينحون باللائمة على أنفسهم إذا ارتُكب خطأ ما. أحاول من جانبي ألَّا أتطفَّل على الآخرين، لكنَّني وجدت الأسلوب المناسب لإسماع صوتي عند الضرورة. عندما تسوء الأمور فإنَّني أستاء بطبيعة الحال. لكنَّني أحسُّ وقتذاك بأنَّني بذلت كلَّ ما في وسعي لوضع الأمور في سياقها الصحيح.

بل إنَّني بدأت أميل بالفعل إلى العزلة نفسها. لا يعني ذلك أنَّني لن أسعى إلى رفقة الآخرين عندما أنهي هذا كلَّه مع نهاية هذه السنة. لكنَّني أستمتع فور دخولي سيَّارتي، خلال الساعتين القادمتين، برفقة الطرق أمامي والسماء الرمادية وأحلام اليقظة. إذا كان ثمَّة متَّسع من الوقت خلال زيارتي للبلدة، فإنَّني سأستمتع خلال بضع دقائق بالتجوُّل والتفرُّج على المعروضات في واجهات المتاجر. لديَّ، في هذا الركن الذي أنام فيه، أربعة من المصابيح التي توضع على المنضدة، ومع أنَّ تصميمها موحَّد، فإنَّ لكلٍّ منها لونه المختلف، وجذع مضلَّع تستطيع أن تديره كيفما تشاء. سأبحث عن متجر يعرض مصابيح أخرى في واجهته الزجاجية- لا لشرائها، بل لمقارنتها مع تلك التي

لديَّ.
أحيانًا، تتدافع الأفكار في ذهني إذا التقيت، بصورة غير متوقَّعة، شخصًا أعرفه، فأُصدم وأبدأ بالتكيُّف مع الوضع لبعض الوقت. هذا هو ما حدث ذات صباح عندما دخلت موقف السيَّارات الذي كانت تعصف به الرياح في محطَّة الخدمة، ولمحت لورا جالسة وراء مقود إحدى السيَّارات، وهي تلقي نظرة لا معنى لها على الطريق السريع. كنت على مبعدة منها. لعدَّة ثوان، ومع أنَّني لم أكن قد التقيتها منذ إقامتنا في الأكواخ قبل سبع سنوات، فقد راودتني النفْس أن أتجاهلها وأواصل السير. أعلم أنَّ ذلك تصرُّف غريب من جانبي، لأنَّها كانت من أصدقائي الخُلَّص. ربَّما كان ذلك يعود في جانب منه، كما أسلفت، إلى أنَّني لم أرغب في الخروج من دائرة أحلام اليقظة. أظنُّ أنَّ ذلك يعود إلى أنَّني، حين رأيت لورا ساهمة في سيَّارتها على هذا النحو، أدركت على الفور أنَّها قد أصبحت من هؤلاء المرشدين الذين وصفتهم قبل قليل، وأنَّني لم أكن من ناحية أخرى حريصة على معرفة المزيد عنها.
لكنَّني اقتربت منها بالطبع. هبَّت ريح باردة فيما كنت أتوجَّه إلى الباب الخلفيِّ لسيَّارتها الواقفة بعيدًا عن السيَّارات الأخرى. كانت لورا ترتدي سترة فراء زرقاء ذات قلنسوة قبيحة، وكان شعرها- الأقصر ممَّا كان في الماضي- يلتصق بجبينها. عندما قرعت شبَّاك سيَّارتها الخلفي، لم تستدر، بل لم تُفاجأ برؤيتي بعد تلك الفترة الطويلة. بدا كأنَّها كانت تجلس هناك تنتظر شخصًا ما، إن لم يكن أنا، فإنَّه شخص آخر مثلي من الأيَّام الخوالي. عندما ظهرت أمامها بدا وكأنَّها ستقول: «أخيرًا!». فقد رأيت كتفيها يتحرَّكان بصورة أقرب إلى التنهُّد، ثمَّ مدَّت يدها من دون أيَّة جلبة لتفتح لي الباب.
تحدَّثنا نحو عشرين دقيقة. لم أتركها حتَّى آخر لحظة ممكنة. دار أكثر الحديث حولها هي، وكيف أنتابها الإرهاق في الآونة الأخيرة، وصعوبة التعامل مع أحد مانحيها، ومدى كراهيَّتها لتلك الممرِّضة أو ذلك الطبيب. انتظرت لأرى بارقة من لورا القديمة، بابتسامتها المشاغبة ونوادرها التي لا بدَّ من أن تُدلي بها في كلِّ جلسة. لكنَّني لم ألمح شيئًا من هذا القبيل. تكلَّمت بأسرع من عادتها. مع أنَّها بدت مسرورة بلقائي، تولَّد لديَّ انطباع بأنَّه ليس مهمًّا أن أكون أنا الطرف الثاني في هذا اللقاء، بل أي شخص آخر طالما أنَّ بوسعها الحديث معه.
ربَّما أحسسنا، نحن الاثنتين، أنَّ من الخطورة بمكان أن نتذكَّر الأيَّام الخوالي، لأنَّنا كنَّا نتحاشى ذكرها منذ عهد بعيد. مع ذلك، وجدنا أنفسنا آخر الأمر نتحدَّث عن رُوث، التي كانت لورا قد صادفتها في إحدى العيادات قبل بضع سنوات عندما كانت رُوث ما تزال مرشدة. وقد سألتها مرَّة بعد مرَّة عن أحوال رُوث، لكنَّها كانت كتومة تمامًا. فقلت أخيرًا:
«اشرحي لي، لا بدَّ من أنَّكما تحدَّثتما عن **شيء ما**».
أطلقت لورا تنهيدة عميقة. «تعرفين كيف تسير الأمور»، قالت. «كنَّا في عجلة من أمرنا». ثمَّ أضافت: «على أيِّ حال، فإنَّ علاقتنا في الأكواخ لم تكن وثيقة عندما افترقنا. لذلك، ربَّما لم نشعر بالسعادة لأنَّنا التقينا».
«لم أعلم أنَّك خاصمتها كذلك»، قلت.
هزَّت كتفيها. «لم تكن قضيَّة كبيرة. أنت تتذكَّرين وضعها آنذاك. وقد أصبحت حالتها أكثر سوءًا بعد أن تركتِ. أصبحت، كما تعلمين، تُبلغ كلَّ شخص بما ينبغي أن يقوم به. لذلك، كنت أتجنَّب لقاءها. هذا كلُّ ما في الأمر. لم نتشاجر قطُّ حول أيِّ شيء. إذن، أنت لم ترينها منذ ذلك الوقت؟».
«نعم، وهذا أمر مستغرب. لم ألتقِ بها على الإطلاق».

«صحيح، هذا أمر مستغرب. كنَّا نظنُّ أنَّنا سنتلاقى أكثر من ذلك. رأيت هانا عدَّة مرَّات، وكذلك مايكل هـ. وأردفت قائلة: «سمعت إشاعة بأنَّ التبرُّع الأوَّل الذي قدَّمته رُوث كان سيِّئًا بالفعل. مجرَّد إشاعة، لكنَّني سمعتها أكثر من مرَّة».

«سمعتها أنا كذلك»، قلت.

«مسكينة رُوث».

ران علينا الصمت فترة وجيزة. ثمَّ سألتْ لورا: «هل صحيح يا كاثي؟ هل يسمحون لك الآن باختيار من تريدينه من المانحين؟».

لم تسأل بأسلوب اتِّهاميّ كما يفعل بعض الناس أحيانًا، لذلك أومأتُ، وقلت: «ليس في جميع الحالات. ولكن نجحت مع عدد من المانحين، نعم، صحيح، إنَّ لي رأيًا في الموضوع، بين الفينة والفينة».

«إذا كان يُتاح لك الاختيار»، قالت لورا، «فلم لا تتولّين إرشاد رُوث؟».

هززت كتفي. «فكَّرت في الأمر. لكن لا أعتقد أنَّها فكرة وجيهة».

بدت على لورا الحيرة. «لكنَّ علاقتك كانت وثيقة جدًّا مع رُوث».

«بلى، أظنُّ ذلك. لكن مثلما كان الوضع معك يا لورا. لم تكن علاقتنا وثيقة أنا ورُوث في نهاية المطاف».

«لكن ذلك كلَّه مضى وانقضى. كانت في وضع سيِّئ. وقد سمعت عن مشاكل بينها وبين مرشديها كذلك. كان عليهم أن يغيِّروا هؤلاء المرشدين مرارًا وتكرارًا».

«لا عجب في ذلك بالفعل. هل تتصوَّرين؟ هل تتصوَّرين أنَّك ستكونين ذات يوم مرشدة رُوث؟».

ضحكت لورا، ولفترة وجيزة، بدت في عينيها نظرة دفعتني إلى الاعتقاد بأنَّها ستُدلي بنقطة مثيرة. لكن حيويَّتها انطفأت، وواصلت جلوسها هناك، وقد غلبها الإعياء.

توسَّعنا قليلًا في الحديث عن مشاكل لورا- تحديدًا عن ممرِّضة معيَّنة تتحيَّن الفرص لإيذائها. عندئذ حان وقت مغادرتي. مددت يدي لأفتح باب السيَّارة فيما كنت أقول لها إنَّ علينا إطالة الحديث أكثر من ذلك عندما نلتقي في المرَّة القادمة، كنَّا ندرك بصورة واعية أنَّ ثمَّة أمرًا آخر لم نتطرَّق إليه، وأنَّنا سنشعر بخطأ الافتراق على هذا النحو. الواقع أنَّني متأكِّدة تمامًا الآن من أنَّنا كنَّا في تلك اللحظة نفكِّر في الموضوع نفسه تمامًا. عندئذ قالت:

«أمر غريب للغاية. التفكير بأنَّ ذلك كلَّه غدا أثرًا بعد عين».

استدرت في مقعدي وواجهتها ثانية. «نعم، أمر غريب بالفعل»، قلت. «أنا لا أصدِّق أنَّ ذلك كلَّه قد أصبح شيئًا من الماضي».

«هذا أمر عجيب». قالت لورا. «ظننت أنَّ الأمر لم يعد يهمُّني الآن. الواقع أنَّه ما زال يهمُّني بالفعل».

«أفهم ما تقصدين».

كانت هذه الحادثة، عندما ذكرنا أخيرًا إغلاق هيلشام، هي التي وثَّقت علاقتنا بصورة مفاجئة مرَّة أخرى، فتعانقنا بصورة عفويَّة، ليس لتبادل المواساة بل للتأكيد على أنَّ هيلشام كانت حيَّة في ذاكرتنا. انطلقت بعدئذ بسرعة صوب سيَّارتي.

كنت قد استمعت إلى الإشاعات حول إغلاق هيلشام للمرَّة الأولى قبل نحو سنة من ذلك الاجتماع مع لورا في موقف السيَّارات. ففي خلال حديثي مع أحد المرشدين أو المانحين، قد يطرح هذا

الموضوع بصورة عرضية، كأنَّه يتوقّع أنَّني أعرف عنه كلَّ شيء. «أنت كنت في هيلشام، أليس كذلك؟ إذن هل الخبر صحيح؟»، وأشياء من هذا القبيل. ذات يوم، خرجت من إحدى العيادات في سفولك، وصادفت روجر س. الذي كان في هيلشام في السنة الفائتة، وأبلغني أنَّ من المؤكَّد أنَّ ذلك سيحدث بالفعل، أنَّ هيلشام ستُغلق عمَّا قريب، وأنَّ ثمَّة خططًا لبيع المنزل والمرافق لشركة تضمُّ سلسلة من الفنادق. أذكر ردَّ الفعل الأوَّل من جانبي عندما أخبرني بذلك. قلت: «لكن ما الذي سيحدث لجميع هؤلاء التلاميذ؟». من الواضح أنَّ روجر اعتقد أنَّني أقصد التلاميذ الذين ما زالوا هناك، أي الصغار الذين ما زالوا يعتمدون على حرَّاسهم، فتكدَّرت قسماته، وأخذ يفكِّر مليًا في كيفيَّة انتقالهم إلى منازل أخرى في شتَّى أنحاء البلاد، مع أنَّ مستوى بعضها سيكون أدنى بكثير من مستوى هيلشام. لكنَّني لم أكن أقصد ذلك بطبيعة الحال، بل قصدت حالتنا نحن، جميع التلاميذ الذين نشأوا وتربُّوا معي، وانتشروا الآن في شتَّى أرجاء البلاد، مرشدين أو مانحين، الذين رغم انفصالهم ما زالوا مرتبطين بالمكان الذي جاؤوا منه.

في تلك الليلة نفسها، كنت أحاول الخلود للنوم عندما شغلني التفكير بما وقع لي قبل ذلك بعدَّة أيَّام. كنت في بلدة ساحلية في نورث ويلز. هطل المطر مدرارًا طوال الصباح، ثمَّ توقَّف بعد الغداء وأشرقت الشمس إلى حدٍّ ما. كنت عائدة إلى المكان الذي تركت فيه سيَّارتي، على إحدى الطرق الطويلة المستقيمة المواجهة للبحر. لم يكن أحد غيري في تلك البقعة. فشاهدت صفًّا طويلًا من البلاط الحجري يمتدُّ أمامي. بعد قليل، قدمت شاحنة صغيرة، وركنت أمامي بثلاثين ذراعًا تقريبًا. خرج منها رجل يرتدي ملابس المهرِّجين، وفتح الباب في مؤخِّرة الشاحنة، وأخرج حزمة تضمُّ نحو عشرة من بالونات الهيليوم. أمسك بمجموعة البالونات بإحدى يديه للحظات، بينما انحنى ويده الأخرى تنقِّب داخل العربة. اقتربت منها، فرأيت وجوهًا وآذانًا مرسومة على البالونات، وبدت أشبه بقبيلة صغيرة تتراقص في الهواء فوق صاحبها وتنتظره.

ثمَّ انتصبت قامة المهرِّج، فأغلق شاحنته وبدأ بالسير في اتجاه سيري نفسه. تقدَّمني ببضع خطوات، حاملًا بإحدى يديه حقيبة صغيرة، وبالأخرى البالونات. كانت الواجهة البحرية تمتدُّ أمامنا بطولِها. سرتُ خلفه فترة بدت كأنَّها دهر كامل. شعرت أحيانًا بالارتباك جرَّاء ذلك، بل إنَّني ظننت أنَّ المهرِّج سيستدير ويقول شيئًا. وحيث أنَّ ذلك هو الطريق الوحيد أمامي، لم أملك القيام بغير ذلك. لذلك واصلنا السير، المهرِّج وأنا، من دون توقُّف على امتداد الرصيف الخالي الذي كان مبلَّلًا بالماء منذ الصباح، فيما كانت البالونات تتقافز حولي. مرَّة بعد أخرى، كنت أرى قبضة الرجل وقد تجمَّعت فيها خيوط البالونات، ولاحظت أنَّه قد عقدها معًا في حزمة واحدة. مع ذلك، كنت أخشى أن ينقطع أحد خيوط البالونات، ويحلِّق عاليًا في تلك السماء التي تغطِّيها السحب.

جافاني النوم ليلة أبلغني روجر بذلك، ولم يبارح مشهد البالونات عقلي. فكَّرت في أنَّ إغلاق هيلشام يشبه قدوم شخص ما يحمل مقصًّا ويروح يقطِّع به خيوط البالونات المتداخلة فوق قبضة ذلك الرجل. عندما حدث ذلك، لم تعد تلك البالونات مترابطة كالسابق. حين أطلعني على أخبار هيلشام، أدلى روجر بملاحظة تفيد بأنَّ ذلك لن يؤثِّر كثيرًا في أمثالنا بعد الآن. ربَّما أصاب في ذلك، لكن ما يبعث على القلق هو التفكير بأنَّ الأمور لم تكن تجري على هذا النحو كعادتها هناك؛ أي أنَّ أشخاصًا مثل الآنسة جيرالدين مثلًا لم يعودوا مشرفين على طلاب الجونيور على مقربة من الملعب الشمالي.

***

خلال الأشهر التي أعقبت حديثي مع روجر، ظللت أفكِّر كثيرًا في الأمر، وفي إغلاق هيلشام

وتداعياته كلِّها. أظنُّني بدأت أدرك أنَّ كثيرًا من الأشياء التي افترضت امتلاك متَّسع من الوقت لإنجازها قد اضطرُّ الآن إلى الإسراع في إتمامها، إن آجلًا أو عاجلًا، لئَّلا يفوتني ذلك إلى الأبد. لا يعني ذلك أنَّني قد فزعت تمامًا. لكنَّني شعرت طبعًا بأنَّ غياب هيلشام قد غيَّر كلَّ شيء حولنا. لهذا السبب، فإنَّ ما قالته لي لورا ذلك اليوم حول قيامي بإرشاد رُوث قد أثَّر فيَّ تأثيرًا عميقًا، مع أنَّني أوقفتها عند حدِّها آنذاك. بدا أنَّ جانبًا منِّي قد اتَّخذ ذلك القرار بالفعل، وأنَّ كلمات لورا قد كشفت النقاب الذي كان يغطِّيه.

***

بدأت بزيارة مركز الاستشفاء حيث كانت رُوث تقيم في دوفر- وهو المركز الحديث ذو الجدران المبلَّطة البيضاء- بعد عدَّة أسابيع من تلك المحادثة مع لورا. مضى نحو شهرين على تبرُّع رُوث الأوَّل- الذي لم يكلَّل بالنجاح، كما قالت لورا. عندما دلفت إلى حجرتها، كانت تجلس على حافَّة سريرها بقميص النوم. استقبلتني بابتسامة عريضة، ونهضت لتعانقني، لكنَّها عادت وجلست على الفور. أبلغتني أنَّني أجمل ممَّا كنت في الماضي، وأنَّ شعري يناسبني بالفعل. قلت بعض الملاحظات اللطيفة عنها كذلك. أظنُّنا بعد نصف ساعة أو نحوها، بتنا سعيدتين باجتماعنا معًا. تحدَّثنا حول كلِّ شيء- هيلشام، والأكواخ، وما كنَّا نفعله منذ تلك الأيَّام- شعرت وقتئذ أنَّ بوسعنا مواصلة الحديث إلى الأبد. بعبارة أخرى، كانت بداية مشجِّعة بالفعل- وأفضل كثيرًا ممَّا توقَّعت.

مع ذلك، فإنَّنا في المرَّة الأولى لم نقل شيئًا عن طريقة تفرُّقنا. ربَّما لو عالجناها في البداية لاختلفت النتائج، ومن يدري؟ ما حدث هو أنَّنا أغفلنا الموضوع، وقطعنا شوطًا طويلًا في الحديث، وكأنَّنا متَّفقتان على التظاهر بأنَّ شيئًا من هذا النوع لم يحدث على الإطلاق.

ربَّما كان الوضع جيِّدًا في هذا اللقاء الأوَّل. لكن حالما أصبحت مرشدتها رسميًا، وبدأت أراها بصورة منتظمة، برز شعور متزايد بأنَّ الأمور ليست على ما يرام. فقد وضعت برنامجًا روتينيًا بالذهاب إليها ثلاث أو أربع مرَّات في الأسبوع بعد الظهر، حاملة معي مياهًا معدنية وعلبة من البسكوت المفضَّل لديها. كان من المقرَّر أن يسير هذا الترتيب بشكل مدهش، غير أنَّه لم يكن كذلك في البداية. فقد نستهلُّ الجلسة بالحديث عن شيء ما، أيِّ شيء، وبنيَّة حسنة، لكنَّنا نتوقَّف من دون أيِّ سبب واضح. لكن إذا استطعنا مواصلة الحديث، فإنَّه يغدو أكثر تكلُّفًا وافتعالًا.

ذات يوم، ذهبت لرؤيتها بعد الظهر. أثناء سيري في الممرِّ الذي يفضي إلى مكانها، سمعت صوت شخص في ركن الحمَّام المقابل لباب حجرتها. خمَّنت أن رُوث هي التي كانت هناك، فدلفت إلى حجرتها. في انتظارها، وقفت أتأمَّل مشهدًا يضمُّ جميع سقوف البيوت من النافذة. مضت خمس دقائق، دخلت بعدها ملتفَّة بمنشفة. الحقيقة أنَّها لم تكن تتوقَّع زيارتي إلَّا بعد ساعة أخرى، وأظنُّنا جميعًا نشعر بعدم الارتياح عندما نخرج من الحمام وقد التفَّ جسمنا بمنشفة. لكنَّني فوجئت بعلامات الذعر التي بدت على وجهها. عليَّ أن أشرح ذلك الموقف الآن. توقَّعت منها أن تفاجأ بقدومي طبعًا. لكنَّ ما حدث هو أنَّها عندما دخلت وعرفت بوجودي، مرَّت برهة أو أكثر وهي تنظر إليَّ نظرة تجمع بين الخوف والحذر. بدا كأنَّها كانت تنتظرني، وتنتظر منِّي أن أفعل لها شيئًا ما، واعتقدت أنَّ الوقت قد حان لذلك الآن.

اختفت تلك النظرة بعد لحظات، وبدأنا الحديث كالعادة، لكن تلك الحادثة صدمتنا معًا. فقد عرفت لاحقًا أنَّ رُوث لم تكن تثق بي، وأنَّها ربَّما لم تدرك ذلك إلَّا بعد ذلك اليوم. على أيِّ حال، فإنَّ الأجواء ازدادت سوءًا بعد ذلك اليوم. بدا الأمر كأنَّنا كشفنا عن شيء ما، وأعلنَّاه على الملأ، وبدلًا من أن تصفو الأجواء، فقد زاد ذلك من وعينا لما كان بيننا أكثر من أيِّ وقت مضى. وصلت إلى

مرحلة كنت فيها أعمد قبل الذهاب لرؤيتها إلى الجلوس في سيَّارتي عدَّة دقائق لأجهِّز نفسي للمحنة القادمة. بعد واحدة من تلك الجلسات، وعندما اتَّخذنا عدَّة إجراءات لأغراض المتابعة، كنت أوشك على تقديم تقرير لهم بأنَّ المهمَّة باءت بالفشل، وأنَّني سأتوقَّف عن أداء مهمَّاتي كمرشدة لرُوث. لكن كلَّ شيء تغيَّر مرَّة ثانية. حدث ذلك كلُّه بسبب الزورق.

***

الله وحده يعلم كيف تحدث هذه الأمور. فقد تبدأ أحيانًا بنكتة ما، وأحيانًا بإشاعة. وهي تتنقَّل من مركز إلى مركز، وتقطع المسافات في طول البلاد وعرضها خلال أيَّام، وسرعان ما يتحدَّث عنها جميع المانحين. حسنًا، لقد كانت تتعلَّق هذه المرَّة بهذا الزورق. سمعت عنه أوَّل الأمر من اثنين من المانحين العاملين معي في نورث ويلز. بعد عدَّة أيَّام، بدأت رُوث نفسها بالحديث عنه. ارتحت كثيرًا لأنَّنا وجدنا آخر الأمر شيئًا نتحدَّث عنه، وقد شجَّعتها على الاستمرار في ذلك.

«هذا الولد في الطابق التالي»، قالت، «اصطحبته مشرفته بالفعل لرؤيته، وهو يقول إنَّه لا يبعد كثيرًا عن الطريق، ويمكن بالتالي لأيِّ شخص أن يصل إليه بسهولة. هذا الزورق. إنَّه موجود هناك. في بقعة السبخات».

«وكيف وصل إلى هناك؟»، سألتُ.

«أنَّى لي أن أعرف؟ ربَّما أراد أصحابه التخلُّص منه. أحيانًا عندما تغمر الفيضانات شيئًا ما، فإنَّه سينجرُّ مع التيَّار باتجاه الشاطئ. الله أعلم. يفترض أن يكون قارب صيد قديم. فيه قُمرة خاصَّة لاثنين من الصيَّادين يقيمان فيها عند هبوب العاصفة».

في زياراتي اللاحقة، أثارت مسألة الزورق على الدوام. بعد ظهر أحد الأيَّام، عندما بدأت بإبلاغي بأنَّ إحدى المانحات رأت الزورق برفقة مرشدتها، قلت لها:

«انظري، الزورق ليس قريبًا جدًّا من هنا كما تعلمين. قد يستغرق الوصول إليه بالسيَّارة نحو ساعة، وربَّما ساعة ونصف».

«لم أُشر إلى ذلك. أعلم أنَّ لديك مانحين آخرين تهتمِّين بشؤونهم».

«لكنَّك تريدين رؤيته. تريدين رؤية ذلك الزورق، أليس كذلك يا رُوث؟».

«أظنُّ ذلك. أظنُّني أرغب في ذلك. أنا أقضي كل الوقت، يومًا بعد يوم، في هذا المكان. بلى، سيكون من الجميل أن أرى شيئًا كهذا».

«وهل تعتقدين»- قلتُ بلطف وبلهجة بعيدة عن السخرية- «إذا كنَّا سنقطع هذه المسافة كلَّها، ألا ينبغي أن نزور تومي؟ مركز إقامته قريب جدًّا من مكان الزورق».

لم تبدُ على وجه رُوث أيَّة تعبيرات في البداية. قالت: «أظنُّ أنَّنا قد ننظر في الأمر». ثمَّ ضحكت وأضافت: «بصراحة يا كاثي، هذا لم يكن السبب الوحيد الذي دعاني إلى الحديث عن الزورق. نعم، أريد أن أراه. أرى الزورق بالفعل. كل هذا الوقت داخل المستشفى أو خارجه. ثمَّ تحديد إقامتي هنا. مثل هذه الأمور تغدو مهمَّة أكثر من أيِّ وقت مضى. لكن لا بأس. لقد كنت أعرف، كنت أعرف أنَّ تومي يقيم في مركز كنغزفيلد».

«هل أنت متأكِّدة من أنَّك ترغبين في رؤيته؟».

«بلى»، قالت من دون تردُّد وهي تنظر إليَّ. ثم تابعت بهدوء: «لم أرَ هذا الولد منذ وقت طويل. لم أره منذ أيَّام الأكواخ».

إذن، تحدَّثنا أخيرًا عن تومي. لم نتطرَّق إلى التفاصيل بشكل موسَّع، ولم أعرف أمورًا جديدة لم أكن أعرفها من قبل. أعتقد أنَّ علاقتنا تحسَّنت عندما أثرنا موضوع تومي. أبلغتني رُوث أنَّها، يوم

تركت الأكواخ في فصل الخريف بعدي، كانت قد انفصلت على نحو ما عن تومي.

«لأنَّنا كنَّا على كلِّ حال سنغادر إلى وجهات مختلفة لممارسة التدريب»، قالت، «فلم يكن هناك جدوى من الانفصال بطريقة مناسبة. لهذا السبب حافظنا على تلك العلاقة إلى أن رحلت».

في تلك المرحلة، لم نتحدَّث كثيرًا عن هذا الأمر. أمَّا بالنسبة للذهاب لرؤية الزورق، فإنَّني لم أوافق ولم أعترض عليها عندما تناقشنا للمرَّة الأولى. لكن رُوث ظلَّت تثير الموضوع خلال الأسبوعين اللاحقين، وتأكَّدت خططنا بصورة أوضح، حتَّى أرسلت رسالة إلى مرشدة تومي آخر الأمر، عن طريق أحد المعارف، أقول فيها إنَّنا سنزور تومي عند الظهر في الأسبوع القادم إذا لم يصلنا إشعار منه برفض استقبالنا.

الفصل التاسع عشر

نادرًا ما كنت أزور كنغزفيلد في تلك الأيَّام، لذا كان عليَّ مراجعة الخريطة مع رُوث عدَّة مرَّات في الطريق، فوصلنا متأخِّرتَين عدَّة دقائق. لم يُصنَّف كمركز جيِّد للاستشفاء، ولولا علاقته بالجمعيَّات التي أتعامل معها، لما رغبت بزيارته على الإطلاق. فهو بعيد عن الطريق الرئيس، ومن الصعب الوصول إليه، ولكن عندما تصل إلى هناك، يغادرك أيُّ إحساس بالسلام والهدوء. يمكنك أن تحسَّ دائمًا بمرور السيَّارات على الطرق الأساسية بعد السياج، وتشعر بصفة عامَّة أنَّهم لم يكملوا على الإطلاق تجديد المكان بصورة مناسبة. لا تستطيع الوصول إلى كثير من غرف المانحين باستخدام الكرسي المتحرِّك، وهي إمَّا فاسدة الهواء أو معرَّضة للريح. ليس هناك ما يكفي من الحمَّامات، كما يصعب تنظيف المتوافر منها، ويجمِّده الصقيع في الشتاء، ويبعد كثيرًا عن غرف المانحين. بعبارة أخرى، فإنَّ مستوى كنغزفيلد أدنى بكثير من مستوى مركز رُوث في دوفر، الذي يتميَّز بالبلاط اللامع والنوافذ ذات الزجاج المقوَّى والتي تغلق فور ملامسة مقابضها.

لاحقًا، بعد أن تحوَّلت كنغزفيلد إلى مكان مألوف ومهمٍّ، كنت ذات يوم في أحد مباني الإدارة، ورأيت صورة بالأبيض والأسود مؤطَّرة لهذا المكان قبل أن تُعاد هيكلته، عندما كان مجرَّد مخيَّم تقضي فيه العائلات العادية أيَّام العطلة. لا بدَّ من أنَّ الصورة قد التقطت في أواخر الخمسينيات أو أوائل الستينيات، وتظهر فيها بركة كبيرة مستطيلة الشكل وجمهرة من الأشخاص- من الأطفال وأهلهم- يطرطشون الماء ويستمتعون بوجودهم هناك كلَّ الاستمتاع. يتجلَّى ذلك بكلِّ وضوح حول البركة، حيث وضعوا صفًّا من الكراسي والمظلَّات التي تحميهم من أشعَّة الشمس. عندما رأيت ذلك، أدركت بعد فترة وجيزة أنَّني أشاهد ما يطلق المانحون عليه الآن اسم «الميدان»- وهو الموقع الذي توقِف سيَّارتك فيه عندما تصل إلى المركز. البركة مطمورة الآن، لكنَّ ملامحها ما زالت واضحة بطبيعة الحال. وقد أبقوا على الإطار المعدني الذي ترتكز عليه منصَّة القفز العالية، ما يدلُّ على أنَّ الترتيبات لم تُستكمل بعد. عندما شاهدت الصورة، أدركت لماذا كان ذلك الإطار هنا وما الغرض منه. لا يسعني كلَّما تذكَّرت الصورة اليوم إلَّا أن أتصوَّر أحد السبَّاحين وهو يقفز عن المنصَّة ويرتطم بالقاعدة الإسمنتية.

ربَّما لم أتبيَّن الميدان في تلك الصورة بسهولة، ما عدا البنايات المؤلَّفة من طابقين والمشابهة لخزَّانات الوقود في المؤخِّرة، على جوانب البركة الثلاثة، ولا بدَّ من أنَّ ذلك هو الموقع حيث كانت العائلات تستأجر شققًا تقيم فيها عند قضاء العطلة. ولا بدَّ من أنَّ التنظيم الداخلي للشقق قد تغيَّر كما أعتقد، إلَّا أنَّ مظهرها الخارجي لم يتبدَّل. أظنُّ أنَّ الميدان، لم يختلف في أكثر من ناحية عمَّا كان عليه منذ استخدام البركة. فهو المحور الرئيس للنشاط الاجتماعي في تلك البقعة، حيث درج المانحون على الخروج من غرفهم لاستنشاق الهواء النقيِّ والدردشة. هناك عدَّة أرائك حول الميدان، لكن، عندما تشتدُّ حرارة الشمس، أو يهطل المطر، بشكل خاصٍّ، فإنَّ المانحين يفضِّلون التجمُّع تحت السطح العريض الواسع لقاعة الترفيه في الطرف البعيد خلف إطار منصَّة الغطس القديمة.

عصر يومِ ذهابي مع رُوث إلى كنغزفيلد، كانت السماء ملبَّدة بالغيوم والطقس باردًا إلى حدٍّ ما،

وعندما دخلنا بالسيَّارة إلى الميدان، كان خاليًا من الناس، باستثناء ستَّة أو سبعة أشخاص غامضين تحت تلك السقيفة. حين أوقفتُ السيَّارة في مكان ما قرب البركة القديمة- التي لم أكن على علم بها بالطبع- تحرَّك أحد هؤلاء الأشخاص بعيدًا عن المجموعة واتَّجه نحونا. أدركت أنَّه تومي. كان يرتدي قميصًا رياضيًا أخضر باهت اللون. بدا أنَّ وزنه قد زاد بضعة كيلوغرامات عن آخر مرَّة رأيته.

لبرهة وجيزة، تولَّى الفزع رُوث، التي كانت إلى جانبي. «ما الذي سنفعله الآن؟»، قالت. «هل نخرج؟ لا، لا، لن نخرج. لا تتحرَّكي، لا تتحرَّكي».

لا أعرف ما كنت أعتزم فعله، لكن عندما قالت رُوث ذلك، ولسبب ما، ترجَّلت من السيَّارة من دون أن أفكِّر في الأمر فعلًا. بقيت رُوث مكانها. لهذا السبب، فإنَّ تومي حين أقبل نحونا، حدَّق إليَّ ثمَّ عانقني أوَّلًا. شممت رائحة خفيفة لم أحدِّدها تمامًا لعلاج طبِّي تنبعث منه. مع أنَّنا لم نكن قد تبادلنا الحديث بعد، شعرنا بأن رُوث كانت تراقبنا من السيَّارة، فابتعدنا عنها.

كانت السماء تلتمع في زجاج السيَّارة الأمامي، فلم أستطع أن أتبيَّن ملامحها بوضوح. لكن تولَّد لديَّ انطباع بأنَّ رُوث كانت تحدِّق إلى كلينا بنظرة جادَّة وجامدة تقريبًا، كما لو كنَّا اثنين من الممثِّلين يؤدِّيان دورًا ما على المسرح. حملت نظرتها تلك معنى غريبًا أثار الضيق في نفسي. عندها مرَّ تومي إلى جانبي وتوجَّه نحو السيَّارة. فتح الباب الخلفي، وجلس في المقعد الخلفيِّ، ثمَّ حان دوري في مراقبتهما داخل السيَّارة، وهما يتبادلان الحديث، ثمَّ يتبادلان قُبلات قصيرة ومهذَّبة على الخدَّين.

على الجانب الآخر من الميدان، كان المانحون تحت السقيفة يراقبون كذلك. لم أشعر أنَّهم بذلك يتصرَّفون تصرُّفًا عدائيًا، لكنَّني أردت الخروج من ذلك المكان بسرعة، غير أنَّني تظاهرت بالتريُّث في عودتي إلى السيَّارة، لأتيح لتومي ورُوث مزيدًا من الوقت معًا.

***

انطلقنا بالسيَّارة عبر شبكة من الدروب الضيِّقة المتعرِّجة. ثمَّ خرجنا إلى بقعة ريفية فسيحة خالية من التضاريس، وسلكنا طريقًا شبه خالية. ما أذكره عن تلك المرحلة من رحلتنا إلى الزورق هو أنَّ الشمس بدأت للمرَّة الأولى منذ زمن طويل ترسل أشعَّتها الخافتة عبر ذلك الجوِّ الرمادي الملبَّد، وأنَّني كلَّما وجَّهت ناظريَّ إلى رُوث الجالسة إلى جانبي، كنت ألمح على وجهها ابتسامة قصيرة مطمئنَّة. أمَّا ما تحدَّثنا عنه، حسنًا، أتذكَّر أنَّنا تصرَّفنا كأنَّنا نلتقي بصورة منتظمة، ولم تكن ثمَّة حاجة للحديث عن أيِّ شيء، ما عدا ما يدور أمامنا مباشرة. سألت تومي إن كان قد رأى القارب من قبل، فأجاب بالنفي، ولكنَّ عددًا كبيرًا من المانحين في المركز فعلوا ذلك، وقد أتيحت له عدَّة فرص لذلك، لكنَّه لم يغتنمها.

«لم أرغب في الذهاب»، قال وهو ينحني إلى الأمام في المقعد الخلفي. «لم يهمَّني هذا الأمر في الواقع. كنت أعتزم الذهاب ذات يوم مع شخصين آخرين ومرشدَيهما، لكنَّني أُصبت بنزيف، ولم أعد قادرًا على الذهاب. كان ذلك منذ عهد بعيد. ولم أعد الآن أعاني من مثل هذه المتاعب».

بعد قليل، وفيما كنَّا نواصل تجوالنا في المنطقة الريفية، استدارت رُوث في مقعدها بحيث أصبحت تواجه تومي، وواصلت التحديق إليه. كانت البسمة ما زالت تعلو وجهها، لكنَّها لم تقل شيئًا. كنت أرى في المرآة بشكل واضح تمامًا أنَّ تومي لا يحسُّ بالارتياح. كان ينظر إلى الخارج من النافذة إلى جانبه، ثمَّ يستدير لينظر إليها، ثمَّ ينظر من النافذة مرَّة أخرى. بعد قليل، راحت رُوث تروي، من دون أن تحوِّل نظراتها عنه، حكايات عن هذا الأمر أو ذاك، تتمحور كلُّها حول

أحد المانحين الذي لم نسمع به من قبل، وظلّت تنظر إلى تومي طوال الوقت، فيما ترتسم على وجهها تلك الابتسامة اللطيفة. ربَّما لأنَّني مللت من سماع حكاياتها، وأردت أن أساعد تومي في التخلُّص من هذا الموقف، فقد قاطعتها بعد دقيقة أو نحوها بقولي:

«نعم، حسنًا، نحن لا نريد أن نسمع آخر المستجدَّات».

قلت ذلك بنيَّة حسنة، ولم أقصد به الإساءة لأحد على الإطلاق. لكن قبل أن تتوقَّف رُوث، بل فيما كنت أدلي بهذه العبارة، قهقه تومي قهقهة مدوِّية فجأة، أشبه بالانفجار، وبصورة لم أعهدها فيه من قبل. ثمَّ قال:

«هذا بالضبط ما كنت أوشك على قوله، ولكنَّ حبل أفكاري انقطع قبل برهة».

كنت أركِّز بصري على الطريق، فلم أتأكَّد بالتالي إن كان يخاطبني أم يخاطب رُوث. على أيِّ حال، توقَّفت رُوث عن الحديث، واستدارت في مقعدها ببطء، حتَّى أصبحت تواجه المقدِّمة مرَّة ثانية. لم يظهر عليها الانزعاج بصورة خاصَّة، ولكن ابتسامتها زالت، وحدَّقت عيناها بعيدًا، مركِّزتان على نقطة محدَّدة في السماء أمامنا. لكن عليَّ أن أكون صريحة هنا: فلم أكن وقتذاك أفكِّر في رُوث. لقد رقَّ قلبي في تلك اللحظة، لأنَّه شعر مع تلك الضحكة التوافقية القصيرة، وفي خفقة واحدة، كما لو أنَّني تقاربت مع تومي مرَّة أخرى، بعد أن تباعدنا على مدى عدَّة سنوات.

وجدت المنعطف الذي نريده على بُعد عشرين دقيقة من كينغزفيلد. هبطنا على طريق متعرِّج ضيِّق، امتدَّ على جانبيه سياجان كثيفان من الشجيرات. أوقفت السيَّارة على مقربة من أجمة من أشجار الجمَّيز. تصدَّرتُ المجموعة في التوجُّه إلى مدخل الغابة، لكنَّني بعد أن حرت في أمري أمام ثلاثة معابر متميِّزة بين الأشجار، اضطررت إلى تفحُّص الخريطة التي جلبتُها معي بحثًا عن الاتجاه الصحيح. فيما كنت أقف هناك، وأحاول فكَّ الرموز التي كتبها ذلك الشخص، أدركت فجأة أنَّ رُوث وتومي كانا يقفان خلفي، صامتين، وكأنَّهما طفلان ينتظران التوجيه إلى الطريق الصحيح.

دخلنا الغابة، ومع أنَّه كان من السهل السير فيها، لاحظت أنَّ رُوث كانت تعاني صعوبة متصاعدة في التنفُّس. بالمقابل، لم يظهر على تومي أنَّه يواجه أيَّة متاعب، مع أنَّه كان يعرج في مشيته. وأخيرًا وصلنا إلى سياج من الأسلاك الشائكة المائلة الصدئة، وقد تناثرت في أطراف المكان. عندما رأتها رُوث، توقَّفت بصورة مفاجئة: «آه، آه»، قالت بلهجة قلقة. ثمَّ نظرت إليَّ قائلة: «لم تقولي أيَّ شيء عن ذلك. لم تقولي إنَّ علينا اجتياز سياج من الأسلاك الشائكة!».

«لن يكون الأمر صعبًا»، قلت. «يمكننا أن نزحف تحته. سيمسك به أحدنا فيما يقوم الآخر بالتسلُّل تحته».

بدا الاضطراب على رُوث فعلًا، فلم تتحرَّك. كان كتفاها يرتفعان وينخفضان تباعًا مع الشهيق والزفير. بدا على تومي للمرَّة الأولى أنَّه يعرف ما تحسُّ به من ضعف. ربَّما كان قد شعر بذلك من قبل، ولكنَّه لم يُرد الاعتراف به. لكنَّه حدق إليها الآن لعدَّة ثوان. مع أنَّني لست متأكِّدة تمامًا، أظنُّ أنَّني وتومي قد تذكَّرنا عندئذ ما كان قد حدث في السيَّارة، عندما تحالفنا ضدَّها تقريبًا. لكنَّنا اندفعنا الآن، غريزيًا تقريبًا، نحوها. أمسكت بإحدى ذراعيها، وأسند تومي كوعها على الجانب الآخر، وبدأنا ندفعها بلطف صوب السياج.

أفلتُّ رُوث لأتمكَّن من اختراق الحاجز. ثمَّ رفعت الأسلاك إلى الأعلى قدر المستطاع، وساعدناها على اجتيازه. لم تجد صعوبة في ذلك آخر الأمر، لأنَّ ثقتها بنفسها كانت عالية، كما بدا أنَّ مساعدتنا لها قد أزالت خوفها من السياج. على الجانب الآخر، ساعدتني بدورها على رفع سياج

الأسلاك لتومي، فاجتاز الحاجز من دون عناء. قالت له:
«ما عليك إلَّا أن تنحني قليلًا هكذا. أنا لا أتقن هذه الحركة أحيانًا».
إلَّا أنَّ الخجل تولَّى تومي، وقد تساءلت عمَّا إذا كان مُحرَجًا جرَّاء ما حدث قبل قليل، أو أنَّه تذكَّر تحالفنا ضدَّ رُوث في السيَّارة. أشار إلى الأشجار أمامنا، وقال:
«أظنُّه الاتِّجاه الصحيح، أليس كذلك يا كاث؟».
ألقيت نظرة خاطفة على الورقة التي معي، وسارا خلفي. عندما توغَّلنا بين الأشجار اشتدَّت العتمة وازداد عمق المستنقع.
سمعت رُوث تقول لتومي ضاحكة: «آمل ألَّا نضيع». لكنَّني وجدت مخرجًا غير بعيد. هنا، تأمَّلت كثيرًا في الأمر، وأدركت لماذا انزعجتُ كثيرًا لما حدث في السيَّارة. فلم يكن الأمر يتعلَّق فقط بتحالفنا ضدَّ رُوث؛ بل بالطريقة التي تقبَّلتْ بها ما حدث. في الماضي، لم يكن أحد يتصوَّر أنَّها ستدع تلك الحادثة تمرُّ من دون أن تردَّ الصاع صاعين. عندما استوعبت تلك الفكرة، تباطأتُ على الطريق، وانتظرت من رُوث وتومي أن يلحقا بي، ووضعت ذراعي حول كتفيها.
لم يكن في حركتي تلك شيء من المبالغة، بل كانت مجرَّد تصرُّف طبيعي يقوم به المرشدون، لأنَّه كان ثمَّة **شيء** غير طبيعي في مشيتها، وعجبت لأنَّني لم أقدِّر حقَّ التقدير مدى ما كانت تحسُّ به من ضعف. بدأت أنفاسها تضيق، وفيما كنَّا نسير معًا، كانت بين الفينة والفينة تحيد وتميل إليَّ فجأة. كنَّا عندئذ قد اجتزنا البقعة المشجَّرة، وخرجنا إلى الأرض الخالية، وشاهدنا الزورق.
في الحقيقة، لم تطأ أقدامنا الأرض الخالية: كلُّ ما في الأمر أنَّ الغابة الصغيرة التي اجتزناها قد بلغت حدودها القصوى، وامتدَّت أمامنا على مدى البصر سبخات فسيحة، وكانت السماء الباهتة فوقنا شديدة الاتِّساع، وبوسعك أن ترى انعكاساتها وهي تتموَّج على بقع المياه المنبثقة من باطن الأرض. لا بَّد من أنَّ الغابات كانت، حتَّى عهد قريب، تمتدُّ إلى ما هو أبعد من ذلك، لأنَّه كان بوسعك أن ترى هنا وهناك جذوع الأشجار العفنة القبيحة الشكل النافرة من التربة، التي لم يكن أكثرها يعلو على الأغلب أكثر من بضعة أقدام. وراء الجذوع الميتة، وربَّما على بُعد ستِّين ياردة، كان القارب راقدًا في المستنقع تحت أشعَّة الشمس الغاربة.
«أوه، انظروا. إنَّه كما وصفته صديقتي تمامًا»، قالت رُوث. «إنَّه جميل بالفعل».
خيَّم علينا الصمت. عندما بدأنا التحرُّك باتِّجاه الزورق، كان من الممكن أن تسمع وقع خطانا ونحن نخوض في الوحل. بعد فترة وجيزة، أحسست بقدميَّ تغوصان في كتل الأعشاب المتشابكة، فقلت بصوت عال: «حسنًا، هنا نهاية المطاف. لا يمكننا التقدُّم بعد هذا الحدِّ».
لم يعترض الشخصان الآخران خلفي. وعندما نظرت إلى الخلف، رأيت تومي وهو يمسك ذراع رُوث مجدَّدًا. كان واضحًا أنَّه يحاول تثبيتها والمحافظة على توازنها. خطوت خطوات عريضة نحو الأقرب من جذوع الأشجار الميتة، حيث كانت التربة أكثر صلابة، وأمسكت بها للمحافظة على توازني. حذا حذوي تومي ورُوث كليهما، وتوجَّها نحو جذع آخر مجوَّف وأكثر هزالًا من الجذع الذي أمسكت به على مسافة قصيرة إلى يساري. وقفا ثابتين ومستقرَّين على جانبيه. وبعدئذ تفرَّسنا مليًّا في الزورق الراقد هناك. كان بوسعي أن أرى الآن آثار التشقُّق في الدهان، وتصدُّع الأطر الخشبية المتساقطة من الكابينة الصغيرة. كان الزورق قد دُهن في الماضي باللون الأزرق السماوي، ولكنَّه تحوَّل الآن إلى ما يشبه اللون الأبيض.
«تُرى، كيف وصل إلى هنا؟»، سألتُ، وقد رفعت صوتي ليسمعاني. توقَّعت أن يكون هناك صدى لما قلته، ولكنَّ صوتي كان قريبًا إلى درجة مدهشة، وكأنَّني كنت أتحدَّث في حجرة مغطَّاة

بالسجَّاد.
ثمَّ سمعت تومي يقول خلفي: «ربَّما تبدو هيلشام بهذه الهيئة الآن، هل تعتقدين ذلك؟».
«لماذا ستبدو بهذا الشكل؟»، بدا على رُوث ارتباك حقيقي. «لن تتحوَّل إلى سبخة لمجرَّد أنَّها أُغلقت».
«لا أعتقد ذلك. وهذا ليس ما أفكِّر فيه. لكنَّني كنت دائمًا أرى أن هيلشام ستكون بهذا الشكل الآن. وذلك مخالف للمنطق. الحقيقة أنَّ ذلك يطابق الصورة المرسومة في ذهني عنها. ما عدا أنَّه ليس فيها زورق بالطبع. ولن يكون الوضع سيِّئًا جدًّا إذا كانت تبدو بهذا الشكل الآن».
«هذا غريب»، قالت رُوث. «راودني حلم ذات صباح. حلمت أنَّني في الغرفة رقم ١٤. كنت أعرف أنَّ المكان قد أُغلق. لكنَّني كنت هناك، في الغرفة ١٤، أنظر إلى الخارج من النافذة. كان الفيضان يغمر كلَّ شيء في الخارج. كما لو كنت أشهد بحيرة هائلة هائجة، وكان بوسعي أن أرى أكوامًا من النفايات تطفو تحت نافذتي، وصناديق زجاجات فارغة، وكلَّ شيء. لكن لم يكن هناك أيُّ إحساس بالفزع أو بأيِّ شيء من هذا القبيل. كانت الأجواء لطيفة وهادئة، كما هي هنا. كنت أعلم أنَّ خطرًا لا يهدِّدني، وأنَّ الوضع كان كذلك لأنَّ المكان قد أُغلق».
قال تومي: «كانت ميغ ب. في مركزنا لبعض الوقت. غادرتنا إلى مكان ما في الشمال لتقديم تبرُّعها الثالث. ولا أعرف مطلقًا كيف سارت أمورها. هل عرفتما شيئًا عنها؟».
هززت رأسي. ولأنَّني لم أسمع رُوث تقول أيَّ شيء، فقد التفتُّ إليها. ظننت أوَّل الأمر أنَّها كانت ما تزال تتفرَّس في الزورق، لكنَّني لاحظت أنَّها كانت تنظر إلى ذيل من البخار ينبعث من مؤخِّرة طائرة تحلِّق في الفضاء البعيد، وتنطلق إلى الأعلى. بعدئذ قالت:
«سأقول لكما شيئًا نُمي إلى علمي. سمعته عن كريسي. سمعت أنَّها استكملت خلال تبرُّعها الثاني».
«سمعت عن ذلك أيضًا»، قال تومي. «لا بدَّ من أنَّ ذلك صحيح. وسمعت الخبر نفسه عن شخص آخر. يا للخسارة! التبرُّع الثاني فقط. أنا سعيد لأنَّ ذلك لم يحدث لي».
«أعتقد أنَّه يحدث بصورة أكثر تكرارًا ممَّا يقولونه لنا»، قالت رُوث. «مرشدتي موجودة هناك. وربَّما كانت تعلم أنَّ ذلك صحيح. ولكنَّها لن تعترف».
«لا توجد مؤامرة كبيرة حول الموضوع»، قلت فيما أدرت وجهي نحو الزورق. «هذا يحدث أحيانًا. ما حدث لكريسي أمر محزن جدًّا. لكنَّه ليس شائعًا. صاروا أكثر حرصًا وعناية هذه الأيَّام».
«لكنَّه يحدث بصورة أكثر تكرارًا ممَّا يقولونه لنا»، قالت رُوث مرَّة ثانية. «هذا واحد من الأسباب التي تجعلهم ينقلوننا هنا وهناك بين تبرُّع وآخر».
«التقيت رودني ذات يوم»، قلت. «كان ذلك بعد وقت قصير من استكمال كريسي. رأيته في تلك العيادة، في نورث ويلز. كانت أموره تسير على ما يرام».
«من المؤكَّد أنَّ قلبه انفطر حزنًا على كريسي»، قالت رُوث ثمَّ وجَّهت حديثها إلى تومي، «لا يقولون لك نصف الحقيقة، ألا تعتقد ذلك؟».
«في الواقع،» قلت. «إنَّه لم يتفجَّع على ذلك. من الواضح أنَّه كان حزينًا. لكنَّه كان في وضع معقول. قضيا بضع سنوات من دون أن يرى أحدهما الآخر. قال إنَّه يعتقد أنَّ كريسي لم تكن لتأبه للأمر. أظنُّ أنَّه محقٌّ».
«ولماذا محقٌّ؟»، سألت رُوث. «أنَّى له أن يعرف ما كانت تشعر به كريسي؟ وما كانت تريد؟

هو لم يكن ذلك الشخص الممدَّد على المنضدة، يجاهد للمحافظة على حياته. كيف كان له أن يعلم؟».
ثورة الغضب هذه هي التي عرفناها في رُوث القديمة. وقد دفعتني إلى أن أستدير نحوها ثانية. ربَّما كان الأمر يقتصر على جحوظ عينيها، لكنَّها حدَّقت إليَّ بنظرة قاسية حازمة.
قال تومي: «هذه حادثة بالغة السوء. الاستكمال عند التبرُّع الثاني فقط. حادثة بالغة السوء».
«لا أعتقد أنَّ رودني كان يشعر بالارتياح لما حدث»، قالت رُوث، «أنتِ تحدَّثت إليه لدقائق معدودة فقط، فكيف استطعت الاستنتاج؟».
«صحيح»، قال تومي، «لكن إذا صحَّ كلام كاث، فلا بدَّ من أنَّهما كانا عندئذ قد انفصلا منذ مدَّة»...
«ذلك لا يهمُّ إطلاقًا»، قالت رُوث فجأة. «إنَّ ذلك قد يجعل الأمر أسوأ من أكثر من ناحية».
«أعرف أشخاصًا كثيرين في وضع رودني»، قلت. «وهم يتعايشون مع الأمر».
«كيف تعرفين ذلك؟»، قالت رُوث. «كيف يمكنك أن تعرفي ذلك؟ أنت ما زلت مرشدة».
«كوني مرشدة يتيح لي معرفة أمور كثيرة. أمور كثيرة جدًّا».
«ليس لها أن تعرف، هل لها يا تومي؟ لن تعرف ما يعنيه ذلك بالفعل».
نظرنا إلى تومي لعدَّة ثوان، لكنَّه واصل النظر إلى الزورق. ثمَّ قال:
«هناك شخص ما، في المركز الذي أقيم فيه، يساوره القلق دائمًا من أنَّه لن ينجح بعد التبرُّع الثاني. كان يقول إنَّه يحسُّ بذلك حتَّى العظم. لكن الأمر انتهى على ما يرام. وصل الآن إلى الثالث، وهو في أفضل حال»، ورفع كفَّه ليستر عينيه. «أنا لم أكن بارعًا كمرشد. بل لم أتعلَّم قيادة السيَّارة. أعتقد أنَّ هذا هو السبب للتبكير في وضع التقرير عنِّي. أدرك أنَّ الأمر كان ينبغي أن يكون مختلفًا عن ذلك، ولكن هذا هو ما حدث. لم أنزعج في الواقع. فأنا مانح ممتاز، لكنَّني كنت مرشدًا خائبًا».
لم ينبس أحد بكلمة لبعض الوقت، ثمَّ قالت رُوث بلهجة أكثر هدوءًا الآن:
«أعتقد أنَّني كنت مرشدة متميِّزة. لكن فترة السنوات الخمس كانت كافية بالنسبة لي. كنت مثلك يا تومي. كنت مهيَّأة تمامًا عندما تحوَّلت إلى مانحة. كان ذلك هو الوضع الصحيح. في الأحوال كافَّة، فإنَّ العنصر الأهمَّ هو ما **يفترض** فينا أن نعمله، أليس كذلك؟».
لم أكن متأكِّدة من أنَّها توقَّعت منِّي الردَّ على ذلك. فهي لم تقل ذلك بطريقة واضحة، ومن الممكن تمامًا أنَّها من العبارات التي اعتادت أن تردِّدها دائمًا. عندما نظرت إليها ثانية، كان تومي ما زال يستر عينيه بيده.
«من المؤسف أنَّنا لا نستطيع أن نقترب من الزورق أكثر من ذلك»، قال. «ربَّما سنعود هنا ذات يوم، عندما يكون الطقس أكثر جفافًا».
«إنَّني سعيدة لرؤيته»، قالت رُوث بصوت ناعم. «إنَّه جميل بالفعل. لكن أحسُّ أنَّ عليَّ العودة الآن. فهذه الريح شديدة البرودة».
«لقد رأيناه على الأقل»، قال تومي.

***

تحدَّثنا بحرِّية في طريق عودتنا إلى السيَّارة، أكثر ممَّا فعلنا أثناء خروجنا من المكان. قارنت رُوث وتومي بين انطباعاتهما عن مركز كلٍّ منهما- من حيث الطعام، والمناشف، وما إلى ذلك- وكنت دائمًا جزءًا أساسيًا من الحديث لأنَّهما كانا يوجِّهان لي الأسئلة عن المراكز الأخرى، وإذا

كان هذا الشيء أو ذاك موجودًا فيها. صارت مشية رُوث الآن أكثر ثباتًا، وعندما وصلنا إلى السياج، ورفعتُ حاجز الأسلاك، لم يبدُ عليها التردُّد هذه المرَّة.
صعدنا إلى السيَّارة، وجلس تومي في المقعد الخلفي مرَّة أخرى، وصفَت الأجواء بيننا لبعض الوقت. عندما أسترجع تلك اللحظة، أحسُّ بأنَّ شيئًا ما ربَّما كان ناقصًا، ولكن من المحتمل أنَّني أفكِّر هكذا بسبب ما حدث في وقت لاحق.
كانت البداية أشبه بما حدث في وقت سابق. فقد عدنا إلى الطرق الطويلة شبه الخالية، وأدلت رُوث بملاحظة عن مُلصق مررنا به. لا أذكر الملصق الآن، لأنَّه كان أحد الملصقات الإعلانية الضخمة على جانب الطريق. وقد أدلت بتلك الملاحظة لنفسها تقريبًا. من الواضح أنَّها لم تعني بها شيئًا محدَّدًا، إذ قالت ما معناه: «يا إلهي، انظرا إلى هذا. كان عليهم، **على الأقل**، أن يحاولوا ابتكار شيء جديد».
غير أنَّ تومي، من مكانه في الخلف، قال: «أنا معجب بالملصق كلَّ الإعجاب. نُشر في الصحف كذلك. أعتقد أنَّ فيه لمسة خاصَّة».
ربَّما كنت أتوق إلى هذا الشعور مرَّة أخرى، الشعور بتوثيق علاقتي بتومي مرَّة أخرى. ولأنَّ السير إلى الزورق كان يبعث على الارتياح بحدِّ ذاته، فقد بدأت أشعر بأنَّه، باستثناء ذلك العناق بيننا للمرَّة الأولى، وتلك اللحظة في السيَّارة قبل ذلك، لم يكن هناك ما يجمعنا. على أيِّ حال، وجدت نفسي أقول:
«في الواقع، أنا أحبُّها أيضًا. إنَّ صُنع هذه الملصقات يتطلَّب الكثير من الجهد».
«هذا صحيح،» قال تومي. «أخبرني أحدهم أنَّ ابتكار هذا العمل يستغرق عدَّة أسابيع، بل عدَّة شهور. وربَّما ينشغل بعض الناس بها طوال الليل، وليلة بعد أخرى، حتَّى اللمسات الأخيرة فيها».
قلت: «من السهولة أن ننتقد شيئًا ما عندما نمرُّ به مرور الكرام».
«ذلك أسهل شيء في العالم»، قال تومي.
لم تقُل رُوث شيئًا، بل واصلت النظر إلى الطريق الخالية أمامنا. عندئذ قلت:
«بما أنَّنا نتحدَّث عن الملصقات. شاهدت واحدًا منها في طريقنا إلى هنا، سنراه سريعًا على الجانب الآخر عند العودة. سيكون على الجانب الذي نسير فيه الآن. سيطالعنا في أيِّ وقت».
«وما نوعه؟»، سأل تومي.
«سترى بنفسك. سيظهر أمامنا بعد لحظات».
ألقيت نظرة خاطفة على رُوث بجانبي. لم تكن غاضبة، بل مرتبكة نوعًا ما. أملت أن يكون ظهور الملصق مؤشِّرًا على ذكريات طيِّبة في الماضي، شيء يذكِّرنا بهيلشام وما إلى ذلك. تلمَّست ذلك كلَّه في قسماتها التي لم تكن تستقرُّ على تعبير واحد، بل تتعاقب عليها مشاعر شتَّى سريعة التقلُّب. لكنَّها ظلَّت تحدِّق إلى الأمام.
أبطأت حركة السيَّارة، ثم أوقفتها على جانب الطريق، على حافَّة بقعة من الحشائش الخشنة.
«لماذا توقَّفنا يا كاث؟»، سأل تومي.
«لأنَّ بوسعك أن تراه بصورة أفضل. إذا اقتربنا منه كثيرًا، سيكون علينا أن نُعلي من أبصارنا إلى حدٍّ بعيد».
سمعت تومي يتحرَّك خلفنا، ليرى بصورة أفضل. لم تتحرَّك رُوث، ولم أكن متأكِّدة أبدًا أنَّها كانت تنظر إلى الملصق.
«حسنًا، إنَّها ليست مطابقة تمامًا»، قلت بعد لحظات. «لكنَّها تذكِّرني بشيء ما، مكتب فسيح

مريح، وأشخاص بارعين يبتسمون».

التزمت رُوث الصمت. لكنَّ تومي قال في الخلف: «فهمت الآن. فهمت ما تقصدين. إنَّه يشبه المكان الذي ذهبنا إليه في ذلك الوقت».

«ليس ذلك فقط»، قلت. «إنَّه يشبه ذلك الإعلان كلَّ الشبه. الإعلان الذي عثرنا عليه على الأرض. أتذكرين ذلك يا رُوث؟».

«لست متأكِّدة من أنَّني أذكر ذلك»، قالت بهدوء.

«آه، هيَّا. تذكَّري. عندما عثرنا على المجلَّة في إحدى الطرقات، إلى جانب بركة صغيرة موحلة. وقد لفتت انتباهك. هيَّا، لا تتظاهري بأنَّك لا تتذكَّرين».

«أعتقد أنَّني أتذكَّر ذلك». بدا صوت رُوث الآن أقرب إلى الهمس. مرَّت إلى جانبنا شاحنة بصورة ارتجَّت معها سيَّارتنا، وحجبت عنَّا لوحة الإعلانات لعدَّة ثوانٍ. طأطأت رُوث رأسها، كأنَّها كانت ترجو من الشاحنة أن تزيل الصورة إلى الأبد. عندما رأيناها مرَّة أخرى، لم ترفع ناظريها.

قلت: «طريفٌ تذكُّر الأمر كلِّه الآن. تذكَّري كيف كنت تتحدَّثين عنه، وأنَّك ستعملين ذات يوم في مكتب مثله؟».

«آه صحيح. هذا هو السبب الذي دفعنا إلى الذهاب هناك في ذلك اليوم». قال تومي وكأنَّه لم يتذكَّر إلَّا في تلك اللحظة. «عندما ذهبنا إلى نورفولك. ذهبنا للبحث عن بديلتك. وعن العمل في مكتب».

«ألا تعتقدين أحيانًا»، قلت لرُوث، «أنَّه كان عليك أن تفكِّري في الموضوع بمزيد من التركيز؟ حسنًا. لقد كنتِ الأولى. الأولى بيننا التي عرفنا بأنَّها ستقوم بوظيفة ما. ولكن كان بوسعك أن تقومي بتلك الخطوة. ألا تتساءلين أحيانًا عمَّا كان سيحدث لو حاولت ذلك؟».

«وكيف لي أن أحاول؟»، قالت بصوت أقرب للهمس، «إنَّه مجرَّد شيء كنت أحلم به. هذا كلُّ ما في الأمر».

«ليتك فكَّرت في ذلك على الأقل. كيف لك أن تعرفي؟ ربَّما كانوا سيسمحون لك».

«نعم يا رُوث»، قال تومي. «ربَّما كان عليك أن تحاولي على الأقل. لقد فكرتِ مليًّا في الأمر. وأعتقد أنَّ كاث على حقٍّ».

«لم **أفكِّر مليًّا** في الأمر يا تومي. على الأقل، أنا لا أتذكَّر أنَّني فكَّرت في الأمر».

«لكن تومي على حقٍّ. كان عليك أن تحاولي على الأقل، ها قد رأيت ملصقًا مثل هذا، وتذكَّرت أنَّ ذلك هو ما أردتِه ذات يوم، وأنَّك فكَّرت في الأمر على الأقل».

«كيف لي أن أفكِّر في الأمر؟»، لأوَّل مرَّة، شاب صوت رُوث شيء من القسوة، لكنَّها تنهَّدت بعد ذلك وطأطأت رأسها مرَّة أخرى. عندئذ قال تومي:

«تحدَّثت عن الموضوع وكأنَّك تستحقِّين معاملة خاصَّة. كما تعلمين، كان بوسعك أن تفعلي ذلك. ليتك سألت على الأقل».

«طيِّب»، قالت رُوث. «تقول إنَّه كان عليَّ النظر في الأمر. كيف؟ أين كنت سأذهب؟ لم يكن هناك مجال لدراسة الموضوع».

«مع ذلك، فإنَّ تومي على حقٍّ»، قلت. «لو كنت تؤمنين أنَّك تتمتَّعين بخصوصية ما، لكان الأجدر بك أن تسألي على الأقل. كان عليك أن تذهبي إلى المدام».

حالما قلت ذلك- وحالما ذكرت اسم المدام- أدركت أنَّني أخطأت. فقد نظرت إليَّ رُوث، ولمحت

على محيَّاها ما يوحي بالانتصار. ذلك ما تراه في الأفلام أحيانًا، عندما يوجِّه أحد الأشخاص مسدَّسه إلى شخص آخر، ويرغمه القيام بعدَّة أشياء، وفجأة، يقع خطأ ما، ويصبح المسدَّس في يد الشخص الآخر، فينظر إلى الشخص الأوَّل وقد علت وجهه ابتسامة مشرقة، كأنَّه يهنِّئ نفسه على فرصة الانتقام التي أتيحت له أخيرًا بأكثر من وسيلة. حسنًا. هكذا نظرت رُوث إليَّ فجأة. ومع أنَّني لم أقل شيئًا عن الإرجاءات، إلَّا أنَّني ذكرت اسم المدام، وأدركنا أننا دخلنا مجالًا جديدًا تمامًا.

أدركت رُوث مقدار فزعي، واستدارت في مقعدها لمواجهتي. هيَّأت نفسي للتصدِّي لهجومها؛ وقلت لنفسي إنَّه مهما كانت مآخذها عليَّ هذه المرَّة، فإنَّ الوضع مختلف الآن، ولن أتساهل معها، أو أتركها تفلت من العقاب كما فعلت في الماضي. قلت كلَّ هذا لنفسي. لم أكن بالتالي مستعدَّة لما قامت به بعد ذلك.

«كاثي»، قالت، «أنا لا أتوقَّع منك أن تغفري لي على الإطلاق. بل إنَّني لا أرى أنَّ لديك مبرِّرًا لفعل ذلك، لكنَّني سأطلب منك ذلك على أيِّ حال».

فاجأني ذلك. لم أجد ما أقوله غير عبارة ركيكة من نوع: «ما الذي أغفره لك؟».

«ما الذي تغفرينه لي؟ حسنًا، هناك أوَّلًا الطريقة التي كنت دائمًا أكذب بها عليك حول نوازعك. عندما كنت تقولين لي آنذاك كيف أنَّها تبلغ أحيانًا حدًّا يدفعك إلى أن تفعليها مع أيِّ شخص تقريبًا».

تحرَّك تومي مرَّة أخرى خلفنا، ولكنَّ رُوث كانت تنحني إلى الأمام الآن وتحدِّق إليَّ بثبات، وكأن تومي ليس معنا في السيَّارة إطلاقًا.

«عرفت كم أزعجك ذلك»، قالت. «كان عليَّ أن أخبرك كم أنَّ وضعك كان مثل وضعي تمامًا، وبالطريقة التي وصفتها. أعلم أنَّك تدركين ذلك كلَّه الآن. لكنَّك لم تعرفيه آنذاك. كان عليَّ أن أقول ذلك. كان عليَّ أن أقول لك إنَّني رغم علاقتي مع تومي إلَّا أنَّني لم أستطع مقاومة ممارستها مع أشخاص آخرين أحيانًا. كان هناك ثلاثة آخرون عندما كنَّا في الأكواخ».

قالت ذلك من دون أن تنظر باتجاه تومي. لكنَّ ذلك لا يعني أنَّها كانت تتجاهله، بقدر ما كان يعني أنَّها تحاول قدر المستطاع أن تكشف لي ما كان نسيًا منسيًا في ذاكرتها.

«أوشكت أن أقول لك ذلك أكثر من مرَّة»، أضافت. «ولكن لم أفعل. مع ذلك، أدركت في ذلك الوقت أنك ستسترجعين الأمر ذات يوم وستفهمين الوضع وستنحين عليَّ باللائمة على ذلك. لكن لم أقل لك شيئًا. ليس هناك من سبب يدعوك إلى أن تغفري لي ذلك، ولكن أريد أن أسألك الآن لأن»... وصمتت فجأة.

«لماذا؟»، سألتُ.

ضحكت وقالت: «لا سبب هناك. أريد منك أن تغفري لي، لكنِّي لا أتوقَّع ذلك منك. إلَّا أنَّ ذلك على أيِّ حال لا يمثِّل نصف الحقيقة، ولا حتى جزءًا يسيرًا منها في واقع الأمر. المهمُّ هو أنَّني فرَّقتكما، أنت وتومي». خفت صوتها ثانية، وتحوَّل إلى ما يشبه الهمس. «هذا أسوأ ما فعلته».

استدارت قليلًا، وسدَّدت نظراتها إلى تومي للمرَّة الأولى. ثمَّ التفتت إليَّ على الفور مجدَّدًا، وبدا الآن أنَّها كانت تتحدَّث إلى كلينا في آنٍ معًا.

«هذا أسوأ ما فعلت»، قالت مرَّة أخرى. «ومع ذلك، فإنَّني لا أطلب منك أن تغفري لي. يا إلهي، لقد كرَّرت ذلك مرارًا وتكرارًا في ذهني، ولا أصدِّق أنَّني أتصرَّف على هذا النحو بالفعل. كان ينبغي أن تكونا معًا، أنا لا أدَّعي أنَّني لم أعتقد ذلك. لقد فعلت، إذا لم تخنِّي الذاكرة. لكنِّي فرَّقت أحدكما عن الآخر. وأنا لا أطلب المغفرة لذلك. ليس هذا ما أريده الآن. ما أريده هو أن تصحِّحي الوضع. صحِّحي الوضع الذي كنت قد قلبته رأسًا على عقب».

«ماذا تقصدين يا رُوث؟»، سأل تومي. «ماذا تعنين، بتصحيح الوضع؟». كان صوته ناعمًا، يشوبه فضول طفولي، وأعتقد أن ذلك هو ما دفعني إلى البكاء.

«اسمعي يا كاثي»، قالت رُوث. «أنت وتومي، يجب أن تحصلا على الإرجاء. يجب أن تُتاح لكما الفرصة لذلك. الفرصة الحقيقية».

مدَّت ذراعها ولامست كتفي، لكنَّني أزحتها بعنف، وحدَّقت إليها وقد اغرورقت عيناي بالدموع.

«تأخَّر الوقت كثيرًا لهذا الغرض. تأخَّر كثيرًا جدًّا».

«لم يفُت الأوان. اسمعي يا كاثي. لم يفُت الأوان. صحيح أنَّ تومي قد تبرَّع مرَّتين. من قال إنَّ ذلك سيغيِّر الوضع؟».

«فات الأوان من زمان لكلِّ هذا»، قلت وقد استأنفت البكاء، «مجرَّد التفكير في ذلك يدلُّ على الغباء، شأنه شأن التفكير في العمل في ذلك المكتب هناك. لقد تجاوزنا تلك المرحلة من زمان».

هزت رُوث رأسها. «لم يفُت الوقت بعد. قُل لها ذلك يا تومي».

كنت أركِّز ناظري على مقود السيَّارة، فلم أرَ تومي على الإطلاق. ندت عنه غمغمة حائرة أو شيء من هذا القبيل، لكنَّه لم يقل شيئًا.

«انتبها لما أقول»، قالت رُوث. «أنتما الاثنان. لقد أردت أن نقوم نحن الثلاثة بهذه الرحلة لأتمكَّن من قول ما قلته. كما أردت أن أعطيكما شيئًا ما». أخذت تنقِّب في جيوب معطفها الواقي من المطر، وأخرجت ورقة متغضِّنة. «تومي، عليك أن تأخذ هذه. حافظ عليها. وعندما تغيِّر كاثي رأيها، ستكون لك أنت».

مدَّ تومي يده بين المقعدين وأخذ الورقة. «شكرا يا رُوث»، قال، كما لو أنَّها منحته قطعة من الشوكولاتة. بعد عدَّة ثوان، قال: «ما هي؟ أنا لا أفهم».

«إنَّه عنوان المدام. الهدف هو ما قلته أنت قبل قليل. عليك المحاولة على الأقل».

«كيف حصلت عليه؟»، سأل تومي.

«لم يكن الأمر سهلًا. استغرق منِّي وقتًا طويلًا، وتعرَّضت للخطر عدَّة مرَّات. لكنَّني حصلت عليه آخر الأمر، من أجلكما. الخيار متروك لكما الآن في العثور عليها والمحاولة».

كنت في تلك اللحظة قد توقَّفت عن البكاء، وبدأت بتشغيل السيَّارة. «هذا يكفي»، قلت. «علينا أن نعيد تومي إلى مركزه. ثمَّ علينا نحن كذلك أن نعود أدراجنا».

«لكن ستفكِّران في الموضوع، كلاكما، أليس كذلك؟».

«كل ما أريده هو العودة الآن»، قلت.

«عليك يا تومي أن تحافظ على هذا العنوان؟ فلعلَّ كاثي تغيِّر رأيها».

«سأحافظ عليه»، قال تومي. وأضاف بلهجة أكثر وقارًا ممَّا أبداه المرَّة السابقة: «شكرًا يا رُوث».

«شاهدنا الزورق»، قلت، «وعلينا العودة الآن. فالطريق إلى دوفر قد تستغرق أكثر من ساعتين».

انطلقت بالسيَّارة مرَّة أخرى. أذكر أنَّنا لم نتحدَّث كثيرًا في طريق عودتنا إلى كنغزفيلد. كانت جماعة من المانحين ما زالت تستظلُّ بالسقيفة عندما دخلنا الميدان. أدرت السيَّارة قبل إنزال تومي. لم تقم أيٌّ منَّا باحتضانه أو تقبيله، لكن فيما هو متَّجه إلى زملائه المانحين، تريَّث قليلًا ولوَّح لنا وابتسم.

***

قد يبدو في ذلك بعض الغرابة، لكنَّنا في طريق العودة إلى مركز رُوث، لم نناقش أيًّا من الأمور التي حدثت قبل قليل. يعود ذلك، في جانب منه، إلى أنَّ رُوث كانت متعبة- ويبدو أنَّ المحادثة الأخيرة على جانب الطريق قد أنهكت قواها. لكني أعتقد كذلك أنَّنا، نحن الاثنتين، قد تحدَّثنا عن المواضيع الجدِّية بما يكفي في يوم واحد، وإذا قمنا بالمزيد، فإنَّ الأمور قد تتطوَّر إلى الأسوأ. لم أكن متأكِّدة من طبيعة مشاعر رُوث خلال العودة، أمَّا بالنسبة لي، فما إن استقرَّت جميع الأحاسيس الجيَّاشة، وتزايدت العتمة، وظهرت الأضواء على جانبَي الطريق، حتى بدأت أشعر بالارتياح. يبدو كأنَّ شيئًا طالما خيَّم عليَّ منذ زمن بعيد قد تبدَّد واختفى. حتَّى لو أنَّ الأمور ظلَّت أبعد ما تكون عن التسوية، فقد شعرت أنَّ الباب قد انفتح على إمكانات أفضل. لا يعني ذلك أنَّني كنت مغتبطة أو ما إلى ذلك. فقد كان كلُّ ما بيننا نحن الثلاثة في منتهى الحساسية والتوتُّر، لكنَّه لم يكن من أنواع التوتُّر المؤذي.

غير أنَّنا لم نتطرَّق في حديثنا عن تومي إلَّا بالإشارة إلى أنَّه كان على ما يرام، وأنَّ وزنه قد زاد. أمضينا الجانب الأكبر من تلك الرحلة في مراقبة الطريق بصمت.

لم أدرك الآثار التي خلَّفتها الرحلة إلَّا بعد عدَّة أيَّام. فقد تبخَّرت حالة الارتياب والتوجُّس التي سادت العلاقة بيني وبين رُوث. بدا أنَّنا نتذكَّر كلَّ ما تعنيه إحدانا للأخرى. كانت هذه البداية الحقيقية لتلك المرحلة مع اقتراب فصل الصيف، وبوادر التحسُّن في حالة رُوث الصحِّية، حيث بدأت بزيارة رُوث كلَّ مساء وأنا أحمل البسكويت والمياه المعدنية، ونجلس جنبًا إلى جنب قرب نافذتها، ونراقب غروب الشمس فوق سطوح المباني، ونتحدَّث عن هيلشام والأكواخ وكلِّ ما يخطر على البال. عندما أفكِّر في رُوث الآن، يتولَّاني الحزن لفراقها بالطبع؛ لكنَّني أحسُّ بالامتنان لتلك الفترة التي أمضيناها سويًّا في آخر المطاف.

بيد أنَّ ثمَّة موضوعًا واحدًا لم نتحدَّث فيه أبدًا بصورة مناسبة، وهو يتعلَّق بما قالته لنا على جانب الطريق ذلك اليوم. كانت رُوث تلمِّح إليه بين الفينة والفنية. وقد تثير الموضوع على النحو التالي:

«هلَّا فكَّرت مرَّة أخرى في أن تكوني مرشدة لتومي؟ تعلمين أنَّك تستطيعين ذلك، إذا شئتِ».

سرعان ما غطَّت فكرة إرشاد تومي على كلِّ ما عداها. كنت أقول لها إنَّني ما زلت أفكِّر في الأمر، وفي جميع الحالات ليس من السهل، حتى بالنسبة لي، ترتيب هذه المسألة. لكنَّ الفكرة ظلَّت حيَّة في ذهن رُوث، لهذا السبب فإنَّني، عندما زرتها في المرَّة الأخيرة، ورغم أنَّها كانت عاجزة عن الكلام، كنت أعرف ما كانت ستحدِّثني عنه.

كان ذلك بعد ثلاثة أيَّام من تبرُّعها الثاني، عندما سمحوا لي أخيرًا برؤيتها فجرًا. كانت في الغرفة بمفردها، وبدا أنَّهم قد اتَّخذوا كلَّ الإجراءات اللازمة لها. اتَّضح لي آنذاك من تصرُّفات الأطبَّاء والمنسِّق والممرِّضات، أنَّهم لا يعتقدون أنَّها ستنجو. ألقيت عليها نظرة خاطفة وهي في سريرها في المستشفى، وتبيَّنت على محيَّاها تلك التعبيرات التي طالما تلمَّستها على وجوه المانحين من قبل. بدت كأنَّها تريد من عينيها أن تريا أعمق الأعماق في نفسها، بحيث يمكنها أن تتجوَّل وتراقب بصورة أفضل جميع مناطق الألم في جسمها- كما يفعل، ربَّما، المرشد الحريص عندما ينتقل بين ثلاثة أو أربعة من المانحين المرضى في أجزاء مختلفة من البلاد. كانت، بالمعنى الحرفي للكلمة، واعية تمامًا، ولكنَّ التواصل معها لم يكن ميسورًا وأنا واقفة إلى جانب سريرها المعدني. بصرف النظر عن ذلك كلِّه، حرَّكت أحد الكراسي، وجلست بعد أن وضعت إحدى يديها بين يديَّ، ورحت أضغط عليها كلما دفعتها موجة من الألم إلى سحبها.

بقيت إلى جانبها طوال المدَّة التي سمحوا لي بها، ربَّما لثلاث ساعات أو أكثر. طوال ذلك الوقت كانت، كما أسلفت، تستبطن أعماق ذاتها. لكن لمدَّة ثوانٍ معدودة لا غير، وعندما كانت تتلوَّى بطريقة بدت مخيفة وغير طبيعية، وكنت على وشك دعوة الممرِّضات لإعطائها مزيدًا من مسكِّنات الألم، حدَّقت إليَّ، وتعرَّفت عليَّ تمامًا. كانت تلك أشبه بجزيرة صغيرة من الصفاء يلجأ إليها المانحون أحيانًا في غمرة المعركة الشرسة التي يخوضونها، فنظرت إليَّ خلال تلك الهنيهة، ومع أنَّها لم تنبس بكلمة، عرفت ما تعنيه نظرتها تلك. لذلك قلت لها: «لا بأس، سأفعلها يا رُوث. سأكون مرشدة لتومي في أسرع وقت ممكن». قلت ذلك بلهجة أقرب إلى الهمس، لأنَّني لم أعتقد أنَّها ستسمع كلماتي على أيِّ حال، حتَّى ولو تحدَّثت بصوت عالٍ. لكنَّني كنت آمل أن تكون رُوث عندما تلاقت نظراتنا خلال تلك اللحظات القليلة، قد قرأت أفكاري كما قرأت أفكارها. بعدئذ اختفت تلك اللحظات وابتعدت هي وغابت. بطبيعة الحال، لن أعرف بصورة مؤكَّدة ما دار في خاطرها، لكنَّني أظنُّ أنَّها فهمت الوضع. حتَّى لو لم تفهم، أظنُّ أنَّها كانت تعلم بالأمر طوال الوقت. ربَّما قبل أن أعلم أنا، بأنَّني سأصبح مرشدة لتومي، وأنَّنا «سنحاول قدر المستطاع»، مثلما طلبت منَّا في السيَّارة في ذلك اليوم.

الفصل العشرون

أصبحت مرشدة تومي بعد نحو سنة من رحلة زيارة الزورق. لم يكن قد مضى وقت طويل على تبرُّع تومي الثالث، ومع أنَّه كان يتعافى بصورة جيّدة، إلَّا أنَّه احتاج المزيد من الوقت للراحة، وقد تبيَّن لاحقًا أنَّ ذلك كان فرصة أفضل بالنسبة لنا لنبدأ هذا الطور الجديد معًا. بعد وقت قصير، اعتدت على كنغزفيلد، بل بدأت أحبُّ المكان.

في كنغزفيلد، يحصل أغلب المانحين على غرفهم الخاصَّة بعد التبرُّع الثالث. وقد منح تومي واحدة من أوسع الغرف المفردة في المركز. افترض بعض الناس لاحقًا أنَّني أنا من دبَّر هذا له، ولكن ذلك لم يكن صحيحًا، كان الأمر مسألة حظٍّ فقط. لكن الغرفة لم تكن ممتازة على أيِّ حال. أعتقد أنَّها كانت غرفة حمَّام يوم كان المخيَّم مخصَّصًا لقضاء العُطل، لأنَّ الشبَّاك الوحيد فيها كان من الزجاج المحجَّر. كما كان على ارتفاع عالٍ جدًّا يكاد يلامس السقف، ولا يمكن أن تنظر منه إلى الخارج، إلَّا إذا وقفت على كرسيٍّ وأمسكت بلوح الزجاج، وستطلُّ عندئذ على الشجيرات الكثيفة. كانت الحُجرة على شكل حرف L، ما يعني أنَّه كان بوسعهم أن يُدخلوا، بالإضافة إلى السرير العادي، كرسيًّا وخزانة للملابس ومنضدة مدرسيَّة صغيرة ذات غطاء يمكن رفعه أو خفضه، وذلك بحدِّ ذاته مكرمة إضافية كما سأبيِّن لاحقًا.

لا أريد أن أعطي فكرة خاطئة عن تلك الفترة في كنغزفيلد. فقد كان الجانب الأكبر منها مريحًا بل أقرب إلى المثاليَّة. كنت أصل إلى المكان في العادة بعد الغداء، وأصعد لأرى تومي ممدَّدًا على السرير الضيِّق- وهو يرتدي ملابسه كاملة لأنَّه لا يريد أن يكون «شبيهًا بالمرضى». كنت أجلس على الكرسيِّ، وأقرأ له من الكتب التي أحضرها معي، ومنها «الأوديسة» و»ألف ليلة وليلة». عدا ذلك، كنَّا ندردش ونتحدَّث أحيانًا عن الأيَّام الخوالي، وأحيانًا عن أمور أخرى. قد يغفو في آخر فترة ما بعد الظهيرة، فأغتنم الفرصة، وأراجع ما لديَّ من تقارير على المنضدة المدرسيَّة الصغيرة. من المدهش بالفعل كيف كانت السنوات تنحسر وتضمحلُّ، وكيف كنَّا، نحن الاثنين في غاية الانسجام.

مع ذلك، بديهيٌّ أنَّ الأمور لم تكن كلُّها كما في الماضي. فمن ناحية، بدأنا بممارسة الجنس. لا أعلم كم كان تومي يفكِّر بهذا الأمر قبل أن نبدأ. كان ما زال يتعافى على كلِّ حال، وربَّما لم يكن ذلك في مقدِّمة اهتماماته. لم أرغب في إرغامه. لكن خطر ببالي أنَّنا لو تأخَّرنا في الأمر، لصعُب علينا بصورة متزايدة أن نجعل من تلك العملية جزءًا طبيعيًا لا يتجزَّأ منَّا. وكانت الفكرة الثانية، كما أفترض، هي أنَّه لو سارت خططنا على النحو الذي أرادته رُوث، وتقدَّمنا بطلب الإرجاء، فقد يكون من العوائق الفعلية عدم وجود علاقة جنسية بيننا. لا أعني بذلك أنني كنت أعتقد أنهم سيسألوننا عن الأمر بالضرورة. لكنَّني كنت أتخوَّف من أنَّ ذلك سيظهر على نحو ما، وسيبدو أمرًا يفتقر إلى الحنان.

لذلك قرَّرت أن أبدأ العملية بعد ظهر أحد الأيَّام في غرفته في الطابق العلوي، وبأسلوب يقبله أو يرفضه كما يشاء. كان مستلقيًا على السرير كالعادة، ينظر إلى السقف فيما كنت أقرأ له. وعندما انتهيت، اقتربت منه، وجلست على حافَّة السرير، ودسست يدي تحت قميصه. سرعان ما وجدتني

فوق عضوه، ومع أنَّه لم ينتصب إلّا بعد بعض الوقت، فقد أدركت على الفور أنَّه كان سعيدًا بذلك. في المرَّة الأولى تلك، كان علينا أن نتوخَّى الحذر بسبب الغُرز الطبّية. لكن بعد تلك السنوات الطويلة التي تعارفنا فيها من دون أن نمارس الجنس، بدا أنَّنا نحتاج إلى فترة انتقالية للانغماس فيه إلى الحدِّ الأقصى. لذلك، فقد كانت العملية يدويَّة، وظلَّ هو ممدَّدًا من دون أن يحاول لمسي بالمقابل، بل لم يصدر عنه أيُّ صوت، ولكنَّه كان يسترخي بسلام.

لكن حتى في تلك المرَّة الأولى، كان هناك أمر ما، وشعور موازٍ لإحساسنا بأنَّ تلك كانت مجرَّد بداية، وأنَّها بوَّابة نجتازها. لم أشأ الإقرار بها لفترة طويلة، وحتى عندما فعلت، فقد حاولت إقناع نفسي بأنَّها ستزول، هي وما يعانيه من أوجاع وآلام. ما أعنيه بذلك أنَّه، منذ المرَّة الأولى، تجلَّت في سلوك تومي لمسة من الحزن مفادها: «بلى، إنَّنا نمارسها الآن وأنا سعيد بذلك. لكن كم من المؤسف أنَّنا أرجأناها إلى هذا الوقت المتأخِّر».

في الأيَّام التالية، حتى عندما قمنا بالأمر بطريقة مناسبة، وسعدنا بممارسته بالفعل، فإنَّ تلك الأحاسيس المزعجة استمرَّت. حاولت التخلُّص منها قدر المستطاع، بحيث يتحوَّل كلُّ شيء إلى غشاوة محمومة لا يتَّسع معها المجال لأيِّ شيء آخر. عندما يعلوني، أرفع ركبتيَّ؛ ومهما كان الوضع الذي نختاره، كنت أقول أي شيء، وأفعل أي شيء من شأنه أن يحسِّن الوضع ويجعله أكثر إثارة وشغفًا. لكنَّه يظلُّ على حاله ولا يزول أبدًا.

ربَّما كان السبب هو تلك الحجرة، والطريقة التي كانت أشعَّة الشمس تخترق زجاج النافذة المحجَّر بحيث تبدو كضوء خريفي، حتَّى في أوائل الصيف. أو ربَّما كان السبب هو الأصوات التي تترامى إلينا عندما نسترخي هناك، حيث يتجوَّل المانحون حولنا وفي مختلف الساحات، كلٌّ في حال سبيله، وليس بينهم التلاميذ الذين كانوا يجلسون في أحد الحقول المعشوشبة، ويتبادلون الأحاديث عن الروايات والشعر. وربَّما كان لذلك علاقة بأنَّنا، حتَّى عندما نستلقي متعانقَين بعد مضاجعة ممتعة بالفعل، وتتردَّد في أذهاننا أصداء ما فعلناه قبل قليل، يقول تومي شيئا من نوع: «كنت قادرًا على المضاجعة مرَّتين على التوالي. لكنَّني لم أعد قادرًا على ذلك». تعود تلك الأحاسيس مرَّة أخرى، فأضع كفِّي على فمه كلَّما قال شيئًا من هذا القبيل، ليتسنَّى لنا أن نستلقي بسلام. أنا متأكِّدة من أنَّ تومي شعر بذلك أيضًا، لأنَّنا كنَّا نتعانق بقوَّة بعد ذلك، كأنَّنا بذلك نُبعد عنَّا تلك الأحاسيس.

***

خلال الأسابيع الأولى بعد وصولي لم نأتِ إلَّا بالكاد على ذكر المدام أو الحديث مع رُوث في السيَّارة ذلك اليوم. لكنَّ تحوُّلي إلى مرشدة له كان يذكِّرنا بأنَّنا لم نكن هناك لمجرَّد قضاء الوقت معًا. ذكَّرتنا بذلك، بالطبع، صور الحيوانات التي رسمها تومي.

كثيرًا ما فكَّرت في حيوانات تومي على مدى سنوات عديدة، حتى في ذلك اليوم الذي ذهبنا فيه لمشاهدة الزورق، تردَّدت في سؤاله عنها. ترى، أما زال يرسمها؟ وهل حافظ على ما رسمه منها في الأكواخ؟ لكن الحكايات التي دارت حولها جعلت من الصعب طرح تلك الأسئلة.

بعد ظُهر أحد الأيَّام، ربَّما بعد أن بدأت العمل بشهر واحد، صعدت إلى حجرته ووجدته يجلس أمام المنضدة الصغيرة وهو ينظر بعناية إلى أحد الرسوم، وقد أحنى رأسه بحيث كاد وجهه أن يلامس الورقة. عندما قرعت الباب طلب منِّي الدخول، لكنَّه لم يرفع رأسه أو يتوقَّف عمَّا كان يفعله، أدركت بنظرة خاطفة أنَّه كان مشغولًا بإحدى مخلوقاته المتخيَّلة. وقفت عند الباب، ولم أكن متأكِّدة إذا كان عليَّ أن أدخل، لكنَّه رفع رأسه بعد قليل وأغلق دفتر الملاحظات الذي أمامه- والذي

لاحظت أنَّه يشبه الدفاتر السوداء التي كان يحصل عليها من كيفرز منذ سنوات عديدة. اقتربت منه وبدأنا بالحديث عن شيء آخر تمامًا، وبعد قليل أبعد دفتره عنه ولم نأتِ على ذكره خلال ذلك اللقاء. لكنَّني كثيرًا ما كنت في وقت لاحق أدخل الغرفة وأرى الدفتر على المنضدة أو ملقى إلى جانب وسادته.

ذات يوم، كنَّا في غرفته نقضي بضع دقائق قبل أن نبدأ بعض الفحوص الطبِّية، ولاحظت في تصرُّفاته حركة خجولة دفعتني إلى الاعتقاد بأنَّه يريد ممارسة الجنس. لكنَّه قال:

«كاث، أريد منك أن تخبريني. أن تخبريني بصراحة».

عندئذ رفع الدفتر عن المنضدة، وأراني ثلاثة اسكتشات منفصلة لشيء يشبه الضفدع، غير أنَّ لها ذيلًا طويلًا كأنَّها شرغوف لم يكتمل نمُّوه بعد. بدت كذلك عندما تبعدها عن بصرك على الأقل. وعندما تُقرِّبها منك، يبدو كلُّ شكل منها كما لو كان شبكة كثيفة من التفاصيل الدقيقة، وكأنَّها مخلوقات شاهدتها منذ سنوات.

«رسمت هذين الشكلين وكأنما مصنوعان من المعدن»، قال. «دقِّقي النظر، وستجدين أنَّ سطوحهما لامعة. لكنَّني حاولت أن أرسم هذا الثالث في هيئة مطَّاطية، هل تلاحظين ذلك؟ إنَّها تكاد تبدو محدودبة. أريد أن أرسم نسخة صحيحة عنها الآن، صحيحة بالفعل، لكنَّني لم أقرِّر حتَّى الآن. كاث، أخبريني بصراحة، ما رأيك؟».

لا أتذكَّر إجابتي. كلُّ ما أذكره هو خليط المشاعر القويَّة التي اكتنفتني آنذاك. لقد أدركت على الفور أنَّ تلك هي الطريقة التي يتَّبعها تومي ليضرب عرض الحائط بكلِّ ما حدث حول رسومه في الأكواخ، وشعرت بمزيج من الارتياح والامتنان والابتهاج العميق. لكن كنت أعرف كذلك لماذا ظهرت الحيوانات مجدَّدًا، وأفهم جميع الأمور التي انطوت عليها استفسارات تومي العَرَضية، ولاحظت أنَّه كان على الأقل، يظهر لي أنَّه لم ينسَ، مع أنَّنا قلَّما ناقشنا أيَّ شيء علانية؛ كان يؤكِّد لي أنَّه ليس راضيًا عن نفسه، وأنَّه عاكف على المضيِّ قُدمًا في أداء دوره في الاستعدادات.

لكن ذلك لم يكن كلَّ ما شعرت به وأنا أنظر إلى تلك الضفادع الغريبة ذلك اليوم. فقد كان الإحساس الآخر هناك مرَّة أخرى. كان باهتًا وفي الخلفية أوَّل الأمر، لكنَّه تعاظم لاحقًا، لهذا فقد ظلَّ في البال لاحقًا. لم أستطع مقاومة الفكرة بينما كنت أطالع تلك الصفحات. تردَّدت في خاطري حتَّى حين حاولت مطاردتها والتخلُّص منها. أدركت عندئذ أنَّ رسوم تومي لم تكن جديدة وطازجة الآن. صحيح أنَّ هذه الضفادع كانت قريبة الشبه بما رأيته في الأكواخ، لكنَّها تفتقر بالتأكيد إلى شيء ما، وأنَّه بذل جهدًا كبيرًا لرسمها، وكأنَّها كانت مجرَّد نسخ من رسوم أخرى، لهذا السبب، جاء هذا الشعور مجدَّدًا، رغم أنَّني كنت أحاول إبعاده عنِّي: وأنَّنا قد تأخَّرنا كثيرًا في ذلك؛ وأنَّ الوقت المناسب لذلك قد مضى وانقضى وفاتنا؛ كان هناك شيء مضحك، بل مثير للاستهجان، في الأسلوب الذي نفكِّر أو نخطط به.

ها أنا أعود إلى هذا الموضوع مرَّة أخرى. خطر لي أنَّه ربَّما كان بين الأسباب التي أدَّت إلى تباطؤنا في التحادث بيننا علانية حول خططنا للمستقبل. من المؤكَّد أنَّ أحدًا من المانحين في كنغزفيلد لم يتحدَّث أبدًا مع الآخرين عن الإرجاءات أو شيء آخر من هذا القبيل. لقد كنَّا على الأرجح محرَجين بصورة غامضة وكأنَّنا نتستَّر على سرٍّ معيب. ربَّما كنَّا نخشى ممَّا قد يحدث إذا عرف الآخرون بالأمر.

لكنَّني، كما أسلفت، لا أريد أن أرسم صورة قاتمة للوضع في كنغزفيلد آنذاك. ففي أغلب تلك الأيَّام، ولا سيما اليوم الذي سألني فيه عن حيواناته، بدا أن أصداء الماضي قد تلاشت، وأنَّنا

نستمتع بالرفقة وبالاستقرار معًا. مع أنه لم يطلب منِّي النصيحة أبدًا حول رسومه، فإنَّه كان يسعد بالعمل عليها أمامي، وكنَّا كثيرًا ما نقضي وقت بعد الظهيرة على هذا النحو: فاستلقي أنا على السرير، وربَّما أقرأ بصوت عال؛ بينما يجلس تومي وراء المنضدة، ويعكف على الرسم.
ربَّما كنا سنسعد لو استمرَّت الأمور على هذا النحو مدَّة أطول؛ ولو أمضينا مزيدًا من أوقات الظهيرة ونحن ندردش، أو نمارس الجنس، أو نقرأ بصوت عالٍ، أو نرسم. لكن مع اقتراب نهاية الصيف، وتحسُّن صحَّة تومي، وتزايد الاحتمال بصورة واضحة بأن يقوم بتبرُّعه الرابع، أدركنا أنَّه لم يعد بمقدورنا أن نؤجِّل الأمور إلى ما لا نهاية.

***

شُغلت بصورة استثنائية في تلك الفترة، ولم أزر كنغزفيلد لنحو أسبوع. وصلت في صباح ذلك اليوم، وأذكر أنَّها كانت تمطر بغزارة. كانت غرفة تومي معتمة تقريبًا، والمزراب يطرطش قرب النافذة. وكان قد نزل إلى الصالة الرئيسية وتناول طعام الإفطار مع زملائه المانحين، وعاد إلى غرفته وجلس على سريره، ولم تكن لنظرته أيَّة دلالة، كما أنَّه لم يحرِّك ساكنًا. كنت متعبة للغاية عندما دخلت الغرفة، لأنَّني لم أنم بشكل جيِّد في الليالي الماضية، لهذا فقد تهاويت على سريره الضيِّق، ودفعته باتجاه الحائط، ورقدت هناك فترة بسيطة، وكنت سأستغرق في نوع عميق لو لم يدغدغ تومي ركبتيَّ بإبهامه. وأخيرًا نهضت إلى جانبه وقلت: «رأيت المدام أمس يا تومي. لم أكلِّمها أبدًا، ولكنَّني رأيتها».
نظر إليَّ. لكنَّه ظلَّ صامتًا.
«رأيتها وهي تقطع الشارع وتدخل منزلها. لقد كانت رُوث على حقٍّ. العنوان الصحيح الباب الصحيح، وكل شيء».
ثمَّ شرحت له أنَّني كنت أمس الأوَّل في الساحل الجنوبي، وذهبت بعد الظهر إلى ليتل-هامبتون. ومثلما فعلت في المرَّتين السابقتين، سرت في الشارع الطويل على مقربة من الواجهة البحرية، ومررت بمحاذاة صفوف من مجمَّعات المنازل التي ارتفعت إلى جانبها يافطات تحمل عبارات مثل «قمَّة الموجة» و«المشهد البحري»، إلى أن وصلت إلى المقعد الذي يستعمله الجميع قرب كشك الهاتف. فجلست وانتظرت مرَّة أخرى- كما فعلت سابقًا- وركَّزت بصري على المنزل المواجه للشارع.
«كان الأمر أشبه بالقصص البوليسية. ففي المرَّات السابقة، كنت أجلس هنا لأكثر من نصف ساعة كلَّ مرَّة ولا يحدث شيء، لا يحدث شيء على الإطلاق. لكن إحساسي الداخلي نبَّهني إلى أنَّ شيئًا ما سيحدث هذه المرَّة».
كنت متعبة جدًّا، بل كدت أغفو مكاني على المقعد. ثمَّ فتحت عينيَّ ورأيتها في طريقها إليَّ.
«كان الأمر مثيرًا للأعصاب»، قلت، «لأنَّها ظهرت مثلما كانت تمامًا. ربَّما كانت لمسة من الشيخوخة تبدو على وجهها. ولكن لم يكن هناك فرق بين الماضي والحاضر. الملابس نفسها. تلك البدلة الرمادية الأنيقة».
«لا يمكن أن تكون، **حرفيًا**، هي البدلة نفسها».
«لا أعلم، يبدو أنَّها كانت كذلك».
«إذن، لم تحاولي أن تكلِّميها؟».
«طبعًا لم أحاول أيُّها الغبي. يجب أن يتمَّ الأمر بالتدريج. تذكَّر أنَّها لم تكن لطيفة معنا تمامًا».
أخبرته كيف مرَّت بي على الجانب الآخر من الشارع من دون أن تحوِّل ناظريها إليَّ؛ وكيف

أنَّني، لفترة قصيرة، ظننت أنَّها ستمرُّ بالباب الذي كنت أراقبه- وأنَّ رُوث قد أعطت العنوان الخطأ. إلَّا أنَّ المدام انثنت بسرعة عند البوَّابة، وقطعت الدرب الأمامي القصير في خطوتين أو ثلاث، واختفت في الداخل.

بعد أن انتهيت، بقي تومي صامتًا وهادئًا لبعض الوقت. ثمَّ قال:

«هل أنت متأكِّدة من أنَّك لن تتورَّطي في مشاكل؟ لأنَّك تقودين السيَّارة وتذهبين إلى أماكن لا يفترض فيك أن تكوني فيها؟».

«لماذا تظنُّ أنَّني متعبة إلى هذا الحدِّ؟ عملت لساعات طويلة لكي يكون كلُّ شيء على ما يرام. لكنَّنا، على الأقل، عثرنا عليها الآن».

كان المطر ما زال يهطل مدرارًا في الخارج. استدار تومي على أحد جانبيه، ووضع رأسه على كتفي.

«قدَّمت لنا رُوث خدمة ممتازة. المعلومات التي أعطتنا إيَّاها صحيحة».

«صحيح. لقد أفادتنا كثيرًا. لكن الأمر متروك لنا الآن».

«ما هي الخطَّة الآن، يا كاث؟ هل لدينا خطَّة؟».

«سنذهب إلى هناك. سنذهب إليها ونسألها. الأسبوع القادم، عندما آخذك لفحوص المختبر. سأحصل لك على إجازة ليوم كامل. ثمَّ نذهب إلى ليتل-هامبتون في طريق العودة».

تنهَّد تومي، وضغط رأسه بقوَّة على كتفي. قد يعتقد من يشاهدنا أنَّ تومي غير متحمِّس للأمر، لكنَّني أفهم ما يشعر به. فقد تحدَّثنا عن الإرجاءات ونظريَّة المعرض وكلِّ شيء منذ أمد بعيد، وها نحن الآن هنا فجأة. إنَّها بالتأكيد لحظة مخيفة إلى حدٍّ ما.

«إذا حصلنا على ذلك»، قال بعد حين. «افترضي أنَّنا سنحصل على ذلك. افترضي أنَّها ستمنحنا ثلاث سنوات، مثلًا، ثلاث سنوات لنا وحدنا. ما الذي سنفعله بالضبط؟ هل تعرفين ما أعنيه يا كاث؟ إلى أين سنذهب؟ لا يمكننا البقاء هنا، فهذا مجرَّد مركز من المراكز».

«لا أعلم يا تومي. ربَّما ستطلب هي منَّا العودة إلى الأكواخ. لكني أفضِّل مكانًا آخر. ربَّما العزبة البيضاء. وقد تكون لديهم أمكنة أخرى. مكان منفصل للناس الذين على شاكلتنا. ما علينا إلَّا الانتظار لسماع ما تقوله».

استلقينا على السرير لبضع دقائق أخرى، نصيخ السمع لزخَّات المطر. في لحظة ما، دغدغته بإحدى قدميَّ مثلما فعل معي من قبل. لكنَّه انتقم منِّي بعدها بأن أزاح قدمي عن السرير تمامًا.

«إذا كنَّا سنذهب بالفعل»، قال، «فعلينا أن نقرِّر شيئًا بالنسبة للحيوانات. علينا، كما تعلمين، أن نختار ونأخذ معنا الأفضل بينها. ربَّما ستَّة أو سبعة. وعلينا أن نفعل ذلك بعناية تامَّة».

«لا بأس»، قلت. ثمَّ نهضت ومددت ذراعيَّ إلى الأمام. «ربَّما نأخذ أكثر من ذلك. ترى، ما الذي ستفعله لأجلنا؟ سنذهب ونتحدَّث معها عن ذلك».

الفصل الحادي والعشرون

قبل ذهابنا بأيَّام، تصوَّرت نفسي مع تومي واقفين أمام ذلك الباب، نلتقط أنفاسنا ونقرع الجرس، ثمَّ ننتظر هناك في غمرة التوتُّر وخفقان القلب. لكن تبيَّن بعد ذلك أنَّنا محظوظان، ولم نضطرَّ إلى معاناة تلك المحنة القاسية.

كنَّا يومئذ نستحقُّ بعض الحظِّ، لأنَّ ذلك اليوم لم يمرَّ بسلام. فقد تعطَّلت السيَّارة خلال السفر، وتأخَّرنا نحو ساعة عن موعد فحوص تومي. وبسبب الارتباك في العيادة، اضطرَّ تومي إلى إعادة الفحص ثلاث مرَّات، ما أصابه بالدوار. عندما انطلقنا إلى ليتل-هامبتون نهاية فترة بعد الظهر، داهمته دوخة السفر، واضطررنا إلى التوقُّف عدَّة مرَّات ليتسنَّى له أن يستعيد توازنه.

وصلنا أخيرًا قبيل الساعة السادسة، وأوقفنا السيَّارة خلف قاعة البنغو، وأخرجنا من صندوقها الخارجي الحقيبة الرياضية التي تضمُّ دفاتر تومي، وتوجَّهنا إلى مركز البلدة. كان الطقس لطيفًا. ومع أنَّ المتاجر كانت مغلقة أو على وشك الإغلاق، فإنَّ جمهرة من الناس كانوا يتسكَّعون خارج الحانات، ويتحدَّثون ويشربون. بدأت حال تومي بالتحسُّن، فمشينا إلى أن تذكَّر أنَّ الغذاء قد فاته بسبب الفحوص، وقال إنَّ علينا تناول شيء ما وتجهيز أنفسنا لما هو آتٍ. فبدأنا البحث عن مكان نشتري منه بعض الفطائر الجاهزة عندما قبض فجأة على ساعدي، وبعنف، فظننت أنَّه تعرَّض لنوبة أو ما شابه. لكنَّه همس في أذني بهدوء:

«ها هي يا كاث. انظري. إنَّها تمرُّ إلى جانب مصفِّفي الشعر».

كانت هناك بالتأكيد، تتحرَّك على الرصيف الآخر، وهي ترتدي لباسها الرمادي الأنيق نفسه الذي ترتديه على الدوام.

تبعنا المدام، وبقينا على مسافة معقولة منها، على ممرَّات المشاة أوَّلًا، ثمَّ على امتداد الشارع الكبير شبه المهجور. أعتقد أنَّنا، نحن الاثنين، تذكَّرنا اليوم الذي تعقَّبنا فيه بديلة رُوث في بلدة أخرى. غير أنَّ الأمور أسهل من ذلك الآن، لأنَّها سرعان ما قادتنا إلى ذلك الشارع الطويل في الواجهة البحرية.

ولأنَّ الطريق كانت مستقيمة تمامًا، ولأنَّ الشمس كانت تغيب فوق نهايتها البعيدة، وجدنا أنَّ من المناسب أن تتقدَّمنا المدام بمسافة طويلة، بحيث لا تبدو على البعد إلَّا كنقطة صغيرة- ولا نضيّع أثرها كذلك. والحقيقة أنَّنا بقينا نسمع وقع خطواتها طوال الوقت، وكان ارتطام حقيبة تومي بساقه يبدو كما لو كان أصداء منغَّمة لإيقاعها البعيد.

سرنا على هذا المنوال فترة طويلة من الزمن، ومررنا بمحاذاة صفوف من المنازل المتشابهة. ثمَّ اختفت المنازل على الرصيف المقابل، وحلَّت محلَّها مروج فسيحة كنت ترى خلفها سقوف الأكواخ المُقامة على الشاطئ مقابل الواجهة البحرية. لم تظهر المياه نفسها، لكنَّك كنت تحسُّ بوجودها عندما تمعن النظر في السماء الشاسعة وتسمع أصوات النوارس.

غير أنَّ صفَّ المنازل إلى جانبنا ظلَّ يتوالى من دون تغيير، وبعد وقت قصير قلت لتومي:

«سنصل بعد وقت قصير. هل ترى ذلك المقعد هناك؟ إنَّه الذي أجلس عليه في العادة. ولا يبعد المنزل عنه إلَّا مسافة قصيرة».

كان تومي قد التزم الصمت إلى أن قلت تلك العبارة. لكن يبدو أنَّ شيئًا قد خطر بباله الآن، فأسرع الخُطى كأنَّه يريد اللحاق بها. لم يكن ثمَّة أحد بيننا وبين المدام، وبينما كانت المسافة بيننا تزداد ضيقًا، رحت أمسك بذراعه بقوَّة لأبطئ سيره. خفت أن تستدير وترانا، غير أنَّها لم تفعل ذلك. فواصلت السير إلى أن دخلت ممرَّ البوَّابة الصغيرة. تريَّثت أمام الباب لتخرج مفاتيحها من حقيبة يدها، وما هي إلَّا لحظات حتَّى وجدنا أنفسنا أمام بوَّابتها ونحن نراقبها. لكنَّها لم تستدر نحونا. خيِّل لي أنَّها تعرف بوجودنا وراءها، لكنَّها تجاهلتنا. وخيِّل لي كذلك أنَّ تومي كان يوشك على إبلاغها شيئًا ما بصوت عالٍ، لكنَّه سيكون الشيء الخطأ. لهذا السبب، تحدَّثت عند وقوفي بالباب، بسرعة ومن دون تردُّد.

كانت مجرَّد عبارة مهذَّبة هي: «أرجو المعذرة!». لكنَّها التفتت بعنف كما لو كنت قد قذفتها بشيء ما. عندما حملقت فينا، أحسست برعدة صقيعية تجتاح أوصالي، كتلك التي شعرت بها منذ سنوات عندما اعترضنا طريقها خارج المنزل الرئيس. كانت عيناها باردتين بالقدر نفسه، وربَّما كان وجهها أكثر قسوة كما أذكر. لا أعلم ما إذا كانت قد تعرَّفت علينا في تلك اللحظة، لكنَّها من دون شكٍّ، أدركت وعرفت خلال ثانية واحدة **من نحن**، لأنَّه كان بوسعك أن تشاهد انقباض ملامحها- كأنَّ عنكبوتين على وشك الانقضاض عليها.

بعد ذلك تغيَّرت التعبيرات على وجهها. لم تصبح أكثر دفئًا، لكنَّ مشاعر الاشمئزاز انحسرت وتلاشت، فتمعَّنت فينا بعناية وهي تحدِّق إلى الشمس الغاربة.

«مدام»، قلت، وأنا أميل بجسمي فوق البوَّابة. «لا نريد أن نسبِّب لك صدمة أو أيَّ شيء من هذا القبيل. لكنَّنا كنَّا في هيلشام. أنا كاثي هـ. لعلَّك تتذكَّرينني. وهذا هو تومي د. ونحن لم نأتِ هنا لنسبِّب لك أيَّة متاعب».

تقدَّمت نحونا عدَّة خطوات. «في هيلشام»، قالت. ارتسمت على وجهها بالفعل ابتسامة خفيفة. «حسنًا، هذه مفاجئة. إذا لم تكونا هنا لإثارة المشاكل بالنسبة لي. فلماذا جئتما إذن؟».

فجأة، قال تومي: «علينا أن نتحدَّث معك. أحضرت بعض الأشياء»- ورفع حقيبته- «أشياء ربَّما تريدينها لمعرضك. علينا أن نتحدَّث معك».

بقيت المدام واقفة، تكاد لا تتحرَّك تحت ضوء القمر الشاحب، وقد أمالت رأسها كأنَّها تصيخ السمع بصوت قادم من الواجهة البحرية. ابتسمت مرَّة ثانية، مع أنَّ الابتسامة لم تكن لنا، بل لنفسها.

«حسن إذن. ادخلا. وسنرى ما تودَّان الحديث عنه».

***

عندما دخلنا، لاحظت أنَّ الباب الأمامي يشمل ألواحًا زجاجية ملوَّنة، وعندما أغلقه تومي وراءنا غطَّت الظلمة كلَّ شيء، ووجدنا أنفسنا في رواق كان من الضِيق بحيث تستطيع أن تلمس جداريه المتقابلين إذا مددت ذراعيك بينهما. كانت المدام قد وقفت أمامنا، من دون حراك، وقد أدارت ظهرها لنا، وكأنَّها كانت تستمع لشيء ما. مددت بصري إلى الداخل، وأدركت أنَّ الرواق، على الرغم من ضيقه، مقسَّم إلى عدَّة أجزاء: ففي اليسار سلَّم يصعد إلى أعلى؛ وإلى اليمين ممرٌّ أضيق يفضي إلى أجزاء البيت الداخلية.

حذوت حذو المدام واستمعت كذلك. ولكن الصمت المطبق كان يخيِّم على المنزل. ثمَّ ترامى إلينا ربَّما من الطابق العلوي، صوت نقرة خفيفة، وبدا أنَّ هذا الصوت كان يعني شيئًا معيَّنا بالنسبة لها، لأنَّها التفتت نحونا وأشارت إلى الظلمة في الممرِّ، وقالت:

«اذهبا إلى هناك، وانتظراني. سألحق بكما بعد قليل».
بدأت تصعد السلَّم، ولا بدَّ من أنَّها لاحظت تردُّدنا، فانحنت على الدرابزين وأشارت إلى العتمة مرَّة أخرى.
«هناك»، قالت، ثمَّ اختفت في الطابق العلوي.
توجَّهنا إلى الأمام، ووجدنا أنفسنا إزاء ما بدا أنَّه كان الباب الأمامي للمنزل. بدا كأنَّ أحد الخدم قد هيَّأ المكان لأمر ما خلال الليل ثمَّ تركه: فقد أسدلت الستائر، وكانت بعض المصابيح على إحدى المناضد مضاءة بشكل خافت. شممت رائحة الأثاث القديم الذي كان على الأرجح من طراز يعود إلى العصر الفيكتوري. كانت المدفأة مغطَّاة بأحد الألواح، ووُضِعت مكان النار صورة منسوجة مطرَّزة لطائر يشبه البوم يحدِّق إليك. لمس تومي ذراعي، وأشار إلى صورة مؤطَّرة معلَّقة في إحدى الزوايا فوق طاولة مستديرة صغيرة.
«إنها هيلشام»، همس.
توجَّهنا نحوها، لكنَّني لم أكن متأكِّدة. اكتشفت أنَّها لوحة لطيفة بالألوان المائية، ولكن المصباح على المنضدة تحتها كان يلقي ظلالًا متموِّجة مشوبة بآثار شبكة عنكبوتية، وبدلًا من أن يضيء الصورة، ألقى شعاعًا على الزجاج القائم بحيث يصعب عليك أن تتبيَّنها تمامًا.
«إنَّها قريبة من حافَّة بركة البطِّ»، قال تومي.
«ماذا تقصد؟»، أجبت همسًا. «ليس هناك بركة. إنَّها جانب من المنطقة الريفية».
«لا، فالبركة خلفك»، وبدا الغضب على تومي بصورة تثير العجب. «عليك أن تتذكَّري. إذا كنت على مقربة من طرف البركة وراءك، ووجَّهت نظراتك إلى الملعب الشمالي»...
خيَّم علينا الصمت لأنَّنا سمعنا بعض الأصوات تتعالى في مكان ما في المنزل. بدا أنَّها صادرة عن رجل، وربَّما كانت آتية من الطابق العلوي. ثمَّ سمعنا صوت المدام هابطًا على السلَّم، وهي تقول: «نعم، أنت على حقٍّ. أنت على حقٍّ تمامًا».
انتظرنا دخول المدام، لكنَّ وقع خطواتها تجاوز الباب وهي تتَّجه إلى مؤخِّرة المنزل. خطر لي أنَّها كانت في سبيلها إلى إعداد الشاي والكعك وإحضارهما على عربة، لكنَّني عدلت عن تلك الفكرة السخيفة وقرَّرت أنَّها ربَّما نسيت أمرنا لبعض الوقت، ثمَّ تذكَّرتنا فجأة، وأنَّها ستدخل بعد قليل وتطلب منَّا مغادرة المكان. ما هي إلَّا لحظات حتَّى تعالى صوتٌ رجولي خشن من الطابق العلوي، وكان مكتومًا إلى حدٍّ يخيَّل لك معه أنَّه كان على بُعد طابقين لا طابقًا واحدًا. تنامى إلى سمعنا وقع خطوات المدام عبر الممرِّ. نادت: «لقد أبلغتكما بما ينبغي عليكما أن تفعلاه، افعلا فقط ما أوضحته لكما».
انتظرت وتومي عدَّة دقائق أخرى. بعدئذ بدأ الحائط القائم في آخر الحجرة بالتحرُّك. أدركت على الفور أنَّه لم يكن حائطًا بالفعل، بل كان بابين منزلقين يمكن استخدامهما لفصل النصف الأمامي ممَّا كان قبل ذلك غرفة مستطيلة واحدة. كانت المدام قد سحبت البابين، وأفسحت جزءًا من الممرِّ، ووقفت هناك تحدِّق إلينا. حاولت أن أرى ما كان خلفها، لكن الظلمة كانت تكتنف المكان. ظننت أنَّها كانت تنتظر منَّا أن نشرح لها لماذا نحن هناك، لكنَّها أخيرًا قالت:
«قلتما لي أنَّكما كاثي هـ. وتومي د. صحيح؟ وأنَّكما كنتما في هيلشام، ولكن متى؟».
أجبتها، ولكن لم أكن متأكِّدة من أنَّها تذكَّرتني أم غير ذلك. فقد واصلت وقوفها هناك عند العتبة، كما لو أنَّها متردِّدة في الدخول. لكن تومي تحدَّث الآن:
«لا نريد أن نأخذ الكثير من وقتك. ولكن هناك شيئًا نودُّ أن نتحدَّث معك في شأنه».

«لا بأس. لكما الخيار. والأفضل أن تستريحا هنا».
تقدَّمت ووضعت يديها على ظهرَي مقعدين متماثلين أمامها. كانت هناك لمسة غريبة في سلوكها، وكأنَّها لم توجِّه لنا الدعوة بالجلوس. شعرت بأننا إذ فعلنا ما أشارت إليه وجلسنا على هذين المقعدين، فستواصل وقوفها خلفنا من دون أن تزحزح يديها عن ظهري المقعدين. لكن عندما تقدَّمنا نحوها، اقتربت منَّا كذلك ثمَّ- وهذا ربما ما تخيَّلته وقتئذ- شدَّت ما بين كتفيها فيما كانت تمرُّ بيننا. عندما استدرنا لنجلس، كانت قد وصلت إلى النوافذ ووقفت بين الستارتين المخمليَّتين فيما ظلَّت تحدِّق إلينا، كما لو كنَّا في فصل دراسي وكانت هي المدرِّسة. هكذا بدت لي في تلك اللحظة على الأقل. قال تومي لاحقًا إنَّه اعتقد وقتئذ أنَّها ستشرع بالغناء، وأنَّ الستارتين خلفها ستنفرجان، وبدلًا من مشهد الشارع والبقعة الفسيحة المعشوشبة التي تمتدُّ نحو الواجهة البحرية، سيبرز مسرح ضخم، مثل المسارح التي كانت في هيلشام، وفوقه جوقة من المغنِّين لمساعدتها في الأداء. من الغريب أنَّه عندما قال ذلك لاحقًا، تخيَّلت منظرها آنذاك، وقد ضمَّت ذراعيها إلى صدرها وبرز كوعاها الأيمن والأيسر، وبدأت بالتأكيد تجهِّز نفسها للغناء، لكنَّني أشك في أنَّ تومي قد فكَّر بذلك بالفعل تلك اللحظة. أذكر أنَّني لاحظت وقتئذ أنَّه كان متوتِّرًا جدًّا، وكان يخشى أن يتفوَّه بكلمات توحي بالغباء المطلق، لهذا السبب تدخَّلت بسرعة عندما سألتنا بلطف عمَّا نريد.
ربَّما كانت عباراتي مشوَّشة أوَّل الأمر، ولكن بعد فترة وجيزة، وعندما ازدادت ثقتي بنفسي وبأنَّ المدام ستستمع إلى ما سأقوله، هدأت وغدت عباراتي أكثر وضوحًا. كنت قد أمضيت أسابيع طويلة أمعن التفكير فيما سأقوله لها. طالما ردَّدتها مرَّة بعد أخرى خلال رحلاتي الطويلة بالسيَّارة، أو عندما أجلس بهدوء عند تلك الطاولات في مقاهي مراكز الخدمة. بدا الأمر عندئذ في غاية الصعوبة. لكنَّني لجأت لاحقًا إلى التخطيط للأمر. فقد حفظت غيبًا بعض العبارات الأساسية، ثمَّ رسمت خطَّة ذهنية عن الكيفية التي سأنتقل بها من نقطة إلى نقطة تليها. لكن ها هي الآن أمامي، وبدا الجانب الأكبر ممَّا أعددته إمَّا من لزوم ما لا يلزم أو غير صحيح على الإطلاق. الغريب، وهذا ما وافقني عليه تومي عندما ناقشنا الأمر لاحقًا، أنَّه على الرغم من أنَّ المدام كانت تبدو ظاهريًا شخصًا عدائيًا في هيلشام، فإنَّها رغم عدم قولها أو تصرُّفها بما يوحي باللطف أمامنا، تبدو لي الآن كصديقة حميمة، أو كشخص أوثق صلة بنا من جميع من التقيناهم في السنوات الأخيرة. لهذا السبب، فقد تبخَّرت فجأة جميع العبارات التي كنت قد حفظتها عن ظهر قلب، وتحدَّثت معها بمنتهى الصراحة والبساطة، مثلما كنت أتحدَّث مع الحرَّاس قبل سنوات وحدَّثتها عمَّا سمعناه، وعن الشائعات حول تلاميذ هيلشام وموضوع الإرجاء؛ وأنَّنا ندرك أنَّ تلك الشائعات قد لا تكون دقيقة، فلم نراهن على أيِّ شيء.
«حتى وإن كانت صحيحة»، قلت، «نعلم أنَّها قد أتعبتك لا محالة، وأنَّ كثيرًا من الأشخاص قد توافدوا ليزعموا أمامك أنَّهم عشَّاق ومتحابُّون. غير أنَّنا، تومي وأنا، لم نكن لنأتي ونزعجك لو لم نكن متأكِّدَين بالفعل».
«متأكِّدَين؟». وكانت تلك أوَّل عبارة تفوَّهت بها منذ وقت طويل، فتولَّانا العجب. «تقولين إنَّكما متأكِّدان؟ متأكِّدان من أنَّكما متحابَّان؟ كيف تعرفان ذلك؟ هل تعتقدان أنَّ الحبَّ مسألة بسيطة؟ إذن أنتما عاشقان. عاشقان حتَّى العظم. هل هذا هو ما تقولينه لي؟».
كان صوتها مشوبًا بشيء من السخرية. لكنَّني في تلك اللحظة، صُدمتُ على نحو ما، عندما اغرورقت عيناها بالدموع وهي تنقِّل نظراتها بيننا.
«هل تصدِّقين ذلك؟ هل أنتما عاشقان حتَّى العظم بالفعل؟ لهذا السبب أتيتما لرؤيتي... من أجل

الإرجاء؟ لماذا أتيتما؟».

لو وجَّهت لي هذا السؤال بطريقة معيَّنة أخرى، ولو أشارت إلى أنَّ الفكرة بمجملها كانت جنونًا في جنون، فإنَّ ذلك كان سيدمِّرني تمامًا بكلِّ تأكيد. لكنَّها لم تقلها بهذا الأسلوب. فقد وجَّهت السؤال كما لو كان من أسئلة الامتحانات التي تُعرف إجابتها مسبقًا؛ بل كما لو كانت قد أجرت هذه العملية الروتينية غير مرَّة من قبل. وذلك هو ما علَّلني بالأمل. لكن لا بدَّ من أن تومي شعر بالقلق لأنَّه صرخ فجأة:

«جئنا لنراك بسبب معرضك. نحن نعرف الهدف من معرضك».

«معرضي؟». ارتكزت على إفريز النافذة، وأدَّى ذلك إلى تموُّج الستائر خلفها، فأخذت نفسًا عميقًا وبطيئًا.

«معرضي، لا بدَّ من أنَّك تقصد مجموعتي، جميع تلك اللوحات والقصائد وكل أشيائكم التي جمعتها على مدى سنوات عديدة. كانت عمليَّة شاقَّة بالنسبة لي، غير أنَّني كنت أؤمن بجدواها، وكنَّا جميعًا نؤمن بذلك في تلك الأيَّام. إذن أنت تعتقد أنَّك تعرف الهدف منها، ولماذا قمنا بها. حسنًا، إنَّ ذلك هو العنصر المثير للاهتمام. لأَّن عليَّ الاعتراف بأنَّني كثيرًا ما أسأل نفسي ذلك السؤال». تحوَّلت بنظراتها من تومي إليَّ. «هل بالغت في الأمر؟»، سألتْ.

لم أعرف بمَ أجيب، فاكتفيت بأن قلت: «لا، لا».

«إنَّني أبالغ في الأمر»، قالت. «أنا آسفة. إنَّني كثيرًا ما أتمادى في هذا الموضوع. إنسيا ما قلته قبل قليل. كنتَ أيُّها الشابُّ تريد أن تحدِّثني عن معرضي. أرجوك أخبرني».

«أنتِ من يمكنها إخبارنا»، قال تومي. «وأنتِ من كان لديها مخطَّط ما. وإلَّا كيف يمكنك الحكم على التلاميذ حين يتوافدون عليك ويبلغونك بأنَّهم مغرمون؟».

تحوَّلت نظرات المدام الآن باتجاهي مرَّة أخرى. لكنَّني شعرت أنَّها ركَّزت بصرها على ذراعي. والحقيقة أنَّني نظرت إلى أسفل، لأرى إذا كان على كُمِّي براز عصفور أو شيء من هذا القبيل. عندئذ سمعتها تقول:

«إذن هذا هو السبب الذي دفعني إلى جمع كلِّ أشيائكم تلك. **معرضي**، كما كنتم جميعًا تدعونه. لم يسعني إلَّا الضحك عندما عرفت لأوَّل مرَّة أنَّكم تطلقون عليه هذا اللقب. مع مرور الوقت، صرت أسمِّيه كذلك. معرضي. والآن، أخبرني أيُّها الشابُّ، كيف سيساعد معرضي في التعرُّف على من منكم كان العاشق بالفعل؟».

«يساعدك على معرفة ما كنَّا عليه»، قال تومي «لأنه»...

قاطعته المدام فجأة: «لأنَّ عملكم الفنِّي سيكشف بطبيعة الحال النقاب عن نفوسكم وعن أعماقكم الدفينة! هذا هو السبب، أليس كذلك؟ لأنَّ فنَّكم سيُظهر **أرواحكم!**». فجأة تحوَّلت ببصرها إليَّ ثانية، وقالت: «هل تماديت في الأمر؟».

وجَّهت هذا السؤال من قبل. وتولَّد لديَّ، مرَّة أخرى، الانطباع بأنَّها كانت تحدِّق إلى شيء على كُمِّي. لكن عند هذه النقطة، فإنَّ الشكَّ الذي ساورني للمرَّة الأولى- عندما تساءلت «هل تماديت في الأمر؟»- بدأ يتنامى. نظرت إلى المدام بعناية، لكن بدا عليها أنَّها أحسَّت بشكوكي فتحوَّلت إلى تومي.

«لا بأس»، قالت. «فلنواصل الحديث. ما الذي كنت تقوله لي؟».

«المشكلة»، قال تومي، «أنَّني كنت محتارًا تمامًا في تلك الأيَّام».

«كنت تتحدَّث عن أعمالك الفنِّية. وكيف أنَّ الفنَّ يعرِّي نفس الفنان».

«حسنًا، ما أحاول قوله»، قال تومي بإصرار، «هو أنَّني كنت محتارًا تمامًا في تلك الأيَّام، ولم أقم بأيِّ عمل فنِّي. لم أقم بأيِّ شيء. لهذا فإنَّك لم تحصلي على أيِّ شيء من أعمالي في معرضك. أعلم أنَّ ذلك خطأي، وأعلم كذلك أنَّ الوقت ربَّما فات منذ زمن بعيد، لكنَّني أحضرت معي عددًا من الأشياء الآن». رفع حقيبته، وبدأ بفتح سحَّابها. «إنَّ بعضها قد صُنِع مؤخَّرًا، لكن بعضها الآخر يعود إلى زمن بعيد. ولا بدَّ من أنَّ لديك أشياء من عمل كاث كذلك. هناك الكثير من أعمالها في المعرض. أليس كذلك يا كاث؟».

نظر كلاهما إليَّ فترة وجيزة. ثمَّ قالت المدام بصوت يكاد يكون غير مسموع: «المخلوقات المسكينة. ما الذي فعلناه بك؟ بكلِّ تلك المخطَّطات والخطط؟». توقَّفت عند ذلك، وأظنُّ أنَّني لمحت دموعًا في عينيها مرَّة أخرى. نظرت إليَّ وسألت: «هل نواصل هذا الحديث؟ هل ترغبان في مواصلته؟».

عندما قالت ذلك، فإنَّ الفكرة الغامضة التي خطرت ببالي قبل ذلك تحوَّلت الآن إلى موضوع جوهري. «هل تماديت في الأمر؟» أصبحت الآن «هل سنواصل الحديث؟» أدركت عندئذ أنَّ هذه الأسئلة لم تكن تخصُّني أبدًا، ولم تكن تخصُّ تومي كذلك، بل كانت مخصَّصة لشخص آخر- شخص كان يصيخ السمع خلفنا في نصف الحجرة المظلم.

«استدرت بهدوء شديد ونظرت إلى العتمة. لم أرَ أيَّ شيء، ولكنِّي سمعت صوتًا، صوتًا آليًّا، بعيدًا جدًّا إلى درجة مدهشة- كان المنزل يزداد عمقًا في الظلمة بأكثر ممَّا تخيَّلت. تبيَّنت بعدئذ جسمًا أخذ بالتحرُّك نحونا وسمعت صوتًا نسائيًا يقول: «نعم يا ماري-كلود. دعينا نستمرَّ».

كنت ما أزال أحدِّق إلى الظلمة عندما سمعت ما يشبه الشخير يصدر من قرب المدام، ثمَّ خرجت بخطوات عريضة واختفت في العتمة. صدرت بعد ذلك أصوات آلية أخرى، وظهرت المدام وهي تدفع شخصًا في كرسيٍّ متحرِّك، وعبرت بيننا مرَّة أخرى. لعدَّة لحظات بعدها، ولأنَّ المدام كانت تحجب المشهد، لم أستطع رؤية الشخص في الكرسيِّ المتحرِّك. لكنَّ المدام أدارته نحونا، وقالت:

«تحدَّثي معهما. لقد جاءا للحديث معك أنتِ».

«أعتقد ذلك».

كانت الجالسة على الكرسيِّ المتحرِّك خائرة القوى ومنحرفة المزاج، وكان الصوت هو الذي عرَّفني عليها أكثر من أيِّ شيء آخر.

«آنسة إيميلي»، قال تومي، بهجة ناعمة هادئة.

«تحدَّثي معهما»، قالت المدام، وكأنَّها كانت تنفض يديها من الموضوع برمَّته. لكنَّها ظلَّت واقفة خلف الكرسيِّ المتحرِّك، وعيناها تحدِّقان إلينا.

الفصل الثاني والعشرون

«ماري- كلود على حقٍ»، قالت الآنسة إيميلي. «يجب أن تتحدَّثا معي أنا. لقد بذلت ماري-كلود جهودًا كبيرة في مشروعنا. لكنَّ النتائج التي أفضت إليها هذه الجهود سبَّبت لها الإحباط على نحو ما. أمَّا أنا، فلا أشعر بالانزعاج على الرغم من جميع الإحباطات. أعتقد أنَّ ما أنجزناه يستحقُّ بعض الاحترام. أنظرا إلى حالتيكما. أنا على يقين من أنَّكما ستطلعانني على أمور تشعرني بالاعتزاز. ما اسماكما؟ لا، لا، انتظرا. أعتقد أن عليَّ أن أتذكَّر. أنت الولد المتقلِّب المزاج، أليس ذلك؟ مزاج متقلِّب، ولكن قلب كبير. تومي. أليس كذلك؟ وأنتِ، بالطبع، كاثي هـ. لقد أدَّيت مهمَّاتك كمرشدة بشكل جيِّد. وقد سمعنا الكثير عنكِ. أتذكَّر ذلك، كما تلاحظين. أجرؤ على القول بأنَّني أذكركم جميعًا».

«ما فائدة ذلك لك أو لهم؟»، سألت المدام، ثمَّ ابتعدت عن الكرسيِّ المتحرِّك بخطوات عريضة، ومرَّت بمحاذاتنا، ودخلت الركن المظلم لتحتلَّ، كما تصوَّرت، الموضع الذي كانت فيه الآنسة إيميلي من قبل.

«آنسة إيميلي»، قلت، «جميل أن نراك مرَّة أخرى».

«هذا من لطفك. لقد تعرَّفت عليكِ، ولكن ربَّما لم تتعرَّفي عليَّ. الحقيقة يا كاثي هـ. أنَّني منذ مدَّة قصيرة مررت بك جالسة على ذاك المقعد هناك، ولكنَّك لم تتعرَّفي عليَّ يومذاك. ألقيتِ نظرة خاطفة على جورج، الرجل النيجيري الضخم الذي كان يدفع كرسيِّ المتحرِّك. آه، نعم، لقد أمعنت النظر إليه مثلما أمعن هو النظر إليك. ولم أنبس بكلمة، لكنَّك لم تعرفي من أنا. ها نحن، كما يُقال، نتعارف الليلة في هذا السياق. وقد صُدِمتما لمرآي. لقد اعتللت في الآونة الأخيرة. وأرجو ألَّا تلازمني هذه الآلة العجيبة دائمًا. من المؤسف أيُّها العزيزان أنَّني لن أستمتع باللقاء الطويل الذي أرغب فيه معكما الآن، لأنَّ بعض الرجال سيجيئون بعد قليل ليأخذوا الخزانة المجاورة لسريري. وهي قطعة أثاث مدهشة. غلَّفها جورج بلفافات واقية. وقد أصررت على أن تظلَّ إلى جانبي في جميع الحالات. لكنَّك لا تعرف كيف يتصرَّف هؤلاء الرجال. سيتعاملون معها بفظاظة، ويقذفون بها إلى داخل الشاحنة التي يأتون بها، ثمَّ يزعم ربُّ العمل الذي استخدمهم أنَّ تلك كانت حالة الخزانة منذ زمن بعيد. وقد حدث ذلك معنا قبل الآن، لهذا فإنَّني أصرُّ على أن أصطحبها معي. إنَّها خزانة جميلة. ما زالت لدي منذ أيَّام هيلشام. لهذا أصرُّ على أن أتقاضى الثمن المناسب. وبالتالي فإنَّني أخشى أن أترككما عندما يجيئون. لكنَّني ألاحظ أنَّكما جئتما في مهمَّة نابعة من القلب. ولا يسعني إلَّا التأكيد أنَّ رؤيتكما تجلب لي السعادة. كما أنَّ ذلك سيُسعد ماري-كلود أيضًا، رغم أنَّكما لن تهتمَّا بأمرها، أليس كذلك يا عزيزيَّ؟ آه، إنهَّا تتظاهر بأنَّ الأمر ليس كذلك. لكنَّه كذلك بالفعل. آه. إنَّها مكدَّرة المزاج. تجاهلوها، أيُّها التلميذان، تجاهلوها. سأحاول الآن أن أُجيب عن أسئلتكم قدر المستطاع. لقد سمعت بتلك الإشاعة عددًا لا يُحصى من المرَّات. وعندما كانت هيلشام تابعة لنا، كانت تصلنا كلَّ سنة طلبات من زوجين أو ثلاثة يريدون الحديث معنا. بل إنَّ أحدهم كتب لنا. وأعتقد أنَّه ليس من الصعب العثور على عزبة بهذا الحجم إذا أردت كسر القوانين. لهذا، فإنَّ تلك الإشاعة كانت منتشرة على نطاق واسع قبل إقامتكما هناك».

توقّفتْ عن الكلام، فقلت: «ما نريد أن نعرفه الآن يا آنسة إيميلي، هو إذا كانت الإشاعة صحيحة أم غير صحيحة».

واصلت تحديقها إلينا لبعض الوقت، ثمَّ تنفَّست بعمق. «عندما كنت في هيلشام؛ اعتدت أن أدفن تلك الأقاويل في مهدها. لكن ما الذي أستطيع فعله إزاء ما يقوله التلاميذ بعد أن يغادروا المدرسة؟ وآخر الأمر، بدأت أعتقد مع ماري-كلود، أليس كذلك يا حبيبتي؟- أنَّ هذه لم تكن إشاعة واحدة. أعني بذلك أنَّها تولد من لا شيء، وتتنامى مع مرو الوقت. ما عليك إلَّا أن تعرف مصدرها، وتقضي عليها في مهدها من دون انتشارها في أماكن أخرى. وقد خلصت إلى هذه النتيجة، وتوقَّفت عن الشعور بالقلق إزاءها. ماري-كلود لم تأبه لها على الإطلاق. كان رأيها كما يلي: 'إذا كانوا حمقى إلى هذا الحدِّ، فدعيهم وشأنهم'. أوه، نعم، لا تنظري إليَّ باستهجان على هذا النحو. لقد كان هذا هو رأيك منذ البداية. وبعد عدَّة سنوات، لم أتوصَّل إلى مثل هذا الرأي تمامًا. لكنَّني بدأت بالتفكير، حسنًا، في ألَّا أهتمَّ بالأمر. فهذا ليس من شأني على أيِّ حال، وبالنسبة لعدد قليل من الأزواج الذين سيصابون بخيبة الأمل، فإنَّ البقيَّة لن تختبر هذه التجربة على الإطلاق. ستظلُّ حلمًا يراودها، وخيالًا صغيرًا يسكنها. وهل ثمَّة ضير في ذلك؟ لكن بالنسبة لكما، فإنَّ الأمر لا ينطبق عليكما كما أرى. أنتما تأخذان الأمور على محمل الجدِّ. وقد فكَّرتما في الأمر بكلِّ عناية. وتوخَّيتما الحكمة عندما راودتكما **الآمال**. لكن بالنسبة لكما كتلميذين، فإنَّني أشعر بالأسف، ولن يسعدني على الإطلاق أن أسبِّب لكما خيبة الأمل. ولكن هذا هو الواقع».

لم أشأ النظر إلى تومي. شعرت بهدوء مدهش. ومع أنَّ كلمات الآنسة إيميلي كانت لتحطِّمنا شرَّ تحطيم، فقد انطوت على لمسة توحي بما هو أبعد من ذلك، على أمر يجري التسترُّ عليه، ويشير إلى أنَّنا لم نصل إلى قرارة اليأس. من المحتمل أنَّها لم تقل الحقيقة. لهذا سألت:

«إذن، هل يعني ذلك أنَّ الإرجاءات غير موجودة أصلًا؟ أليس بوسعك أن تفعلي شيئًا؟».

هزَّت رأسها ببطء يمنة ويسرة. «الإشاعة غير صحيحة، أنا آسفة. آسفة بالفعل؟».

فجأة، سأل تومي:

«وهل كانت صحيحة ذات يوم؟ قبل إغلاق هيلشام؟».

واصلت الآنسة إيميلي هزَّ رأسها. «لم تكن في أيِّ يوم من الأيَّام. حتَّى قبل فضيحة مورننغديل، بل حتَّى وقت كانت هيلشام تعتبر منارة مضيئة، ونموذجًا مثاليًا نسترشد به في سعينا لوضع خطط أفضل وأكثر إنسانية لقضاء أعمالنا. لم تكن صحيحة حتَّى في تلك الأيَّام. أفضل وصف لتلك الإشاعة هو أنَّها من أحلام اليقظة. لم تكن غير ذلك. يا لطيف، هل وصل الرجال لأخذ الخزانة؟».

توقَّف جرس الباب، وسمعنا وقع أقدام تنزل السلم لترى الطارق. تناهت إلينا أصوات رجال في الممرِّ الضيِّق، وظهرت المدام من الركن المعتم خلفنا، وعبرت الغرفة، وخرجت. انحنت الآنسة إيميلي في الكرسيِّ المتحرِّك وهي تصيخ السمع بانتباه، ثم قالت:

«ليسوا رجال الخزانة. إنَّه ذلك الرجل المزعج من شركة التزيين مرَّة أخرى. ستهتمُّ ماري-كلود بأمره. إذن، يا عزيزيَّ، ما زالت أمامنا بضع دقائق أخرى. هل هناك أمور أخرى تريدان الحديث معي حولها؟ بطبيعة الحال هذا كلُّه مخالف للقوانين، وكان على ماري-كلود ألَّا تسمح لكما بالدخول. وكان من الطبيعي أن أطردكما حالما عرفت بأنَّكما هنا. ومن الطبيعي ألَّا تأبه ماري-كلود بتلك القوانين، وألَّا آبه بها كذلك. لهذا فلا بأس من أن تبقيا هنا فترة أطول».

«إذا لم تكن تلك إشاعة صحيحة على الإطلاق»، قال تومي، «فلماذا أخذَت أعمالنا الفنِّية كلها؟ ألم يكن هناك معرض أيضًا؟».

«المعرض؟ حسنًا، كان هناك بعض الصحَّة في تلك الإشاعة. كان هناك **معرض** بالفعل. وما زال هناك على نحو ما. لقد كان موجودًا هنا، في هذا المنزل. وكان عليَّ أن أقوم بتنقيحه، وأنا أتحسَّر على ذلك، ولم يكن هناك متَّسع لتلك الأشياء جميعها هنا. ولكن لماذا أخذنا أعمالكم على أيِّ حال؟ هذا هو موضوع السؤال الذي طرحته، أليس كذلك؟».

«لا يقتصر الأمر على ذلك فقط»، قلت بهدوء. «لماذا كنَّا نقوم بتلك الأعمال أصلًا؟ لماذا قاموا بتدريبنا، وشجَّعونا على ذلك، ودفعونا إلى إنتاج المزيد منها؟ إذا كنَّا سنقوم بالتبرُّع على أيِّ حال، ثمَّ نموت، فلمَ كنَّا نتلقَّى كلَّ تلك الدروس؟ لماذا كانت هناك تلك الكتب والمناقشات؟».

«لماذا كانت هناك هيلشام أصلًا؟»، سألت المدام وهي تقف في الممرِّ. تقدَّمت ومرَّت بنا وعادت إلى ركن الغرفة المظلم. «سؤال وجيه من جانبك».

تابعتها الآنسة إيميلي بنظراتها بعض الوقت، لكنَّها ظلَّت ثابتة خلفنا. راودتني الرغبة في الالتفات لأعرف طبيعة النظرات المتبادلة بينهما، لكنَّني شعرت بأنَّنا سنكرِّر الوضع الذي عرفناه في هيلشام، وأنَّ علينا مواصلة النظر إلى الواجهة بتركيز تامٍّ. ثمَّ قالت الآنسة إيميلي:

«نعم، لماذا كانت هيلشام هناك أصلًا؟ تحبُّ ماري-كلود طرح هذا السؤال كثيرًا هذه الأيَّام. لكنَّها، منذ وقت قصير، وقبل فضيحة مورننغديل، لم تكن تحلم بطرح مثل هذا السؤال. لم يكن ذلك ليخطر على بالها. لا تنظري إليَّ هكذا! شخص واحد أمكنه أن يطرح مثل هذا السؤال في تلك الأيَّام، وهو أنا شخصيًا. لقد طرحته قبل مورننغديل بوقت طويل ومنذ البداية. ذلك ما يسَّر الأمر بالنسبة لبقيَّتهم يا ماري-كلود، بقيَّتهم جميعًا، كان بوسعهم أن يمضوا قُدُمًا من دون الاهتمام بالأمر. كذلك كان الأمر بالنسبة لكم أيُّها التلاميذ. لقد حملت همومكم ووجَّهت الاستفسارات نيابة عنكم جميعًا، عندما قاومت وصمدت، لا يخامركم الشكُّ على الإطلاق. لكنَّك طرحت بعض الأسئلة، يا ولدي العزيز، دعني أجيب عن الأبسط منها، وربَّما كانت إجابتي تتضمَّن الردَّ على بقيَّة الأسئلة. لماذا أخذنا أعمالكم؟ لماذا فعلنا ذلك؟ لقد طرحت قبل قليل نقطة لافتة للانتباه يا تومي، عندما كنت تتجادل مع ماري-كلود. قلت إنَّ أعمالك الفنِّية تكشف عمَّا في نفسك. تكشف أعماق شخصيتك. هذا ما قلته، أليس كذلك؟ حسنًا، إنَّك لم تجانب الصواب في هذه الناحية. لقد أخذنا أعمالكم لأنَّنا اعتقدنا أنَّها ستكشف النقاب عن أرواحكم. بعبارة أخرى أكثر دقَّة، فإنَّنا فعلنا ذلك لنبرهن **أنَّ لكم أرواحًا** بالدرجة الأولى».

توقَّفت عن الكلام، وتبادلت مع تومي نظرات خاطفة للمرَّة الأولى منذ أمد بعيد. ثمَّ سألت:

«لماذا كنت تعتزمين البرهنة على شيء من هذا النوع يا آنسة إيميلي؟ هل اعتقد أيُّ شخص أنَّه لم تكن لنا أرواح؟».

علت محيَّاها ابتسامة خفيفة. «استعادتك للأيَّام الخوالي تؤثِّر فيَّ تأثيرًا بالغًا. إنَّها تدلُّ، على نحو ما، على أنَّنا قمنا بمهمَّاتنا بكفاءة. كما قلتِ أنت، كيف يمكن لأحد أن يشكَّ في أنَّ لكم أرواحًا كبقيَّة الناس؟ ولكن عليَّ أن أخبرك يا عزيزتي بأنَّ هذا الرأي لم ينتشر على نطاق واسع عندما بدأنا منذ سنوات. مع أنَّه قد مضى وقت طويل على ذلك، فإنَّ تلك الفكرة لم تنتشر في جميع الأوساط، حتَّى في أيَّامنا هذه. وأنتم، تلاميذ هيلشام، حتَّى بعد خروجكم إلى العالم الواسع على هذا النحو، ما زلتم تعرفون نصف الحقيقة فحسب. ففي جميع أرجاء البلاد، وفي أيَّامنا هذه تحديدًا، يولد تلاميذ ويترعرعون في أوضاع يرثى لها، أوضاع لا يمكن أن تتصوَّروها، أنتم تلاميذ هيلشام. قد انتهينا الآن، وسوف تتطوَّر الأمور من سيِّء إلى أسوأ».

توقَّفت مرَّة أخرى، وبدا لوقت قصير أنَّها كانت تتفحَّصنا بعناية بعينيها الضيِّقتين. أردفت بعد

ذلك:
«مهما يكن من أمر فإنَّنا قد ضمنَّا على الأقل أنَّكم، تلاميذ هيلشام، عندما كنتم تحت رعايتنا قد نشأتم في بيئة مدهشة. وقد ضمنَّا كذلك أنَّكم، حتى بعد مغادرتكم لنا، لن تعانوا تلك الأهوال الشنيعة. قمنا بواجبنا، على الأقل، قدر المستطاع. لكن هذا الحلم الذي يراودكما، الحلم بأن تحصلا على **الإرجاء**. إنَّه من الأمور التي لم يكن بمقدورنا منحها. ألاحظ الآن أنَّكما لن تتحمَّلا ما أقوله. لكن لا ينبغي أن تخيِّم عليكما الكآبة. أرجو أن تقدِّرا ما استطعنا تأمينه لكما. انظرا إلى وضعكما الآن**!** لقد عشتما حياة رخيَّة، وكان لكما نصيب من التحصيل العلمي والثقافي، وأنا آسفة لأنَّنا لم نستطع أن نؤمِّن لكما أكثر ممَّا فعلناه. لكن عليكما أن تدركا أنَّ الأوضاع كانت أسوأ بكثير ممَّا هي عليه الآن. عندما بدأت انا وماري-كلود هذا المشروع، لم يكن هناك أمكنة مثل هيلشام، وكنَّا مع غلينموورغان هاوسْ أوَّل البادئين. بعد بضع سنوات تبعتنا سوندَرزْ تْرَستْ كذلك. اجتمعنا معًا لنصبح حركة صغيرة ومؤثِّرة جدًّا، وتحدَّينا جميع الأساليب التي يدار بها برنامج التبرُّعات. الأهم من ذلك كلِّه أنَّنا أوضحنا للعالم أنَّه إذا تمَّت تنشئة التلاميذ وتربيتهم في بيئات إنسانية ومثقَّفة، فإنَّهم قد يتحلُّون بدرجة الحساسية والذكاء نفسها التي يتمتَّع بها البشر العادِّيون. قبل ذلك، كان جميع المُسْتَنسخين- أو التلاميذ، كما نفضِّل أن ندعوكم- مكرَّسين لإمداد العلوم الطبِّية. في الأيَّام الأولى، بعد الحرب، كان هذا إلى حدٍّ بعيد هو ما تمثِّلونه بالنسبة لأغلب الناس. مجرَّد أشياء ضبابية في أنابيب الاختبار. ألا توافقين على ذلك يا ماري-كلود؟ إنَّها تلتزم الصمت التامَّ الآن. لكنَّك لا تستطيع في العادة أن تُخرِسها وترغمها على التوقُّف عن الحديث حول هذا الموضوع. يبدو يا عزيزيَّ أنَّ وجودكما هنا قد عقد لسانها. حسنًا يا تومي. سأجيب عن سؤالك الآن. هذا هو السبب الذي دعانا لأخذ أعمالكم الفنِّية، كنَّا نختار أفضلها، ونعرضها في معارض خاصَّة. في أواخر السبعينيات، عندما كان نفوذنا قد بلغ الأوج، كنَّا ننظِّم احتفالات ضخمة في جميع أرجاء البلاد. وكان يشارك فيها وزراء من الحكومة، وأساقفة، ويحضرها جمع غفير من الوجهاء، وتُلقى فيها الخُطب، ويجري فيها التعهُّد بتقديم التبرُّعات. كنَّا نقول: ‘انظر هنا، انظر إلى هذا العمل الفنِّي**!** كيف تجرؤ على القول بأنَّ هؤلاء الأطفال أدنى مرتبة من البشر الآخرين؟’ أوه، نعم كان هناك الكثير من الدعم لحركتنا في تلك الأيَّام، وكان المدُّ لصالحنا».

خلال الدقائق القليلة التي أعقبت ذلك، واصلت الآنسة إيميلي استرجاع شتَّى الأحداث التي جرت في تلك الأيَّام، وذكرت أسماء كثير من الأشخاص الذين لا يعنون شيئًا بالنسبة لنا. الحقيقة أنَّه بدا لنا خلال فترة وجيزة كما لو أنَّنا نستمع إليها مرَّة أخرى في أحد التجمُّعات الصباحية، فيما كانت تواصل شطحاتها التي لم نستطع متابعتها. بدا أنَّها تستمتع بذلك، وقد تجلَّت ابتسامة خفيفة في نظراتها. غير أنَّها توقَّفت فجأة، وقالت بلهجة جديدة:

«لم نفقد على الإطلاق صلتنا بالواقع، أليس كذلك يا ماري-كلود؟ كنَّا في ذلك نختلف عن زملائنا في سوندَرزْ تْرَستْ. حتَّى في أفضل الحالات، فإنَّنا كنَّا ندرك صعوبة المعركة التي نخوضها، ولم يمضِ وقت طويل حتَّى برزت قضيَّة مورننغديل، ومسألة واحدة أخرى أو مسألتان. ثمَّ سرعان ما تبدَّدت كلُّ الأعمال الشاقَّة التي قمنا بها».

«لكنَّ ما لا أفهمه»، قلت، «هو السبب الذي دفع الناس إلى اعتبار التلاميذ في مرتبة متدنِّية أصلًا».

«من وجهة نظرك اليوم يا كاثي، يبدو استغرابك للأمر معقولًا تمامًا. لكن عليك أن تنظري للأمور في سياقها التاريخي. فبعد الحرب، في أوائل الخمسينيات، عندما تسارعت الاختراقات

الكبرى في مجال العلوم، الواحد إثر الآخر، لم يكن هناك وقت للمراجعة وطرح الأسئلة المنطقية. فجأة برزت أمامنا جميع هذه الاحتمالات، وجميع الوسائل الكفيلة بمعالجة كثير من الأمراض التي كانت مستعصية على العلاج. هذا هو ما لاحظه العالم وأراده أكثر من أيّ شيء آخر. لمدَّة طويلة، كان الناس يؤثِرون الاعتقاد بأنَّ تلك الأعضاء ظهرت من لا مكان، أو أنَّها نبتت، على الأقل، في نوع من الفراغ. نعم، كانت هناك **مجادلات** حول الأمر. ولكن حالما بدأ القلق يساور الناس حول... حول **التلاميذ**، وحالما بدأوا يظهرون الاهتمام بأساليب تربيتكم، وما إذا كان من الضروري أن توجَدوا أو تُخلقوا أصلًا، حسنًا، كان قد فات الأوان. لم تكن ثمَّة وسيلة لإرجاع الأمور إلى الوراء. فكيف كان بوسعك أن تطلب من العالَم الذي اعتقد أنَّ السرطان قابل للعلاج، كيف كان بوسعك أن تطلب من ذلك العالَم أن يرفض العلاج، ويعود إلى عصور الظلام؟ لقد كانت العودة مستحيلة. رغم انزعاج الناس من وجودكم، فإنَّ همَّهم الأكبر تركَّز على أنَّ أبناءهم وأزواجهم وآباءهم وأمَّهاتهم وأصدقاءهم لن يموتوا بسبب السرطان وأمراض الجهاز العصبي وأمراض القلب. لهذا السبب، جرى التستُّر على وجودكم، ولمدَّة طويلة حرص الناس كلَّ الحرص على ألَّا يفكّروا فيكم. وإذا فعلوا ذلك، فإنَّهم حاولوا إقناع أنفسهم بأنَّكم بالفعل لستم مثلنا تمامًا. أي أنَّكم في مرتبة متدنّية بالنسبة للبشر، وبالتالي لا أهمّية لكم. ظلَّت الأمور على هذا النحو إلى أن وُلدت حركتنا. لكن هل تلاحظين ما كنَّا نواجهه ونتصدَّى له؟ كنَّا في واقع الأمر نحاول تربيع الدائرة. فقد كان العالم يطالب التلاميذ بالتبرُّع، وفي تلك الحالة، ستبرز بعض المعيقات التي ستحول دون اعتباركم بشرًا حقيقيين بمعنى الكلمة. حسنًا. لقد خضنا هذه المعركة على مدى سنوات عديدة، وحقَّقنا، على الأقل، عدَّة تحسينات لصالحكم مع أنَّكم كنتم، بالطبع، مجرَّد أقلّية صغيرة مختارة. ثمَّ جاءت فضيحة مورننغديل، ثمَّ قضايا أخرى، وسرعان ما تغيَّرت الأجواء تمامًا. لم يعد أيُّ طرف يريد دعمنا بأيّ شكل، فأصبحنا، نحن وحركتنا الصغيرة وهيلشام وغلينمورغان وسوندرزْ تْرَسْتْ، أثَرًا بعد عين».

«وما هي فضيحة مورننغديل التي ما فتئتِ تشيرين إليها يا آنسة إيميلي؟»، سألتُ. «عليك أن توضحيها لنا، لأنَّنا لا نعلم عنها شيئًا».

«حسنًا، أظنُّ أنَّه ليس هناك مبرّر لذلك. فهي لم تكن قضيَّة كبيرة في العالم الواسع. وهي تتعلَّق بعالِم يُدعى جيمس مورننغديل، موهوب فعلًا ولكن على طريقته الخاصَّة. كان يُجري أبحاثه في بقعة نائية في اسكتلندا، حيث كان يعتقد كما أظنُّ، أنَّ الأضواء لن تُسلَّط عليه. كان يسعى إلى طرح علنيٍّ لإمكانية إنجاب أطفال يتمتَّعون بمزايا متميّزة. ذكاء متفوّق، ونزعة رياضية تتجاوز كلَّ المقاييس وما إلى ذلك، وكانت هناك بالطبع أطراف أخرى يحفّزها مثل هذا الطموح. لكن هذا المورننغديل تفوَّق في أبحاثه على ما حقَّقه الآخرون من قبل، وتجاوز حدود القانون إلى حدٍّ بعيد. لكن اكتُشف أمره، ووُضع حدٌّ لأعماله، وبدا أنَّ قضيَّته انتهت إلى غير رجعة. لكنَّها بالطبع لم تنتهِ، بالنسبة لنا على الأقل. كما ألمحت، لم تتحوَّل إطلاقًا إلى قضية ضخمة. لكنَّها ولَّدت كما تلاحظان أجواء معيَّنة. لقد ذكَّرت الناس. ذكَّرتهم بالمخاوف التي كانت تراودهم دائمًا. فهناك من ناحية خَلْقُ تلاميذ، مثلكم، لبرنامج التبرُّعات. ما الذي سيُفضي إليه خلق جيل جديد من الأطفال الذين سيحتلُّون موقعهم في المجتمع؟ أطفال متفوّقون علينا جميعًا؟ أوه، لا. ذلك هو ما أفزع الناس. أثار فيهم النفور والاشمئزاز».

«لكن يا آنسة إيميلي»، قلت، «ما علاقتنا بذلك كلّه؟ لماذا اضطرَّت هيلشام إلى الإغلاق بناء على أمر مثل هذا؟».

«نحن كذلك لم نكتشف أيَّة صلة بين هذا وذاك يا كاثي. ليس في بادئ الأمر. كثيرا ما أفكّر الآن

في أنَّنا قد أخطأنا بعدم ملاحظة ذلك. لو كنَّا أكثر انتباهًا، وأقلَّ اهتمامًا بأمورنا الخاصَّة، ولو أنَّنا عملنا في تلك المرحلة بصورة أكثر جدِّية عندما انتشرت أخبار مورننغديل، لكان بوسعنا على الأرجح أن نتحاشى ذلك. آه. ماري-كلود تخالفني الرأي. فهي ترى أنَّ ذلك كان سيحدث بصرف النظر عمَّا كنَّا سنفعله، وربَّما كانت، جزئيًا، على حقٍّ. فعلى كلِّ حال، لم يكن مورننغديل وحده هو السبب. فقد حدثت عدَّة أمور آنذاك. كان هناك على سبيل المثال، ذلك المسلسل التلفزيوني اللعين. أسهمت تلك الأمور، نعم، أسهمت في تغيير اتِّجاه الأحداث، وعندما نمعن النظر، ندرك أنَّ السبب الجوهري كان كما يلي. كانت حركتنا الصغيرة هشَّة على الدوام، وكنَّا نعتمد اعتمادًا تامًّا على نزوات من يقدِّمون لنا الدعم. فقد كنَّا على خير ما يرام عندما كانت الأجواء مناسبة لنا، أو عندما كانت إحدى الجهات التعاونية أو السياسية تنتفع من مساندتنا. لكنَّها كانت معركة صعبة، وبعد مورننغديل، وتبدُّل الأجواء، لم تعد أمامنا أيَّة فرصة. لم يرغب العالم في معرفة الكيفية التي يعمل بها برنامج التبرُّعات بالفعل. كما أنَّ الناس لم يرغبوا في التفكير بكم، أنتم التلاميذ، أو بالظروف التي نشأتم وتربَّيتم في ظلِّها. بعبارة أخرى، يا عزيزيَّ، أرادوا الإبقاء عليكم في الظلِّ. في الظلِّ الذي كنتم فيه قبل أن يدخل الصورة أمثالنا، أنا وماري-كلود. أمَّا هؤلاء الناس أصحاب النفوذ، الذين كانوا حريصين كلَّ الحرص على مساعدتنا، حسنًا، فقد اختفوا بطبيعة الحال. فقدنا كفلاءنا ورعاتنا، واحدًا إثر الآخر، في غضون سنة واحدة أو ما يزيد. وقد واصلنا أنشطتنا قدر المستطاع، بل عملنا مدَّة سنتين بعد توقُّف غلنمورغان. لكنَّنا اضطررنا آخر الأمر، كما تعلمان، إلى الإغلاق. لم يبق اليوم أيَّة آثار لما أنجزناه من أعمال. ولن تجدا الآن أيَّ شيء يماثل هيلشام في شتَّى أنحاء البلاد. ولن تريا كالعادة إلَّا تلك 'البيوت' الحكومية الضخمة. حتَّى لو كان وضعها اليوم أفضل ممَّا كانت عليه في الماضي، أؤكِّد لكما يا عزيزيَّ أنَّ ما قد تشاهداه في بعض هذه الأماكن سيقضُّ مضاجعكما عدَّة أيَّام. أمَّا نحن، أنا وماري-كلود، فها نحن هنا الآن، وقد انسحبنا إلى هذا المنزل، ولدينا في الطابق العلوي أكوام من أعمالكم الفنِّية. ذلك هو ما يذكِّرنا بما فعلناه. هناك أكوام من الديون كذلك، مع أنَّ ذلك لا يبعث على السرور. وهناك، كما أظنُّ، الذكريات كذلك، الذكريات عنكم جميعًا. كما أنَّنا نعلم حقَّ العلم أنَّنا وفَّرنا لكم حياة أفضل ممَّا كنتم ستحصلون عليه بأيَّة وسيلة أخرى».

«لا تحاولي طلب أن يشكراكِ»، قالت المدام من ورائنا. «لماذا سيعربان عن الامتنان؟ لقد أتيا إلى هنا بحثًا عن شيء أكبر من ذلك بكثير. ما أعطيناهما إيَّاه، على مدى تلك السنوات، والحرب التي خضناها نيابة عنهما وفي سبيلهما، ما الذي يعرفانه عن ذلك؟ إنَّهما يعتقدان أنَّ ذلك نعمة سماوية. لم يعرفا ذلك حتَّى قدومهما إلى هنا. كل ما يشعران به الآن هو الإحباط، لأنَّنا لم نقدِّم لهما كلَّ ما هو ممكن».

لم ينبس أحد بكلمة لبعض الوقت. غير أنَّ بعض الأصوات تعالت في الخارج، ورنَّ جرس الباب مرَّة أخرى. خرجت المدام من العتمة ودخلت القاعة.

«**لا بدَّ** من أنَّهم هؤلاء الرجال»، قالت الآنسة إيميلي. «عليَّ أن أستعدَّ. لكن يمكنكما البقاء فترة أطول. سيضطرُّ هؤلاء الرجال أن يُنزلوا هذا الشيء على درج الطابقين، وستراقب ماري-كلود الوضع لئلَّا يعطبوه».

لم أصدِّق أنا وتومي أنَّ تلك اللحظة كانت دليلًا على إنهاء الزيارة. فلم نقف، كما لم تبدُ أيَّة إشارة على أنَّ أحدًا ما سيساعد الآنسة إيميلي على النهوض عن كرسيِّها المتحرِّك. تساءلت لعدَّة لحظات عمَّا إذا كانت ستحاول النهوض بمفردها، لكنَّها بقيت مكانها، وقد طأطأت رأسها فيما كانت تصيخ

السمع بانتباه. ثمَّ قال تومي:
«إذن، لن ننال أيَّ شيء هنا. لا إرجاء، ولا أيَّ شيء من هذا القبيل».
«تومي»، غمغمت وحدَّقت إليه. لكن الآنسة إيميلي قالت بلطف:
«لا يا تومي، لا شيء من ذلك. لكن يجب أن تمضي حياتك وفق المسار المقدَّر لها».
«إذن، ما تقولينه يا آنستي»، قال تومي، «يعني أنَّ كلَّ ما قمنا به، جميع الدروس، وكلَّ شيء، كلَّ هذا لم يكن إلَّا ما حدَّثتنا به قبل قليل. وليس له أي معنى غير ذلك؟».
قالت الآنسة إيميلي: «أعتقد أنَّكما، فيما يبدو، ربَّما كنتما ضحيَّتين لإحدى الألاعيب. يمكن بالتأكيد النظر إلى الموضوع من هذه الزاوية. ولكن فكِّرا في الموضوع. كنتما ضحايا بالفعل، ولكنكما محظوظان. كانت هناك أجواء مناسبة، لكنَّها ولَّت إلى غير رجعة. عليكما أن تتقبَّلا أحيانًا أنَّ هذه هي الطريقة التي تحدث بها الأشياء في هذا العالم. إنَّ آراء الناس ومشاعرهم تميل مرَّة إلى هذا الاتِّجاه، ومرَّة إلى الاتِّجاه الآخر. ما حدث هو أنَّكما نشأتما وكبرتما في نقطة معيَّنة في هذه السيرورة».
«ربَّما كانت مجرَّد تيَّار برز ثمَّ اختفى»، قلت. «لكن بالنسبة لنا، فإنَّها حياتنا».
«نعم، هذا صحيح. ولكن فكِّري في الأمر. لقد كنتما أفضل حالًا من كثيرين قبلكما. من يدري ما سيواجهه من سيجيئون بعدكما. إنَّني آسفة، أيُّها التلميذان. لكن يجب أن أترككما الآن. جورج! جورج!».
ترامت إلينا عدَّة أصوات في الرواق، وربَّما كان ذلك هو الذي حال دون سماع جورج لندائها، لأنَّه لم يستجب لها. سأل تومي فجأة:
«هل تركت الآنسة لوسي لهذا السبب؟».
تصوَّرت لبضع ثوانٍ أنَّ الآنسة إيميلي، التي كانت تركِّز انتباهها على ما يدور في الرواق، لم تسمعه. فانحنت إلى الأمام، وأخذت تحرِّك الكرسي بالتدريج نحو الباب. اكتظَّ الرواق بعدد كبير من طاولات القهوة الصغيرة والمقاعد التي تحول دون العبور. كنت أوشك على النهوض لأخلي الطريق، عندما قالت فجأة: «لوسي وينرايت. آه، نعم، واجهتنا بعض المشاكل معها». تريَّثت قليلًا، ثمَّ عدَّلت وضع الكرسيِّ المتحرِّك وواجهت تومي. «نعم. واجهتنا بعض المشاكل معها. دبَّ الخلاف بيننا. لكن سأجيب عن سؤالك الآن. الخلاف مع لوسي وينرايت لا علاقة له بما حدَّثتك عنه قبل قليل. لا علاقة مباشرة على كلِّ حال. لا، يمكن القول إنَّه كان خلافًا داخليًا».
ظننت أنَّها ستترك الموضوع عند هذه النقطة، فسألت:
«آنسة إيميلي، إذا سمحت، نحن نريد أن نعرف عن هذا الموضوع، عمَّا حدث مع الآنسة لوسي».
رفعت الآنسة إيميلي حاجبيها. «لوسي وينرايت؟ هل كان يهمُّك أمرها؟ عفوًا، أيُّها التلميذان العزيزان، لقد نسيت مرَّة أخرى. لم تبق لوسي معنا وقتًا طويلًا. لهذا فقد كانت شخصية هامشية في ذكرياتنا عن هيلشام. لم تكن ذكرياتنا عنها سعيدة على أيِّ حال. لكنَّني أقدِّر سؤالك عنها، ليتك كنت معنا خلال تلك السنوات»... وأطلقت ضحكة مكتومة، وبدا أنَّها تذكَّرت شيئًا. في القاعة، كانت المدام تودِّع الرجال بصوت عالٍ بالفعل، ولكن بدا أنَّ الآنسة إيميلي قد فقدت الاهتمام. كانت قد انجرفت مع ذكرياتها وبدا عليها التركيز. أخيرًا قالت: «كانت فتاة لطيفة للغاية، لوسي وينرايت. لكن بعد أن قضت معنا وقتًا قصيرًا، بدأت تراودها تلك الأفكار. كانت ترى أنَّه ينبغي تدريب الطلَّاب لتعزيز وعيهم. لتوعيتكم بما كان ينتظركم، وبهويَّتكم وبما ستصبحون عليه. اعتقدت أنَّ

علينا توضيح الصورة كلَّ الوضوح لكم، وأنَّ التقصير في ذلك سيكون أقرب إلى الخداع. وقد نظرنا في آرائها تلك، وخلصنا إلى أنَّها كانت على خطأ».

«لماذا؟»، سأل تومي. «لماذا قرَّرتم ذلك؟».

«لماذا؟ لقد كانت حسنة النيَّة. أنا متأكِّدة من ذلك. ألاحظ أنَّك كنت مولعًا بها. كانت فيها السمات الضرورية لتكون حارسة ممتازة. لكن ما كانت تريد أن تفعله كان نظريًا تمامًا. تولَّينا إدارة هيلشام لسنوات عديدة، وعرفنا ما هي السياسات الناجعة، وما هي الخطوات الأكثر جدوى بالنسبة للتلاميذ في المدى البعيد بعد مغادرتهم هيلشام. لكن لوسي وينرايت كانت مثالية، ولا ضير في ذلك، لكن لم يكن لديها إلمام بالنواحي العملية. لاحظا أنَّنا استطعنا أن نقدِّم لكم شيئًا، لا يستطيع أحد حتَّى الآن أن ينتزعه منكما، وقد استطعنا أن نفعل ذلك، أساسًا، **بإيوائكما**. لم يكن لهيلشام أن تكون هيلشام لو لم نفعل ذلك. حسنًا. لقد أخفينا عنكما بعض الأمور أحيانًا، كذبنا عليكما، نعم. **استغفلناكما** بأكثر من وسيلة. أظنُّ أنَّ بإمكانكما إطلاق هذه الصفة علينا. لكنَّنا منحناكما المأوى والملجأ طوال هذه السنوات. لقد أعطيناكما طفولاتكما. كانت لوسي حسنة النيَّة بالفعل. لكن لو سارت الأمور على هواها هي لتحوَّلت هيلشام إلى أطلال. انظرا إلى وضعكما الآن! أشعر بالاعتزاز لرؤيتكما معًا. لقد بنيتما حياتكما على الأسس التي وضعناها لكما. لو لم نوفِّر لكما الحماية اللازمة لما كنتما ما أنتما عليه اليوم. لم يكن بوسعكما التعمُّق في استيعاب الدروس وتكريس الجهود للأعمال الفنِّية والكتابة. لما فعلتما ذلك لو علم كلٌّ منكما ما ينتظره في المستقبل؟ كنتما ستقولان آنذاك إنه لا جدوى من ذلك، فكيف كان لنا أن نجادل؟ من هنا كان عليها أن تغادر».

كنَّا في تلك اللحظة نسمع صوت المدام وهي تصرخ في الرجال. لم تكن قد فقدت أعصابها تمامًا، ولكن نبرتها كانت حازمة إلى حدٍّ يثير الفزع. أمَّا الرجال، الذين كانوا يجادلونها حتَّى تلك اللحظة، فقد لاذوا بالصمت.

«ربَّما بقائي معكما هنا جيِّد»، قالت الآنسة إيميلي. «إنَّ ماري-كلود أكفأ منِّي بكثير في مثل هذه الأمور».

لا أعلم ما الذي دفعني إلى قول ذلك. ربَّما يعود ذلك إلى أنَّني كنت أعلم أنَّ الزيارة ستنتهي عمَّا قريب؛ وربَّما تولَّاني الفضول لأعرف كيف تشعر كلٌّ من الآنسة إيميلي والمدام تجاه الأخرى. على أيِّ حال، قلت لها بصوت منخفض وأنا أومئ إلى الممرِّ:

«المدام لم تكن تميل إلينا على الإطلاق. كانت تتخوَّف منَّا دائمًا. مثلما يخشى الناس العناكب والأمور الأخرى».

انتظرت لأعرف ما إذا كانت الآنسة إيميلي ستغضب، ولم نكن سنكترث لذلك لو فعلت. ما كان منها إلَّا أن استدارت ورمتني بنظرة قاسية، كأنَّني قد قذفتها بكرة من الورق، والتمعت عيناها بصورة ذكَّرتني بتصرُّفاتها أيَّام هيلشام. لكن صوتها كان متوازنًا ولطيفًا عندما أجابت:

«لقد منحتكما ماري-كلود **كلَّ شيء**. لقد عملت وعملت وعملت. لا تنسي ذلك يا طفلتي. إنَّ ماري-كلود تقف إلى جانبكما وستبقى في صفِّكما على الدوام. هل تخاف منكما؟ **جميعنا** نخاف منكم أنتم. وأنا كنت أقاوم تخوُّفي منكم كلَّ يوم تقريبًا في هيلشام. وكثيرًا ما كنت أطلُّ عليكم من نافذة مكتبي وأنا أحسُّ بالاشمئزاز»... توقَّفت عن الحديث، ثم التمعت عيناها مرَّة أخرى. «لكنَّني كنت قد صمَّمت ألَّا أسمح لهذا الشعور بمنعي من أن أفعل ما اعتبره الخطوة الصحيحة. حاربت تلك الأفكار، ونجحت. أرجو الآن أن تساعداني على النهوض، لا بدَّ من أنَّ جورج ينتظرني ومعه عكازتاي».

اسندت كوعيها على ساعدينا، وتقدَّمنا بخطى وئيدة إلى القاعة، حيث كان يقف بانتباه وتوجُّس رجل ضخم يرتدي زيَّ الممرِّضين، قبل أن يسارع إلى إحضار عكَّازتين.
كان الباب الأمامي مفتوحًا على الشارع، وفوجئت برؤية أشعَّة الغروب. كان صوت المدام يترامى من الخارج، وهي تتحدَّث الآن بهدوء مع الرجال. شعرت بأنَّه قد حان الوقت لننسحب أنا وتومي. لكن جورج كان يساعد الآنسة إيميلي على ارتداء معطفها فيما وقفت هي بثبات بين عكَّازيها؛ ولم يكن بوسعنا المرور. فاضطررنا للانتظار. أظنُّ أنَّنا كنَّا كذلك ننتظر توديع الآنسة إيميلي؛ فربَّما كنَّا، مع كلِّ ما حدث، نريد أن نشكرها، رغم أنَّني لم أكن متأكِّدة من ذلك. لكنَّها كانت الآن مشغولة بخزانتها، وراحت تشرح نقطة عاجلة للرجال في الخارج، ثمَّ خرجت مع جورج من دون أن تستدير وترانا خلفها.
بقيت أنا وتومي في القاعة فترة أطول، وقد تولَّتنا الحيرة فيما يجدر بنا عمله. عندما تجوَّلنا في الخارج، لاحظنا أنَّ المصابيح كانت مضاءة على امتداد الشارع الطويل مع أنَّ الظلام لم يكن قد حلَّ بعد. تناهى إلى أسماعنا صوت محرِّك شاحنة بيضاء، وخلفها مباشرة، كانت تقف سيَّارة فولفو ضخمة وقد جلست الآنسة إيميلي في المقعد المجاور للسائق، وانحنت المدام قرب نافذة السيَّارة وهي تومئ بالموافقة على ما تقوله الآنسة إيميلي، بينما كان جورج يغلق صندوق السيَّارة الخلفي ويتحرَّك بعدئذ لباب السائق. ثمَّ تحرَّكت الشاحنة، ولحقت بها سيَّارة الآنسة إيميلي.
راقبت المدام طويلًا العربتين المغادرتين. ثمَّ استدارت وكأنَّها توشك على العودة إلى المنزل، لكنَّها توقَّفت فجأة وتراجعت عندما شاهدتنا على الرصيف.
«سنغادر الآن»، قلت. «شكرًا على حديثك معنا. نرجو أن تودِّعي الآنسة إيميلي بالنيابة عنَّا».
لاحظت أنَّها كانت تمعن النظر إليَّ مع أشعَّة الغروب الباهتة. ثمَّ قالت:
«كاثي. أتذكَّرك. نعم، أتذكَّرك». صمتت، ولكنَّها واصلت النظر إليَّ.
«أعتقد أنَّني أعرف ما تفكِّرين فيه»، قلت أخيرًا. «أستطيع أن أخمِّن ذلك».
«حسنًا»، وكان صوتها حالمًا ونظراتها زائغة قليلًا. «حسنًا إذن، لديك القدرة على قراءة الأفكار. هيَّا، أخبريني».
«لقد رأيتني بالفعل ذات يوم، بعد الظهيرة، في المنامة. لم يكن هناك غيرنا. وكنت أشغِّل ذلك الشريط المسجَّل، وتلك الموسيقى. كنت أرقص على نحو ما مغمضة العينين عندما رأيتني».
«هذا شيء رائع. قارئة أفكار. يجدر بك أن تعتلي المسارح. تعرَّفت عليك الآن فقط، ولكن نعم، أتذكَّر تلك المناسبة. وما زلت أفكِّر فيها بين وقت وآخر».
«غريب. هذا ما أفعله كذلك».
«جميل».
كان من الممكن أن تنتهي المحادثة على هذا النحو. وكان بوسعنا أن نتبادل عبارات الوداع ونغادر المكان، لكنَّها اقتربت منَّا وهي تواصل النظر إلى وجهي طوال الوقت.
«كنتِ أكثر شبابًا آنذاك». قالت. «ولكن نعم. إنَّك تلك الفتاة نفسها».
«لا يفترض أن تجيبي عن سؤالي إذا لم ترغبي في ذلك»، قلت. «ولكن هذا الأمر طالما أوقعني في حيرة. هل لي أن أطرح عليك السؤال؟».
«إنَّك تقرئين أفكاري. لكنِّي لا أستطيع قراءة أفكارك».
«حسنًا، لقد كنتِ... منزعجة في ذلك اليوم. كنت تراقبينني، وعندما انتبهت لذلك وفتحت عينيَّ، رأيتك تراقبينني وأظنُّك كنت تبكين. الحقيقة أنَّني أعلم أنَّك كنت تبكين. كنت تراقبينني وتبكين.

فلماذا؟».

لم تتغيَّر التعبيرات على وجه المدام، وظلَّت تمعن النظر في وجهي. «كنت أبكي»، قالت بهدوء شديد، وكأنَّها كانت تخشى أن يسمعنا من كانوا في الجوار، «لأنَّني عندما دخلت، سمعت موسيقاك. ظننت أنَّ أحد التلاميذ الحمقى قد أدار الموسيقى وذهب. لكن عندما دخلت المنامة التي كنت فيها رأيتك، وحدك، صبيَّةً صغيرة، ترقص. كما قلتِ، كانت عيناك مغمضتين. كنت تحلِّقين بأشواقك بعيدًا. كنت ترقصين بانسجام عاطفي كامل. الموسيقى. الأغنية. وكانت ثمَّة لمسة خاصَّة في الكلمات. كانت مشوبة بالحزن».

«الأغنية»، قلت، «كانت تسمَّى **لا تدعني أرحل أبدًا**». غنَّيت لها بهدوء، مقطعين منها بصوت خافت. **«لا تدعني أرحل أبدًا، آه، يا حبيبي، يا حبيبي. لا تدعني أرحل»...**

أومأتْ كما لو كانت توافقني. «نعم، كانت تلك هي الأغنية. وقد استمعت إليها مرَّة أو مرَّتين منذئذٍ. في الراديو وعلى شاشة التلفزيون. وقد أعادتني إلى لقائي بتلك الفتاة الصغيرة، التي كانت ترقص بمفردها».

«تقولين إنَّك لست قارئة أفكار»، قلت. «لكن ربَّما كنت كذلك في ذلك اليوم. ربَّما كان ذلك هو السبب الذي أبكاك عندما شاهدتني. فمهما كان معنى الأغنية بالفعل، كان لي تفسيري الخاصُّ لها عندما كنت أرقص. والحال أنَّني تصوَّرت أنَّها تدور حول تلك المرأة التي أُبلغت أنَّها لن تنجب أطفالًا، لكنَّها أنجبت طفلًا فغمرتها السعادة، وظلَّت تضمُّه إلى صدرها بقوَّة خشية أن يفرِّق بينهما شيء ما، فما فتئت تغنِّي يا طفلي، يا حبيبي، لا تدعني أرحل أبدًا. لم يكن هذا هو معنى الأغنية، ولكن ذلك هو ما خطر لي يومذاك. ربَّما قرأت أفكاري، ولهذا أحزنتكِ الأغنية إلى هذا الحدِّ آنذاك. لكن عندما أفكِّر الآن في تلك الأيَّام، أشعر بالحزن إلى حدٍّ ما».

تحدَّثت مع المدام. لكن شعرت بحركة تومي إلى جانبي، كنت أحسُّ بنسيج ملابسه وبكلِّ ما يتعلَّق به، عندما قالت المدام:

«هذا طريف جدًّا. لكنَّني لم أكن حينئذ أكثر قدرة على قراءة الأفكار ممَّا أنا عليه الآن. كنت أبكي لسبب مختلف تمامًا. عندما شاهدتك ترقصين في ذلك اليوم، رأيت شيئًا آخر. رأيت عالمًا جديدًا يبرز بسرعة، أكثر علمًا وأكثر كفاءة، نعم. اكتُشفت علاجات جديدة لأمراض قديمة. شيء رائع. لكنَّه عالم جلف، قاسٍ. رأيت صبيَّة صغيرة، مغمضة العينين تضمُّ إلى صدرها العالم القديم الحنون، العالم الذي كانت تعلم في قرارة نفسها أنَّه لن يدوم. كانت تضمُّه وتتشبَّث به وتتضرَّع إليه بألَّا يدعها ترحل أبدًا. هذا ما رأيته. لم يكن أنت بالضبط، أو ما كنت تفعلينه. أعلم ذلك، لكنَّني رأيتك وانفطر قلبي. ولم أنسَ ذلك قطُّ».

تقدَّمت بعدئذ منَّا، بحيث لم يبق بيننا وبينها غير خطوة أو خطوتين. «وحكايات هذه الليلة، لقد أثَّرت في نفسي كثيرًا». ثمَّ نظرت إلى تومي، وعادت لتحوِّل بصرها إليَّ مرَّة أخرى. «ليتني أستطيع مساعدتكم، أنتم المخلوقات المسكينة. لكنَّكم وحدكم الآن».

مدَّت يدها وربَّتت على خدِّي، فيما واصلت التحديق إلى وجهي. أحسست أنَّ رعدة تسري في مفاصلها، لكنَّها أبقت يدها مكانها، ولمحت الدموع تجري في مقلتيها.

«أنتم المخلوقات المسكينة»، قالت مجدَّدًا، بما يشبه الهمس. ثمَّ استدارت وتحرَّكت إلى داخل المنزل.

***

في طريق عودتنا من تلك الرحلة، لم نتحدَّث إلَّا بصورة عرضيَّة عن لقائنا بالآنسة إيميلي

والمدام. وإن تطرَّقنا إلى ذلك، فإنَّ حديثنا تناول مسائل أقلَّ أهمِّية، مثل مدى تقدُّمهما في العمر أو بعض الأشياء في المنزل.
تعمَّدت أخذ أكثر الطرق الخلفية ظلمة، بحيث لم يكن يخترق ظلمتها إلَّا نور مصابيح السيَّارة الأمامية. كنَّا نواجه أحيانًا الأضواء المنبعثة من مصابيح سيَّارات أخرى، وشعرنا بأنَّها كانت تقلُّ مرشدين آخرين كانوا يعودون بها إلى بيوتهم بمفردهم، أو ربَّما مثلي، مع مانح يجلس إلى جانبهم. أدركت بالطبع، أنَّ أشخاصًا آخرين يستخدمون تلك الطرق؛ ولكن بدا لي في تلك الليلة أنَّ تلك الدروب المظلمة في الريف لم تُخلق إلَّا لأمثالنا، بينما كان الآخرون يستخدمون الشوارع العريضة المضاءة التي ترتفع على جانبيها يافطات المقاهي والمقاصف العريضة. لا أدري ما إذا كان تومي يفكِّر مثلي في ذلك. ربَّما كان، لأنَّه لاحظ بعد حين:
«كاث، إنَّك تعرفين بالفعل بعض الطرق الخارجة عن المألوف».
ندت عنه ضحكة خفيفة عندما قال ذلك، لكنَّه سرعان ما عاد إلى تأمُّلاته الباطنية. وعندما كنَّا نأخذ طريقًا تغمرها الظلمة الحالكة بصورة خاصَّة، قال فجأة:
«أعتقد أنَّ الآنسة لوسي هي التي على حقٍّ، وليست الآنسة إيميلي».
لا أتذكَّر ما إذا كنت قد أجبت عن ذلك إطلاقًا. إن كنت قد فعلت، فإنَّ ردِّي لم يكن بالتأكيد يتعلَّق بشيء مهمٍّ جدًّا. لكن تلك اللحظة هي التي لاحظت فيها للمرَّة الأولى شيئًا في صوته، أو ربَّما في سلوكه، أطلق جرس الإنذار من بعيد. أذكر أنَّني حوَّلت عينيَّ عن الطريق لألقي نظرة عليه، لكنَّه كان جالسًا بهدوء، يحدِّق إلى العتمة.
بعد بضع دقائق، قال فجأة: «كاث، هل لنا أن نتوقَّف؟ أنا آسف. لكنَّني أحتاج إلى الخروج دقيقة واحدة».
أحسست أنَّ المرض قد دهمه مرَّة أخرى، فأوقفت السيَّارة على الفور بعد أن أوشكت على الاصطدام بسياج من الشجيرات. كانت البقعة حالكة السواد، ورغم أضواء السيَّارة، تولَّاني الخوف من أنَّ إحدى السيَّارات قد تنزلق على الطريق المائلة وتصطدم بنا. لهذا السبب، لم أخرج مع تومي عندما انطلق واختفى في العتمة. بالإضافة إلى ذلك، أوحت طريقة خروجه المتعمَّدة أنَّه حتى وإن عاوده المرض، سيفضِّل أن يتعامل معه بمفرده. على أي حال، بقيت في السيَّارة لهذا السبب، أتساءل إذا كان يجدر بي أن أحرِّك السيَّارة صعودًا على التلَّة أم غير ذلك، غير أنَّني في تلك اللحظة سمعت الصرخة الأولى.
لم أعتقد أوَّل الأمر أنَّها صدرت عنه، بل عن شخص مختلٍّ يتسلَّل بين الشجيرات. ما إن ترجَّلت من السيَّارة حتى انطلقت صرخة ثانية، ثمَّ ثالثة، وعرفت في تلك اللحظة أنَّها صدرت عن تومي، مع أنَّ ذلك لم يقلِّل من إحساسي بتلك الحالة الطارئة. الواقع أنَّني ربَّما دبَّ فيَّ ما يشبه الفزع، لأنَّه لم يكن لديَّ أيُّ دليل على مكانه، ولم يكن بوسعي أن أرى أيَّ شيء على الإطلاق. عندما حاولت التوجُّه إلى مصدر الصراخ، سدَّت طريقي كومة من الأعشاب والأغصان لا يمكن اختراقها. ثمَّ وجدت فسحة للخروج، واخترقت إحدى الترع، ووجدت نفسي قبالة سور مسيَّج. فتسلَّقته وهبطت على الجانب الآخر فوق كومة من الوحل الليِّن.
إنني أرى الآن ما حولي بطريقة أفضل. فأنا في منحدر حادٍّ يمتدُّ إلى نهاية لا تبعد كثيرًا عن المكان الذي أقف فيه، أشاهد أضواء قرية في سفح الوادي.
كانت الرياح شديدة بالفعل هنا، وقد واجهتني عصفة قاسية منها، اضطررت معها إلى الاحتماء بعمود السور المسيَّج. لم يكن البدر قد اكتمل بعد، لكن كان ثمَّة ما يكفي من النور. استطعت، في

منتصف المسافة، أن أتبيَّن جسم تومي على مقربة من نقطة انحسار الحقل، وكان في حالة من الهيجان، يصرخ ويلوِّح بقبضته ويركل.

حاولت الجري نحوه، غير أنَّ الوحل ألصق قدميَّ بالأرض، وكان الوحل يعيقه كذلك، لأنَّه في إحدى اللحظات عندما كان يركل بقدمه، انزلق وسقط واختفى في العتمة. لكنَّ شتائمه تواصلت من دون انقطاع، واستطعت الوصول إليه فيما كان ينهض ويقف على قدميه مرَّة أخرى. لمحت وجهه في ضوء القمر ملطَّخًا بالوحل وبعلامات الغضب، ثمَّ أمسكت بذراعيه الخائرتين وساندته. حاول أن يبعدني عنه، غير أنَّني ظللت ممسكة به إلى أن أوقف الصراخ وخارت عزيمته. أدركت عندئذ أنَّه كان هو أيضًا يطوِّق عنقي بذراعيه. بقينا على تلك الحال، في طرف الحقل العلويّ، فترة بدا ألَّا نهاية لها، صامتين، متعانقين، بينما الريح تعصف بنا وتعصف، وتنفخ في ملابسنا. خُيِّل لي ساعتئذ أنَّ أحدنا يتشبَّث بالآخر لأنَّ تلك كانت الوسيلة الوحيدة لوقف انزلاقنا إلى أعماق الظلمة.

عندما تباعدنا أخيرًا، غمغم قائلًا: «أنا آسف فعلًا يا كاث». ثمَّ ضحك ضحكة خفيفة، وأردف قائلًا: «لحسن الحظِّ لم تكن هناك أبقار في الحقل، وإلَّا لارتعبت».

لاحظت أنَّه يبذل قصارى الجهد ليؤكِّد لي أنَّ كلَّ شيء على ما يرام الآن، إلَّا أنَّ صدره كان يعلو وينخفض وساقاه ترتعدان. عدنا سويًا إلى السيَّارة محاولَين قدر المستطاع ألَّا ننزلق مع الوحل.

«رائحة رَوث البقر تفوح منك»، قلت أخيرًا.

«يا إلهي يا كاث. كيف لي أن أفسِّر ذلك؟ علينا أن نتسلَّل من بوَّابة المركز الخلفية».

«عليك في كلِّ الحالات أن توقِّع».

«يا إلهي»، قال، وضحك ثانية.

وجدت بعض الخرق في السيَّارة واستطعنا أن نزيل بها الجانب الأكبر من لطخات الوحل عن جسمينا. لكنَّني وجدت الحذاء بينما كنت أبحث عن الخرق، كما أخرجت حقيبة الرياضة التي تحتوي على رسوم حيواناته، وعندما انطلقنا لاحظت أنَّه أحضرها معه إلى الداخل.

قطعنا جانبًا من الطريق، من دون أن نتكلَّم. كان يحتضن الحقيبة، وكنت أنتظر منه أن يقول شيئًا عن الصور؛ بل خيِّل لي أنِّه سوف يستشيط غضبًا مرَّة أخرى ويرمي بالصور خارج النافذة. لكنَّه ضمَّ الحقيبة بحرص بين يديه، وظلَّ يحدِّق في الطريق المعتمة التي امتدَّت أمامنا. بعد فترة طويلة من الصمت، قال:

«إنَّني آسف على ذلك الآن يا كاث. آسف فعلًا. أنا مغفَّل حقيقي». ثمَّ أضاف قائلًا: «بمَ تفكِّرين يا كاث؟».

«كنتُ أفكِّر بالأيَّام الخوالي في هيلشام، عندما كان يجنُّ جنونك كما حدث اليوم، ولم نكن نفهم الأسباب، لم نفهم لماذا كانت تنتابك تلك الحالة. كما خامرتني قبل قليل فكرة ما. مجرَّد فكرة فعلًا. كنت أفكِّر في أنَّ السبب في فورات مزاجك تلك هو أنَّك كنت **تعرف** على الدوام».

فكَّر تومي في ذلك، وهزَّ رأسه. «لا أعتقد ذلك يا كاث. كنت هكذا دائمًا. كنت غبيًّا. هذا كلُّ ما في الأمر». ضحك ضحكة خفيفة، وقال: «لكن تلك فكرة غريبة. ربَّما كنت، في قرارة نفسي، أعرف. أعرف شيئًا لم تعرفوه أنتم».

الفصل الثالث والعشرون

لم يحدث تغيُّر كبير على ما يبدو في الأسبوع الذي أعقب الرحلة. لم أتوقَّع أن يستمرَّ الوضع على هذه الحال طويلًا. من هنا، بدأت ألاحظ اعتبارًا من أوَّل تشرين الأوَّل/أكتوبر بعض الاختلافات. فمن ناحية، استمرَّ تومي في رسم حيواناته، غير أنَّه لم يقبل، إلَّا على مضض، حضوري خلال انشغاله بالرسم، فنحن لم نعد تمامًا إلى الوضع الذي كنَّا عليه عندما أصبحت مرشدته وانتشرت في الأكواخ شتَّى الأقاويل عنَّا. لكن يبدو أنَّه فكَّر في الموضوع، واتَّخذ قرارًا في هذا الشأن: إنَّه سيواصل رسم حيواناته على مزاجه وحسب رغبته، ولكنَّه سيتوقَّف ويضعها جانبًا حالما أدخل، ولم أنزعج كثيرًا من ذلك. الحقيقة أنَّ ذلك أراحني من عدَّة وجوه. إنَّ حملقة تلك الحيوانات في وجهينا عندما نجتمع سويًا كان يسبِّب لنا مزيدًا من الارتباك.

لكن كانت هناك تغيُّرات أخرى واجهت معها بعض المتاعب. لا يعني ذلك أنَّنا لم نقضِ أوقاتًا طيّبة في غرفته. كنَّا نمارس الجنس بين الفينة والفينة. لكنَّني بدأت ألاحظ أنَّ تومي كان يميل إلى التماهي مع مانحين آخرين في المركز. فإذا كنَّا، على سبيل المثال، نسترجع ذكرياتنا عن مجموعة هيلشام القديمة، فإنَّه، إن عاجلًا أو آجلًا، سيتحوَّل إلى الحديث عن أحد أصدقائه المانحين الحاليّين ممَّن قال أو ربَّما فعل شيئًا مشابهًا لما كنَّا نتحدَّث عنه. في إحدى المرَّات بصورة خاصَّة، قدت سيَّارتي ودخلت كنغزفيلد بعد رحلة طويلة وترجَّلت من السيَّارة، وكان الميدان قريب الشبه بما كان عليه عندما زرت المركز مع رُوث يوم ذهبنا لرؤية الزورق. كان يومًا خريفيًا ملبَّدًا بالغيوم عند الظهيرة، ولم يكن في المكان غيرنا نحن ومجموعة من المانحين تجمَّعوا تحت السقف في المبنى الترفيهي. شاهدت تومي معهم- كان يقف مستندًا إلى أحد الأعمدة- يصغي لحديث أحد المانحين الذي كان يقرفص على درجات السلَّم في المدخل. تقدَّمت نحوهم قليلًا، ثمَّ توقَّفت وانتظرت هناك في الهواء الطلق تحت السماء الرمادية. ومع أنَّ تومي رآني، إلَّا أنَّه واصل الاستماع إلى صديقه، وبعدئذ أخذ هو وجميع الآخرين بالقهقهة والضحك. حتى في تلك اللحظة، واصل الاستماع والابتسام. وقد زعم لاحقًا أنَّه أشار لي كي أتوجَّه نحوه، لكنَّه لو فعل ذلك، لكان من واجبه أن يكون أكثر وضوحًا. كل ما أذكره أنَّه كان يبتسم ابتسامة مبهمة وهو ينظر باتجاهي، ثمَّ يعاود الاستماع إلى ما يقوله صديقه. حسنًا، لقد كان مشغولًا بشيء ما، وبعد دقيقة أو نحوها، جاء وذهبنا معًا إلى غرفته. إلَّا أنَّ الوضع كان مختلفًا عمَّا ينبغي أن يكون عليه. لم يقتصر الأمر على أنَّه تركني أنتظر في الميدان، فإنني كنت سأتساهل في ذلك. لكن السبب الحقيقي هو شعوري للمرةَّ الأولى، ذلك اليوم أنَّه كان يحسُّ بالسخط لأنَّه اضطرَّ للمجيء معي، وعندما دخلنا غرفته، لم يكن الجوُّ بيننا على ما يرام.

يقتضي الإنصاف الاعتراف بأنَّني أتحمَّل معه جانبًا من المسؤولية عن ذلك كلِّه. فعندما كنت واقفة هناك أراقبهم وهم يتحدَّثون ويضحكون، شعرت بغصَّة غير متوقَّعة: فالطريقة التي اصطفَّ بها هؤلاء المانحون على شكل هلال، والأسلوب الذي يعرضون به أنفسهم، يتعمَّدون أن يظهروا مرتاحين بصورة مدروسة، سواء كانوا واقفين أم جالسين، وكأنَّهم يوشكون على إبلاغ العالم كم كانوا يستمتعون باجتماعهم معًا. فقد ذكَّرني ذلك بطريقة جلوس عصابتنا حول السرادق الخاصِّ

بنا. هذه المقارنة، كما أسلفت، أثارت مشاعري. لهذا السبب، فإنني عندما دخلنا غرفته، كنت أحس بالسخط كذلك، ولكن في الاتِّجاه المعاكس.

كنت أحسُّ بوخزة الغضب تلك عندما كان يقول لي إنَّني لم أفهم هذا الشيء أو ذلك لأنني لم أكن مانحة آنذاك. باستثناء حالة معيَّنة واحدة سآتي على ذكرها بعد قليل، فإنَّني لم أكن أعير تلك الأمور أيَّة أهمِّية. فقد كان في العادة يقول مثل هذه الأشياء على سبيل المزاح، وبما يشبه الشغف. بل إنَّ الوضع لم يبلغ حدَّ الخصام بيننا، حتَّى في الأوقات التي تتعسَّر فيها الأمور، كما حدث يوم طلب منِّي التوقُّف عن إرسال ثيابه الوسخة إلى الغسيل، لأنَّه سيرسلها بنفسه. فقد سألته يومذاك:

«ما الفرق بين أن تقوم أنت أو أنا بإرسال المناشف للغسيل؟ سأذهب إلى تلك الوجهة على كلِّ حال».

هزَّ رأسه وقال: «لا بأس يا كاث. سأسوِّي أموري بنفسي. كنت ستعرفين الفرق لو كنت مانحة».

حسنًا، أزعجتني هذه العبارة، لكنَّني تجاهلت الأمر وتساهلت فيه. لكن كما أسلفت، ما أغاظني كلَّ الغيظ آنذاك هو إشارته إلى أنَّني لم أكن مانحة.

حدث ذلك بعد أسبوع من إشعاره بموعد تبرُّعه الرابع. كنَّا نتوقَّع ذلك، وناقشناه بصورة مطوَّلة. الواقع أنَّنا تطرَّقنا وقتذاك إلى أكثر الأمور حميميَّة منذ رحلتنا إلى ليتل-هامبتون خلال حديثنا عن التبرُّع الرابع. كنت أعلم أنَّ ردود فعل المانحين على التبرُّع الرابع تتفاوت إلى حدٍّ بعيد. فبعضهم يريد الحديث عنها طول الوقت حديثًا لا نهاية له ولا جدوى منه. ويكتفي آخرون بالنكات والمزاح حول الموضوع، بينما يرفض بعضهم المناقشة إطلاقًا. هناك أيضًا ذلك النزوع الغريب لدى بعض المانحين إلى اعتبار التبرُّع الرابع مناسبة تستحقُّ التهنئة. ذلك أنَّ مانح «الرابع»، وإن لم يكن محبوبًا حتَّى تلك اللحظة، يحظى باحترام خاصٍّ. بل إنَّ الأطبَّاء والممرِّضين يبالغون في التعبير عن مشاعرهم. فمانح الرابع ستُجرى له عدَّة فحوص ثمَّ تستقبله المعاطف البيضاء والابتسامات والمصافحات. حسنًا، لقد تحدَّثنا، تومي وأنا عن ذلك كلِّه، على سبيل المزاح أحيانًا، وبشكل جدِّي ومتأنٍّ أحيانًا أخرى. ناقشنا جميع الطرق التي يحاول الناس معالجة الأمر بها، وأيَّ الوسائل أجدى من غيرها. ذات يوم، كنَّا نستلقي على السرير قبل حلول الظلام، قال:

«هل تعلمين السبب يا كاث، السبب في أنَّ الجميع ينتابهم القلق من التبرُّع الرابع؟ السبب هو أنَّهم ليسوا متأكِّدين من أنَّهم سيستكملون، لكان الأمر أسهل لو عرفوا. لكنَّهم لا يطلعوننا على ذلك بالتأكيد».

تساءلت فترة من الزمن عمَّا إذا كان ذلك الموضوع سيُطرح للنقاش، وفكَّرت في الطريقة التي سأردُّ فيها. لكن عندما أثير هذا الأمر، لم أجد ما أقوله. فاكتفيت بالقول: «هذا هراء محض يا تومي. مجرَّد كلام فارغ لا معنى له. بل إنَّه لا يستحقُّ النظر فيه».

غير أنَّ تومي كان يعرف أنَّه ليس لدي ما أثبت به هذا الرأي. كان يعرف كذلك أنَّه يثير أسئلة لا يعرف الإجابة المحدَّدة عنها حتَّى الأطبَّاء. ربَّما كنت تسمع الكلام نفسه. وستعرف أنَّك بعد التبرُّع الرابع، وحتَّى بعد أن تكون قد استكملت، من الناحية الفنِّية، فإنَّك ستظلُّ واعيًا بأكثر من ناحية؛ وستدرك وقتذاك أنَّ هناك مزيدًا من التبرُّعات، كثيرًا من التبرُّعات، على الجانب الآخر من ذلك الخطِّ؛ وأنَّه لم يعد هناك مراكز للاستشفاء والتعافي، أو مرشدون، أو أصدقاء؛ وأنَّه لن يكون لديك ما تفعله إلَّا أن تتابع ما تبقَّى من تبرُّعاتك إلى أن يطفؤوك. إنَّها من المشاهد المرعبة التي لا تراها إلَّا في الأفلام، وأكثر الناس لا يستطيعون في أغلب الأحيان التفكير بها. لا المعاطف البيضاء، ولا

المرشدون- ولا المانحون في العادة. لكن أحد المانحين قد يثير الأمر، بين الفينة والفينة، كما فعل تومي في تلك الأمسية. أتمنَّى الآن لو أنَّنا تحدَّثنا عنه آنذاك، فبعد أن وصفت الأمر بأنَّه مجرَّد هراء، انسحبنا من ذلك الركن تمامًا. مع ذلك، عرفت على الأقل أنَّ ذلك الموضوع كان يشغل أفكار تومي، وسعدت بأنَّه وثق بي إلى هذا الحدِّ على الأقل. ما أريد قوله هو أنَّني تصوَّرت أنَّنا نتعامل مع التبرُّع الرابع بطريقة مناسبة معًا، لهذا السبب فإنَّني أُصبت بصدمة جرَّاء ما صدر عنه في ذلك اليوم عندما كنَّا نتجوَّل حول الحقل.

***

لا يحتوي كنغزفيلد على كثير من المرافق. فالميدان هو نقطة التجمُّع المعهودة، والمساحات القليلة الواقعة بعد البنايات تبدو كالأرض اليباب. أمَّا الجانب الأكبر، الذي يُطلق عليه المانحون صفة «الحقل»، فهو بقعة مستطيلة من الأرض المغطَّاة بالطحالب والأشواك المسيَّجة بشبكة من الأسلاك. كان الحديث يدور دائمًا حول تحويلها إلى متنزَّه للمانحين، لكنَّهم لم ينفِّذوا المشروع حتَّى الآن. ربَّما لن تكون هادئة تمامًا لو فعلوا بسبب الشارع العريض المجاور لها. مهما يكن من أمر، فعندما يغلب القلق على المانحين، ويرغبون في الترويح عن أنفسهم، يتوجَّهون إلى ذاك الموقع حتَّى وإن لسعتهم الحشرات وجرحتهم أشواك شجر العلَّيق. في صباح ذلك اليوم الذي أتحدَّث عنه، كان الجوُّ ملبَّدًا بالضباب، وكنت أعرف أنَّ الحقل ستغمره المياه، لكنَّ تومي أصرَّ على أن نتمشَّى هناك. لم يكن من المفاجئ أنَّنا كنَّا وحدنا هناك- من المحتمل أنَّ ذلك راق لتومي. بعد أن سرنا خبط عشواء عبر الشجيرات لعدَّة دقائق، توقَّف خلف السياج، وحدَّق إلى الضباب المخيِّم على الجانب الآخر. ثمَّ قال:

«كاث، لا أريد منك أن تسيئي فهمي. لكنَّني فكَّرت طويلًا في هذه المسألة. كاث، أعتقد أنَّ عليَّ الحصول على مرشد مختلف».

خلال الثواني القليلة التي تلت ذلك، أدركت أنَّني لم أفجأ بذلك على الإطلاق؛ وأنَّني كنت انتظر ذلك على نحو غريب. بيد أنَّني كنت غاضبة على أيِّ حال، ولم أتفوَّه بكلمة واحدة.

«الأمر لا يعود إلى أنَّ التبرُّع الرابع قادم»، استطرد قائلًا. «الأمر لا يعود إلى ذلك، السبب هو ما حدث في الأسبوع الماضي. عندما عانيت من الكليتين. سيكون هناك المزيد من تلك المتاعب».

«لهذا السبب جئت ووجدتك»، قلت. «لهذا السبب بالضبط جئت لأساعدك. لكي تجتاز المصاعب التي ستبدأ هذه الأيَّام. كما أنَّ ذلك هو ما أرادته رُوث».

«كانت رُوث تريد لنا الشيء الآخر»، قال تومي. «لم ترغب بالضرورة أن تكوني مرشدتي خلال المرحلة الأخيرة».

«تومي»، قلت، وأظنُّ أنَّني كنت في تلك اللحظة أتميَّز غيظًا، لكنَّني تماسكت وخفضت صوتي، «أنا الشخص الذي سيساعدك. لهذا جئت ووجدتك ثانية».

«رُوث كانت تريد لنا الشيء الآخر»، كرَّر تومي. «هذا كلُّه شيء مختلف. كاث، إنَّني لا أريد أن أبدو بهذه الهيئة أمامك».

كان يحني رأسه وينظر إلى الأرض، بينما إحدى راحتيه تضغط على سياج الأسلاك الشبكية، ولبضع لحظات، بدا وكأنَّه يستمع بانتباه وتركيز إلى أصوات السيَّارات بعد الضباب. عندئذ قال وهو يهزُّ رأسه برفق:

«كانت رُوث ستفهم الوضع. كانت مانحة، وبوسعها أن تفهم. لا أعني بذلك أنَّها كانت ستريد الشيء نفسه لنفسها. لو تمكَّنت يومذاك لتمنَّت أن تكوني أنتِ مرشدتها حتَّى اللحظة الأخيرة. كانت

ستفهم الوضع، وتدرك أنَّني كنت سأتصرَّف بطريقة مختلفة. كاث، إنَّ بعض الأمور تفوتك أحيانًا، لا تلاحظينها لأنَّك لست مانحة».
حين تفوَّه بهذه العبارة، استدرت وابتعدت عنه. كما ألمحت، فإنَّني مهيَّأة تقريبًا لسماع تلك النقطة عن عدم رغبته في استمرار مهمَّاتي كمرشدة له. لكن ما آلمني كلَّ الألم يومذاك، وبعد أن حدثت كلُّ تلك الأمور الصغيرة، عندما تركني واقفة وحدي في الميدان، هو ما قاله في تلك اللحظة، فوضع به مرَّة أخرى فاصلًا لا بيني وبين جميع المانحين الآخرين فحسب، بل كذلك بيني وبينه هو ورُوث.
غير أنَّ ذلك لم يُفضِ مرَّة أخرى إلى خصومة شديدة بيننا. فما إن ابتعدت عنه، حتَّى وجدتني أعود مرَّة أخرى إلى غرفته، ولحق بي بعد عدَّة دقائق. عندئذ استعدت رباطة جأشي، مثلما تماسك هو، وأصبح بوسعنا أن نتحدَّث عن الموضوع بصورة أفضل. كان الأمر صعبًا بعض الشيء، لكنَّنا تصالحنا، بل تطرَّقنا إلى بعض التفاصيل العملية لاستبدال المرشدين. بينما كنَّا نجلس في النور الخافت جنبًا إلى جنب على حافَّة سريره، قال لي:
«لا أريد أن نتشاجر مرَّة أخرى يا كاث. لكنَّني فكَّرت طويلًا في أن أسألك هذا السؤال: ألم تتعبي من أداء مهمَّاتك كمرشدة. جميعنا أصبحنا مانحين منذ زمن بعيد، وأنتِ مرشدة منذ سنوات. ألا تتمنَّين أحيانًا يا كاث أن يبادروا إلى إبلاغك بانتهاء خدماتك؟».
هززت كتفي. «لا بأس في ذلك. على كلِّ حال، فمن المهمِّ وجود مرشدين صالحين، وأنا مرشدة صالحة».
«لكن هل الأمر مهمٌّ إلى هذا الحدِّ؟ من الجميل أن يكون هناك مرشد صالح. لكن هل ذلك مهمٌّ آخر الأمر؟ فالمانحون سيواصلون المنح في جميع الحالات، وبعدئذ سيكتملون أجمعين».
«ذلك مهمٌّ بالطبع. إنَّ المرشد الجيِّد سيغيِّر الكثير بالفعل من حياة المانح».
«لكن كلَّ هذه المتابعات التي تقومين بها من مكان إلى آخر، كل هذا الإنهاك الذي تعانينه، والوحشة التي تعيشينها. إنَّني أراقبك منذ زمن. هذه المهمَّة تجلب لك الإعياء والتعب. عليك أن تتصرَّفي يا كاث، وعليك أحيانًا أن تتمنِّي أن يطالبوك بأن تتوقَّفي. أنا لا أعلم لماذا لا تتحدَّثين معهم وتسأليهم لماذا استمرَّت خدمتك طوال هذه المدَّة». عندما التزمت الصمت أضاف: «ما عليَّ إلَّا أن أقول لك ذلك. هذا كل ما في الأمر. ينبغي ألَّا نتشاجر مرَّة أخرى».
وضعت رأسي على كتفه وقلت: «بلى، حسنًا. ربَّما لن تطول الأمور هذه المرَّة على أيِّ حال. لكن عليَّ أن أواصل مهمَّتي في هذه الآونة. إذا لم تكن تريدني معك، فثمَّة آخرون يريدونني».
«أعتقد أنَّك محقَّة يا كاث. أنت مرشدة جيِّدة **بالفعل**. وستكونين مرشدة كاملة الأوصاف لي حتَّى لو لم تكوني أنتِ أنتِ». أطلق ضحكة خفيفة وطوَّقني بإحدى ذراعيه، مع أنَّنا كنَّا نجلس جنبًا إلى جنب. ثمَّ قال: «ما زلت أفكِّر في ذاك النهر، في مكان ما. نهر سريع الجريان. وفي هذين الشخصين وسط الماء، يحاول كلٌّ منهما التشبُّث بالآخر، ويبذلان قصارى الجهد، لكنَّ الوضع في غاية الصعوبة. التيَّار قويٌّ. على أحدهما أن يتخلَّى عن الآخر ويتباعدا. يخيَّل لي أنَّ ذلك هو وضعنا نحن، وذلك أمر مخجل يا كاث، لأنَّنا كنَّا متحابَّين طوال العمر. لكنَّنا في نهاية المطاف لا يمكن أن نبقى معًا إلى الأبد».
عندما تفوَّه بذلك، تذكَّرت كيف تشبَّثت به تلك الليلة في الحقل الذي كانت تعصف به الريح في طريق عودتنا من ليتل-هامبتون. لا أعرف إن كان ذلك ما خطر بباله، أو أنَّه ما زال يفكِّر بأنهاره وبالتيَّارات الشديدة. أيًّا كان الأمر، فقد واصلنا الجلوس هكذا على حافَّة السرير مدَّة طويلة وقد

تجاذبتنا الأفكار. أخيرًا قلت له:
«أنا آسفة لأنَّني غضبت عليك قبل قليل. سأتحدَّث معهم. سأحاول أن أضمن لك مرشدًا ممتازًا».
«أمر مخجل يا كاث»، قال مرَّة أخرى. لا أعتقد أنَّنا تحدَّثنا عن هذا الموضوع مجدَّدًا في ذلك الصباح.

***

أتذكَّر الأسابيع القليلة التي أعقبت ذلك- الأسابيع الأخيرة، قبل أن يبدأ المرشد الجديد عمله- كانت فترة هادئة إلى حدٍّ مدهش. ربَّما كنَّا نحرص على أن نكون لطيفين، أحدنا مع الآخر، ولكن الزمن كان يمرُّ بنا من دون أن يعكِّر صفونا شيء، يمكنك أن تتصوَّر أنَّنا كنَّا في أجواء غير واقعية، لكن ذلك لم يكن أمرًا غريبًا في تلك الأيَّام، فقد كنت منشغلة يومذاك بمانحَيْن آخرَيْن في نورث ويلز، ما أبعدني عن أجواء كنغزفيلد أكثر ممَّا أردت، لكنَّني رتَّبت أموري بحيث أقوم بثلاث زيارات أو أربع كلَّ أسبوع. ازدادت برودة الجوّ، لكنَّه ظلَّ جافًّا ومشمسًا في أكثر الأحيان، قضينا ساعات في غرفته، وكنَّا أحيانًا نمارس الجنس، أو نتسامر في أغلب الأحيان، أو كنت أقرأ وتومي يستمع. بل إنَّ تومي أخرج دفتر ملاحظاته مرَّة أو مرَّتين، كأنَّه يبحث عن أفكار جديدة حول الحيوانات، بينما واصلت المطالعة في السرير.
ثم زرته ذات يوم الزيارة الأخيرة. وصلت في الساعة الواحدة بعد الظهر في ذلك اليوم البارد من كانون الأوَّل/ديسمبر وأنا أتوقَّع، على نحو ما، بعض التغيُّر- الذي لم أستطع تحديده. ربَّما اعتقدت أنَّه قد أضاف إلى غرفته بعض الزخارف أو ما إلى ذلك. لكن كلَّ شيء كان، بالطبع عاديًا من دون تغيير، وشعرت بالارتياح لذلك. لم يكن تومي مختلفًا عمَّا كان عليه، لكن عندما بدأنا الحديث، كان من الصعب التظاهر بأنَّ تلك الزيارة كانت كمثيلاتها. كنَّا قد تناقشنا كثيرًا في الأسابيع الفائتة إلى حدٍّ بدا معه أنَّه لم يكن لدينا ما **ننجزه** بالتحديد هذه المرَّة. بدا علينا التردُّد في أن نبدأ محادثة سنأسف لاحقًا لأنَّنا لم نختتمها بشكل مناسب. لهذا السبب، فإنَّ حديثنا كان خاليًا من أيِّ مضمون في ذلك اليوم.
لكن بعد أن تجوَّلت في غرفته على غير هدى، سألته:
«تومي، هل تحسُّ بالسعادة لأنَّ رُوث قد استكملت قبل أن تعرف بكلِّ ما فعلناه آخر الأمر؟».
كان مستلقيًا على السرير، فتابع التحديق إلى السقف لبعض الوقت قبل أن يقول: «غريب، لأنَّني كنت أفكِّر في الشيء نفسه قبل أيَّام. ما يجدر تذكُّره عن رُوث، في معرض الحديث عن مواضيع من هذا النوع، هو أنَّها كانت مهتمَّة بأمرنا على الدوام. أنت وأنا، منذ البداية، حتى عندما كنَّا صغارًا، وكنَّا نحاول اكتشاف الأشياء. هل تذكرين يا كاث تلك الأحاديث السرّية التي كنَّا نتبادلها؟ لكنَّ رُوث لم تكن مثلنا. لقد كانت تريد دائمًا أن تؤمن ببعض الأمور. نعم، هكذا كانت رُوث، أعتقد أنَّ ما حدث كان الأفضل». ثمَّ أضاف: «بطبيعة الحال، ما وجدناه، مثل الآنسة إيميلي وكلِّ تلك الأمور، لا يغيِّر شيئًا بالنسبة لرُوث. لقد كانت تريد الأفضل لنا آخر الأمر. كانت تريد الأفضل لنا».
لم أكن أريد الانخراط في حديث مطوَّل عن رُوث في تلك المرحلة، فوافقته على ما قال. لكن الآن، وقد امتلكت متَّسعًا من الوقت للتفكير في الأمر، لست متأكِّدة من طبيعة مشاعري. إنَّ جانبًا منِّي كان يرغب في إشراك رُوث معنا في كلِّ ما اكتشفناه. جميل. ربَّما كان ذلك سيدفعها إلى الغضب، أو إلى الشعور بأنَّه كان من الممكن إصلاح الضرر الذي ألحقته بنا بأسهل طريقة تراها. بصراحة، فإنَّ جانبًا صغيرًا آخر منِّي كان يتمنَّى أن تعلم بالأمر كلِّه قبل أن «تستكمل». لكن أعتقد

أنَّه كان يتعلَّق بشيء آخر، شيء أكبر بكثير من رغبتي في الانتقام أو الإيذاء. لأنَّها، كما قال تومي، كانت تريد الأفضل لنا في النهاية، ومع أنَّها قالت في السيَّارة في ذلك اليوم إنَّني لن أغفر لها، فقد أخطأت الظنَّ، إنَّني لست غاضبة منها الآن. عندما أقول إنَّني أتمنَّى أن تكون قد عرفت القصَّة بأكملها، فإنَّ ذلك يعود إلى حزني لأنَّ مشاعرها تغيَّرت بالنسبة لنا، تومي وأنا. وبالتالي يبدو أنَّ ثمَّة خطًّا فاصلًا بيننا، نحن هنا، وهي على الجانب الآخر. عندما ينتهي كلُّ ذلك، سأحسُّ بالحزن، وأعتقد أنَّها ستحسُّ مثلي أيضًا لو عرفت بالأمر.

لم أنظِّم مع تومي مهرجانًا وداعيًا حافلًا في ذلك اليوم. عندما أزفت الساعة، نزل السلَّم معي، وهذا ما لم يكن يفعله في العادة، عبرنا الميدان معًا باتِّجاه السيَّارة. في ذلك الوقت من السنة، كانت الشمس تغرب وراء المباني. وكانت هناك عدَّة أشكال شاحبة اللون تستظلُّ كالعادة بسقيفة أحد المباني، لكنَّ الميدان نفسه كان خاليًا. التزم تومي الصمت ونحن في طريقنا إلى السيَّارة. عندئذ ضحك ضحكة خفيفة، وقال:

«تعلمين يا كاث، عندما كنت ألعب كرة القدم ونحن في هيلشام، كنت أحتفظ بأحد الأسرار. فعندما كنت أسجِّل هدفًا ما، كنت أستدير هكذا»، ورفع ذراعيه إلى الأعلى إشارة للفوز، «ثمَّ أركض نحو زملائي. لا يجنُّ جنوني بل أركض مرفوع الذراعين على هذا النحو». تريَّث فترة، وما زالت ذراعاه مرتفعتين. ثمَّ أنزلهما وتبسَّم. «عندما كنت أركض عائدًا، كنت أتخيَّل أنَّني كنت أطرطش الماء. لم يكن عميقًا، بل كان في أعلى مستوياته عند الكاحلين. هذا ما كنت أتصوَّره كلَّ مرَّة. طرطشة، ثمَّ طرطشة، ثمَّ المزيد من الطرطشة». رفع ذراعيه مجدَّدًا. «كان شعورًا جميلًا. لقد سجَّلت الهدف واستدرت، وبعدئذ طرطشة، ثمَّ طرطشة، ثمَّ طرطشة». نظر إليَّ وأطلق ضحكة خفيفة أخرى. «في جميع الأوقات. لم أخبر أحدًا بذلك على الإطلاق حتَّى اليوم».

ضحكت كذلك، وقلت: «أنت ولد عفريت يا تومي».

تبادلنا قبلة واحدة- قبلة صغيرة- ثمَّ صعدت إلى السيَّارة. بقي تومي واقفًا هناك عندما انعطفت. وحين انطلقت السيَّارة، ابتسم ولوَّح لي. شاهدته في المرآة. ظلَّ واقفًا هناك حتَّى اللحظة الأخيرة. في آخر الأمر رأيته يرفع يده بصورة غامضة، ويعود أدراجه إلى السقيفة العالية، ثمَّ اختفى الميدان في المرآة.

***

كنت قبل عدَّة أيَّام أتحدَّث مع أحد المانحين الذين أتعامل معهم، وكان يشكو من أن الذكريات، حتَّى تلك الأثيرة إلى نفسك تنحسر بسرعة، لكنَّني لا أتَّفق معه في ذلك. فالذكريات العزيزة عندي لا تخبو أبدًا. لقد فقدت رُوث، ثمَّ تومي، لكنَّني لن أفقد ذكرياتي عنهما.

أعتقد أنَّني فقدت هيلشام كذلك. ما زلت حتى الآن تسمع قصصًا عن تلاميذ سابقين كانوا في هيلشام وهم يبحثون عنها الآن، أو يحاولون على الأقل العثور على البقعة التي كانت فيها. وقد انتشرت أحيانًا شائعات غريبة عمَّا آلت إليه هيلشام هذه الأيَّام- فندق، مدرسة، أم مجرَّد أطلال. أمَّا أنا، ورغم تجوُّلي بالسيَّارة، لم أحاول العثور عليها على الإطلاق. فأنا غير معنيَّة برؤيتها بالفعل، بصرف النظر عمَّا أصبحت عليه الآن.

لكن عليَّ أن أضيف أنَّه رغم قولي إنَّني لن أبحث عن هيلشام أبدًا، فإنني عندما أتجوَّل بسيَّارتي، أتخيَّل أحيانًا بشكل مفاجئ أنَّني قد لمحت جانبًا منها. فأرى سرادقًا للرياضة في البعيد، وأعرف أنَّه هو الذي كنَّا نلجأ إليه. أو ربَّما أرى صفًّا من أشجار السنديان في الأفق إلى جانب شجرة بلوط كثيفة ضخمة، فأعلم، لعدَّة ثوان، علم اليقين أنَّني اقتربت من الملعب الجنوبي من الجانب الآخر.

ذات صباح مكفهرّ، وعلى طريق طويل في غلوسسترشير، مررت بسيَّارة معطّلة في بقعة جانبية، كنت متأكِّدة من أنَّ الفتاة التي تقف إلى جانبها وتحدِّق بنظرة فارغة في العربات القادمة كانت سوزانا س. التي كانت أقدم منَّا بسنتين، وعملت مراقبة للمبيعات. هذه اللحظات تدهمني في الأوقات التي لا أتوقَّعها فيها، أو عندما أقود سيَّارتي وأنا أفكِّر في شيء آخر مختلف تمامًا. وهكذا ربَّما كنت، بمعنى من المعاني، **أبحث** عن هيلشام.

لكنَّني، كما أسلفت، لا أبحث عنها، وبما أنَّني سأتوقَّف عن القيادة مع نهاية هذا العام، فإنَّني لن أتجوَّل بسيَّارتي في شتَّى أنحاء البلاد، وبالتالي من المستبعد تمامًا أن أراها أو أمرَّ بها. عندما أفكِّر في الأمر، أشعر بالسعادة لأنَّ الأمور ستكون على هذه الحال. لقد غدت أشبه بذكرياتي مع تومي ورُوث. عندما أبدأ حياة جديدة أكثر هدوءًا واستقرارًا، وبصرف النظر عن المركز الذي سيرسلونني إليه، ستبقى هيلشام معي، في أعماق نفسي، وستبقى شيئًا لا يستطيع أحد أن ينتزعه منِّي.

الشيء الوحيد الذي سمحت به لنفسي مرَّة واحدة كان بعد أسبوعين من سماعي بأنَّ تومي قد استكمل، إذ توجَّهت بالسيَّارة إلى نورفولك، مع أنَّني لم أكن بالفعل بحاجة لذلك. لم أكن أسعى إلى أيِّ شيء بصفة خاصَّة، ولم أبتعد عن الساحل، ربَّما كنت أحسُّ بالرغبة في النظر إلى تلك الحقول المنبسطة العارية والسماء الرمادية الواسعة. في لحظة ما، وجدت نفسي على طريق لم أكن قد سلكتها من قبل. لمدَّة نصف ساعة أو نحوها، لم أكن أعرف أين أنا، ولم آبهْ لذلك.

تجاوزت تلك الحقول المنبسطة القاحلة، واحدًا بعد الآخر، لا ألمس فيها أيَّ تغيُّر إلَّا عندما يهبُّ سرب من الطيور أحيانًا، ويندفع محلِّقًا من أحد الأخاديد بسبب صوت محرِّك السيَّارة. أخيرًا لمحت في البعيد عددًا قليلًا من الأشجار على مقربة من جانب الطريق، فتوجَّهت نحوها، وأوقفت السيَّارة، وترجَّلت منها.

وجدت نفسي واقفة قبالة أرض واسعة محرُوثة. كان هناك سور مسيَّج من الأسلاك الشائكة يمنعني من دخول الحقل. أدركت أنَّ هذا السور وتلك الأشجار الثلاث أو الأربع في البقعة العلوية هي التي تصدُّ الريح على مدى عدَّة أميال. شاهدت على امتداد السياج، تحديدًا عند الجزء السفلي من الأسلاك، أكوامًا من النفايات المتشابكة المتراكمة، وبدت أشبه بالركام الذي تشاهده على الشطآن: لا بدَّ من أنَّ الريح قد جرفته أميالًا عديدة قبل أن تصدَّه تلك الأشجار وهذان السياجان من الأسلاك الشائكة. بين أغصان الأشجار المتشابكة، كانت ترفرف قصاصات من العُلب البلاستيكية الممزَّقة والأكياس البالية. كانت تلك هي المرَّة الأولى التي أقف فيها هناك، وأمام ناظريَّ تلك الأكوام من النفايات الغريبة، وأشعر بالريح التي كانت تهبُّ على تلك الحقول الخالية. أخذت أتأمَّل هذا المشهد الخيالي القصير. فهذه، على أيِّ حال، هي نورفولك. وقد مضى أسبوعان فحسب على فراقه. أمعنت النظر إلى تلك النفايات والقصاصات البلاستيكية العالقة بين الأغصان وتلك الأنقاض وسقط المتاع الموازية للسياج على طول الشاطئ. أغمضت عينيَّ، وتصوَّرت أنَّ تلك هي البقعة التي ضاع فيها كلُّ ما فقدته منذ طفولتي، وها أنا أقف أمامه الآن. لو طال انتظاري هنا، فسوف يتجلَّى في الأفق عبر الحقل شكل صغير لا ينِي يتعاظم تدريجيًا إلى أن أتبيَّن فيه تومي نفسه. سوف يلوِّح لي، وقد يناديني. لم يذهب هذا المشهد المتخيَّل إلى أبعد من ذلك- ولم أسمح له بذلك. مع أنَّ عينيَّ اغرورقتا بالدموع التي سالت على وجهي، فإنَّني لم أبكِ ولم أفقد سيطرتي على أعصابي. تريَّثت قليلًا، ثمَّ انثنيت عائدة إلى السيَّارة، وانطلقت إلى المكان الذي كان من المفترض أن أكون فيه.

المترجم فايز الصيّـاغ

أكاديمي وباحث أردني في ميدان التنمية الاقتصادية والاجتماعية. شاعر ومترجم وزميل أوَّل في مركز الدراسات الاستراتيجية في الجامعة الأردنية، ومستشار ومحرِّر ومترجم لتقارير «التنمية الإنسانية العربية» السنوية وتقارير «المعرفة العربية» السنوية الصادرة عن برنامج الأمم المتحدة الإنمائي الأمم المتحدة. وهو المدير التنفيذي لــ«مؤسسة ترجمان». ترجم عددًا من المؤلَّفات المَعْلَمية التي نال على بعضها جوائز دولية مرموقة في مجال العلوم الاجتماعية والإنسانيات. نشر نحو عشرين عملًا- بين موضوع ومترجم- بالعربية والإنجليزية في المجالات الاجتماعية والثقافية، علاوة على الدراسات والبحوث في المجلات الأكاديمية والمحكَّمة.